

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
رئاسة الجمهورية
المجلس الأعلى للغة العربية



الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي

أعمال اليوم الدراسي



منشورات المجلس 2018

الْجُمْهُورِيَّةُ الْجَزَائِرِيَّةُ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةُ الشَّعْبِيَّةُ
رِئَاسَةُ الْجُمْهُورِيَّةِ
الْمَجْلِسُ الرَّؤُوسِيُّ لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ



الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي

أعمال اليوم الدراسي

منشورات المجلس 2018

كتاب: الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي

• قياس الصفحة: 23/15.5

• عدد الصفحات: 448

الإيداع القانوني: السادس الثاني 2018

ISBN: 978-9931-681-19-9

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرانكلين روزفلت - الجزائر

ص. ب: 575 الجزائر _ ديدوش موراد

الهاتف: 021.23.07.24/25

الفاكس: 021.23.07.07

النشيد الوطني

كلمة السيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية استراحة

الجلسة العلمية الأولى 10:00- 11:00			
الرئيس: أ. د. أحمد عزّوز			
المؤسسة	عنوان المداخلة	المحاضر	التوقيت
10:00-10:15	أ.د. محمد داود	التعدد اللغوي والثقافي في الجزائر: واقع ورهانات.	جامعة وهران
10:15-10:30	د.سمير أبيض	دور اللغة القومية في بناء وتشكيل الوحدة الوطنية (تجربة المجتمعات الأوروبية نموذجاً)	جامعة بجبل
10:30-10:45	أ.وسام بو فح	الأمن الثقافي واللغوي كدعامة لتعزيز الانسجام الجمعي وترسيخ الوحدة الوطنية في ظل التعددية اللغوية في الجزائر	جامعة بسكرة
10:45-11:00	د.محمد بن شماتي	تطوير العربية والأمازيغية سبيل إلى الوحدة والأمن اللغويين في الجزائر	ج. غليزان

الجلسة العلمية الثانية: 11:00-12:00			
الرئيس: د. عمارية حاكم			
المؤسسة	عنوان المداخلة	المحاضر	التوقيت
11:00-11:15	أ.د. أحمد عزّوز	الأمن اللغوي وإستراتيجية النهوض باللغة العربية وثقافتها عند الدكتور عبد السلام المسدي-من خلال كتابه "الهوية العربية والأمن اللغوي-".	ج. وهران
11:15-11:30	د. وهيبة جراح	قراءة في مشروع النهوض اللغوي عند صالح بلعيد (مقاربة في الأصول والامتدادات)	ج. ميلة
11:30-11:45	أ.ع. القادر كحلول	العربيزغية أخوة الأرض والعرض وآفاق الوحدة الوطنية	ج. تيارت
11:45-12:00	د. زهور شتّوح	التعايش اللغوي بين الأمازيغية والعربية في الجزائر - منطقة الأوراس نموذجاً-	ج. باتنة

مناقشة عامة: 12:00 - 12:30

الورشة العلمية الأولى: 10:00-12:30

رئيس الورشة: د. صفية بن زينة

مقرّر الورشة: أ. عبد الحفيظ شريف

قائمة اسمية للورشة:

- أ.عاطف عبران - أ. عبدالقادر بغدادي - أ. عزالدين لعناني - أ.وليد
يونسى - أ. عمارة عمروس - أ. أحلام بن عمرة - أ. كلثوم درقاوي.

الورشة العلمية الثانية: 10:00-12:30

الرئيس: د. عائشة عباش؛

المقرّر: د. حسنية عزّاز.

قائمة اسمية للورشة:

- أ. عبدالكريم عبادي، - أ.مكيري مالية، - أ.عمار عثمانى - د. عمارية
حاكم، - أ. مريم قدار - أ. موسى كراد.

الجلسة الختامية

قراءة تقرير الورشة العلمية الأولى

قراءة تقرير الورشة العلمية الثانية

كلمة الاختتام

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
7	كلمة معالي رئيس المجلس الأعلى للغة العربية "الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي"
21	كلمة رئيسة المجلس الوطني لحقوق الإنسان. لسيدة فافا سي لخضر بن زروقي
25	الهوية والتعدد اللغوي والثقافي في الجزائر: واقع ورهانات. الأستاذ محمد داود، جامعة أحمد بن بلة، وهران 1.
43	دور اللغة القومية في بناء وتشكيل الوحدة الوطنية (تجربة المجتمعات الأوروبية نموذجا) الدكتور سمير أبيش جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل
77	تطوير العربية والأمازيغية سبيل إلى الوحدة والأمن اللغويين. الدكتور ابن شماني محمد المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان
101	الأمن اللغوي وإستراتيجية النهوض باللغة العربية وثقافتها عند الدكتور عبد السلام من خلال كتابه "الهوية العربية والأمن اللغوي - دراسة وتوثيق-". أ. د أحمد عزوز جامعة أحمد بن بلة وهران 1.
121	قراءة في مشروع النهوض اللغوي عند صالح بلعيد (مقاربة في الأصول والامتدادات) د/ وهيبة جراح المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة
129	العربيزغية أخوة الأرض والعرض وأفاق الوحدة الوطنية أ. عبد القادر كحلول ، جامعة ابن خلدون، تيارت
149	التعائش اللغوي بين الأمازيغية والعربية في الجزائر، منطقة الأوراس نموذجا د. زهور شتوح جامعة باتنة 1
169	التعدّد اللغوي حلبة صراع أم فضاء للتعايش؟ د. صفية بن زينة جامعة حسبية بن بو علي، شلف
187	موقع المسألة اللغوية في جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين-مقاربة اجتماعية- عبد الحفيظ شريف - جامعة أكلي محند أولحاج، البويرة.
203	الهوية الوطنية...أرضية ومرجعية ثقافية. أ. عاطف عبران. أ. التعليم الثانوي وطالب دكتوراه جامعة الشيخ العربي التبسي، تبسة.
221	الأمن اللغوي ضرورة وطنية . ع. بغدادي
233	الوعي الثقافي بالمنطق الطبيعي وضرورة التدريب عليه لكسب الانسجام الجمعي أ. عز الدين لعناني، جامعة سطيف

247	دور اللغة العربية واللغة الأمازيغية في تحقيق الأمن المجتمعي والوحدة الوطنية أ. وليد يونسى وعمارة عمروس باحثا دكتوراه بالمدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية، الجزائر العاصمة.
263	من تعدد اللسان إلى وحدة الإنسان . أ. أحلام بن عمرة: وزو ب. ج. مولود معمري تيزي
277	أي دور للتعدد اللغوي في تحقيق الأمن الثقافي؟ درقاوي كلتوم المركز الجامعي أحمد زبانة، غليزان
287	دور المثقف في تحقيق الانسجام المجتمعي في ظلّ التحولات الراهنة: دراسة تحليلية في التحديات والرهانات. د. عائشة عياش جامعة الجزائر 3
307	الاستراتيجية الاستباقية من أجل التنمية الثقافية في المجتمع الجزائري د. حسنية عزاز جامعة جيلالي ليايس سيدي بلعباس
321	الدراسات الثقافية العولمة وإعادة بناء - تشكيل - الهوية. أ. عبد الكريم عيادي جامعة محمد الأمين دباغين، سطيف 2
341	التعدد اللغوي عبر وسائل الإعلام الجزائرية ودوره في تعزيز الانسجام الاجتماعي أستاذة مكبري مالية ج. الجيلالي بونعامة، رخميس مليانة
367	دور الصحفي في تحقيق الأمن اللغوي في ظلّ العولمة الثقافية . د. عثمانى عمار المركز الجامعي أحمد زبانة - غليزان
381	آثار التغريب الثقافي واللغوي على المجتمع الجزائري. أستاذة حاكم عمارية مديرة مخبر الترجمة والتأويل جامعة الدكتور مولاي الطاهر - سعيدة
399	التعايش بين العربية والأمازيغية مظهر من مظاهر ثراء لغوي وثقافي طالبة دكتوراه مريم قدار جامعة حسيبة بن بوعلی، الشلف
417	جهود الدكتور صالح بلعيد في تحقيق الأمن اللغوي في الجزائر - قراءة في كتابه "في الأمن اللغوي" د. موسى كراد جامعة عبد الحفيظ بالصوف، ميلة
439	تقرير الورشة الأولى
443	تقرير الورشة العلمية الثانية:

كلمة معالي رئيس المجلس الأعلى للغة العربية الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي

— مقدمة: إن الحديث المتكرّر عن الأمن الثقافي واللغوي، يجب أن لا نضعه في القول المكرور؛ فهو حديث يعرف التجدد حسب آليات كل عصر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لا يقل أهمية عن الأمن الغذائي والعسكري والاقتصادي والبيئي، وسوى ذلك من الحاجات والخصائص والتحسينات التي يحتاجها الإنسان؛ كي يحمي نفسه من الغزو/ الذوبان/ الانسلاخ/ الزوال. والأمن الثقافي واللغوي عمدة الأمان فلا يمكن للأمن الغذائي أو العسكري أو الاقتصادي أو البيئي أن يعم وينشر الرخاء إذا افتقد الأمن الثقافي لما لهما من علاقة مباشرة بالثقافة وباللغة السائدة في المجتمع. فالثقافة هي التي تؤطر البنيات القاعدية لكل تطور منشود، فإذا لم تُحتوى الأفكار في وجهة نظر متقاربة تتعدّد الرؤى، وتكثر الأسلحة؛ لأنّ الأمن الفكري مُتعدّد وغير مُنسجم وقد يُستغلّ في باب نشر الفتن؛ حيث لا يقرّ الإنسان بذلك التعدّد إذا اختلفت الأفكار والتوجهات، ولا يعني ذلك اختلاف المنهجيات، بل يحصل من وراء التضارب اختلاف الهدف الواحد الذي لا تسيطر عليه الأفكار المشتركة، ولذا، فإنّ الأمن الثقافي يسدّ باب الخلاف ويغلق دونه ما ليس من المشترك، وهذا ما يجب أن يُغرس في ثقافة المجتمع من القضايا المشتركة التي تجمعهم ويدافعون عنها بصورة عينية، ويكون من الصغر. وكذا بالنسبة للأمن اللغوي الذي يحصل بلسان المجتمع الجامع، ويكون بلغة التعليم بدءاً من البيت والكتاب والمدرسة؛ وصولاً إلى مراحل مُكمّلة تعضدها وسائل الإعلام، وماله علاقة بالجمعيات الحزبية أو المدنية في إطار المشترك الجامع.

— الأمن في القرآن الكريم وفي العُرف: لقد أكّد القرآن الكريم مسألة الأمن عامّة في مختلف آياته متحدّثاً عن الأمن الشخصي ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ

الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿النساء 83﴾، والأمن المسكني ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿سبأ 15﴾، وأمن البلاد ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْعَلْنِي وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿إبراهيم 35﴾، وأمن الأشخاص ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمَنُّ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿الأنعام 83﴾، وأمن استقرار البلاد ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿النحل 112﴾... لدرجة أن مشتقات لفظة (الأمن) كثيرة جداً، وبخاصة ما يلاحظ على مستوى ألفاظ: المؤمنون + آمن + آمنوا + يؤمنون، وهي ألفاظ ذات دلالات؛ تعني انتظام النشاط الإنساني أو الجمعي الذي كان يجب أن يسود في المجتمع. وبالبحاح تؤكد الآيات على السلم والسلام ونشدان الصلح، المؤدي إلى الهناء والهدوء والاستقرار؛ بغية تعميم الأرض وتجسيد خلافة الله في الأرض وهذا ضمن ثقافة الاختلاف في المنهج، لا الخلاف في القاسم المشترك.

ومن هذا الباب، فإن العُرف أو المتفق عليه -والجماعة لا تتفق على ضلالة- يعمل على المحافظة على الشأن العام؛ بمقتضى الاتفاق الطوعي دون التضراب فيه، مع الاختلاف في المنهج ربّما، وأخطر الظواهر التي تُصيب المجتمعات ظاهرة الخروج عن عُرف المجتمع وثوابته وثقافته، والتضراب في الهدف أو في ما يجمع عليه الناس؛ لدرجة أن الإجماع من أصول الدين، وكل خروج عنه يُعدّ خروجاً عن القاسم المشترك ولذلك نسمع كلمات من مثل (أنا وبعدي الطوفان + تخطي راسي + للكعبة ربّ يحميها + المهمّ تبعد المشكلة عن بيتي + لا رأسمال لي في هذا البلد + اللّغة وسيلة تواصل فقط...) وهذا كلّه يعود إلى غياب دور الفرد

العضوي في السفينة التي يركبها مع الجماعة، وهنا وجوب المحافظة على المكان الخاص لحماية المكان العام، ومثل هذا؛ مثل البيئة التي يجب الاهتمام بثقافتها؛ لأنّ المحافظة على هذا الكون قاسم مشترك في بيئة مشتركة، وكلّ خلل فيها إخلال بالتوازن الكوني المؤدّي إلى عواقب جماعية. وهكذا فالرؤية المشتركة ينتظمها الفكر المشترك، وباب تعدّد الرؤى المتضاربة يفتح الشقوق لعمليات اللأمن، ويحصل كلّ هذا بسبب ضعف عمليات الأمن الثقافي واللغوي. وهنا يلعب الإعلام دوره سلباً أو إيجاباً، فضلاً عن دور القادة السياسيين والنخب الثقافية والمعلّمين فهم المسؤولون عن تنقيح الشوائب التي تعلق بالثقافة؛ لأنّ الثقافة هي الوعاء والبوتقة العليا الصافية والتي تنصهر فيها كلّ قدرات ومعطيات المجتمع، وما يتبعه من قيم ودلالات وبُنى فكرية في مسيرة التطور العلمي والثقافي والتي كان لابدّ لها من هوية أو ناظم يحملها ويوجّهها، وإلا كان التطور بغير أهداف لا معنى له، ولا يخدم رسالة أيّ مجتمع.

تنشطر محدّدات هذه المداخلة إلى ما يلي:

1- الأمن الثقافي: يتكوّن مصطلح الأمن الثقافي من كلمتين ذات معنيين مختلفين هما: الأمن والثقافة؛ فالأمن هو توفير الجوّ الأمن لتداول الحريات التي نمارسها، ودلالته تشير إلى الدفاع وتوفير الحماية المطلوبة. وأما الثقافة فتتضمّن النشاطات المتعدّدة التي ينتجها الفكر في وقت ما وعبر التاريخ. وتبعاً لهذا الربط، فتعدّ الثقافة قوّة لا يُستهان بها في مختلف الشؤون والعلاقات، واللغة غير مفصولة عمّا تحمله من مضامين وتوجّهات وأفكار، وهنا نقول بأنّ الثقافة واللغة وجهان لعملة واحدة، وكلتاها تدخلان في تحديد الأهداف ورسم السياسات وتحديد الأولويات وأسلوب الأداء، ممّا يجعل الوصف الأقرب للثقافة هي الأفكار التي تحمل المضامين، وأنّ اللغة هي الحروف التي ندوّن بها تاريخنا البشري.

لا نريد الحديث عن خصائص الأمن الثقافي من جوانبه الكثيرة، بقدر ما نركّز على ما يلزمنا من إعداد وتنفيذ خطط ثقافية، وسياسات وطنية؛ ترسم برامج

مدرسة ومعالم واضحة لمستقبل ثقافيّ يدفعنا إلى اللحاق بركب الحضارة المعاصرة، بما يتماشى مع واقعنا وتاريخنا وحضارتنا. ورغم أنّ التخطيط من صلاحية الدول، لكن يمكن أن نمُدّ الدولَ العربيّة ببعض ما بصرنا به من آليات تعمل على حسن التدبير، وكذلك يمكننا الإسهام الفكري وتقديم الاستشارة في ما تصدره من تنظيمات وقائية وتشجيعية غايتها الدفاع عن عناصر وخصوصيات هويتنا الثقافية؛ وذلك بما يجاري روح الخصائص المشتركة؛ ببناء ثقافة التّواصل والاكتمال المؤدّية إلى تحقيق الأمن الثقافي العربي على قدم المساواة مع الأمم المتحضّرة، وكسر طوق الحصار التكنولوجي والهيمنة الثقافية، وربّما نصل إلى إنجاز مادي يُخصّص لنا مكاناً محترماً بين أمم العالم، فنضفي لعزّتنا عزّة ولهيبتنا هيبة.

2- الأمن اللّغوي: تبقى كلمة (اللّغوي) والمراد بها اللسان الذي تتلاغى به الجماعة، ونعلم بأنّ للمجتمعات لغّيات عديدة، تقضي بها مصالحها، وهذه عبارة عن وسائل وظيفية تواصلية في غالبها تكون محدودة. وغرضنا في ما نريد الوصول إليه هو الاتّكاء على اللسان الجامع الذي يلغي حواجز الأداءات الضيّقة. وهذا لا يحصل في المجتمعات إلّا بما هو مشترك، وعادة تكون له مواصفات العلمية أو الأدبية أو القدم... وهذا هو المطلوب في أدبياتنا المعاصرة بأنّ المواطنة اللغوية لا تلغي تعدّد الأداءات، ولكن تستهدف التراتب اللغوي بحسب المرجعيّات التي يتوفّر عليها المجتمع، وتكون اللّغة المشتركة صفة لازمة للقاسم المشترك الجامع. وهذه المسألة تؤكّدها أدبيات المجتمعات التي تكون من المشترك التاريخي والحضاري والديني والعلمي. ولا نزيد الوقوف كثيراً في هذه النقطة لأنّ قاسمنا اللساني واضح، وتعود جذوره إلى اختيار السلف للغة ارتضاها بعد ذلك الخلف، وكانت المرجعية المشتركة في مسيرة بلادنا منذ الفتح الإسلامي، ولا يمكن أن يكون الخيار محلّ مناقشة أو مساومة بقدر ما يمكن أن يكون محلّ اختيار المنهج الأفضل، والطريقة المثلى لربح الوقت ليس إلّا.

3- في مفهوم الثقافة اللغوية: إن الثقافة أساسٌ للوجود، والثقافة في وقتنا

تعيش المنافسة، وعلينا أن ندرك الخطر الذي يحدق باللغة العربية، وهي لم تدخل بثقلها سوق المنافسة، ولم تتحقق عمليات التعريب بكل أطرها، فلا يكفي أن نعرب شكلاً استعمال الحرف العربي والكلمة العربية، بل ينبغي أن نقدم على التعريب الحقيقي للغة العربية ذاتها، ونقصد بذلك التعريب الحضاري للغتنا. ذلك أننا أصبحنا في كثير من مجتمعاتنا نستهلك الثقافة الأجنبية، والقيم الداخلية لا باللغة الأجنبية، ولكن بلغتنا الوطنية، وقد يكون هذا أخطر من استهلاك هذه الثقافات باللغة الأجنبية. لقد أصبحنا نقوم بهذا في المجالات السياسية والفكرية والاجتماعية والفنية، وأصبح معجمنا العربي يأخذ الحرف والكلمة من لغتنا، والمضامين السياسية والفكرية والاقتصادية من مضامين الثقافة الأجنبية. والواقع أن لغتنا إذا أخذناها كلغة لم تزدهر ولم تتطور إلا بمضمون الثقافة الإسلامية، فيجب إذاً أن تكون لهذه الثقافة المكانة الأولى في حياتنا بصفة عامة. إن الثقافة مفهوم وطني لا تحصل إلا باللغات الوطنية، وعليه، فإن العباء الكبير في هذا المجال يقع على ضرورة التعليم، وعن طريق التعليم تتطور الثقافة؛ إذ لا فكر إلا ما ينطلق من المبادئ ومن واقع المجتمع في آن واحد، ولا أثر للفكر في المجتمع إلا بالإدراك الشعبي الفاعل الذي ينقل الفكرة من نظرية إلى سلوك اجتماعي ملموس. وعلى هذا فليس من الغريب أن نعتبر تعميم الثقافة العربية عن طريق التعليم أمراً واجباً، وأن تكون الثقافة فرض عين لا فرض كفاية.

وبعيداً عن الطهرانية والتمجيد، كان لا بد أن نقول بأن تساوق معالم الثقافة العربية/ الوطنية تسهم في تعيين حاضر الهوية وفي مستقبلها، بل في إنضاج معالمها، باعتبار الهوية الثقافية اللغوية مشتركة تجعلنا جماعة واحدة؛ لأنها تنتمي إلى الإطار المرجعي المتواصل، وفيها صفات الثبات، وصفات التحول وتقلبات التاريخ الحي. وعلى هذا، فإن مراجعة الذات اللغوية أو التراجع عنها باب من أبواب الفتن التي يجب أن يُسدَّ بابها، وكان الأحرى بنا أن نراجع التذبذب في عدم

تعميم استعمال لغاتنا، ومراجعة مضايقات الازدواجية في التفكير وفي البرامج التعليمية وعلاج التحديات الثقافية التي تواجه العربية وبخاصة الكلفة الباهظة للترجمة... ولا بدّ من علاج المسائل علاجاً عقلانياً بمنهجية واضحة في العمل لأنّ الفوضى والغوغائية لا تأتي إلاّ بنتائج ضعيفة، ولا تخدم إلاّ فئات في أصلها مستفيدة.

4- المثقّف العضوي: إذا تحدّثنا عن مفهوم الثقافة الوطنيّة، يستتبع الحديث عن المثقّف، فما هي مواصفات المثقّف الوطنيّ المطلوب أو المثقّف العضويّ الذي يخدم الشان، وينخرط في آليات المجتمع؟ وبهذا نروم من المثقّف الوطنيّ المعاصر أن يكون خادم الناس؛ باعتباره منتج الأفكار، وموجّه الأنظار وتعدّه الناس من الأختيار، أضف إلى ذلك أنه يعمل على تقديم المبادرات، ومكانته بين العامة في المفضليّات، ومعروف أنه يؤثّر غيره في كلّ الوضعيّات. ونريد مثقفاً وطنياً عضوياً مندمجاً في مجتمعه ضمن التزامات المثقّف الفكريّة الوطنيّة، ويسمّيها (محمد عابد الجابري) بـ "التزامات المثقّف بقضايا الفكر والشان العام". فالفائدة من وراء هذا؛ كيف يكون المثقّف العضويّ وفيّاً لمقتضيات مجتمعه، فما الفائدة من المثقّف إذا لم يشمّ هموم المجتمع، وينقل معاناتهم، ويعبر عنها، فالقرب من المجتمع حالة واقعية ومسؤولية أخلاقية. ولذا، فإنّ مقتضيات الحال تستدعي من هذا المثقّف أن يكون فاعلاً في مشاريع التطوير التي يحتاجها مجتمعه ويكون صوتاً لهم للتعبير عن همومهم؛ لأنّ المثقّف في الحقيقة - فاعل اجتماعي عليه أن يدسّ أنفه في الشان العام، ويحاول التأثير في وعي المجتمع، وفي السلطة والمنظّمات المدنية، ويحمل هموم الآخرين، مستثمراً وسائط الإعلام ومؤسسات المجتمع، والحال هذه تدعو المثقّف أن يكون كالواعظ ينزل إلى المحال العموميّة ويتكلّم للناس وينصح لهم. إنّ مثقّف الشان العام يعمل على التغيّر الإيجابي ويتحمّل مسؤوليات عمليّة وأخلاقية لمواجهة المجتمع بكلّ ما يحمل من تناقضات

وله دوره في البناء وفي الممارسات الحقيقيّة لكل أشكال التّواصل البينيّ بما تحمل الممارسات من برامج لتحسين ثقافته وأمنه الثقافيّ.

يجب القول بأنّ بعض المتّقين عندنا تخلّوا عن الإبداع النّقديّ الذي يحمل مرجعيّات الإصلاح، كما تخلّوا عن دورهم في خضمّ التحوّلات المعاصرة وأصبحوا لا يبذلون جهداً تجاه مصالح الآخرين؛ فانكفّوا على أنفسهم، فلم يُصبحوا أولئك المتّقين الذين يُشكّلون امتداداً للمتّقين النّقديين؛ والذين كانوا يلعبون دورهم في كشف الممارسات السلبية، بل نجد الآن الصّحافيين أكثر جرأة من أولئك المتّقين النخبة الذين يتفرّجون وينتظرون الفرصة المتاحة للظهور والتي لا تأتي دون حراك، نعم لا ننكر أنّه لدينا متّقون ولكنّ الكثير منهم لا يحملون مشاريع القوم. ما أوجنا إلى متّقين يحملون أفكاراً، إلى متّقين مواطنين متّقين يقدّسون المواطنة في صورتها المثاليّة من حيث الوعي بالمسؤوليّة الأخلاقيّة والأدبيّة تجاه تآدية الواجبات قبل المطالبة بالحقوق. فالمتّق في هذا المجال مثله مثل المعلم الذي يحمل خطاباً ديدانتيكياً ويسهر على تبليغه بما أُوتي من حكمة وحكمة وسهولة وبأسر الطرائق، وكذا المتّق النبیه، فهو يتلمّس الحد الأدنى المشترك، ويبنى عليه الحد الأقصى المشترك من المحافظة على الثوابت الوطنيّة، وبخاصّة الشان العامّ ويعمل على الخروج من اليوميّات السطحيّة إلى عمق النهوض، واستثمار العناصر الكليّة وفق نموذج اجتماعيّ حضاريّ؛ ينطلق من قيمه الإسلاميّة، ويعيد بناء مستقبل حضاريّ؛ بتنزيل تلك القيم على الواقع، وكأنّه يحمل رسالة التطوير التي ترتقي بسلوك (الجماعة الأمّة) إلى مستوى قيم الاجتهاد والإخلاص. وإنه جاء الوقت الذي نقول فيه: إلى متى -أيّها المتّقون- حضورنا غياب، وغيابنا ذهاب دون إياب؟ إلى متى نقرأ المستقبل بعيون الماضي؟ هل يلذ لنا أن نبقي في أبراجنا متفرّجين على واقع مهترئ بالعدميات، وإذا اشتد بنا الحال؛ فإنّ حقائبنا جاهزة للتوجّه إلى بلاد الغرب.

إخواني الحضور نريد مثقفاً وطنياً مصلحاً يملك وسائل الإصلاح، وتلك هي البداية الصحيحة والخطوة التاريخية لفتح أبواب تمهّد الطريق لمسيرة التصحيح والمُهم أن نبدأ، فالطريق تصنعه الأقدام، نبدأ في التوجّه الصّحيح نحو هدف الإصلاح الشّامل دون تأخير وتسويق، فمسيرة الإصلاح هي الإصرار والصّبر والتّخطيط، ولتحقيق الأمن اللغوي كان علينا -نحن المثقفين- أن نتحدّث عن مناهج العمل وخطط المستقبل لتطوير لغتنا العربيّة من خلال رفع المضايقات التّقنيّة، وما تواجهه من سرعة المتغيّرات الرقمية، والبحث في أسباب ضعف مشاركتها في إنتاج المعرفة، والدفع بمؤسّسات الدولة إلى تحقيق الإبداع، واقتراح القوانين الحامية للعربيّة، وتعبئة المجتمع المدنيّ، ودعم الإنتاج الفكريّ والثّقافيّ والإبداعيّ والإبداع في العربيّة فيها وبها.

5- الأمن اللغوي: نعرف بأنّ اللّغة عمدة الفكر، فلا تفكير دون لغة، واللّغة لها حمولة فكرية مرجعية: فتارة أمة مُوجّهة مُكمّلة، وتارة ناقمة غاضبة ثائرة، واللّغة ليست بريئة من التأثير والتأثر بل تفقد عمليات التفكير؛ كما تعمل على غسل الدماغ، وتطعيمه بما تختاره، فاللّغة ثقافة لها امتداد وتعيش نمواً لغويّاً تستهلك أساليب، وتولد أساليب، وكما يعرفها البعض بأنّها "... نسق من الرموز والإشارات التي يستخدمها الإنسان بهدف التّواصل مع البشر، والتّعبير عن مشاعره واكتساب المعرفة، وتعدّ إحدى وسائل التفاهم بين الناس داخل المجتمع، ولكلّ مجتمع لغة خاصّة به"¹. واللّغة في عمومها ترتكز على منظومة لغوية وقيّم وأفكار وإيديولوجيات تُرسّخها في متعلّميها، فيصبحوا حاملِي أفكار لغة بما لها من توجّهات تعمل على تحقيق غايات، وهذا ما هو حاصل مثلاً في اللّغة الصينية التي نهضت مؤخراً، لم تكن لتظهر لولا ارتكازها على منظومة ثقافيّة لغوية، وبها أصبحت عملاقاً اقتصادياً وسياسياً، ولم يتمّ لها ذلك لو لم تكن مرتكزة على منظومة ثقافيّة لغويّة "وكلّنا نعرف أنّ الشّعب الصينيّ والجمهوريات الصينيّة كانت أشتاتاً لا حدّ لها، وهو أمر ما زال قائماً، ولكنّ القرار السياسي جعل اللّغة الصينية

لغة رسمية وحدث الأمة الصينية². وهذا ما كان عند العرب حيث وحدثهم اللغة الفصحى؛ باعتبارها لغة جامعةً وحاملةً لمنظومة فكر إسلامية.

لا ننكر التطور الحاصل في اللغة العربية في وقتنا المعاصر، وفي ذات الوقت لا ننكر بعض الهنات والارتكاسات التي تعيشها العربية، ومن هنا نقول: إن وظيفة اللغة العربية في مجتمعاتنا العربية ليست على أحسن حال مثلما هي اللغات في المجتمعات غير العربية، وهذه حقيقة نقرّ بها، وما نشاهده من جنوح اللغات الأجنبية، واعتبار الفرنسية تمثّل العقل³، والعربية تمثّل الشعر، والسعي إلى نقل اللغة المؤقتة إلى الديمومة والعمل على تشجيع الخليط اللغوي، ومراجعة المسائل اللغوية التي بُتّ فيها والسكوت عن فيضان التهجين اللغوي، وعن تراجع استعمال العربية في قطاعات سبق لها أن نالت مساحاتها، ونرى اللغات الأجنبية تزرع فينا النقص والشعور بالدونية؛ مصحوبة بالازدواجية الأمانة التي دفعت بنا إلى الفساد اللغوي المتمثّل في فقدان النطبيع الكامل للعلاقة مع اللغة العربية الفصحى والحدائثة المغشوشة الخالية من الأصالة والإبداع. وهنا ما كان يجب أن يفهم على أنها دعوة لعدم تعلّم اللغات الأجنبية؛ وهي من الضروري الإلزامية بالتحكم فيها ويستفاد منها في تطوير لغتنا العربية، ولكن ما كان يجب على تلك اللغات الأجنبية التي نتعلّمها أن تُحدث شرخاً في الخصوبة اللغوية للعربية، أو تعمل على أن تنقلنا إلى حضارة ليست من حضارتنا، أو أن تقلّعنّا من أصلتنا، وتجعل الانفصام في شخصيتنا ويكون ذلك من أبواب الاغتراب الذي يمسّ الهويّات وأصبح فرانكو أراب/ أنجلو أراب بقبعة غربية في أوطاننا، وبيؤس محلي في لغتنا. يجب أن يكون لنا الحق في استعمال العربية في جميع الظروف الحياتية لضمان الأمن اللغوي، والحصول على النصوص بالعربية والمعلّومة بالعربية والتعليم والتعلّم بالعربية، وقضاء الخدمات الحكومية والخدمات اليومية بالعربية.

5- اللغة العربية ومعطيات العصر: لا يجب أن تأخذنا العزة بالإثم، ونقول على العربية أن نعلم وتنال مساحاتها كاملة، وتكون لغة كل الوسائل والمحال وتكون

لها السيادة في كلّ المواقع، إلى غير ذلك من المنافحات الخطابية. ولكن جميل أن نصوّر الواقع، ونخاطب العقل، فماذا أعدنا لهذه اللّغة ضمن مُعطيات العصر لتتالّ مساحتها؟ وهذا ما يجب أن يكون في الحسبان لربح معركة الأمن النّقافي واللغوي.

يجب أن نعيش العصر بسلاح النّقافة الذي يستمدّ قوّته من خطّ الدفاع عن الهوية اللغوية التراثية ونحن تعلّمنا بأنّ أية لغة تملك قوة ذاتية تساعدنا على صياغة الفكر صياغة مناسبة لأذهان المتكلّمين بها إذا لم تفتقد آلياتها من الداخل "... لماذا فقدت اللّغة تلك القوة، ولم تصلح لتكون مُعبّرة عن الأفكار والمفاهيم، فلا تستحقّ أن تُصنّف في زمرة اللّغات، فيجب عندئذٍ إلقاؤها في سلّة المهملات إذ كان هذا هو شأن اللّغة الضعيفة، فكيف بلغة لها ماضٍ مجيد، وتاريخ عريق"⁴. يجب العلم بأنّ العربيّة بحاجة إلى خوض ميدان التطوّر التكنولوجي الهائل والتغيير في جغرافية الزمان والمكان، والدول والأشخاص كي تعود إلى ألقها النّليد، وتزدهر ضمن خصوصياتها المؤثّرة وفي إطار التعايش النّقافي واللغوي الفاعل. وهذا ليس سهلاً أمام ما عرفته العربيّة من تأخير، فماذا نحن فاعلون؟

إنّ واقعا النّقافي واللغوي يدعونا إلى عمل قوّي ومستعجل لنشر ثقافتنا وتعميمها بعربية تحمل المضامين الإسلاميّة والإنسانيّة، ونعلم بأنّ الطريق طويل وليس مفروشا بالورود، فهل نكسب الرهان؟ وما كان يجب أن نبقي دون العيش في مغامرات التنافس القائمة بين الثقافات واللغات، ونكون على دراية بأنّ المسألة تتطلّب العديد من الجوانب الإبداعية، وتهمّنا الجوانب النّقافية واللغوية، وما تقوم به المؤسّسات ذات العلاقة باللّغة العربيّة لاحتواء التنافس والعيش داخله والتأثير فيه والوقوف ندّاً للندّ، بله الحديث عن التجهيزات النّقافية كعملية فكرية تتحدّى الحواجز النّقافية، باستعمال أفضل للوسائل التقانية المعاصرة لربح معركة التنافس. ولهذا نرى ضرورة تطوير هذه المؤسّسات وما يلحقها من الأجهزة المسموعة والمرئية بما يعمل على التأثير والتفعيل، وتوضيح خطورة التبعية الفكرية أو اللغوية، وهذا ما ينبغي أن ننتبه إليه.

أضف إلى هذا يجب أن ندرك أن بعض الحاجات التكنولوجية الحديثة التي غزت أسواقنا ينبغي ألا نكتفي بنقلها كما هي، بل نعمل على أن نتحكم فيها حتى تسخر لأهداف ثقافتنا وحضارتنا "فالآلات التي خلقتها التكنولوجيا نشأت عن معطيات وحاجات معيّنة مرتبطة بطبيعة العيش وبفلسفة اجتماعية معيّنة في مجتمع معين، ولذلك فلا يمكن إلاّ التأكيد على ضرورة الاستفادة من العلم ومن المخترعات والاكتشافات في مجال الطبّ والبيولوجيا والزراعة والهندسة والإعلام ووسائل النقل والاتصال ولكن يجب في نفس الوقت تكيف كلّ الاكتشافات والمخترعات مع معطيات مجتمعنا، وبالتالي مع القيم التي تعدّ التكنولوجيا وسيلة لخدمته". وعلى العموم، فإنه لا يمكن أن يحصل التطور إلاّ ذاتياً، فإذا نقلنا العلوم والتكنولوجيا بدون فهم وحسن استعمال فسيؤدي ذلك إلى مسخ شخصيتنا بتشويه حضارتنا، بما فيها اللغة العربية التي لا يمكن أن تزدهر وتحيا وتتطور إلاّ بحمولتها الثقافية والحضارية الغنية.

6- الانسجام الجمعي: إذا جئنا لاستنتاج التاريخ نرى بأنّ الفترة التي ازدهرت فيها المجتمعات الإسلامية في كلّ المجالات هي تلك الفترات التي عمّت فيها الثقافة العربية فئات المجتمع؛ فالعصر الأموي والعباسي عرف التأسيس والازدهار، وفي جنوب غرب أوروبا نالت العربية الإشهار، وفي الأندلس عرفت التآلق، وفي بلاد المغرب عمّت ونافست اللغات المحلية، وأخذت مكانة عليا... أمثلة حيّة لتعميم الثقافة العربية من أثر داخلي وخارجي في أعلى تجليات العلو فقد ازدهرت العلوم الإنسانية والعلوم البحتة والعلوم التجريبية حتى إنّ جامعات أوروبية ظلّت تستند في دراساتهما إلى الكتب العربية، وذلك إلى نهاية القرن الثامن عشر بل إنّ الفقه الإسلامي بقيّ في بعض جوانب القانون الأوروبي الحديث. ويمكن تأكيد المسألة بأنّ بريطانيا لم تنطلق فيها حركات التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي إلاّ في القرن السادس عشر، ووصل مرتكزاً على أسس علمية في القرن الثامن عشر؛ حيث عرفت ثورة صناعية وتحولاً دستورياً، وإدخال

الديموقراطية والحرية، وهذا بعدما أخذت الثقافة تعمّ مختلف فئات المجتمع البريطاني. كما يمكن أن نُشير إلى حالة اليابان الذي عمّ الثقافة حتى أصبحت نسبة 85% من اليابانيين النشيطين في مختلف ميادين العمل حاصلة على المستوى الثانوي، وازدهر الاقتصاد الياباني لا بتعميم التعليم وحسب، ولكن بتعميم الثقافة أي الإيمان والعمل بالقيم الأخلاقية والحضارية، مما جعل المجتمع الياباني يصون شخصيته وهويته الثقافية، ويتطور بروح حضارية متميزة أعطت لمؤسساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية السند الفكري والروحي للتنمية المادية والروحية. وهكذا نقول: نحن في وضعنا المعاصر بحاجة إلى تعميم وتعميم الثقافة، ولا يمكن أن نتطور بغير هذا التعميم والتعميم الثقافي، ويعني هذا بحاجة إلى مخطّط ثقافي يوازي المخطّطات الاقتصادية ويدعمها... وينبغي ألا نتردّد في ربط التنمية المحلية بالتنمية الثقافية واللغوية فلم يثبت أنّ أمة من الأمم ارتقت بغير لغتها، فلم التعطيل إذا؟ وهذا لا يعني أننا ننطلق دون اللغات، أو ننكر بأنّ أوروبا متقدّمة علينا وإنها لم تنهض إلّا بفعل تلك التأثيرات العميقة والجذرية التي أدخلتها الثورات الفكرية لعصر التنوير، فلذا من الضرورة الاستفادة من الخبرة الغربية مع الحفاظ على مقومات حضارتنا الروحية حتى نحصن أصالتنا؛ لأنّ الأصالة إسمنت قويّ تضمن الاستمرارية والتميز، ولا مانع أن نأخذ العلوم بلغتهم، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها من أية لغة تعلّمها، ودراسة العلوم الحديثة لازمة؛ لأنّ العلوم الدنيوية واجبة بغية العمران، والدينية هامة بغية الفضيلة. ولهذا يُعتبر التعليم باللغات الوطنية الخطوة الأولى في عملية الإصلاح؛ بل هو رهان التحدي، أو أساس في عمليات النهوض، ولا يكون التعليم جيّداً إلّا بالتجديد في المناهج وفي طرائق التبليغ وفي المضامين. وإنّ الإصلاح التربويّ باب لإصلاح المجتمع، فهل نتعظ بأنّ الدّول الآسيوية تراهن لحدّ الآن على هذا القطاع لأنّه حسّاس، ومنه تخرج إطارات التسيير في المستقبل.

— خاتمة: إنّ الوضع المعاصر، في صالح العربيّة بعدما خرجت من الارتهان في الطقوس التعبدية وفي الإبداع الضيق، وهي الآن تعيش التداول المعاصر في مستواها الوسطي، وهذا بمبادرات كثيرة من مثل: مسلسلات الأطفال العالية اللّغة التشريعات السياسية والتربويّة، وإنجاز المشاريع الكبرى، وإقامة المؤسّسات ذات التوسّع العالمي لاكتساب مساحات في الشّابكة، كما يمكن الإشارة إلى أنّ الهجمات العولمية زادت اتّساعاً وتبائناً، وأصبح لها أتباع ورجال إعلام، فهي تعلو في المقام، وتزداد في الانتشار. ومع كلّ هذا يبقى الأمن الثقافي واللّغوي هو المسؤول عن سائر العناصر التي تشكّل مقوّمات التطوّر، ونشدان المحافظة على الهوية في مفهومها العامّ. والأمن الثقافي واللّغوي يشكّلان وقاءً لحماية الأجيال من الاختراقات الفكرية الهدامة وكلّ زعزعة للأمن الثقافي أو اللّغوي قد يكون هدفاً للبلبلّة، وعلينا الاحتياط من اتّساع الفضاء المفتوح عبر وسائل التواصل الاجتماعي والذي يتطلّب مزيداً من التوجيه والرعاية والمتابعة والتّحصين، كلّ من موقعه وفي موقعه. أيّها الباحثون والمتّفقون، عليكم أن ترفعوا من شأن العربيّة بما تُبدعون، فلا تتركوها تنتحر أمام التّهجين اللّغوي، لا تجعلوا خدمة العربيّة من صلاحية المجامع اللّغوية، ولا تكلوها للزوايا التعليميّة المنعزلة، ولا تبقوا مترصدين الأخطاء دون تصحيحها أو دون توجيه شهود الإصلاح اللّغوي، لا تبقوا في زاوية (قل ولا تقل) لا تكونوا بعيدين عن استيعاب ثقافة اللّغة العربيّة وتنوّع مجالاتها. اعملوا على تفجير العربيّة من خلال اشتقاقاتها، ولّدوا ألفاظاً حديثة، شكّلوا خطابات ثقافية لغوية واقعية، واجعلوا للّغة العربيّة أوعيةً ومناطق ذكيّة، وافسحوا لها مجالات التفكير شدّدوا على عقد الصحافيين؛ ليكونوا أعواناً لكم، وأحسنوا الظنّ بمن يبغى التوسّع اللّغوي العربي.

أيّها المتّفقون، أوصيكم بعدم السكوت عن الحوادث اللّغوية، ولا الإصابات البالغة بلّغة التعليم، ولا تسكتوا عن الجروح اللّغوية التي لا تندمل. اخرجوا من خطاب الوعظ إلى خطاب الوعي اللّغوي وإلى خطاب الرقي والتطوّر الثقافي،

وحاربوا الفساد اللغوي... ونختم لنقول: ليس المقصود في حديثنا عن الأمن الثقافي واللغوي أن نُوصد الأبوابَ في وجه تعلّم اللغات، أو الوقوف ضد طوفان الثقافات المتدفّق عبر وسائل التواصل الاجتماعي، أو تقييد الحريات اللغوية والتعدّد في استعمال اللغات، والإفادة من أفكار الآخرين، بل المطلوب أن نحسن اختيار ما ينفعنا ممّا تشتمل عليه هذه الثقافات واللغات، ونتجنّب ما يضرّنا ويلحق الأذى بنا، ويأخذنا في طريق "الغالب مولع بالمغلوب في ملّته ولغته وعاداته".

— توصيات:

- 1- نشر مفهوم (الأمن الثقافي واللغوي) بين الجماهير على نحو دائم ومُستمرّ.
- 2- تجسيد مفهوم الأمن الثقافي والعلمي بما يستلزمه من: تعميم استعمال اللغات الوطنية+ توفير المكتبات+ توفير مُستلزمات نجاح عملية نشر الأمن الثقافي واللغوي.
- 3- قيام الإعلام بوسائله بحملات دورية تقوم بنشر مفهوم (الأمن الثقافي واللغوي).
- 4- حتّى المجتمع المدني على تطوير الثقافة واللغة، على أن يكون الهدف الأول هو تحقيق (الأمن الثقافي واللغوي) للمجتمع وللمؤسسات وللدولة.
- 5- إيلاء أهمية خاصّة من قبل الأسرة؛ بالعمل على مُحاربة الانحرافات الأخلاقيّة، وتحصين الأولاد من الاختراقات الثقافية واللغوية الهدّامة.

الهوامش والإحالات :

- 1- فوّاز محمد الراشد العبد الحق+ عبد الرحمن حسني أحمد أبو ملحم "التصورات الشعبية والوعي اللغوي نحو العربية" عمل جماعي. الرياض: 2017، منشورات مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللّغة العربية، ص 249.
- 2- محمد منير سعد الدين، الهجمة الإعلامية على العربية (لغتنا معلم من معالم الهوية). الجزائر: 2017 دار الخلدونية، ص21.
- 3- محمد صلاح الدين الشريف "صورة العربية في التصوّرات الشائعة وما تثيره من قضايا منهجية" عمل جماعي. الرياض: 2017، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللّغة العربية (سلسلة مباحث لغوية 31) ص 86.
- 4-ندير محمد، القصص في مواجهة التحديّات بيروت: 1991، دار البشائر الإسلاميّة، ص.

كلمة رئيسة المجلس الوطني لحقوق الإنسان

السيدة فافا سي لخضر بن زروقي

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
الحضور الكريم،

إن موضوع هذا الملتقى دقيق وهام في نفس الوقت، وإنني سأطرق في عَجالة
إلى هذه المفاهيم ولا سيما الأمن الثقافي واللغوي

مع مرور الزمن وتسارع التطور التكنولوجي، غلبت ثقافة العولمة في أرجاء
المعمورة فتحول العالم إلى قرية صغيرة، وأصبح تبادل المعلومات والأفكار أسرع
من غمضة عين، والمعلومات متاحة بضغطة زر، وانتقلت الأفكار المتباينة وأحيانا
الغريبة بين مختلف الطوائف من البشر، فتارة تجمعهم وتارة أخرى تفرقهم
وسادت سياسة العولمة والثقافة الكونية على الحضارات ذات الجذور البعيدة.
مع كل هذا التطور التكنولوجي الهائل والتغيير في جغرافية الزمان والمكان
والدول والأشخاص، يطل علينا مصطلح: مفهوم الأمن الثقافي.

مفهوم الأمن الثقافي

الأمن الثقافي هو مصطلح يبدو للوهلة الأولى متناقض المفردات، فهو كمصطلح
لفظي يتكون من كلمتين ذات معنيين مختلفين — هما الأمن والثقافة — فالأمن
كمفهوم عامّ ومتداول هو توفير الجوّ الآمن لتداول الحريات التي نمارسها ودلالاته
—دوماً— تشير إلى الدفاع، العزلة والسيطرة لتوفير الحماية المطلوبة، أو الانغلاق
والتكتم لو تطلب الأمر ذلك في أحيان كثيرة. أما الثقافة فتتضمن حسب الكثير من
التعريفات المختلفة والمتعددة النشاط الفكري والفني للأعمال المنتجة من جهة

والمعتقدات والفنون والعادات والآثار والأعمال التي ينتجها مجموعة من الناس في وقت ما، عبر التاريخ من جهة أخرى.

وهو المفهوم الذي يتناقض بكل تأكيد من مفهوم الأمن، فمفهوم الثقافة المتداول والمعروف يشير - دوماً - إلى الإبداع والانفتاح والتحرر من القيود للتعامل مع الآخر وتبادل الآراء المختلفة والهامة والمطلوبة تبعاً لاختلاف التجربة والبيئة المحيطة والمراحل العمرية في أزمان مختلفة.

إن هذا الشرح السريع والبسيط للمعنى السائد والمتداول، لكلمة الأمن الثقافي يطرح للوهلة الأولى تساؤلاً هاماً: كيف يجتمع الأمن والثقافة في مصطلح واحد ليعكس مفهوماً حضارياً غاية في الأهمية وضرورة ملحة لضمان استمرار الحياة؟ فالثقافة لا يكتمل وجودها دون توفير قواعد أمنية هامة تحميها، والأمن بمفهومه الأعمق هو حصيلة مجموعة من الإجراءات والتدابير الوقائية والعقابية التي قد تتخذها السلطة للحماية، انطلاقاً من المبادئ التي تدين بها الأمة ولا تتعارض أو تتناقض مع المصالح المعتبرة لتحقيق أهداف وغايات أي مجتمع، إذا فالأمن الثقافي هو قدرتنا على توفير الحماية المطلوبة للثقافة لتحقيق حرية الإبداع من جهة، والحفاظ على مكتسبات الشعوب الثقافية والفنية والدينية من جهة أخرى.

أهمية الأمن الثقافي :

إن الأمن الثقافي بمفهومه الواسع والشامل له أهمية بالغة في حياتنا المعاصرة، وخاصة في ظل التحديات التي نواجهها كل يوم من آثار العولمة السلبية، ورغبة الدول الكبرى في السيطرة على الدول الصغرى، أو حتى رغبة الدول الحديثة التي تتسلح بالقدرة العلمية والتكنولوجية في السيطرة على الدول ذات الحضارات التاريخية والثقافات المتأصلة عبر التاريخ لمصالح خاصة، حتى أننا قد نعتبر أهمية الأمن الثقافي بأهمية الأمن القومي للدول، فأهمية الأمن الثقافي تكمن في أنه الحل الحضاري والأمن للتعبير عن قدرتنا على الحفاظ على هويتنا، وصيانة الثقافة التي تنشأ بلا شك من الثقة بالنفس والقدرة على التفاعل الواعي مع مختلف العوامل،

واستيعاب الآراء المتباينة والجديدة وتَفَهْمَهَا للوصول إلى الفكر المتوازن والمطلوب للتواصل والتفاعل مع الآخر في عصر متغيّر ومتطوّر كل ثانية.

فأهميّة الأمن الثقافي تكمن في الحفاظ على الهوية والانتماء، والوصول إلى الأمن والاستقرار في جميع نواحي الحياة سواء داخل الوطن الواحد أو بين الدول المتباينة المصالح والمختلفة التوجهات.

الأمن اللّغوي :

أما في ما يتعلّق بالأمن اللّغوي فإن نفس المعطيات والتحديات التي تم ذكرها سالفاً تطبّق تماماً على الأمن اللغوي، إذ إن كل المجتمع يحاول فرض لغته على المجتمعات الأخرى.

ولهذا فإن الجزائر تقوم دائماً بترقية اللّغة العربيّة ومكوّنات الهوية الوطنية وذلك عبرة كافة المؤسسات في البلاد.

وفي حقيقة الأمر وكما يعرف الجميع فإن هذا الموضوع يصلح أن يكون موضوعاً لشهادة الدكتوراه في عدة مرات.

الخلاصة :

إن هذا الموضوع هو انشغال وهاجس عدة حكومات ودول سواء لحماية نفسها، أو لتوسيع نفوذها.

إن لهذا الموضوع -في أي مجتمع وفي أية دولة- انعكاسين، انعكاس داخلي وانعكاس خارجي، فمن منا لم يسمع يوماً كلمة الغزو الثقافي؟

إنها حقيقة تعيشها المجتمعات في الوقت الحالي، فهناك ثقافة إنجليزية مهيمنة على العالم وهناك ثقافات أخرى تريد أخذ نصيبها من الهيمنة كذلك.

يدرك الجميع أن المجتمع كجسم الإنسان، لا بد من تحصينه وتقوية مناعته كي يُقاوم أي تعدّد محتمل عليه، وبالخصوص أن مظاهر وأوجه التّعدّي كثيرة ومتنوعة وزادت خطورتها مع التّطور العلمي والتكنولوجي كوسائل الاتصال الحديثة والإنترنت، حيث لا مكان فيه للضعفاء، فكلّ منا يعرف شيئاً عن روسيا، بسبب

أدبها وأمريكا بسبب رواج أفلامها السينمائية، حتى وإن لم يقيم الإنسان بزيارة هذين البلدين.

كما أن كل الأمم والمجتمعات تسعى لحماية تراثها وثقافتها وذلك بالسعي لدى منظمة (اليونسكو) لتسجيل إرثها الثقافي المادي وغير المادي.

إنّ الدولة تسعى لتحسين أمنها الثقافي واللغوي، وذلك بالحفاظ على هويتها، ويتجلى ذلك بتحسين البرامج المدرسية؛ وذلك بتشجيع مكونات الهوية وتقويتها مع الاهتمام بالجانب التاريخي للمجتمع.

إن الاهتمام بمختلف مكونات المجتمع يؤدي حتماً إلى الانسجام الجماعي وهذا الانسجام يؤدي إلى تقوية الأمن الثقافي للمجتمع من جهته.

إن الأمن الثقافي يتطلب قبل كل شيء الحفاظ على المكونات التي اكتسبها المجتمع منذ قرون، والدخول إلى عالم العصرية والتكنولوجيا بهذه المكونات وتفعيلها وتقويتها، وهنا يتجلى لنا أن الانغلاق على الذات ليس هو الحل مادام أن التكنولوجيات الحديثة لا تعرف الحدود، وهذا ما يتطلب مسايرة التقدم العلمي والتكنولوجي بمكونات الهوية الوطنية.

إن الجزائر واعية تمام الوعي بهذه الرهانات؛ ولذلك فهي تسعى جاهدة لتحسين أمنها الثقافي واللغوي وضمان الانسجام الاجتماعي داخل الوطن لتبقى قلعة محصنة ضد أيّ غزو ثقافي.

الهوية والتعدد اللغوي والثقافي في الجزائر: واقع ورهانات

الأستاذ محمد داود،

جامعة أحمد بن بلة، وهران 1.

تواجه الجزائر، في المرحلة الحالية، رهانات وتحديات كبرى ترتبط بالبناء الوطني للدولة الجزائرية، ويتمثل ذلك في التنمية الاقتصادية والسياسية والثقافية. ولعل من أبرز المسائل التي تشغل المجتمع الجزائري، نذكر القضايا اللغوية والثقافية التي تحدد الهوية والانتماء، وهي قضايا لا تزال تثير الجدل الفكري والسياسي وربما لمدة قد تطول ولأكثر من سبب. وتجدر الإشارة إلى أن الجزائر تضم لغتين وطنيتين رسميتين (اللغة العربية واللغة الأمازيغية) والعديد من اللهجات العامية، إلى جانب اللغة الفرنسية بوصفها لغة أجنبية ذات حضور قوي ولغات أوروبية أخرى مثل الإسبانية في المنطقة الغربية من البلاد والابطالية في المنطقة الشرقية، كما تتميز الجزائر بكونها تتسع لمجموعة كبيرة من الثقافات المحلية، التي تختلف من منطقة لأخرى. ومن المفيد التذكير أيضا أن الجزائر قد عرفت استعمارا مدمرا لكيانها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي واللغوي، وقد قدم الشعب الجزائري التضحيات الجسام في سبيل استعادة سيادته السياسية وهويته الوطنية. وسعت الحكومات المتعاقبة منذ الحصول على الاستقلال إلى الآن لترميم وإعادة بناء ما تم تدميره من قبل الاستعمار وعلى جميع المستويات. هذا بالإضافة إلى أن الجزائر عانت في الآونة الأخيرة، أي منذ بداية التسعينيات من القرن الماضي الأزمة السياسية والأمنية الكبيرة والخطيرة التي مست أركان الدولة الجزائرية وكادت أن تقضي عليها، ولا تزال آثارها باقية للعيان وجراحها لم تندمل بعد، وقد ذهب ضحية هذه المأساة عشرات الآلاف من المواطنين. كما تعرضت البلاد في هذه الألفية الثالثة للاضطرابات الاجتماعية التي نتج عنها تدميرا داخليا للقدرات

الوطنية، في كل من منطقة القبائل وفي مدينة غرداية. وتواجه الجزائر حاليا تداعيات ونتائج الربيع العربي الذي هدد ويهدد انسجام وتماسك الدول الوطنية حيث تسعى القوى العظمى من وراء هذا الحراك السياسي إلى إعادة رسم الخرائط الجغرافية والسياسية للعالم العربي، وبترافق كل ذلك مع ما تشكله العولمة المتوحشة من أخطار على المجتمعات المحلية تسعى إلى تشطي الهويات والأوطان، وما تشهده البلدان من محاولات جادة للانفصال عن الحكومات المركزية وبخاصة في منطقة الشرق الأوسط (الأكراد) وفي أوروبا (كتالونيا) وفي إفريقيا (الكاميرون)، وغيرها من الدول والأقاليم. كل هذه الأحداث والوقائع والتحويلات السياسية تفرض علينا مناقشة مستفيضة لما يجري في هذا العالم الذي ننتمي إليه. وعلينا أيضا فحص مفهوم الهوية في علاقته باللغة والثقافة، بالاعتماد على رؤية متبصرة للمنطلقات الفكرية والمنهجية لكل المفاهيم التي نوظفها في هذا الإطار بغية وضعها في إطارها المعرفي الصحيح والملائم لمقتضيات الحال وأيضا وضعها في سياقها الوطني الذي يفرض حوارا فكريا بين جميع الأطراف التي تهمها مثل هذه الأمور الفكرية.

1- إشكالية الهوية:

في ظل التحويلات المتسارعة التي يشهدها العالم، أصبح الحديث عن مفهوم الهوية يحتل الصدارة في كل النقاشات وفي جميع المجتمعات، "إذ لا تخلو ثقافة من الثقافات المكونة للنسيج الإنساني على وجه البسيطة من سؤال الهوية"¹. وتضاعفت هذه النقاشات مع ما يشهده العالم من محاولات للهيمنة الثقافية التي تترافق مع مظاهر عولمة تسعى للقضاء على الخصوصيات الهوياتية للأمم وللأوطان، التي تقابلها في الجهة الأخرى نداءات تدعو للحفاظ على لغات وثقافات المجتمعات المحلية الشعبية وعلى لهجاتها. إذا ترتبط مسألة الهوية باللغة والثقافة ارتباطا شديدا، وتشكل هذه المفاهيم الثلاثة (أي الهوية واللغة والثقافة)، بتداخلها وتعدد معانيها عنصرا مهما في النقاش الذي يدور حول مسوغات بناء الدولة الجزائرية

بهويتها الوطنية ولغاتها المتعددة وضرورة الحفاظ على أمنها السياسي والثقافي والاقتصادي. وتقتضي مناقشة هذه العناصر الثلاثة أيضا الاعتماد على منجزات العلوم الإنسانية، مثل علوم اللغة واللسانيات وعلوم الاجتماع وعلم النفس وعلوم الاتصال والتاريخ والأنثروبولوجية... كون الهوية قد تكون فردية وجماعية ووطنية وثقافية، وتعريفاتها كثيرة.

وبادئ ذي بدء لابد من الإشارة إلى أن الفرد لا يستطيع العيش دون الجماعة فهو ينتمي إليها انتماء حقيقيا ومرجعيا تتدخل فيه العديد من العوامل مثل السن والجنس والمهنة والثقافة والدين والطبقة الاجتماعية، وغيرها من العوامل التي تجعل من الفرد عنصرا أساسيا في تكوين المجتمع وانسجامه.

وفي السياق هذه الأفكار يمكن القول أن الفرد باعتباره جزءا لا يتجزأ من المجتمع يعيش هويته الفردية والذاتية المبنية على الوعي بالذات كما يعيش هويته الجماعية المبنية على العلاقات والتمثيلات الاجتماعية التي يكونها داخل المجتمع الذي ينتمي إليه. أما عندما يتعلق الأمر بالانتماء الوطني فإن الفرد يعيش هويته الوطنية التي تتمثل في الشعور بالانتماء إلى جماعة كبرى قد لا يعرف أو يتعامل إلا مع القليل من أفرادها ولم يزر سوى بعض المناطق منها، ولكنه يشعر أنه يتقاسم معهم أشياء كثيرة، منها ما هو مادي ومنها ما هو رمزي. وهنا لابد من الإشارة على أن الهوية الوطنية تختلف عن الجنسية التي هي ذات بعد سياسي أو قانوني. وقد تعدد الهوية من كونها تشمل كذلك العرق أو الدين أو المقام الاجتماعي أو الانتماء الأيديولوجي، إلى آخره... ولكون الفرد يبحث عن الاعتراف من قبل الآخر، وكون الآخر (أو الغيرية) هو الوجه المقابل للأنا الفردية أو للذات الجماعية عندما يتعلق الأمر بمجتمع ما في مقابلته لمجتمعات أخرى. وعلى هذا الأساس فإن الهوية هي "شعور داخلي وخاص يتوقف على الطريقة التي تم بها الاستيعاب الباطني للمعالم الهوياتية مثل اللغة والممارسات الاجتماعية والثقافة والموسيقى والطبخ وأشياء أخرى، وفي العموم إن الهوية ليست جامدة، فهي تتطور عبر

الزمن، كما أن الشعور بالهوية قد يتشدد عندما تتعرض الهوية لتهديد الزوال، أو الوسم والتهميش².

وستظل مسألة الهوية مسألة معقدة وعلينا مقاربتها ومعالجتها وفق منهج علمي وأيضاً وفق المصادر الأدبية والفلسفية (أي من منطلق الثقافة العالمية) ومن منطلق المعيش اليومي (الثقافة الشعبية)، فالإحالة على أسس الهوية الوطنية ومرجعياتها ليس سهلاً، كون الهوية ليست ثابتة بل تعرف التحولات نفسها التي يعرفها المجتمع في تفاعله مع مختلف الأحداث والوقائع التي تمر بها الأمة في تشكلها السياسي. ولا يتعلق الأمر في هذا الباب ب"إفاضة أو بماهية ثابتة نلصقها بجماعة، لكن بالأحرى هي مسار لبناء ولتمائل تطوري يأخذ بعين الاعتبار التحولات السوسيو ثقافية والسياسية والاقتصادية"³.

إذا فالهوية هي نتاج اجتماعي بامتياز، يجعل الفرد يمر منذ طفولته الأولى عبر عدة مراحل ويخضع للتنشآت الاجتماعية المتعاقبة والمرتجة في حياته، بفعل تأثير مؤسسات عديدة كالعائلة والمدرسة ومؤسسات ثقافية وتربوية ودينية وسياسية أخرى، وما ينطبق على الفرد يسري على المجتمع باعتبار أن كل من الفرد والمجتمع متلازمان. وهذا يجرنا إلى القول أن كل شيء يتغير، ويعرف مسارات جديدة وتحولات عميقة، عبر التاريخ الطويل، "فالأساس السوسيو-ثقافي قد يتعرض للتغييرات وتتبدل اللغة، كما يتأثر الصفاء العرقي وكما يعرف الإقليم تحولات. هذا بالإضافة إلى أنه بإمكان، وفق السياق، أن تتناقض هذه المرجعيات الهوياتية وأن تتقاطع أو أن تتطابق"⁴. ولعل قراءة متأنية في تاريخ الشعوب والأمم قد تدلنا على التحولات العميقة التي مرت بها هذه التجمعات البشرية المختلفة، ومنها الجزائر وهنا تلعب الهزات والتمزقات الاجتماعية والسياسية والثقافية الكبرى وحتى الطبيعية في توجيه المسارات والتجليات والتصورات والدلالات في البناء الهوياتي. وفي هذا المضمار تلعب اللغة دوراً أساسياً في تحديد وتشكيل الهوية الفردية أو الجماعية، حيث أنها "تمثل جزءاً لا يتجزأ من هويتنا وتشكل أكبر عنصر في كل

تبادل ثقافي ولساني⁵، ولهذا فالهوية هي نتاج "العلاقات الديناميكية بين الفرد والممارسات الاجتماعية اليومية ومنها الممارسات اللغوية، إذ يتم بناء الهوية ويعاد بناؤها باستمرار. وتلعب اللغة، بوصفها عنصرا لهويتنا، دورا أساسيا في العلاقات الثقافية واللسانية"⁶. ويمكن القول أيضا أن "الانتماء الديني والانتماء اللغوي هما، بديهما، من بين أقوى مكونات الهوية"⁷، على أن لكل من عنصر اللغة أو الدين مجال خاص به واشتغال خاص يتفق مع الخلفية الثقافية لكل مجتمع.

وبالحديث عن اللغة، تجدر الإشارة إلى أن دارسي اللغة من لسانيين وعلماء اجتماع والأنثروبولوجيا، يتفقون على كون اللغة ظاهرة ومؤسسة اجتماعية، إذ لا يمكن لأي مجتمع أن يعرف انسجاما وتوصلا بين أفراده دون وجود لغة توظف بوصفها أداة اتصال وتواصل بين مكوناته وأداة تعبير عن الحاجات المختلفة التي يضمنها العيش المشترك والعمران الاجتماعي. ومما يؤكد ارتباط اللغة بالمجتمع وبالتالي بالهوية والثقافة، كون اللغة تؤدي وظائف متعددة على المستوى الاجتماعي والثقافي والسياسي، وترتبط بتاريخ المجتمع وتعرف التطورات ذاتها التي يعرفها المجتمع في الحاضر وفي المستقبل وتؤثر في تحولاته وتتأثر بها. فاللغة إذا هي "وسيلة للاندماج الجماعي وللتأكيد الفردي، تشتغل اللغة بوصفها محددًا وبوصفها قرينة انتماء. ولكونها وسيلة اتصال، فاللغة هي كذلك كيفية للتعبير عن الثقافة ووسيط للهوية"⁸.

إن مسألة العلاقة بين اللغة والهوية الثقافية ليست جديدة، وهي علاقة معقدة بدأت في الظهور لما باشرت اللغات طريقها إلى التقنين من خلال وضع المعاجم والقواعد النحوية على وجه خاص. وقد كان ذلك مع اللغة العربية في عصر التدوين في الفترة العباسية وقبله تدوين القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين ثم تلاها تدوين الحديث النبوي الشريف. كان الهدف من وراء ذلك الحفاظ على عقيدة المسلمين من الضياع وعلى وحدة المسلمين الدينية والسياسية والثقافية وعلى سلامة اللغة العربية، وكان فيما بعد تدوين السيرة النبوية وتاريخ المسلمين والشعر واللغة وعلوم أخرى لتعزيز

هذه الأهداف. وترسخ دور اللغة الوطنية داخل المجتمعات مع الظهور الحديث لفكرة الدولة-الأمة والأوطان والأقاليم في أوروبا تحت شعار "لغة، شعب وأمة" وهو شعار أسهم في القرن التاسع عشر في تحديد الأقاليم الوطنية، وفي ذات الوقت في انطلاق الصراعات للدفاع عن هذه الأقاليم أو امتلاكها، كما أسهم في نشأة "الوعي الوطني"⁹. إن هذا الوعي أو الشعور الوطني هو الذي سيدفع بالجزائريين إلى التكتل في الأحزاب الوطنية والجمعيات الثقافية منذ عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي للدفاع عن هوية السكان الأصليين والمطالبة بالاستقلال عن الدولة الفرنسية الاستعمارية. وقد خاض الجزائريون في تلك الفترة معارك كبيرة من أجل تحقيق تلك الأهداف المتمثلة في إعطاء المكانة التي تليق باللغة العربية والثقافة الإسلامية الأصيلة، والتتويه بدور جمعية العلماء المسلمين في هذا المجال ضروري وأكد. وتواصل هذا العمل في فترة الاستقلال ونتج عن هذا المخاض خريطة لغوية فريدة من نوعها، مما يفرض علينا التوقف عندها.

2- الخريطة اللغوية في الجزائر:

وفي هذا السياق يمكن القول أن الوضع اللغوي في الجزائر معقد ويحتاج إلى دراسة معمقة، بغية إيجاد الحلول المثلى لتجاوز الأزمات التي تعرضت لها الجزائر من قبل وقد تتعرض لها مستقبلا. يسجل الدارسون والباحثون في الحقل اللغوي أن الجزائر - بحكم تاريخها الطويل وجغرافيتها المنفتحة على العديد من المجالات اللغوية والثقافية: العالم العربي والعالم الإفريقي والعالم المتوسطي - تتميز بتوفرها على العديد من اللغات التي تتعايش بشكل أو بآخر ويتمثل ذلك في تواجد الثقافة واللغة الأمازيغية بمختلف تنوعاتها واللغة العربية التي تعبر عن مرحلة حاسمة في تبني سكان شمال إفريقيا اللغة العربية والدين الإسلامي، هذا إلى جانب تواجد اللغة الفرنسية التي فرضت فرضا على الجزائريين في الفترة الاستعمارية. ولعل التعايش بين هذه اللغات والثقافات لم يكن بسيطا بل كان معقدا، تتخلله فترات هدوء وفترات نزاع وصراع حادين.

فالسوق اللساني في الجزائر يتوزع بين اللغة العربية، اللغة الوطنية والرسمية الأولى في الجزائر وهي لغة الكتابة والمعرفة في المدرسة وفي الإعلام وفي الإدارة، واللغة الفرنسية التي تؤدي الوظائف نفسها وبخاصة في أهم المؤسسات الاقتصادية والبنوك وتدرس في التخصصات العلمية بالجامعات والمدارس العليا، هذا إلى جانب اللغة الأمازيغية، اللغة الوطنية الثانية والتي لا تزال تبحث عن طريق لها، وهي لغة التواصل اليومي في العديد من مناطق الوطن وبخاصة في منطقة القبائل، هذا دون أن ننسى ما تؤديه اللهجات المحلية من وظائف في مجال التعاملات الاجتماعية. ولعل هذا التواجد المكثف لجميع هذه اللغات في الجزائر قد يثير العديد من المسائل التي تتجلى في صراع لغوي بين المعريين والمتفرنسين ومعهم مجموعة كبيرة من الناطقين بالأمازيغية. ولعل لهذا الصراع أسباب وجذور تاريخية تعود إلى الحركة الوطنية سنة 1949 حيث وقع اختلاف حول المحددات الهويةية للوطن بين دعاة البعد الأمازيغي وبين دعاة البعد العربي والإسلامي الحصري للهوية الجزائرية، مما أدى إلى نشوب أزمة سياسية كبيرة داخل حزب الشعب الجزائري/ وحركة انتصار الحريات الديمقراطية. وستلقي هذه الأزمة بظلالها على الحركة الوطنية بمجملها، وإن خف هذا الصراع أثناء الثورة التحريرية، لكنه سيستمر في مرحلة الاستقلال وبأشكال مختلفة وبخاصة مع بداية الثمانينيات في بلاد القبائل، حيث تصاعدت المطالبة بالاعتراف بالهوية وباللغة الأمازيغية.

وهو الأمر الذي يجعلنا نلاحظ أن الجزائريين يملكون عدة لغات يتعاملون بها في حياتهم اليومية والعملية وهي: اللغة العربية الدارجة والأمازيغية واللغة العربية الفصيحة واللغة الفرنسية، وتعرف هذه اللغات فيما بينها "تعايشا صعبا مطبوعا بالتناقص وهو الصراع الذي يجمع بين اللغتين المعياريتين المهيمنتين (الأولى بحكم دستورها القانونية بوصفها اللغة الرسمية والأخرى بوصفها لغة أجنبية لكنها تملك شرعية بفضل تفوقها في الحياة الاقتصادية)"¹⁰. كما تواجه اللهجات الشعبية احتقارا كبيرا من قبل العديد من الفاعلين في المجال العلمي والثقافي والتربوي، ولا يتوقف

الأمر عند المسألة اللغوية في الجزائر، بل يتعداه إلى الثقافة المرتبطة، بطبيعة الحال، بالجوانب اللغوية.

3- الثقافة العالمية والثقافة الشعبية:

إن معالجة هذه المسألة المرتبطة بالثقافة في شكلها النخبوي والشعبي، تتطلب إقامة جسور تواصل بينهما، بغية تمتين أواصر التفاعل والتبادل بينها، فالثقافة العالمية التي تضم الآداب والفلسفة والتاريخ والعلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى والمكتوبة باللّغة الفصيحة وهي من إنتاج نخبة المجتمع هي التي تسترعي الاهتمام الكبير في عدة مجالات ومنها المجال المدرسي والجامعي. ومع ذلك نسجل في الفترة الأخيرة، عناية مهمة بالثقافة الشعبية من قبل الدارسين والمتقنين والمهتمين إذ تشمل الثقافة الشعبية الحكايات والأساطير والملاحم ومختلف أشكال التعبير الشعرية الشعبية والأمثال والحكم والأغاز وفنون الطبخ واللباس والأغاني والممارسات الاحتفالية وغيرها من أشكال التلطف الفني والممارسات الثقافية. وتتميز هذه الثقافة الشعبية باعتمادها على الاسترسال والاستنكار وعلى المشافهة وعلى غياب المؤلف في غالب الأحيان، مما يمنح لرواتها حرية التصرف بالإضافة أو النقصان. ولعل ما يميز الثقافة الشعبية في الجزائر كونها تغرق في المحلية، وفي كثير من الأحيان، مما يجعلها تعبر عن الخلفية الثقافية للمناطق المختلفة وتبرز القيم والتجارب المشتركة بين الأفراد الذين يعيشون في هذه التجمعات السكنية وتدفع بهم إلى التضامن والمحافظة على التماسك العائلي وانسجام الجماعة، ولعل أهمية هذه الثقافة الشعبية في الحفاظ على هوية سكان الجزائر الأصليين في الفترة الاستعمارية لا يمكن تجاهلها. وعليه يمكن القول أن الثقافة الشعبية في الجزائر كغيرها من الثقافات الشعبية تعني "الثقافات التي تتعارض في منطقتها ولغتها وصورها ومحاورها ومراجعها ومقاصدها مع الثقافة العالمية أو الرسمية. وهي كل الثقافات التي تتكلم بلغة العوام وتعكس بناهم الذهنية ورؤيتهم للعالم"¹¹. ومن هنا

جاء الاختلاف بين هاتين الثقافتين الذي يكمن في كفاءات التعبير والإنتاج وأشكال تبليغ المضامين والخطابات السردية.

ولتحقيق غاية التواصل بين الثقافتين، أي الثقافة العالمية والثقافة الشعبية، لابد من جمع وتبويب ودراسة الثقافة الشعبية والكشف عن أشكالها ومضامينها من خلال الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية والنفسية واللسانية وتحليل الخطاب، وتوظيفها في الأعمال الأدبية والفنية، مثل الرواية والمسرح والسينما وغيرها من الفنون التعبيرية، والتعريف بها عبر وسائل الإعلام وضمن الفضاءات الثقافية والتربوية المختلفة. وفي هذا الصدد يشير الأستاذ عبد الحميد بورايو إلى أنه قد "عرفت الثقافة الشعبية الجزائرية حالات من تواصل وتكامل مع الثقافة العالمية للمجتمع الجزائري، كما عرفت حالات قطيعة وتنافر، تبعا للمراحل التاريخية ولطبيعة الحكم السياسي الذي يكرس القطيعة عندما يكون أجنبيا، ويتميز بتعدد قنوات التواصل في فترات ظهور نظام سياسي منبثق من رحم المجتمع"¹². وبخاصة وأن العديد من المظاهر الثقافية هي مشتركة بين الجزائريين على غرار احتفال "يناير"، وممارسات ثقافية أخرى توارثتها الأجيال عبر تاريخ الجزائر الطويل والعريق.

4- اللغة الأمازيغية:

والإشارة إلى احتفال "يناير" الذي تم اعتماده مؤخرا من قبل السلطات الجزائرية عيداً وطنياً- تجعلنا نمر للحديث عن اللغة الأمازيغية التي تمثل، بمختلف تنويعاتها، لغة الجزائر القديمة، التي تمتد من العصر النوميدي إلى الآن، وعلى الرغم مما عرفته الجزائر من تحولات تاريخية وثقافية ولغوية، فقد صمدت هذه اللغة وبقيت لغة التعامل اليومي في عدة مناطق من الوطن: في منطقة الأوراس والشرق الجزائري (قسنطينة وباتنة وسطيف...) حيث تستعمل اللغة الشاوية، ومنطقة الجرجرة أي القبائل (تيزي أوزو وبجاية وبرج بوعريريج...) حيث تستعمل القبائلية، ومنطقة الهقار وبنو مزاب حيث تستعمل الميزابية والترقية،

وتستعمل الشلحة في بعض المناطق من الغرب الجزائري¹³. وقد حافظت هذه الممارسات اللغوية والخطابية المتنوعة على الهوية المتميزة لسكان هذه المناطق لارتباطها بالثقافة المحلية والشعبية وبعادات وتقاليد وتصورات المكونة للجماعة المحلية. والمعروف أن الجزائر المستقلة لم تعتن بشكل كبير بهذه الثقافات المحلية وبلهجاتها وقد سعى الخطاب السياسي الرسمي للتركيز على الهوية العربيّة والإسلامية ضمن رؤية أحادية تقصي التنوعات الثقافيّة واللغوية الأخرى. وهو الأمر الذي ولّد نوعاً من التشنج الهوياتي لدى قطاع كبير من سكان هذه المناطق وبخاصة في منطقة القبائل، وتسبب ذلك في العديد من الاضطرابات الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية، وقد بلغت هذه الأحداث مستويات كبيرة من الخطورة في تهديد استقرار ووحدة المجتمع الجزائري. وفي هذا الصدد يمكن القول، أن الفرد أو الجماعة عندما يشعر بالإقصاء أو التهميش، سواء كان ذلك الإقصاء ذي طابع سياسي أو اجتماعي أو ثقافي، فسوف تتجلى لدى هذا الفرد أو تلك الجماعة مواقف سلبية قوية وأحياناً عنيفة تجاه كل ما يمثل المؤسسة الرسمية، ولهذا تجد الجماعة "نفسها نوعاً من رد الفعل والكبرياء وتضع لنفسها حدوداً تفصلها عن الآخرين بتمجيد خصوصيتها (...) تعزل نفسها بشكل إرادي، وعليه تشهد ظواهر الإقصاء الذاتي التي تترجم غالباً على أساس تمجيد بعض خصائص الزمرة"¹⁴. وهنا تثمن الجماعة المقصاة بعض المظاهر الثقافيّة وتوظفها بوصفها "ملجأ هوياتياً" تعتمد للتمايز عن ما تعتقد أنهم مختلفون عنها.

وبهذه المواقف السلبية تجاه الآخرين تعود الجماعة، التي تعاني من الإقصاء والتهميش، إلى الأصول والمنابع "الصافية" التي تتجلى في عدة مظاهر نذكر منها: الانطواء على الذات في حالة الشعور بالتهديد الهوياتي، أو الانفتاح على الآخرين عندما يكون الاتصال بين الزمر الاجتماعية ممكناً بالاندماج والتداخل، أو التمازج والاختلاط عندما تعيش المجموعات على فضاء واحد ومنه التهجين اللغوي والثقافي¹⁵. فهيمنة مجموعة لغوية على أخرى وإقصائها لبقية المجموعات قد يؤدي

إلى الشعور بالظلم وينتج عنه التطرف والرغبة في الانفصال، ولتجاوز مثل هذه العواقب والمعضلات لابدّ من تشجيع عمليات الانفتاح والتحاور والتواصل بين اللغات والثقافات الموجودة على الأرض الواحدة. وقد تداركت الحكومة الجزائرية هذه الأمور وبادرت بتأسيس المحافظة السامية للأمازيغية بتاريخ 28 مايو 1995، واعتبر ذلك بمثابة الخطوة الأولى نحو الاعتراف باللّغة الأمازيغية، وتمّ الشروع في تدريس هذه اللّغة منذ بداية الدخول المدرسي لتلك السنة وتكوين المكونين في هذا التخصص الجديد¹⁶، وقد تبعت تلك الخطوة خطوات أخرى ذات أهمية بالغة.

وللتذكير فإنّ منطقة القبائل لم تعرف السكنية ولم تهدأ منذ بداية الثمانينيات إلى حدود بداية الألفية الثالثة، إذ سبق وأن شهدت العديد من الأحداث والاحتجاجات التي طالبت بالاعتراف باللّغة والهوية الأمازيغية، وفي هذا السياق نشير إلى ما اصطلح على تسميته آنذاك بالربيع البربري سنة 1980، وتبعه تأسيس الحركة الثقافيّة البربرية وأيضاً مقاطعة المدرسة أو "إضراب المحفظة" سنة 1994-1995، وأحداث سنة 2001 التي قادتها حركة "العروش". كل هذه التحركات دفعت بالدولة الجزائرية إلى تفهم الوضع ومعالجته بحكمة من خلال تسجيل الهوية الأمازيغية في الدستور الجزائري إلى جانب الإسلام والعروبة. وبعد مخاض عسير واضطرابات كبيرة أصبحت الهوية الجزائرية ثلاثية الأبعاد، من الناحية السياسيّة والقانونية. وبالمناسبة لابدّ من الإشادة بهذه الخطوة السياسيّة الشجاعة، التي وضعت حدا لهذه القلاقل في منطقة القبائل وقطعت الطريق أمام الحركات التي كانت تهدد الوحدة الوطنية. أما الآن فإنّ الأمر يقتضي إبعاد هذه المسألة الهوياتية المتعلقة باللّغة الأمازيغية عن التلاعب السياسي وعن المزايدات الإيديولوجية، والسماح لذوي الاختصاص من علماء اللّغة والدراسات التاريخية والأنثروبولوجية من القيام بعملهم، والاتفاق - وبما يخدم التلاحم الوطني والبعد الثلاثي للهوية الجزائرية - على الاختيار الأمثل للحروف وللقواعد والمعاجم وهي عمليات ليست بسيطة وستأخذ، بلا شك، وقتاً طويلاً وستحتاج إلى توافق بين الفاعلين

والمختصين في هذا المجال اللغوي والثقافي... وعليه يجب التعويل على ما ستقوم به أكاديمية اللغة الأمازيغية التي تم إقرارها مؤخرا.

5- اللغات الأجنبية:

عرفت الجزائر منذ الأزل العديد من الحضارات والثقافات واللغات، (الفينيقيون والرومان والوندال والفتوحات الإسلامية والأترك العثمانيون والأسبان في الغرب الجزائري وأخيرا الفرنسيون)، إلا أن هذه الشعوب المتوافدة على الجزائر لم تترك أثرا كبيرا عكس التواجد العربي والإسلامي بهذه المنطقة، إذ تبنى سكان الجزائر منذ القرن السابع الميلادي اللغة العربية والدين الإسلامي، كما كان للتواجد الفرنسي أثرا معينا في الجزائر ولأسباب مختلفة، إذ سعى الاستعمار الفرنسي للقضاء على الهوية العربية والإسلامية للسكان الأصليين وتعويض ذلك بالثقافة واللغة الفرنسية. وإثر ذلك تمت محاربة اللغة العربية وغلق المدارس التي كانت تقوم بتدريسها وحتى المؤسسات الدينية من مساجد وكتاتيب لم تسلم من جبروت الاستعمار الذي مارس التضييق على مدرسي اللغة العربية وعلى الأئمة، وسعت الإدارة الفرنسية بكل الوسائل لتجهيل الشعب الجزائري على أكثر من صعيد. كما قامت ذات الإدارة بجعل اللغة الفرنسية تهيمن على كل مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، فاضطر بعض الجزائريين إلى تعلمها مكرهين وللضرورة. والجدير بالذكر أن هذا التعليم، في المرحلة الاستعمارية كان مقتصرًا على فئة قليلة من الجزائريين، الذين أدركوا أهمية التعليم وضرورة تعلم اللغة الفرنسية لأنها كانت تمثل لهم وسيلة للترقية الاقتصادية والاجتماعية، ونظروا كذلك لما قد يجنونه من منافع بإقبالهم على تعلمها "من أجل انخراطهم في النظام الكولونيالي، بالوصول إلى الوظيفة العمومية والمهن الحرة والوظائف الاقتصادية"¹⁷، بعد أن أغلقت في وجوههم كل أبواب العيش الكريم.

ومن المفارقات العجيبة، أن انتشار اللغة الفرنسية كان قويا بعد حصول البلاد على استقلالها بسبب تعميم التعليم لصالح كافة أبناء الشعب الجزائري، وكون

النظام التعليمي الذي ورثته البلاد، كان نظاما كولونياليا، لغته الأولى هي اللغة الفرنسية. ومع السنوات الأولى للاستقلال سعت السلطات الوطنية في عملية إدراج اللغة العربية في المدرسة الجزائرية بالاستعانة بالخبرة العربية ومنها المصرية على وجه الخصوص، إلى أن تعربت جميع أطوار التعليم الابتدائي مع إرساء المدرسة الأساسية مع نهاية السبعينيات من القرن الماضي. وقد نتج عن هذه السياسة التعليمية تكوين زمرتين ثقافيتين تتمثلان في زمرة المعربين وزمرة أخرى تتمثل في المنقرنين. وقد سعى بعض المنقرنين بكل ما ملكوا من قوة في عرقلة عملية تعميم اللغة العربية والإبقاء على اللغة الفرنسية. وقد كان الصراع بين الطرفين أحادي اللغة، كل طرف يستعمل اللغة التي يتقنها، وكان الخلاف مبنيا على الجهل بالثقافة الأخرى - سواء كانت ثقافة ناطقة باللغة العربية أو باللغة الفرنسية - وأيضا على العناد الأيديولوجي والتشنج وأحيانا الاستفزاز. وكان من نتائج هذا الوضع أن "ظهر شكلا من أشكال المقاومة التي تؤكد على الإبقاء على اللغة الفرنسية وظهور الحركة البربرية التي تطالب بالاعتراف بالأمازيغية من جهة وترفض اللغة الإنجليزية بديلا للغة الفرنسية"¹⁸. وإن كانت اللغة العربية - مع مر الزمن - قد استطاعت أن تحتل مكانة مهمة في العديد من المؤسسات التربوية منها والثقافية والإعلامية والقانونية، فإن اللغة الفرنسية - على الرغم من تراجعها في الكثير من المجالات - لا تزال محل تعامل في الكثير من الميادين الثقافية والإعلامية ولا تزال تدرس بواسطتها العلوم الدقيقة والتكنولوجيات في الجامعات والمدارس العليا. وهو الأمر الذي خلق تناقضا واضحا، يضيف على الصراع اللغوي بعدا آخر، وكأن اللغة العربية عاجزة على التعامل مع هذه العلوم، في تصور العديد من الفاعلين المفرنسين.

إن التعامل مع اللغة الفرنسية وبهذا الشكل وعلى مختلف المستويات التعليمية يجعل من الوضع اللغوي أشد تعقيدا وتسجل المدرسة الجزائرية مستوى كبير من التسريبات والإخفاقات التربوية بسبب الصعوبات الذاتية والموضوعية التي تحول

دون تعلم اللغة الفرنسية من قبل العديد من التلاميذ. والكثير من الطلبة الذين يتوجهون للتخصصات العلمية، على المستوى الجامعي، يجدون صعوبة في مواصلة الدراسة باللغة الفرنسية، وبخاصة من أبناء الفئات الفقيرة والمهمشة وأبناء المدن الداخلية والقرى، الذين لا يملكون الإمكانيات المادية لتعلم اللغة الفرنسية وبالتالي تحضير أنفسهم للوظائف والمهن ذات السمعة العالية مثل الطب والعمل البنكي والتكنولوجيات،... "فالغموض الذي يحوم حول المكانة التي تحتلها لغة القوة الاستعمارية القديمة هي سمة من سمات مجتمعات ما بعد الاستعمار، وربما تمثل الجزائر أحسن النماذج لها"¹⁹.

وهو الأمر الذي جعل الجزائر تعيش نوعا من الازدواجية اللغوية الفعلية وإن كان الأمر غير معترف به من الناحية السياسية والقانونية، وهذه أيضا من المشاكل اللغوية ذات التعقيد الكبير التي تعيشها الجزائر، والتي لا بدّ من دراستها وإيجاد حلول لها بما يضمن الانسجام الاجتماعي والثقافي للمجتمع والسير الحسن للمؤسسات.

6- التعدد الثقافي واللغوي والعيش المشترك:

يقضي الوضع الثقافي واللغوي الثري والمتناقض والمعقد في الوقت ذاته معاينة علمية جدية وفحص ميداني للوقوف على مختلف التحولات التي يعيشها المجتمع الجزائري، وإقامة جسور الحوار عميق بين مختلف النخب والفعاليات الثقافية والفكرية وتعميق المصالحة مع الهوية والذات والذاكرة والتاريخ الجزائري القديم منه والمعاصر، وبالتالي نقل تجارب الأسلاف للفئات الشبابية وعلى أن يكون التنوع والتعدد والاختلاف من عوامل الانسجام والاندماج، لا عوامل تفرقة وشقاق.. ويبدو أن هذه الأمور ليست بسيطة لكنها ليست مستحيلة، إن توفرت النية الصادقة والالتزام الميداني الفعلي. ويتطلب هذا التوجه شخصيات ثقافية قوية ومحترمة من الجميع لإقامة هذه الجسور والتحاور مع الجميع في ظل ندوات فكرية مفتوحة من الناحية الفكرية شريطة أن يبتعد المشاركون عن الاستفزاز

والتحزب والتعصب الإيديولوجي. ويتبع تلك الخطوات تنظيم الأسابيع الثقافية لكل ولاية عبر الوطن ورحلات الشباب في المدن والقرى الجزائرية والتنقل للدراسة في الجامعات خارج مقر سكن الطلبة بمبادرات تعزز الشعور الوطني والانتماء.

أما فيما يخص اللغة العربية لابد من تعميمها في الدراسة الجامعية وعلى وجه الخصوص في التخصصات العلمية وإدخالها وبالتدرج في مختلف القطاعات الاقتصادية، لكن بعد دراسة معمقة وتوفير جميع شروط النجاح لهذه العملية الإستراتيجية. كما ينبغي العمل على ترقية اللغة الأمازيغية بما يرفع من شأنها ويدمجها في الحياة التربوية والثقافية في مختلف القطاعات والمناطق، ووضع برنامج طويل المدى لتعليم اللغة الانجليزية في جميع مراحل التعليم من الابتدائي إلى الجامعي، حتى يتمكن طلاب العلم من الاستفادة مما تحوزه هذه اللغة من إمكانيات علمية هائلة، وستبقى اللغة الفرنسية لغة أجنبية كغيرها من اللغات الأجنبية يمكن الاستفادة منها في عدة مجالات. إن إشاعة ثقافة الحوار والسلم والتسامح واحترام الرأي والرأي الآخر والقبول بالاختلاف، هي أمور تتطلب جهودا مضنية وتتطلب وقتا طويلا يتجاوز عدة أجيال، لكن هذا لا يمنع من مباشرة هذه الخطوات وتنشئة الأجيال الصاعدة من الآن على هذه الممارسات الثقافية، المبنية أيضا على احترام الخصوصيات الثقافية واللغوية لكل منطقة ولكل مجموعة محلية والابتعاد عن الأحكام المسبقة. وهذا يرتبط بطبيعة الحال ببناء دولة ديمقراطية وتعددية قوية، على أساس المواطنة ودولة القانون ومشروع اجتماعي وسياسي يحدد معالم المستقبل تتخرب فيه الفئات المختلفة للمجتمع وبخاصة فئة الشباب.

وهكذا يمكننا تحصين الجزائر من المحاولات المتعددة لضرب استقرارها وبالتالي الابتعاد عن استعمال العنف في المشاكل السياسية، لأن الجزائريين منذ مدة طويلة ظلوا متماسكين على الرغم من كل شيء.

الهوامش والإحالات

¹ أمحمد جبرون: جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور (ضمن) اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، بيروت 2013، ص.49.

2Ahmed BOUOUD: **L'amazighité et l'identité linguistique : la langue ...**
- bououd.e-monsite.com/medias/files/identite-copy-1.pdf, p. 3.

³ Mohammed DRIDI: Langue(s), culture(s) et identité(s) collective(s) : une approche glottopolitique des processus de construction identitaire en Algérie.
https://www.univ-ouargla.dz/.../affiche_soutenance_doctorat_ès_sciences_dridi_2014..p.4

⁴ المرجع نفسه، ص.5.

⁵ Roula Tsokalidou et Giota Gatsi Keywords: Identity, Intercultural, Plurilinguism Synergies Sud-Est européen n° 2 – 2009,
https://gerflint.fr/Base/SE_europeen2/roula.pdf, p. 196.

⁶ نفسه، ص. 197.

⁷ Giota Gatsi: Post graduate student, Aristotle University of Thessaloniki–
Keywords: *Identity, Intercultural, Plurilinguism– Synergies Sud-Est européen* n° 2 – 2009, P. 199.

⁸ Abdallah-Pretceille Martine. Langue et identité culturelle. In: *Enfance*, tome 45, n°4, 1991. pp. 305-309;
http://www.persee.fr/doc/enfan_0013-7545_1991_num_44_4_1986-P.306.

⁹ Patrick CHARAUDEAU, Langue, discours et identité culturelle : | Klincksieck | *revue de didactologie des langues-cultures*, 2001/3-4 - N°123, P. 342.
<https://www.cairn.info/revue-ela-2001-3-p-341.htm>

¹⁰ Khaoula Taleb-Ibrahimi citée (in): *Langues maternelles et langues étrangères en Algérie – Le Gerflint*
<https://gerflint.fr/Base/Algerie11/abderrezak.pdf>, P.122.

¹¹ نفسه.

¹² عبد الحميد بورايو، التواصل والقطيعة في علاقة الثقافة الشعبية بالثقافة العالمية من خلال النموذج الجزائري، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 22، السنة السادسة، صيف 2013، المنامة (البحرين)، ص.16.

¹³ Discours officiel et pratiques langagières en Algérie - Communication ... comsol.univ-bpclermont.fr/IMG/doc/Abbaci_langues_et_diversite.do, P.2.

¹⁴ Dr. Abdenour Arezki: L'identité linguistique : une construction sociale et/ou un ... - Gerflint <https://gerflint.fr/Base/Algerie2/abdenour.pdf> :P.197

¹⁵ L'amazighité et l'identité linguistique : la langue comme marqueur ... <http://bououd.e-monsite.com/medias/files/identite-copy-1.pdf>, pp. 7-8.

¹⁶ Discours officiel et pratiques langagières en Algérie http://comsol.univ-bpclermont.fr/IMG/doc/Abbaci_langues_et_diversite.doc, p.5.

¹⁷ Fanny Colonna citée par Khaoula Taleb el Ibrahimy : L'Algérie : coexistence et concurrence des langues <https://anneemaghreb.revues.org/305>.

¹⁸ المرجع نفسه، ص. 4.

¹⁹ **L'Algérie** : coexistence et concurrence des **langues** <https://anneemaghreb.revues.org/305>

دور اللّغة القوميّة في بناء وتشكيل الوحدة الوطنيّة (تجرّبه المجتمعات الأوروبيّة نموذجاً)

الدكتور سمير أبيش

جامعة محمد الصّدّيق بن يحي جيجل

يذهب العديد من الباحثين والفلاسفة إلى القول بأن اللّغة القوميّة لأيّ شعب أو مجتمع كانت تساهم بشكل كبير ومباشر في تشكيل وبناء وحدته الوطنيّة، وأنّها السّمة البارزة التي تجعل شعباً أو مجتمعاً ما يختلف عن غيره من الشّعوب أو المجتمعات حتّى شاع قولهم هذا فرنسي نسبة إلى الفرنسيّة وهذا ألماني نسبة إلى الألمانيّة وهكذا، وفي حديثه عن الشّروط الممكنة من أجل توليد الشّعور القومي بين عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر (أنّ اللّغة هي أكثر هذه الشّروط أهميّة)، وجعلها ساطع الحصري كبير القوميين العرب أس الأساس في تكوين الأمّة وبناء القوميّة، وفي بحثه الطويل والمتشعب عن تشكّل القوميات الأوروبيّة يذكر الدكتور نورالدين حاطوم (أنّ اللّغة أصبحت ابتداء من منتصف القرن 19 في العالم الغربي من أهم المقومات المحددة للجنسيّة لأيّ شعب أو أمّة)، وكتب جون جوزيف في كتاب له بعنوان اللّغة والهويّة قائلًا: (ومما لا ريب فيه أنّ الحقيقة المهمّة الأخرى التي يجب أن نضعها نصب أعيننا بشأن العلاقة بين اللّغة الأمّ والمتكلم هي أن اللّغة الأمّ أساسية في تشكيل الهوية اللّغوية وأنّ اللّغة الأمّ في حدّ ذاتها تأكيد للهويّة القوميّة) وهو نفسه ما يذهب إليه الدكتور حامد أبو هدرة بقوله: (أنّه لئن كانت الحروب هي التي سمحت بغزو الأرض فإن اللّغات هي التي ستسمح بإقامة وعي وطني ودعمه وإظهاره على الأشهاد، ذلك أن العامل اللّغوي هو دون شك الأهم في إبراز الوعي بالهويّة)، بهذه التوصيفات تناول العلماء أهميّة ودور اللّغة في بناء اللّحمة الوطنيّة للناطقين بها.

وللإحاطة أكثر بالدور الذي لعبته اللّغات القوميّة في تشكيل وبناء الوحدة الوطنيّة

للناطقين والمتكلمين بها حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية تتبع المسار الذي لعبته اللغات في تشكيل القوميات الأوروبية بوصفها أكثر النماذج وضوحاً وذلك عبر دراسة ثلاث نماذج هي (النموذج الفرنسي، والألماني والإنجليزي)، وكذلك من أجل أن نعرف أن الدعوات المنادية بالحفاظ على اللغات الوطنية وأدوارها الاجتماعية ليس خاصاً بالأمة العربية أو بالعرب الذين يتهمون بالتعصب للغتهم وإنما هي ظاهرة إنسانية خاصة بجميع الشعوب، وإحدى هاته الشعوب، الشعوب الأوروبية التي توصف بالحدثة وهي النتيجة التي تسعى الدراسة الوصول إليها.

قبل الخوض في الدور الذي تلعبه اللغة في توليد الشعور الوطني والجمعي وترسيخ وبناء الوحدة الوطنية، كان لزاماً الوقوف على مفهوم الوحدة الوطنية ومعانيها ودلالاتها وأهميتها داخل المجتمع.

أولاً- في مفهوم الوحدة الوطنية والمعاني الدالة عليها:

1- مفهوم الوطنية: يرى ساطع الحصري أن الوطنية هي حب الوطن والشعور بارتباط باطني نحوه.⁽¹⁾ وهو الارتباط الذي يتحقق كما بين ابن باديس رحمه الله بقوله: (إنما ينسب للوطن أفراده الذين ربطتهم ذكريات الماضي ومصالح الحاضر وأمال المستقبل، والنسبة للوطن توجب علم تاريخه والقيام بواجباته من نهضة علمية واقتصادية وعمرانية والمحافظة على شرف اسمه وسمعة بنيته)⁽²⁾ ولذلك يمكن القول أن الوطنية أو الشعور بالانتماء للوطن قبل أن تكون شعاراً سياسياً أو علاقة مع الأرض هي شعور يتكون في وجدان الساكنين على هذه الأرض فمكمنه القلب قبل أي شيء والدليل على ذلك أن هنالك شعوباً هجرت من أوطانها أو دمّرت بالكامل ولا كُن لأن أوطانها بقت موجودة في وجدانها وشعورها أمكن لها أن تعيد بعث هذه الأوطان من جديد، وتجربة الشعب الألماني بعد الحرب العالمية الثانية أكبر دليل.

وهو ما يجعلنا قبل الحديث عن الوحدة السياسية للوطن الأكثر ارتباطاً بالأرض إلى الحديث عن الوحدة ذات الارتباط بالشعور، وهو ما يعرف بالهوية

والشخصية الوطنية.

2- مفهوم القومية، الهوية والشخصية الوطنية:

إن جميع هذه المفاهيم التي تستعمل في الغالب عند الكثيرين للتعبير عن الجانب الانفعالي والعاطفي المتعلق بالوطن، جاءت لتأخذ في أغلبها منحاً يشير إلى بُعد الانتماء والثقافة المشتركة داخل المجتمع الواحد، وهو ما نلمسه من خلال التعاريف التالية التي تقدمها بعض قواميس العلوم الاجتماعية إليها:

فقد جاء في قاموس علم الاجتماع لعاطف غيث تحت مادة القومية أنها تشير إلى (الانتماء إلى أمة معينة والتوحد معها وينطوي مصطلح القومية طبقاً لهذا المعنى وفي معظم الأحوال الاشتراك في ثقافة واحدة بما في ذلك اللغة المشتركة، ويضيف أيضاً أنها تشير إلى الانتماء إلى جماعة تشترك في سمات ثقافية واحدة تنطوي في الغالب على لغة مشتركة وتاريخ مشترك)⁽³⁾، وهو نفس المفهوم الذي يعطيه لها القاموس الشامل الخاص بمصطلحات العلوم الاجتماعية⁽⁴⁾، ولم يبتعد "أندرسون" أحد أكثر علماء الاجتماع المهتمين بالدراسات السوسولوجية حول القومية والهوية عن هذا المعنى، بقوله أن القومية (تتعلق أساساً- بأمور ثقافية- اللغة والدين والرموز)⁽⁵⁾

أما مفهوم الهوية فقد جاء ليأخذ تقريباً نفس هذا المعنى المعطى لمفهوم القومية ففي معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع أن مفهوم الهوية ينطلق من خلال تصور الجماعة بوصفها كيانه منسجماً وأمة ذات جوهر مشترك⁽⁶⁾، وأن سؤال الهوية ينحصر ببعد الانتماء، الانتماء إلى الثقافة المشتركة التي تمثل الشرط الأساسي للتعبير عن الذات⁽⁷⁾، وهو نفس المفهوم الذي صاغه "دنيس كوتش" لمفهوم الهوية بتعبير قد يختلف في الصياغة لا أكثر، حيث يرى كوتش أن الهوية بناء يبني في علاقة تقابل فيها مجموعة أخرى تكون في تماس معها أي أن الهوية نمط تصنيف تستعمله المجموعات لتنظيم مبادلاتها، وأنها حسب فريديريك بارك (رصد السمات الثقافية التي يستعملها أفراد المجموعة ليثبتوا تمايزاً ثقافياً ويحافظوا عليه)⁽⁸⁾ وبين المفكر الفرنسي جاك أتالي أن هذه السمات الثقافية لهوية الأمة هي لغتها وثقافتها

وطريقة تفكيرها وانخراطها في العالم⁽⁹⁾، ولم يخرج الدكتور حليم بركات في تعريف طويل يحمل توصيفات كثيرة على هذا المعنى المقدم لمفهوم الهوية، بقوله أن الهوية وعي للذات والمصير التاريخي الواحد، من موقع الحيز المادي والروحي الذي نشغله في البنية الاجتماعية، وبفعل السمات والمصالح المشتركة التي تحدد توجهات الناس وأهدافهم لأنفسهم ولغيرهم وتدفعهم للعمل معا في تثبيت وجودهم والمحافظة على منجزاتهم وتحسين وضعهم وموقعهم في التاريخ، الهوية من حيث كونها أمرا موضوعيا وذاتيا معا هي وعي الإنسان وإحساسه بانتمائه إلى مجتمع أو أمة أو جماعة أو طبقة في إطار الانتماء الإنساني العام، إنها معرفتنا بما، وأين، ونحن، ومن أين أتينا، وإلى أين نمضي، وبما نريد لأنفسنا والآخرين، وبموقعنا في خريطة العلاقات والتناقضات والصراعات القائمة⁽¹⁰⁾.

هذا ولم يتعد التناول السوسيولوجي لمفهوم الشخصية الوطنية عن مفهومي القومية والهوية، فقد جاء في قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية تحت مادة طابع قومي للشخصية أنه يدل على مجموعة الخصائص المميزة للشخصية والخصائص الثقافية والبناءات النظامية التي تميز مجتمعا معينا عن غيره من المجتمعات⁽¹¹⁾ أما معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية فقد جاء فيه تحت مادة الصيغة العامة للشخصية أنه مفهوم تفسيري يدل على أن الناس في ثقافة معينة يميلون الى التقارب أو التماثل وهذا التماثل في طابع الشخصية بين غالبية أعضاء المجتمع يرجع إلى اشتراكهم في خبرات وظروف ثقافية واجتماعية عامة.

ويرى الدكتور أحمد بن نعمان أن مفهوم الهوية من ناحية الدلالة اللغوية هي كلمة مركبة من ضمير الغائب " هو " مضاف اليه ياء النسبية لتدل الكلمة على ماهية الشخص أو الشيء المعني كما هو في الواقع بخصائصه ومميزاته التي يعرف بها[...]. وأن الهوية بهذا المعنى هي اسم الكيان أو الوجود على حاله، أي وجود الشخص أو الشعب أو الأمة كما هي بناء على مقومات ومواصفات وخصائص معينة تمكن من معرفة صاحب الهوية بعينه دون اشتباه مع أمثاله من الأشباه.

وأما الشخصية هي نسبة إلى " الشخص " وهي مشتقة من الفعل شَخَصَ يشَخِّصُ تشخيصاً أي حدّد يحدّد تحديداً، والشخصية بهذا المعنى تعني التحرّر والتميز والاستقلال والإرادة الواعية في نفس الوقت، وأنه من المعاني المتعددة للشخصية أنها تعني فرداً ذا قيمة ونقلاً في المجتمع نتيجة بروزه وتميزه عن أقرانه بصفات معنوية تجعله مستقلاً وغير تابع لغيره فيكون له وجود محسوس بين آلاف الأفراد العاديين وغير العاديين من الشخصيات الأخرى التي لها صفاتها المميزة لها أيضاً عنه وعن غيره، وأنه مثلما تطلق على هذا النوع من الأفراد في المجتمعات والأمم تطلق أيضاً على الشعوب والأمم والدول بصفاتها أشبه بالأفراد من الكائنات البشرية من حيث هي وحدة متكاملة ومتجانسة من العناصر الأساسية والعامّة.

وعليه فعندما يتعلّق الأمر بالوجود كما هو يكون مصطلح " الهوية " هو الصّالح للاستعمال وعندما يكون الأمر متعلقاً بمميزات هذا الوجود ومحدّداته وخصائصه التي يعرف بها بين الأعيان يكون اللفظ الأنسب للاستعمال هو " الشخصية " باعتبار الأمة في هذه الحالة بين الأمم مثل الشخص بين أشباهه وأعياره من الناس (12).

ومن هنا نجد في الاستعمال ما اصطلاح على تسميته " بالشخصية الوطنية " ومقومات الشخصية الوطنية، أي المقومات التي بها يكون الشعب أو الأمة متميزين عن غيرهما من الشعوب والأمم الأخرى (13)،

فمن خلال التعاريف السابقة التي تمّ عرضها نرى أنها جميعاً قد حاولت التركيز على النقاط التالية:

✓ بُعد الانتماء إلى جماعة واحدة: حيث أن أغلب التعاريف المقدّمة قد ركّزت بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الانتماء إلى جماعة واحدة.

✓ الاشتراك في ثقافة واحدة أو ثقافة جامعة، وهو ما يمكن أن نشير إليه بشرط تحقيق بُعد الانتماء.

✓ السّمات الثقافية الجامعة التي أكّدت عليها التعاريف خاصّة اللّغة والتّاريخ وأضاف أندرسون الدين وهي التي نشير إليها بعناصر أو مكونات الثقافة

المشتركة.

✓ تنفق معظم التعاريف على أنّ الشخصية الوطنيّة تبنى على التمايز والتصنيف مع المجتمعات الأخرى.

ومن خلال هذه النقاط يمكن أن نضع التعريف التالي للشخصية الوطنيّة الذي تحدد من خلالها الوحدة الوطنيّة، وهو أنّ الشخصية الوطنيّة هي الانتماء الاجتماعي إلى أمة أو جماعة واحدة تشترك في ثقافة جامعة موحّدة تمثل اللّغة والدين والتاريخ أبرز سماتها التي تميزها عن غيرها من الجماعات وتجعل منها كيانا واحدا منسجما.

2- خصائص الوحدة الوطنيّة:

من خلال التناول السّابق لمفهوم الوحدة الوطنيّة وما تعلقّ بها من مفاهيم يمكن استخلاص الخصائص التالية التي تميز الوحدة الوطنيّة:

- 1- الانتماء إلى أمة أو جماعة واحدة وهو ما نشير إليه ببعده الانتماء.
- 2- الاشتراك في ثقافة جامعة موحّدة، وهو ما نشير إليه بشرط تحقيق بعد الانتماء.

3- وجود عناصر ثقافية تشكل ثقافة المجتمع الجامعة.

4- تبني الشخصية الوطنيّة أساس الوحدة الوطنيّة على التمايز والتصنيف مع الغير وهو ما يشير إليه دنيس كوش بمحصّلة التماهي الذي نرى أن الآخرين يفرضونه علينا والتماهي الذي نوّكده بأنفسنا والذي يرسم الفصل بين " الهم " و " النّحن " (14).

ثانيا- الثقافة والوحدة الوطنيّة:

من خلال العرض السّابق الذي تناول الوحدة الوطنيّة ظهر جليا أنّ العامل الثقافي يشكّل عنصرا حاسما في تشكيل الشخصية الوطنيّة أساس الوحدة الوطنيّة ولذلك يأتي هذا العنصر الذي سنحاول من خلاله إبراز الدور الذي تلعبه الثقافة في تشكيل الشخصية الوطنيّة.

1- مفهوم الثقافة:

يعتبر مفهوم الثقافة من بين أكثر المفاهيم تعقيدا ليس في علم الاجتماع فحسب بل في سائر العلوم الاجتماعية كعلم النفس والأنثروبولوجيا الثقافية، حيث أنه لم يتمكن العلماء من الإجابة عن السؤال ما هو الثقافي ولجأ كل واحد منهم إلى تقديم تعريف في الغالب يأتي ليعكس النظرة التصورية لمدرسته النظرية أو العلم الذي ينطلق منه في دراسته، ولذلك وجدنا علماء النفس الفردي يعززون السلوك الثقافي إلى الغرائز والدوافع النفسية في حين أنّ علماء الأنثروبولوجيا الثقافية قصرُوا مفهومهم للثقافة على الأنماط والسمات الثقافية ودراسة المجتمعات الأولية وانحنى علماء الاجتماع تحت تأثير علم اجتماع الدوركييمي الى المعايير والقيم، ثم وجدنا من يحصر الفعل الثقافي في جوانب الحياة المادية والآخر في جوانب الحياة المعنوية دون المادية وهكذا حتّى وصل الأمر بأحد العلماء الفرنسيين إلى القول أنّي لا أعرف كم مرّة لعنت فيها هذه الكلمة عندما سمعتها، ولقد أحصى " اريكسون " وزملاؤه أكثر من 150 تعريفا للثقافة كتب فقط باللغة الانجليزية.

وربما يكون أقدم تعريف وصلنا لمفهوم الثقافة هو ذلك التعريف الذي أصبح من كلاسيكيات العلوم الاجتماعية والذي صاغه عالم الأنثروبولوجيا الانجليزي تايلور بأن الثقافة (هي حصيلة الكل المركب من المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاقيات والقانون والعادات وجميع القدرات التي اكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع) وكذلك تعريف رالف لينتون الذي لم يبتعد فيه كثير عن تعريف تايلور بقوله أنها (حاصل مجموع المعرفة والاتجاهات وأنماط السلوك المشتركة والمنقولة بين أعضاء مجتمع معين)⁽¹⁵⁾.

أمّا المفكر الجزائري مالك بن نبي فيرى أن الثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة⁽¹⁶⁾، وهي حسبه (مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي يعيش فيه)، فهي بذلك المحيط الذي يشكل

فيه الفرد طباعه وشخصيته.

ويقدم برهان غليون تعريفاً للثقافة يرى فيه أن الثقافة مجموعة من ملامح مميزة، مادية وفكرية وروحية تميز مجتمعا أو مجموعة اجتماعية، وتسمح لأي متحدث بأن يعرف ذاته ويتعرف إليه غيره⁽¹⁷⁾.

وحسب أنتوني غدنز فإن الثقافة في نظر علماء الاجتماع تعني جوانب الحياة الإنسانية التي يكتسبها الإنسان بالتعلم بالوراثة، ويشترك أعضاء المجتمع بعناصر الثقافة تلك التي تتيح لهم مجالات التعاون والتواصل وتمثل هذه العناصر السياق الذي يعيش فيه أفراد المجتمع وتتألف ثقافة المجتمع من جوانب مضمرة غير عيانية مثل المعتقدات والآراء والقيم التي تكون المضمون الجوهرية للثقافة ومن جوانب عيانية ملموسة مثل الأشياء والرموز أو التقانة التي تجسد هذا المضمون⁽¹⁸⁾.

هذا وربما يكون أحدث تعريف للثقافة هو ما جاء في التعريف الذي اتفق عليه في إعلان مكسيكو في 6 أوت 1982 والذي ينص على أن الثقافة بمعناها الواسع يمكن النظر إليها على أنها (جميع السمات الروحية والمادية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه أو فئة اجتماعية بعينها وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والمعتقدات والتقاليد)⁽¹⁹⁾.

2- خصائص الثقافة:

إن تناول خصائص الثقافة من شأنه أن يساهم في كشف الغموض الذي يكتنف موضوع الثقافة ويمنح لها معنى أكثر وضوحا، وهو ما سنحاول أن نقف عليه من خلال هذا العنصر:

1- الثقافة ظاهرة إنسانية: حيث أن الإنسان هو الحيوان الوحيد المزود بجهاز عصبي خاص وبقدرة فريدة تتيح له ابتكار أفكار جديدة⁽²⁰⁾، وذلك دون غيره من الكائنات الأخرى التي تشترك معه في الخاصية الحيوانية، أي أن الثقافة ظاهرة خاصة بالإنسان دون سواه من الكائنات.

2- الثقافة مكتسبة: أي أن الثقافة ليست مسألة تتعلق بالعرق وغير متوارثة في جيناتنا⁽²¹⁾، وإنما تكتسب عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية⁽²²⁾، ومن خلال تفاعل الفرد مع الآخرين الذين يقاسمونه العيش داخل البيئة الاجتماعية وهو ما بينه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " يولد المولود علي الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه أو يمجسانه"⁽²³⁾.

3- الثقافة ظاهرة اجتماعية: أي أن الثقافة جماعية وليست فردية تنشأ وتتطور بجهد جماعي وتمثل طريقة حياة الجماعة وليست معتقدات فردية، وأن الجهود الفردية في إطار الجماعة تتحول في حال تبني الجماعة لها الي مخزون جماعي مشترك⁽²⁴⁾، وهو ما عبّر عنه الدكتور عيسى الشماس (بأنها نتاج اجتماعي أبدعته جماعة معينة)⁽²⁵⁾.

4- الثقافة ظاهرة مستمرة : وغير منحصرة في مرحلة دون غيرها فهي ملك جماعي يملكه أفراد المجتمع بالتتابع⁽²⁶⁾، وبتعبير آدم كوبر فإن الثقافة تتقدم⁽²⁷⁾.

5- الثقافة ظاهرة نوعية وخصوصية: حيث أن كل ثقافة تحدد أسلوبا من التصرف المشترك بين مجموع الأفراد المنتمين إلي ثقافة ما⁽²⁸⁾، وهو الذي يجعلها الشيء الأساسي الذي يميز المجتمعات الإنسانية بعضها عن بعض، فقد تتشابه المجتمعات أو المؤسسات من حيث تشكيلها الاجتماعي " كالتشابه في شكل الأسرة " إلا أنها تختلف في الأسرة كنظام باختلاف الثقافة الموجودة في المجتمعين.

6- الثقافة ظاهرة معيارية: أي أن الثقافة تشكل تصورات الجماعة لأوجه الحياة فيها، هذا التصور الجماعي المشترك يصبح المرجعية والمقياس لأنماط السلوك والفكر والشعور وبهذا يحدد ما هو مقبول وما هو مرفوض وما هو سوي وما هو منحرف⁽²⁹⁾.

7- الثقافة ظاهرة تلبي الحاجات البيولوجية الأساسية والمشتقة: حيث تشمل تنظيم جهود الجماعة وعلاقة الأفراد حول النشاطات المرتبطة بحاجات الإنسان.

8- الثقافة تكيفية ووسيلة للتكيف: وذلك من خلال العلاقة التي تربط الإنسان

بالبيئة الطبيعية ثم بالبيئة الاجتماعية والآخرين، علاقة متبدلة متغيرة وتبدل الظروف هنا يفترض تبداً في الثقافة، فقدره المجتمع على الاستجابة الصحيحة للتحديات يعتمد على مرونة الثقافة التي تنعكس في مرونة عقلية تمكن المجتمع من تلبية حاجاته المستجدة⁽³⁰⁾.

3- أهمية الثقافة في المجتمع:

لقد عالج العديد من الباحثين والعلماء ظاهرة الثقافة وتأثيراتها المختلفة على الأنظمة المجتمعية في العديد من الأعمال والدراسات ليس على مستوى المجتمعات المعاصرة فحسب بل حتى على مستوي ثقافات المجتمعات القديمة والأولية وبيّنوا الدور الذي تلعبه هذه الظاهرة في صياغة شكل هذه المجتمعات وكيف أنه لا تكاد يخلو مجتمع قديم كان أم حديث من أحد أشكال الثقافة وتأثيراتها على هذا المجتمع. فلقد عدّها المفكر الجزائري مالك بن نبي حياة المجتمع التي بدونها يصبح مجتمعاً ميتاً⁽³¹⁾، وهو ما أشار إليه أنتوني غدنز بأنها تعمل على المحافظة على النوع الإنساني⁽³²⁾، وأمّا تالكوت بارسونز فيرى أنّ وجود ثقافة مشتركة يمثل شرطاً وظيفياً مسبقاً أو حاجة أساسية لأي مجتمع يريد البقاء⁽³³⁾.

هذا ويرجع عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر إلى الثقافة تلك الخصائص التي تميز جماعة من الناس عن غيرها، وذلك باعتبارها عاملاً حاسماً في تكوين الجماعات القومية والحفاظ على كيانه⁽³⁴⁾، وهو الذي جعل برهان غليون يعتبرها الأداة الأكثر ضماناً لاستمرار الأمة⁽³⁵⁾، ويقدم برهان غليون مثالا على أهمية الثقافة والدور الذي تلعبه في الحفاظ على الأمة بالشعوب التي حطّ الاستعمار دولها وكيف التجأت إلى الثقافة واستطاعت بعد عشرات السنين أن تؤسس من جديد دولة جديدة وكيف أن التغيير الجذري للنظم الاقتصادية والسياسية لم يستطع التغلب على الأمم التي تمكنت من الحفاظ على ثقافتها.

كما تعمل الثقافة على تأسيس المعايير الاجتماعية⁽³⁶⁾، هذه المعايير الاجتماعية التي تمثل القواعد والمقاييس التي يجب أن يأخذها الفرد الاجتماعي بعين الاعتبار

أثناء تفاعله مع جميع المواقف الاجتماعية.

وكما تعمل الثقافة على تأسيس المعايير الاجتماعية فهي كذلك تؤدي دورا مهما في الحفاظ على هذه القيم والمعايير الاجتماعية⁽³⁷⁾، وهو ما جعل تالكوت بارسونز يقول عنها أنها تعمل كضابط أو موجه للسلوك⁽³⁸⁾، وذلك من خلال منظومة المعايير الاجتماعية التي أقامتها ثم قامت بالعمل على الحفاظ عليها.

كذلك تضمن الثقافة الوحدة والانسجام والتكامل للمجتمع وقد كتب سفير ناجي عن هذا العمل الذي تقوم به الثقافة (بأن عوامل كاللغة والدين والتاريخ تصقل عبر القرون المادة الفكرية التي يبرز المتفوقون انطلاقا منها، وإذا كان لكافة هذه العوامل كفاءات وجودها المتميزة ضمن الأشكال التي تتخذها الدول الآن فإنها كانت قبل اليوم تشكل روابط تضمن الوحدة على مستوى مجالات أكثر اتساعا)⁽³⁹⁾، ويعتقد سفير ناجي أن هذه العناصر الثقافية المميزة تمثل المحيط الأصلي الذي لا يمكن لأي محاولة إبداعية أن تتجاوزه.

4- العناصر الأساسية للثقافة وبناء الشخصية الوطنية.

لقد سبق وأن أشرنا من خلال التعاريف السابقة التي تناولت مفهوم الثقافة كيف أن العلماء يجعلون لهذه الظاهرة الاجتماعية مجموعة كبيرة من العناصر يتم وصف الثقافة من خلالها ويكفي أن نلقي نظرة على أكثر هذه التعاريف شيوعا في مجال العلوم الاجتماعية وهو تعريف تايلور لنذكر مدى تعدد العناصر الثقافية التي تكون هذه الظاهرة، إلا أنه يكاد يحصل شبه إجماع بين العلماء والباحثين على أن للثقافة مستويين اثنين أحدهما المستوى العام والذي يتم من خلاله التمييز بين مجتمع ما ومجتمع آخر ومستوى الخصوصيات الثقافية والتي على أساسها يكون التمييز بين مختلف الطبقات الاجتماعية، (ففي المستوي الأول أين يوجد مجال العموميات باعتبارها الأرض التي تمتد فيها جذور الحياة الثقافية للمجتمع، وذلك كالدين واللغة والتقاليد، تلك التي تعدّ المنوال الأساسي الذي يحدد نوع العقلية الخاصة بالنموذج الاجتماعي، وهو نموذج شائع في صور جميع الأفراد المنتمين لذلك المجتمع

يطبع حياتهم بسلوك اجتماعي معين، وهذا السلوك العام هو المقياس الذي يكشف عن المواقف الشاذة والاضطرابات وألوان الفساد لدي الشواذ⁽⁴⁰⁾.

فاللغة والدين إذا يمثلان أبرز العناصر الثقافية لمستوي العموميات التي يشترك فيها جميع أفراد المجتمع الواحد والتي يتميزون من خلالها عن غيرهم من المجتمعات الإنسانية ولقد ذكر مالك بن نبي في تحليله للظاهرة الثقافية، أن ثقافة المجتمع ليست إلا لغته ودينه في أبرز عناصرها وما يحمله هذين العنصرين من انفعالات وعواطف تعمل عملها في إعادة دينامية الحياة الاجتماعية، ولقد سبق أن رأينا كيف يعد سفير ناجي هذه العناصر التي سماها بعوامل اللغة والدين والتاريخ كعناصر تمثل المحيط الأصلي لثقافة المجتمع وذلك دون سواها من العناصر الثقافية التي قد توجد معها داخل المجتمع.

ويكاد لا يختلف معظم الباحثين على كون هذه العناصر تمثل العناصر الأساسية لثقافة المجتمع، وإن كانوا قد اختلفوا في غيرها من العوامل وذلك لأهميتها البارزة في تشكيل الظاهرة الثقافية النوعية داخل أي مجتمع، وهو ما سنحاول الوقوف عليه من خلال تتبع أحد أكثر هاذين العنصرين تأثيرا في بناء الوحدة الوطنية وهو عنصر اللغة.

ثانيا- اللغة، خصائصها وأهميتها للمجتمع.

1- تعريف اللغة:

لقد تعددت التعاريف التي تناولت هذا النظام الرمزي المعقد من مدرسة لأخرى ومن علم لآخر، ومن بين هذه التعاريف نجد التعريف الذي ذكره قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية بأنها (صورة السلوك الإنساني الشاملة التي تنطوي على الاتصال الرمزي من خلال نسق النماذج الصوتية المنطق عليها ثقافيا والذي يحمل معاني مقننة)⁽⁴¹⁾.

أما قاموس علم الاجتماع لعاطف غيث فقد جاء فيه تحت مادة اللغة أنها جزء من التراث الثقافي ومعبرة عنه في نفس الوقت وأنها نتاج اجتماعي: تمثل التجارب

المتراكمة والراهنة والعواطف والمعاني التي يمكن نقلها داخل ثقافة معينة بالإضافة إلى أهميتها في الإدراك الاجتماعي والتفكير ومعرفة الذات ومعرفة الآخرين وهي بذلك ضرورية للوجود الاجتماعي (42).

ويعرفها اللغوي الدكتور محمد المبارك بأنها كائن حي يعيش مع الإنسان ويخضع لمختلف مظاهر التطور التي يمر بها الإنسان في بيئته، فأى تغير أو تطور يطرأ على حياة ذلك الكائن البشري يجب أن ينعكس على لغته التي لا تتفصل عنه لحظة من الزمان (43).

كما يعرفها فاردينان دوسوسور بقوله: اللغة نظام اجتماعي لا نظام فردي، وأنها سياق لوجودنا، وحسب دوسوسور أن نتكلم لغة ما هو ليس فقط أن نعبر عن أفكارنا الخاصة والأصلية، وإنما هو أيضا تشغيل طيف واسع من المعاني التي تتجسد في لغتنا وأنظمتنا الثقافية (44).

ومن خلال هذه التعاريف يمكن أن نستشف ما يمكن أن نطلق عليه خصائص النظام الرمزي أو خصائص اللغة والتي من خلالها يمكن فهم هذا النظام بأكثر دقة.

2- خصائص اللغة:

فمن جملة خصائص اللغة التي يمكن ذكرها والوقوف عليها من خلال ما سبق ذكره وتناوله ما يلي:

✓ أن اللغة نظام من الرموز المتفق عليها ثقافيا داخل الشبكة العلائقية المجتمعية.

✓ أن اللغة عنصر من التراث الثقافي: ولذلك يرى كلود ليفي سترأوس أن اللغة المستعملة في مجتمع ما تعبر عن ثقافة السكان العامة وهي بمعنى آخر قسم من الثقافة، إذ أنها تؤلف عنصرا من عناصرها، بل إنه يعدّها شرطا من شروط الثقافة وذلك لأن الفرد يكتسب ثقافة جماعته بواسطة اللغة (45).

✓ أن اللغة تعبر عن التراث الثقافي للمجتمع: وذلك من خلال ما ذكره كلود ليفي سترأوس سابقا ومن خلال ما تضيفه على هذا التراث من دلالات ومعاني

رمزية تأخذ حركتها وفعاليتها داخل البناء الاجتماعي.

✓ أن اللغة ظاهرة اجتماعية أو نتاج اجتماعي وهي الصفة أو الخاصية التي يكاد يجمع عليها جميع المهتمين بدراسة اللغة، فكلود ليفي سترانس مثلاً يؤكد علي أن اللغة ظاهرة اجتماعية بل أوضح الظواهر الاجتماعية⁽⁴⁶⁾، والدكتور علي عبد الواحد وافي يعتبرها نتاج للعقل الجمعي⁽⁴⁷⁾، ونبيل علي يقول عنها: أن اللغة بلا منازع أبرز السمات الثقافية وما من حضارة إنسانية إلا وصاحبها نهضة لغوية وما من صراع بشري إلا ويبطن في جوفه صراعا لغويا حتى قيل أنه يمكن صياغة تاريخ البشرية على أساس من صراعاتها اللغوية⁽⁴⁸⁾.

✓ أن اللغة ضرورية للوجود الاجتماعي، بل تعتبر شرطا مسبقا وضروريا لقيام المجتمعات والثقافات والذات والعقل⁽⁴⁹⁾.

✓ أن اللغة مكتسبة وليست وراثية وإنما يتم اكتسابها عن طريق آليات التنشئة الاجتماعية وخاصة التنشئة الأسرية في بداية المرحلة العمرية للإنسان، وذلك لأن الأسرة تعدّ النواة الاجتماعية الأولى التي يتفاعل معها الفرد ثم تعمل باقي المؤسسات الاجتماعية الأخرى على صقل هذه اللغة.

✓ أن اللغة قابلة للنمو والتطور: فبما أن اللغة ظاهرة اجتماعية مكتسبة فهي إذا تنمو مع الفرد ومن خلال التفاعل الاجتماعي.

✓ أن اللغة تتأثر بالبيئة الاجتماعية والثقافية التي تنمو بداخلها: حيث أن اللغة ليست إلا انعكاسا صريحا لهذه البيئة ونتاج لها، ولذلك نجد أن اللغة العربية مثلا تعكس بشكل واضح خصائص البيئة العربية، فعندما كان يشيع عند العرب النمط البدوي وجدنا أن الألفاظ اللغوية لهذه البيئة كانت تدور في أغلبها حول الخيل والبيداء والصحراء والسيف وغيرها.

✓ أن اللغة مستمرة: حيث أن اللغة تخضع لعملية إضافة وتقيح مستمر عبر تاريخ الإنسان وكل جيل يضيف الي هذه اللغة بما أبدعه عقله وهكذا.

3- أهمية اللغة في المجتمع:

تقوم اللغة داخل النظام الاجتماعي بالعديد من الأدوار الحيوية البالغة الأهمية والتي تؤثر مباشرة في دينامية المجتمع إلى الحد الذي جعل ساطع الحصري يقول (إن الأمة كائن اجتماعي حي لها حياة وشعور وأن حياتها في اللغة)، ولقد بدأ أحد المفكرين حديثه عن اللغة وأهميتها بقوله: أن اللغة هي الهواء الذي تنفسه، وهي حولنا تحيط بنا من كل حذب وصوب، فهي وسيلتنا لإدراك العالم وواسطتنا التي تحدد المسافة بيننا وبين واقعنا وأداة تعاملنا مع هذا الواقع التي نحيل بها المحسوس إلى المجرد ونجسد بها المجرد في هيئة المحسوس، فهي التي تترجم ما في ضمائرنا من معان لتستحيل إلى أدوات تشكل الحياة وتوجه أداء المجتمع وسلوك أفراده وجماعاته ومؤسساته.

اللغة هي قدر الإنسان الاجتماعي، فكما تكشف عن طبقاته وجذور نشأته تكشف أيضا عن عقليته وقدراته وميوله الفكرية، وكما أنها ظاهرة وشائعة فهي بالقدر نفسه دفيئة ومستترة غائرة في ثنايا النسيج الاجتماعي ومتاهة العقل البشري تمارس سلطاتها علينا من خلال أيديها الخفية، وتعمل عملها في طبقات اللاوعي على اختلاف مستوياته، لغتي هي عالمي وحدود لغتي هي عالمي، اللغة هي الذات وهي الهوية وهي أداتنا لكي نصنع من المجتمع واقعا وثقافة كل أمة كامنة في لغتها(50).

تمثل اللغة أشد الأسلحة الأيديولوجية ضراوة[...]. ولا يناظر ضراوة اللغة إلا صمودها فهي القلعة الحصينة للذود عن الهوية والوحدة القومية ولا يناظر جبروت اللغة إلا حنوها وكيف لا واللغة الأم هي شريكة ندي الأم في إيضاح وعي الصغير وهي راعية المتعلم وملهمة المبدع وهادية المتلقي، وفيها قال الشاعر بوتينا: إن الشعوب يمكن أن تكبل بالسلاسل وتسد أفواهها وتشرّد من بيوتها ويظلون مع ذلك أغنياء، فالشعب يفتقر ويستعبد ما إن يسلب اللسان الذي تركه له الأجداد عندئذ يضيع إلى الأبد(51).

ويمكن أن نوجز أهم ما يتعلق بأهمية الظاهرة اللغوية في المجتمع من خلال النقاط التالية:

✓ تعتبر اللغة طاقة إنسانية ذات قوة إنتاجية توليدية فائقة، وأساس كل أنواع النشاطات الثقافية وخير دليل يهتدي به الباحث إلى معالجة المجتمعات الحديثة.

✓ تعتبر اللغة ذاكرة المجتمع وأداة الاتصال والتسجيل فيه، وهو ما أدى بليفي سترابوس الى القول أننا حين نقول الإنسان فإننا نعني اللغة، وحين نقول اللغة فإننا نقصد المجتمع.

✓ تعمل اللغة على إشباع رغبات الفرد والتعبير عن الأفكار والإحساسات(52).

✓ أن اللغة تعمل على توحيد المجتمع وتماسكه: حيث أن اللغة القومية المشتركة تعمل على التقارب بين المجتمعات المختلفة فضلا على أبناء المجتمع الواحد، ولقد أعطى الإمام محمد البشير الإبراهيمي مثالا على ذلك بما فعلته اللغة العربية في الأقاليم التي دخلت تحت حيز تفكيرها بقوله (فاللغة العربية منذ دخلت في ركاب الإسلام على الأمم التي أظلمها ظله كانت سببا في تقارب تفكيرهم وتشابه عقلياتهم وتمازج أدواقهم وتوحيد مشاربهم وإن هذا لمن المناهج السديدة في توحيد الأمم المختلفة الأجناس)(53).

✓ تساهم اللغة في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، حيث أنها تمثل نظم يشترك في إتباعها المجتمع ويتخذها أفرادها أساسا لتنظيم حياتهم الاجتماعية وتنسيق العلاقات التي تربط بينهم، ولا يمكن للفرد أن يخرج عنها أو عن نظامها إلا واجه عقاب المجتمع وازدراءه(54).

✓ تمثل اللغة وجها من أوجه التعبير عن الحضارة الموجودة فيها، فقد كتب الإمام محمد البشير الإبراهيمي عن ذلك بأنه (لكل حضارة لغتها المعبرة عن محاسنها والكاشفة عن حقائقها، وكان لتلك اللغات أثر بين في بقاء الحضارة وانتشارها وكذلك بقاء الحضارة وانتشارها يتوقف على ما في اللغة من قوة وحياء واتساع)(55)، ويشير عالم الاجتماع الألماني ريتشارد مينيش إلي أن اللغة حاضنة

التقاليد الثقافية الخاصة وأنماط التفكير والمواقف ووجهات النظر، ولسوف تبقى اللغة عنصرا مميزا لمواقف الناس وتصرفاتهم⁽⁵⁶⁾.

✓ دمج الفرد في ثقافة المجتمع: حيث يعتبر الدكتور محمد أوزي أنّ اللغة ليست وسيلة اتصال وتواصل فحسب، وإنما هي أيضا وعاء ثقافي بوسعها أن تدمج الفرد في ثقافة مجتمعه وتكسبه البنيات الذهنية خلال عملية التفاعل معها، في حين أن " بول ريكور " يعتقد أنها تمكن الإنسان من فهم ذاته وعالمه.

✓ التعبير عن طبيعة المجتمع والعصر: حيث أن اللغة ترتبط بمحيطها الثقافي والحضاري والتاريخي الذي نشأت فيه مما يجعلها لغة لا تعبر عن شخصية صاحبها وأفكاره الشعورية أو اللاشعورية فحسب، وإنما تعبر أيضا عن طبيعة المجتمع والعصر الذي يؤطرّ البنيات الذهنية لصاحب اللغة المنطوقة أو المكتوبة ويرى "جولدمان" رائد البنيوية التكونية أن الرؤى التي يتم التعبير عنها لغويا ليست واقعة فردية وإنما هي واقع اجتماعية تنتمي الى مجموعة اجتماعية لها ماض وواقع ثقافي وحضاري معين.

✓ تمثل اللغة وسيلة من وسائل نقل الإرث الثقافي إلى الناشئة الجديدة عن طريق الأسرة ووكالات التطبيع الاجتماعي المتنوعة التي تكسبه الهوية الاجتماعية والثقافية.

✓ تمكن الفرد من إدراك وجوده كفرد ينتمي إلى مجموعة اجتماعية لها هويتها الاجتماعية والثقافية.⁽⁵⁷⁾

دور اللغة في بناء وتشكيل الوحدة الوطنية داخل المجتمعات الأوروبية

لإحاطة أكثر بالدور الذي تلعبه اللغات في بناء وتشكيل الوحدة الوطنية للناطقين والمتكلمين بها يمكن تتبع الدور الذي لعبته اللغات في تشكيل القوميات الأوروبية بوصفها أكثر النماذج وضوحا، وهو الدور الذي يتحدث عنه أستاذ التاريخ بالجامعة اللبنانية الدكتور عبد الرؤوف سنو بأن (اللغة لعبت دورا أساسيا في الحركة القومية الأوروبية)، وهو الطرح الذي يؤكد عليه الدكتور نورالدين

حاطوم في بحثه الطويل والمتشعب عن تشكّل القوميات الأوروبية بقوله: (أنّ اللّغة أصبحت ابتداء من منتصف القرن 19 في العالم الغربي من أهم المقومات المحددة للجنسية لأي شعب أو أمة)

1- دور اللّغة الألمانية في تحقيق الوحدة بين الدويلات الألمانية

لقد كانت ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر في وضع غريب وشاذ جدا من الوجهة السياسية، لأن معظم أقسامها كانت في حالة شبيهة بإقطاعيات القرون الوسطى، إنها كانت منقسمة إلى عدد كبير من الدويلات والمدن الحرة، وكان الحكم يعود في بعضها إلى رؤساء دينيين وفي بعضها الآخر إلى رؤساء زمنيين، وكان بين هؤلاء الرؤساء، ملوك وأمراء ودوقات وجراندوقات، وكان بجانب ذلك كله مدن حرة عديدة، مستقلة في إدارة شؤونها متمتعة بسيادة تامة في أمورها الداخلية والخارجية وكان عدد هذه الوحدات السياسية في أواخر القرن الثامن عشر يزيد عن 360 دويلة. (58)

وإضافة إلى حالة الشتات الاجتماعي والانقسام السياسي التي كان الشعب الألماني يعيشها ضاعف الاجتياح العسكري الذي تعرّض له الألمان على يد جيوش نابليون بونابارت من النكبات على مختلف البلاد الألمانية وجعلها من الناحية الثقافية تحت سلطة الثقافة واللغة الفرنسية.

إن هذه الوقائع والكوارث كان من الطبيعي أن تولد رد فعل شديد في نفوس الألمان، صار الكل يشعرون شعورا واضحا بأن هذه الرزايا كانت من نتائج (فقدان الوحدة القومية) و(ضعف الروح الوطنية) (59)

وهو ما جعل الفلاسفة والمفكرين الألمان الذين كانت تزخر بهم ألمانيا وجامعاتها التي فاقت على الرغم من حالة الشتت والضياع الذي توجد عليه البلاد، باقي الدول الأوروبية الأخرى إلى البحث عن العوامل التي تحقق الوحدة للشعب الألماني في دولة واحدة وتوجّج بداخلهم الروح الوطنية، إلا أنّ هؤلاء الفلاسفة وقعوا في إشكالية الحدود الطبيعية للأمة التي ينادون بأن تحكم نفسها، فوجدوا أن

المجال الجغرافي لا يحقق لهم ذلك باعتبار أن أوروبا كلّها وحدة جغرافية مترابطة ومتسلسلة، وهو ما يعني أنها حجة لا تبرر الدّعوة إلى الاستقلال عن الإمبراطورية الفرنسية، ثم رأوا أنّ الحل لهذه الإشكالية قد يكون في العودة إلى الانتماء الدّيني ولكنهم وجدوا أن كل أوروبا مسيحية بشكل رسمي وهو ما لا يحقق لهم ما كانوا يصبون إليه، فجاء جواب الفيلسوف " فخته " قوّة في الإقناع في خطاب وجهه إلى الأمّة الألمانية أظهر لهم فيه أنّ ما يحدد أمّة ما هو لغتها بشكل أكثر وضوحاً، قائلاً: أنّ الحدود الطبيعية الأولى والأصلية للدول بشكل دقيق هي من دون شك حدودها الداخلية وجميع أولئك الذين يتكلمون اللّغة نفسها، عددا كبيرا من الروابط الخفية نسجتها الطبيعة نفسها من عهد بعيد قبل أن يبدأ أي فن إنساني ويفهم هؤلاء بعضهم وأن لديهم قوّة الاستمرار في تمكين الناس من فهمهم بشكل أكثر وضوح وينتمون إلى جسد واحد وهم طبيعي متلازم لا يمكن فصله⁽⁶⁰⁾، ولقد صاح فخته فيهم قائلاً: (إنّ الذي يفقد لغته يمزق الخيط الذي يصله بالأجداد ويفقد معها حلقات ماضيه، ويشعر بفجوة عميقة حقيقية في تطوره، لأنّ اللّغة الأصلية هي الحياة، ولأنّ الأمم المغلوبة التي تفقد لغتها تندمج وتذوب في جنس اللّغة الغالبة[...]. أيّها الألمان - استمروا في نومكم وتهاونكم حتى تفقدوا جنسيتكم ولغتكم وإنّ أبناءكم هم الذين سيدفعون ثمن تهاونكم هذا، افقدوا أعزّ ما يملكه الإنسان [...]. وذوبوا في غيركم)⁽⁶¹⁾

ومن أجل الوصول إلى الحلّ التي رآها فخته أنّها توحد الألمان أصدر مجموعة من الكتب أولها سنة 1807 تحت (محاورات وطنية)، يجري فخته في إحدى هذه المحاورات حواراً مع رجل من أهالي بروسيا، يسأله فخته ' أنت ألسنت ألماني؟ ' فيجيب الرجل : ' كلا' أنا لست ألمانيا بل أنا بروسي وافتخر ببروسيتي ولا أرضى عنها بديلاً '، فيرد فخته (أصغ إلى ما سأقوله لك الآن، إن الفوارق عارضة وسطحية، ناتجة عن الأحداث الاعتبارية التي أوجدتها الصدفة وأما الفوارق التي تميز الألمان عن سائر الشعوب الأوروبية فإنها أساسية وقائمة على الطبيعة، فإن

اللغة التي يشترك فيها جميع الألمان تميزهم عن جميع الأمم الأخرى تمييزاً جوهرياً، إن هذه الفكرة الأساسية التي أظهرها فيختة في هذه المحاور توسّعت بعد ذلك وصارت المحور الأصلي للخطب التي وجهها إلى الأمة الألمانية في نهاية السنة المذكورة، وهي 14 خطبة ألقاها في جامعة برلين تتضمن اقتراحات تحوم حول الإصلاح النفسي والثقافي والاجتماعي والسياسي، يرى فيها فختة أن (كل الذين يتكلمون اللغة الألمانية، يكوّنون 'أمة واحدة' فيترتب عليهم أن يطرحوا جانباً كل ما يفرّق بعضهم عن بعض ويتمسّكوا بأهداب الوحدة) يقول في إحداها (أنني عندما أخطبكم أتمّ المجتمعين أمامي هنا يتوجّه ذهني من ورائكم من وراء جدران هذه القاعة إلى جميع الذين يتكلمون اللغة الألمانية، دون أن ألقت إلى التجزئة التي منيت بها الأمة الألمانية من جرّاء أنانية الملوك والأمراء ومن جرّاء دسائس الدول الأجنبية الطامعة في البلاد الألمانية من ناحية أخرى، ثم يمثل فختة حالة الأمة الألمانية وما يتوقع لها في المستقبل بقوله: إن الألمان الآن في حالة أشلاء في وادي الأموات: عظام يابسة مبعثرة كل الجهات، ولكن 'صورة الوطنية' سيعمل فيها عمل 'صورة إسرافيل' سيجمع تلك الأشلاء ويبعث فيها الحياة وسيجعلها أمة واضحة تنبض فيها روح القوة والنشاط'

إن نداءات فختة إلى الأمة الألمانية كانت تدور في معظمها حول أن اللغة هي جهاز الاجتماع في الإنسان، وأن اللغة والأمة أمران متلازمان ومتعادلان، اللغة التي ترافق وتحدد تحرك الفرد حتى أعماق أغوار تفكيره ومشيبته تجعل من اللومّة البشرية التي تتكلم بها جماعة متماسكة يديرها عقل واحد، وأن الذين يتكلمون بلغة واحدة يكونون كلا موحداً رابطته الطبيعية متينة وإن كانت غير مرئية، وأن الحدود الأساسية التي تستحق التسمية باسم 'الطبيعة' هي الحدود الداخلية التي ترسمها اللغات، وإن اللذين يتكلمون اللغة الموحدة يرتبط بعضهم بحكم نوايس الطبيعة بروابط عديدة، فيكونون كلا لا يقبل الانفصام، إن فختة يعتبر اللغة أساس القومية وإن جميع الألمان أمة واحدة لكونهم ذوي لغة واحدة. (62)

لقد كان فيخته مثل غيره من مفكري الألمان الذين عاصروه أو جاءوا بعده لا يعرف حدوداً لألمانيا غير حدود اللغة الألمانية⁽⁶³⁾

إن هذه الأفكار التي قال لها فيخته عبّر عنها الشاعر "موريس أرنت 1769-1860" بقصائد تثير الحماس في قلوب الألمان، يقول في إحدى هذه القصائد التي استهدف بها تحديد معنى (الوطن الألماني)، بدأها بسؤال ما هو الوطن الألماني؟ لينتهي بعد طرح العديد من الأسئلة التي تبحث عن هذا الوطن بالجواب التالي: (كل البلاد التي ترن في أجوائها اللغة الألمانية، كل البلاد التي يرتفع فيها إلى السماء الحمد لله باللغة الألمانية، كل تلك البلاد يجب أن تكون وطن الألمان، فيا أيها الألماني الشجاع! يجب عليك أن تعتبر كل تلك البلاد وطنك وتحبها بكل قلبك.⁽⁶⁴⁾

إن كل هذه الأفكار والتصورات التي كان فيخته وموريس أرنت وغيرهم من الأدباء والفلاسفة والمفكرين الألمان يحاولون بثها داخل المجتمع الألماني كانت قد سبقتها جهود "يوهان غوتفرايد هيردر" في شكل مجموعة من الأغاني الفلكلورية وفي مقالات عن "الشخصية والفن الألمانيين" وهي الجهود التي كانت إرهاصات للمفكرين الذين جاءوا بعده.

ومن بين الأفكار التي كان ينادي بها هيردر أن اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذي تتشكل به وتحفظ فيه وتنقل بواسطته أفكار الشعب، إن الأدب الذي يسود بين الطبقات العليا من الأمة قد يكون عاكساً للتأثيرات الخارجية والأجنبية ولكن لغة الشعب تمثل في كل الأحوال روح الشعب نفسه، إن لغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، إن قلب الشعب ينبض في لغته، إن روح الشعب تكمن في لغة الآباء والأجداد⁽⁶⁵⁾

واستنتج هردر من كل هذا، بما أن اللغة بمنزلة مكنن القلب من الروح للأمة، يترتب على كل أمة أن تتمسك بلغتها الخاصة تمسكها بحياتها، وأن التمسك باللغة يجب أن يعتبر واجباً وحقاً في وقت واحد، ويترتب على الدولة التي ترعى شؤون الشعوب أن تحترم هذا الحق، فلا تحاول منع شعب من الشعوب من استعمال هذا

الحق والتمسك بلغته الخاصة.

إن الأفكار والآراء التي كان ينادي بها هررد لعبت دورا هاما في إثارة النزعات القومية التي ستجد لها فلاسفة ومفكرين سيصدعون بها في ما بعد أبرزهم فيخته. (66)

حيث أوضح بعض الباحثين أن الفكر الألماني لعب دورا بارزا في تأجيج مشاعر القومية عبر المفكرين والمؤرخين والفلاسفة ورجال الاقتصاد وأساتذة الجامعات والحركات الطلابية ودورا مهما في بلورة نزعة قومية تناهض قوى الاحتلال الأجنبية والغرباء وتعمل على توحيد دويلات ألمانيا (67)

إن كل هذه الجهود التي كان يبذلها الفلاسفة الألمان كانت نابعة من تصورهم لبناء الأمة، وهو التصور الذي كانوا يفرقون فيه بين فكرة الأمة الثقافية وبين فكرة أمة الدولة، ومن أن الأمة الثقافية تكون سابقة للأمة الدولة وأن زوال أمة الدولة لا يزيل أمة الثقافة التي يكون مكنها القلب لا غير، (ومعيار الانتماء إلى أمة الثقافة هو اللغة والثقافة المشتركة أما معيار الانتماء إلى أمة الدولة فهو الخضوع لحكم سياسي واحد) (68)

وبهذا يكون المفكرون والفلاسفة الألمان قد اخترعوا أمة ألمانية قبل أن توجد دولة ألمانيا، وقدّموا معيارا لماهية أمة امتدت عبر الحدود السياسية وفي التنافس بين الدول الأوروبية على السيادة أو على الأقل للحفاظ على مواقعها التي احتدمت في القرن 19، استخدمت الفكرة كأداة لشرعنة بناء دولة أمة ألمانيا موحدة وفق حدود اللغة والثقافة. (69)

ولقد أكد عالم الاجتماع الألماني ريشارد مينيش الذي قام بدراسة مفصلة عن تشكّل القوميات الأوروبية والعوامل التي سرّعت في ظهورها إلى أنّ اللغة والثقافة المشتركة شكلت معيار الانتماء إلى الأمة الألمانية (70).

ومن كل ما سبق فإن الألمان بعد أن كانوا مجزئين بين عدة مئات من الدول والدويلات، حتى بين ما يقرب من ألفي وحدة سياسية وبعد أن كان كل فرد منهم

يحدد وطنه بحدود الدولة التي ينتسب إليها، فلا يكثر بما بقي خارجها، بعد أن كانوا في هذا الحد من التفتت صاروا يشعرون ويؤمنون بأنهم أبناء أمة واحدة.. وعملوا بما يحتمه عليهم هذا الشعور وهذا الإيمان .. إلى أن كونوا دولة موحدة، وذلك يعني أن الوحدة الألمانية كانت بمثابة تطبيق للأراء وأفكار أولئك الفلاسفة والمفكرين. (71)

2- دور اللغة الإنجليزية في وحدة بريطانيا العظمى

إن دور اللغة الإنجليزية في تحقيق الوحدة البريطانية وإن لم يكن عاملاً رئيسياً إلا أنه مثل الضامن الأكبر لضمان استمرار هذه الوحدة وترابطها الداخلي، حيث أنه أعقب الفتح النورمندي عام 1066 تقسيم البلاد إلى طبقة حاكمة نورمندية ناطقة بالفرنسية وجمهور شعبي ناطق بالأنغلو سكسونية، إلا أن الاعتراف بالإنجليزية كلغة رسمية في المعاملات العامة عام 1362 كان بداية تطور انبثقت منه أمة كانت متميزة في البداية على أساس الممتلكات ولاحقاً على أساس الطبقة الاجتماعية ثم تحولت شيئاً فشيئاً إلى قومية موحدة ذات هوية موحدة.

إن هذا الشعور بالقومية الموحدة هو الذي أدى إلى تشكل القومية البريطانية أو مملكة بريطانيا العظمى، بعدما تم تكييف وتعين التخوم الخارجية بحيث تتلاءم مع الوقوف في وجه القارة الأوروبية وفي وجه البابوية في روما وفي وجه فرنسا الكاثوليكية في حرب المائة عام (1339-1453) في المقام الأول، أما التجانس الداخلي فقد تحقق عن طريق المؤسسة البروتستانتية وعن طريق مركز السلطة في البرلمان المستقل، (وأصبحت إنجلترا هي مركز الأمة البريطانية التي اتصلت بها اسكتلندا وويلز وإيرلندا الشمالية بوصفها أقاليم أطراف، وكان فرض اللغة الإنجليزية المركزية وإزاحة اللغتين الطرفيتين الويلزية والغالية جزءاً رئيسياً من هذه العملية) (72).

3- دور اللغة الفرنسية في تشكيل الجمهور الفرنسية الموحدة:

بالرغم من أن النظرية الفرنسية تختلف عن النظرية الألمانية في النظر إلى

تكوين وبناء الأمة، ففي الوقت الذي أعلنها الفلاسفة الألمان بكل وضوح بأن اللّغة والثقافة المشتركة هي أساس بناء الأمة، فإن الفرنسيين بحكم ماضيهم الاستعماري ونزعتهم التوسعية التي كانت سائدة ابتداء من القرن السادس عشر لم يكن الأخذ بهذه النظرية يخدم مصالحهم داخل القارة الأوروبية، التي سيجدون أنفسهم في حرج أمام شعوبها لو أنهم يسلمون بهذه النظرية، وستقوم الشعوب الأوروبية التي كانت تحت حكمهم بمطالبتهم بالاستقلال، وهو ما جعلهم يتجاوزون ذلك بنظرية العقد الاجتماعي.

إلا أن هذه النظرية لم تعمّر كثيرا بفعل تنامي الحركات القوميّة داخل القارة الأوروبية واستقلال أقاليم عديدة عن الإمبراطورية الفرنسية التي أقامها نابليون، بل وأصبح يهدد الكيان الفرنسي انقسامات كثيرة وحروب من مختلف الجبهات خاصة الألمانية منها وهو ما أضعف الإمبراطورية ونقلها من إمبراطورية محتوية إلى إمبراطورية تتعرض للاحتواء، الأمر الذي جعل (متقفي عصر التنوير والثورة الفرنسية يطورون فكرة راديكالية عن الأمة هي " جمهورية مواطنين موحّدة تتجاوز أي انقسام، ارتكزت على جانب مادي تمثّل في تحديد التخوم الخارجية لا سيما في مواجهة بريطانيا وعملية التجانس الداخلي من أهم شروطه) فرض اللّغة الفرنسية في مواجهة تشكيلة من لغات الأطراف، اللغات الاوكسيتانية المتعددة، والبريتانية، والفلمنكية، والأزاسية الألمانية، والكورسيكية⁽⁷³⁾

ونتيجة للنفوذ المتزايد الذي أصبحت تمارسه اللّغة الإنجليزية داخل القارة الأوروبية، وهو النفوذ الذي وصل إلى داخل الإمبراطورية العتيقة وأصبح يهدد كيانها الداخلي وزعامتها، حيث لم يعد متقوها يتورعون عن الحديث باللّغة الإنجليزية في محافلهم، ممّا انتاب الفرنسيين هلع كبير جعلهم يصحون لخطورة الوضع على مستقبل الأمة الفرنسية، حيث تعتبر محاضرة " إرنست رينان " التي ألقاها في السوربون سنة 1882 تحت عنوان " ماهية الأمّة " أوضح دليل علي ذلك، حيث بيّن رينان الدور الذي تلعبه اللّغة الفرنسية في بناء الشّخصية الوطنيّة الفرنسية

وبيّن أهميتها بين جميع العوامل التي تسهم في بناء الأمة الفرنسية ولم يتردد رينان في اعتبار (الفرنسية مؤسسة من مؤسسات الجمهورية أكثر ممّا هي لغة)⁽⁷⁴⁾.

ولفهم الدور الذي يتكلم عليه رينان والأهمية التي تمثلها اللغة الفرنسية للأمة الفرنسية يمكن الاستدلال بحادثة وقعت في تاريخ فرنسا المعاصر، وهي حادثة اعتماد معهد باستور ذات السمعة العالمية وأحد مفاخر الدولة الفرنسية للغة الانجليزية لغة بحث له دون اللغة الفرنسية، فاهتز المجتمع الفرنسي بأكمله لهذه الحادثة، حيث ثار العلماء والكتاب والصحفيين والسياسيين واعتبر الجميع هذا الخبر خطير جدا بحيث لا يمكن السكوت عنه على الاطلاق، وبدأت حملة في الاعلام الفرنسي في خوض هذه المعركة بمختلف وسائلها، فمجلة "جور دو فرانس" كتبت علي غلافها بعنوان بارز (اللغة الفرنسية في خطر) و(الجرثومة الانغلفونية في معهد باستور يا للفضيحة)، وصرّح عالم الأجنة "البير جالكوار" قائلاً: (إنني شعرت بعقم بهذه الفضيحة وأقول لهؤلاء الذين يفكرون هذا التفكير بأن اللغة الفرنسية لم تعد عندهم سوى لسان فئة منحطة من الشعب) ثم طالب من الحكومة الفرنسية قطع كل المساعدات والقروض المخصّصة لمعهد باستور حتى يقلع ويتخلّى عن قراره.

وأما مارك غوميز رئيس الجمعية الوطنية للصحفيين المتخصصين في الإعلام الطبي فقد بيّن أن القرار خاطئ وينبغي التراجع عنه لأن اللغة الفرنسية هي إشعاعنا في العالم.

وجاء تصريح "مارك دانروز" مندوب اللجنة الفرنسية للتربية من أجل الصحة بأنّ (لنا جميعا مصلحة في السيطرة والتحكم في اللغة الانجليزية لتعريف أنفسنا وتعريف الآخرين بنا بواسطة هذه اللغة، ولكن ليس على حساب شرفنا وكرامتنا، وعليه فعلى المعهد أن يفرض لغتنا الفرنسية وبهذا نحترم أنفسنا)

أما رئيس تحرير الجريدة الطبية اليومية وعضو لجنة الدفاع عن اللغة الفرنسية فقد وصف ما أقدم عليه معهد باستور بأنه عمل خطير ويمس بالسمعة الوطنية

لفرنسا وبهبيتها، ويضيف بأنه إذا نحن تصرفنا على غرار تصرفات معهد باستور فإننا نعطي انطباعا يوحي بأننا استسلمنا وتخلينا عن تراثنا الثقافي.

ولم يتوقف حراك الطبقة المثقفة عند هذا الحد بل قام أحد الكتاب بمناشدة العلماء والمفكرين بالقيام بمظاهرات واحتجاجات أمام معهد باستور مؤكدا لهم (أن اللغة هي الوطن فلنكن مع الوطن) وفي الأخير طالب من جميع المستشارين الثقافيين بإلغاء اشتراكاتهم الثقافية مع هذا المعهد تأديبا له (75).

هذا ولم يهدأ الفرنسيون في الدفاع عن لغتهم بوصفها حياتهم وكيانهم والمعبرة عن وجدانهم وشرفهم إلا بسن قانون خاص باستعمال اللغة الفرنسية بتاريخ 31 ديسمبر 1975 تحت رقم 1349 /57 يحيل كل من يتجاوزته إلى عقوبة السجن (76).

خاتمة:

لقد أدرك زعماء الإصلاح والقادة السياسيون في أوروبا الدور الذي تلعبه اللغة الواحدة في ضمان استقرار ووحدة أوطانهم، فعمدوا ومدد اللحظة الأولى التي تشكلت فيها القومية الأوروبية إلى ضمان سيطرة لغة مركزية داخل أبنية المجتمع الفاعلة، والعمل على توحيد اللغات أو اللهجات الأخرى حتى لا تكون دافعا للانقسام والانفصال. إن هذا العمل الذي قام به هؤلاء الزعماء داخل بعض البلدان كألمانيا وفرنسا وإنجلترا جاءت الأحداث في ما بعد لتؤكد صحته، حيث نجد أن الدول التي لم تتمكن من حسم المسألة اللغوية لصالح لغة واحدة، تعيش اليوم على صفيح ساخن وعلى وقع توترات ونداءات متكررة ومتواصلة للانقسام والانفصال عن مراكز هذه الدول وذلك بتوظيف العامل اللغوي، وما تشهده إسبانيا في إقليم الباسك وكاتلونيا وما تشهده بالجيكا من طرف الفلامند نسبة إلى اللغة الفلامندية أوضح مثال على ذلك، وينقل لنا الدكتور بن نعمان بعضا من آثار التعدد اللغوي على وحدة بلجيكا بقوله: والنتيجة أن بلجيكا التي كانت بلدا موحدًا (قبل دخول اللغة الفرنسية) أصبحت اليوم بلدا مقسما إلى جزأين تفصلهما حدود لغوية حقيقية، تطبع فيهما الجرائد تبث منهما الإذاعات ومحطات التلفزة بلغتين مختلفتين، أنباء وأحداث مختلفة وأحيانا متناقضة وهو وضع قسم البلاد من منظور اقتصادي إلى منطقتين مختلفتين أيضا).

وحتى بعض الدول العربية التي حدثت فيها توترات وانقسامات أو محاولات للانقسام شكلت اللغة المحرك الأساسي للحركات الانفصالية فيها ومثاله الأكراد في العراق وجنوب السودان ولو كان الدافع دينا مثلا فإنهم جميعا مسلمون ولو كان عرقيا فالسودان تقريبا من عرق واحد أو من سلالات متقاربة.

إن هذا الواقع يجعلنا اليوم بحاجة إلى مرجعة سياساتنا اللغوية التي تضمن لنا تحقيق أكبر فرص الانسجام الاجتماعي، خاصة ما تعلق بتوحيد لغة التعليم والإدارة، فالازدواجية اللغوية في التعليم شكلت عائقا أمام تحقيق تكافؤ الفرص التعليمية، وأما لغة الإدارة باعدت بين المواطن ومسؤوليه.

مراجع الدراسة:

- 1- إبراهيم عثمان، مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق، عمان، 1999.
- 2- أبو خلدون ساطع الحصري، ما هي القومية، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985.
- 3- أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985.
- 4- أحمد أوزي، اللغة الأم والتربية علي قيم المواطنة، ضمن كتاب، اللغة والتواصل التربوي والثقافي، منشورات مجلة علوم التربية، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 2008.
- 5- أحمد بن نعمان، اشهدي يا جزائر، دار الأمة، الجزائر، 2002.
- 6- أحمد بن نعمان، أطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، دار الأمة، الجزائر، 2005
- 7- أحمد بن نعمان، التعصب والصراع العرقي والديني واللغوي لماذا وكيف؟، ط2، دار الأمة، الجزائر، 1997.
- 8- أحمد بن نعمان، مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء؟، دار الأمة، الجزائر، 2005.
- 9- آدم كوبر، الثقافة التفسير الانثروبولوجي، ترجمة تراحي فتحي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008.
- 10- أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، ط4، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005.
- 11- برهان غليون، الوعي الذاتي، ط2، دار الفارابي، عمان، 1992.
- 12- حلیم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000
- 13- دنيس كوتش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير

- السعيداني، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت، 2007.
- 14- ديفيد ماك كرون، علم اجتماع القومية، ترجمة سامي خشبة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007.
- 15- ريتشارد مينيش، الأمة والمواطنة في عصر العولمة، ترجمة عباس عباس، منشورات وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009.
- 16- ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنيّة والقومية، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985.
- 17- سفير ناجي، محاولات في التحليل الاجتماعي، ج1، ترجمة بن ناصر، (د م ج)، الجزائر، (د ت).
- 18- الشروق اليومي الجزائرية، العدد 3549، الخميس 26 جانفي 2012 الموافق 2 ربيع الأول 1433.
- 19- الشروق اليومي الجزائرية، العدد 3549، الخميس 26 جانفي 2012م/2 ربيع الأول 1433هـ.
- 20- الشهاب، ج10، عدد نوفمبر 1929.
- 21- طوني بينيت ولورانس غروسبيرغ وميغان موريس، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010.
- 22- عبد الرؤوف سنو، القوميّة الألمانية وتجلياتها الودوية والعصرية والإمبريالية، تيار المستقبل، بيروت، 2009.
- 23- عز الدين صحراوي، اللغة العربية في الجزائر: التاريخ والهوية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 5، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، جوان، 2009.
- 24- علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، دار النهضة، القاهرة، 1971.
- 25- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب،

- دمشق، 2004.
- 26- كلود ليفي ستراوس، *الانثروبولوجيا البنيوية*، ترجمة مصطفى صالح، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1977.
- 27- مالك بن نبي، *مشكلة الثقافة*، ترجمة عبد الصابور شاهين، ط12، دار الفكر، دمشق، 2006.
- 28- محمد البشير الإبراهيمي، *الآثار*، ج1، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
- 29- محمد المبارك، *فقه اللغة وخصائص العربية*، دار الفكر، بيروت، 1975.
- 30- محمد عاطف غيث، *قاموس علم الاجتماع*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979.
- 31- مصلح الصالح، *الشامل - قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية*، دار عالم الكتب، الرياض، 1999.
- 32- نبيل علي، *الثقافة العربية وعصر المعلومات*، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001.
- 33- هارلمبس وهولبورن، *سوسيولوجيا الثقافة والهوية*، ترجمة حاتم حميد محسن، دار كيوان، دمشق، 2010.

الهوامش والاحالات

- ¹ - ساطع الحصري، *آراء وأحاديث في الوطنية والقومية*، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985، ص9.
- ² - الشهاب، ج10، عدد نوفمبر 1929.
- ³ - محمد عاطف غيث، *قاموس علم الاجتماع*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979، ص300.

- 4 - مصلح الصالح، الشامل - قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار عالم الكتب، الرياض، 1999، ص 356.
- 5 - ديفيد ماك كرون، علم اجتماع القومية، ترجمة سامي خشبة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007، ص 27.
- 6 - طوني بينيت ولورانس غروسبيرغ وميغان موريس، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010، ص 201.
- 7 - نفس المرجع، ص 702.
- 8 - دنيس كوتش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ص 153.
- 9 - الشروق اليومي الجزائرية، العدد 3549، الخميس 26 جانفي 2012م/2 ربيع الأول 1433هـ.
- 10 - حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000، ص 68.
- 11 - مصلح الصالح، مرجع سابق، ص 355.
- 12 - أحمد بن نعمان، إشهد يا جزائر، دار الأمة، الجزائر، 2002، ص 330.
- 13 - أحمد بن نعمان، مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء؟، دار الأمة، الجزائر، 2005، ص 280.
- 14 - دنيس كوش، مرجع سابق، ص 167.
- 15 - إبراهيم عثمان، مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق، عمان، 1999، ص 156.
- 16 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصابور شاهين، ط 12، دار الفكر، دمشق، 2006، ص 73.
- 17 - برهان غليون، الوعي الذاتي، ط 2، دار الفارابي، عمان، 1992، ص 90.
- 18 - أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، ط 4، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص 82.
- 19 - عيسى الشماس، مدخل الي علم الاسنان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص 58.
- 20 - نفس المرجع، ص 59.

- 21 - آدم كوبر، **الثقافة التفسير الانثروبولوجي**، ترجمة تراحي فتحي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008، ص 246.
- 22 - عيسى الشماس، مرجع سابق، ص 59.
- 23 - إبراهيم عثمان، مرجع سابق، ص 157.
- 24 - نفس المرجع، ص 157.
- 25 - عيسى الشماس، مرجع سابق، ص 59.
- 26 - نفس المرجع، ص 59.
- 27 - آدم كوبر، مرجع سابق، ص 246.
- 28 - دنيس كوتش، مرجع سابق، ص 61.
- 29 - إبراهيم عثمان، مرجع سابق، ص 158.
- 30 - نفس المرجع، ص 160.
- 31 - مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 50.
- 32 - أنتوني غدنز، مرجع سابق، ص 86.
- 33 - هارلمبس وهولبورن، **سوسيولوجيا الثقافة والهوية**، ترجمة حاتم حميد محسن، دار كيوان، دمشق، 2010، ص 22.
- 34 - ديفيد ماك كرون، مرجع سابق، ص 54.
- 35 - برهان غليون، مرجع سابق، ص 96.
- 36 - أنتوني غدنز، مرجع سابق، ص 86.
- 37 - نفس المرجع، ص 86.
- 38 - هارلمبس وهولبورن، مرجع سابق، ص 23.
- 39 - سفير ناجي، **محاولات في التحليل الاجتماعي**، ج1، ترجمة بن ناصر، (دمج)، الجزائر، (د ت)، ص 84.
- 40 - مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 30.
- 41 - مصلح الصالح، مرجع سابق، ص 309.
- 42 - محمد عاطف غيث، مرجع سابق، ص 266.
- 43 - محمد المبارك، **فقه اللغة وخصائص العربية**، دار الفكر، بيروت، 1975، ص 232.
- 44 - ستوارت هول، مرجع سابق، ص 150.

- 45 - كلود ليفي سترأوس، *الانثروبولوجيا البنيوية*، ترجمة مصطفى صالح، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، 1977، ص90.
- 46 - نفس المرجع، ص 76.
- 47 - علي عبد الواحد وافي، *اللغة والمجتمع*، دار النهضة، القاهرة، 1971، ص 2.
- 48 - نبيل علي، *الثقافة العربية وعصر المعلومات*، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001، ص232.
- 49 - إبراهيم عثمان، مرجع سابق، ص165.
- 50 - نبيل علي، مرجع سابق، ص232.
- 51 - نفس المرجع السابق، ص233.
- 52 - عز الدين صحراوي، *اللغة العربية في الجزائر: التاريخ والهوية*، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 5، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، جوان، 2009، ص80.
- 53 - محمد البشير الإبراهيمي، *الآثار*، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص 378.
- 54 - علي عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص 2.
- 55 - محمد البشير الإبراهيمي، *الآثار*، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص 375.
- 56 - ريتشارد مينيش، *الأمة والمواطنة في عصر العولمة*، ترجمة عباس عباس، منشورات وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009، ص 306.
- 57 - أحمد أوزي، *اللغة الأم والتربية علي قيم المواطنة*، ضمن كتاب، اللغة والتواصل التربوي والثقافي، منشورات مجلة علوم التربية، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 2008، ص(34 - 51).
- 58 - أبو خلدون ساطع الحصري، *محاضرات في نشوء الفكرة القومية*، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985، ص 25. وأيضا ريتشارد مينيش، مرجع سابق، ص 136.
- 59 - نفس المرجع، ص 32.
- 60 - جون جوزيف، مرجع سابق، ص140.
- 61 - الشروق اليومي الجزائرية، العدد 3549، الخميس 26 جانفي 2012 الموافق 2 ربيع الأول 1433.

- 62 - أبو خلدون ساطع الحصري، ما هي القومية، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985، ص 52.
- 63 - أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مرجع سابق، ص45.
- 64 - أبو خلدون ساطع الحصري، ما هي القومية، مرجع سابق، ص53.
- 65 - أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مرجع سابق، ص48.
- 66 - نفس المرجع، ص49.
- 67 - عبد الرؤوف سنو، القومية الألمانية وتجلياتها الوجدانية والعصرية والإمبريالية، تيار المستقبل، بيروت، 2009، ص2.
- 68 - ريشارد مينيش، مرجع سابق، ص 141.
- 69 - نفس المرجع، ص42.
- 70 - نفس المرجع، ص 141.
- 71 - أبو خلدون ساطع الحصري، المرجع السابق، ص52.
- 72 - نفس المرجع، ص 24.
- 73 - - ريشارد مينيش، مرجع سابق، ص 62.
- 74 - حامد أبو هدرة، مرجع سابق، ص 169.
- 75 - أحمد بن نعمان، التعصب والصراع العرقي والديني واللغوي لماذا وكيف؟، ط2، دار الأمة، الجزائر، 1997، ص(168-170).
- 76 - أحمد بن نعمان، أطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، دار الأمة، الجزائر، 2005، ص71.

تطوير العربية والأمازيغية سبيل إلى الوحدة والأمن اللغويين

الدكتور ابن شماتي محمد

المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان

إن سيادة أمة من أمم العالم وبسط نفوذها وسيطرتها عليها، لا تقوم لها قائمة إلا إذا استطاعت تلك الأمة الظفر بالشروط الكونية والشروط العلمية بمعناها الواسع؛ لذا سيكون تحقق الشرط الأول مستلزما لاستحضار الفهم الحقيقي والمقاصدي لكيانها، والعمل بمقتضياتهما؛ بحيث يكسب تلك الأمة بسطاً واستحواذاً تامين، فضلاً عن تمكينها محلياً وإقليمياً وعالمياً، فتكون قادرة على فرض منطقتها، وقاهرة لكل مظاهر وأسباب التمزق والاندثار، في حين تحقق الشرط الثاني يتطلب امتلاكها لأسباب العلم والمعرفة ودواعيهما، والعمل بمقتضياتهما، قصد توفير الجو الملائم لأبنائها، حتى تتحقق الاستمرارية في التقدم والتطور الضروريين، وكلاهما يوجب حضور مكون اللغة، أو العنصر اللغوي في ذلك، باعتباره أهم عامل في ذلك كله، إلا أن هذا بدوره يرتبط بعنصر لا يقل أهمية عما تقدم، بل ربما هو الجوهر الذي تنبنى عليه الأمم قاطبة، نقصد تحقق الأمن الشامل، ومعلوم أن الأمن أنواع عديدة، من أمن ديني وثقافي ولغوي وسياسي واقتصادي واجتماعي، والذي نروغ الحديث عنه من هذه الأنواع هو الأمن اللغوي بوصفه شرطاً أساسياً في تحقيق التطور اللغوي الذي تصبو إليه كل أمة تؤمن بمكوناتها وكيانها وهويتها، وتسعى إلى رعاية مصالح أبنائها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعلمية والعملية، الوطنية والإقليمية والدولية. إذ، شرط تطور اللغة هو الأمن اللغوي، وشرط توفر الأمن اللغوي هو تطور اللغة.

بناء عليه، يمكننا القول بأن الأمن اللغوي إن تحقق في أمة من الأمم وتغلغل فيها، فانتظر من أهلها كل شيء، وإن انعدم الأمن اللغوي في أمة من الأمم وتغلغل فيها فانتظر من أهلها كل شيء. إن الانتظار الأول إيجابي وأدنى ما يترتب عليه - وهو في أضعف الإيمان - الوحدة الوطنية، وهي ما هي بالنظر إلى نتائجها الكفيلة بإنقاذ الأمم وضمان استمرار بقائها وبقاء حضارتها. في المقابل يكون الانتظار الثاني سلبيا، وأدنى ما يترتب عليه - وهو في أضعف الإيمان - تشتت الوحدة الوطنية وتمزقها، وهي ما هي بالنظر إلى نتائجها الكفيلة بالقضاء على وجود الأمم والحضارات وإزالتها.

إن أبرز مؤشر على هذا الخطر الذي يهدد اللغة أيا كانت الأمة التي تتكلمها هو دخولها في مفارقات لا تقل خطورتها وأضرارها عن المفارقات السياسيّة والاقتصادية والدينية والعرقية. من هذا المنطلق فإننا نجد الجزائر أمة كباقي الأمم التي ليست في معزل عن التحولات الكبرى والجذرية التي يشهدها عالمنا المعاصر، إذ يجوز لنا نعت عالمنا اليوم بأنه عالم المفارقات الخطيرة، عالم التحديات والامتحانات العسيرة المفروضة خاصة على دول العالم الثالث التائقة إلى استرجاع بريقها الحضاري واللغوي ومكانتها بين الدول العظمى.

من جملة هذه التحديات والامتحانات التي تمر بها جزائر اليوم تحدي المسألة اللغوية، وهي مسألة شائكة بامتياز؛ إذ إيجاد حل نهائي لها ليس من السهل إدراكه من دون تضحيات جسيمة، لذا ينبغي علينا الاعتراف بأن بلدنا يعيش مفارقة لغوية عسيرة وليست هي بأقل عسر من المفارقة السياسيّة والاقتصادية والدينية وغيرها، وإدراكا من أبناء هذه الأمة لحجم الأزمة اللغوية ومخاطرها استطاعت الجزائر أن تقطع أشواطاً متميزة في سبيل ضمان انسجام لغوي يضمن هو الآخر أمنا لغويا فعليا عبر العديد من الإنجازات في خدمة اللغتين الوطنيتين العربيّة والأمازيغيّة على الصعيد السياسي والتشريعي والاجتماعي والإعلامي والمؤسساتي، ولعل الجزائر تعد من الدول السباقة - على الأقل من بين الدول

المغربية - إلى الالتفات إلى القضية اللغوية على المستويين العربي والأمازيغي، وهذا بدوره ينبئ عن وعي كبير بأهمية العمل والاشتغال على الجناح اللغوي، قصد تحقيق وحدة وأمن لغويين في هذا البلد، وعي يكشف عن توجه رسمي (1) وغير رسمي بضرورة تخطي هذه الأزمة اللغوية - التي اتخذت عند بعض الأطراف أبعادا أيديولوجية سافرة - عبر المحافظة على الوحدة الوطنية لغويا بالقرارات السياسية الصائبة، والداعمة لترقية اللغتين الرسميتين العربية والأمازيغية؛ لأن الفرد أو المواطن إذا ضمن وحدة وانسجاما لغويين عمل آليا على حمايتهما من المخاطر والتحديات التي تشكل لهما تهديدا، وحيثما تحقق هذا الأمر تحقق تباعا أمن لغوي شامل، ومن المعلوم أنه متى استتب الأمن في أمر من الأمور نتج عنه تطور محسوس؛ لأن الوحدة اللغوية والأمن اللغوي يفرزان وحدة فكرية منسجمة، ومنتسقة وتكاملا عجيبا، وحصول التطور رهن بهذه كلها.

- الراهن اللغوي في الجزائر:

إن من بين اللغات الإنسانية الأكثر حفاظا على حيويتها ونمطيتها عبر مر التاريخ وتقلباته، اللغة العربية، وذلك بوصفها مكون الهوية العربية والإسلامية (2) وبالمازاة مع اللغة العربية، توجد لغات أخرى عرفت المسار نفسه، ومرت بالرهانات والتحديات ذاتها المهددة لكيانها مثلما عرفت اللغة العربية، وأهم هذه اللغات اللغة الأمازيغية، فهي الأخرى لم تكن في معزل عن هذا كله، وعلى الرغم من ذلك استطاعت الأمازيغية أن تعارك عاديات الزمن العصبية، وتبقي على خواصها الشكلية والمعنوية، وإن كنا لا نخفي الكثير من التغيرات التي صاحبها عبر مراحلها التكوينية بسبب التأثيرات الخارجية، ومازالت للأسف قائمة حتى الآن شأنها في ذلك شأن اللغة العربية التي مازالت هي الأخرى تعاني العديد من النقائص والاختلالات خارج بنيتها اللسانية المحضة. يعد راهن اللغتين الرسميتين في الجزائر راهنا يمكن وصفه بالعويص والمرير، وعواصته ومرارته متأتيتان من جوانب مختلفة وتحديات كبيرة؛ لذا راهن العربية في الجزائر ليس بأفضل حال من راهن

الأمازيغية فهما، في ذلك سبان، وعليه يمكننا إيجاز وضع اللغتين الحالي في المفارقات التي تعرفها اللغتان كالاتي:

1. أول المفارقات اللغوية في الجزائر هو التحول من كتابة لغة رسمية إلى كتابة لغة غير رسمية، وهذا ينطبق على اللغتين معا؛ إذ أننا نجد الكثير من اللافتات الإشهارية، وكثيرا من الإعلانات في القنوات الرسمية والخاصة، تكتب باللهجة أ والهجين الجزائري، وهنا مكنم الخطورة، عندما يألف الناس هذا الهجين اللغوي ولا يرون فيه بديلا عنه، بل لا يرون له أصلا؛ لأنه صار مصاحبا لهم في كل السياقات الخاصة والعامة. أما بالنسبة للغة الأمازيغية فإننا نلفي الحرف اللاتيني طاعيا على الحرفين العربي والتيفيناغ، وهي الأخرى مفارقة خطيرة لا تختلف في حدتها عن تلك التي تعرفها العربية. وكتابة اللغة الأمازيغية بالحرف اللاتيني - كما يقول صالح بلعيد - هو "زيادة لتوسع الفرنسية في بلدنا لا غير، فهو لا يعمل على ترقية الأمازيغية بقدر ما يجرها إلى حضارة غربية وهي ليست منها، بل يعمل على إضعافها، كما أن كتابتها بحرف التيفيناغ هو العودة إلى الأصل"⁽³⁾.

2. ومن المفارقات اللغوية في الجزائر والتي تدل على تبعية لغوية للآخر، أن نجد بعض رجالات الأمازيغ مثلا وهو في سياق النضال والمطالبة بترسيم الأمازيغية، والدفاع عن الثقافة الأمازيغية بلغة غير الأمازيغية، وهي لغة العد والمستعمر، إذ كيف يتم الالتفاف حول الأمازيغية والتعريف بها ولسان حال بعض أهلها ينطق بغيرها الذي حاربها وما زال يواصل حربه ضدها وضد العربية؟ وكفى بهذه مفارقة! فالأجدر به وهو في السياق ذلك ألا يتكلم إلا الأمازيغية، فإن تعذر الأمر لجأ إلى العربية؛ لأنهما مقوم من مقومات هويته، وهذا ما نعبر عنه بالالتزام اللغوي الذي يجب أن يتحلّى به كل مواطن جزائري؛ لأن الالتزام اللغوي لدى كل فرد من أفراد المجتمع الجزائري يعد طريقا ناهجة وسبيلا سالكة لتوصيل صدى اللغتين خارج الحدود السياسية والجغرافية، ووسيلة ذكية للتعريف بالأمازيغية خاصة، وهو بالإضافة إلى هذا يعد مظهرا من مظاهر التآزر والتضامن والتعايش

بين اللغتين في جهة، وسدًا منيعًا أمام كل المحاولات المغرضة المسوّقة لصراع وهمي بين العربية والأمازيغية في الجزائر. إنّ بروز اللّغة وانعكاسها على سلوكات الأفراد والجماعات في المجتمع أمر ضروري ومطلب حضاري كفيل بأن يؤهل اللّغة العربية كما الأمازيغية إلى مراتب عليا ضمن تراتبية اللّغات الحديثة والمعاصرة في العالم.

3. ومن المفارقات الجديرة بالتسجيل هي عدم الانتهاء من قضية التعريب والبيت فيها، ودخولنا معترك قضية العربية والأمازيغية، وهذه قضية أخرى بخلاف قضية التعريب وتعميمه في الجزائر، ومعلوم أنّ هذا الاضطراب في فك الأزمات اللّغوية في الجزائر يولّد حتما عدم الانسجام والاتساق اللّغوي في جانب، ويفتح الباب على مصراعيه لكثير من التيارات والأفكار المعادية لتزويد من استثمارها في هذا المجال الحساس ضد الوحدة الوطنيّة وضد تحقيق أمن وسلم لغويين في الجزائر في جانب آخر. ولا يخفى أنّ الحركات والتحركات الحكومية وغير الحكومية الأجنبية التي تتبنى الوقوف إلى جانب الأقليات تعمل جاهدة على وتر اللّغة في الجزائر بدعوى حماية الأقليات اللّغوية والإثنية، وهي ذات طابع إيديولوجي خطير مهدد للوحدة الوطنيّة على جميع الأصعدة وعلى الصعيد اللّغوي تحديداً(4).

4. بالإضافة إلى هذا نجد القضية اللّغوية في الجزائر أخذت على طاولة النقاش أكثر من حقها، مما سمح لبعض الأطراف تحويلها من قضية لغوية عادية قابلة للحل النهائي، كما هو شأن كثير من دول العالم التي فيها مشاكل لغوية من هذا القبيل إلى قضية إثنية وسياسية، وتحولت على إثر تلك المطالب من لغوية ثقافية إلى مطالب سياسية عرقية انفصالية(5) عند بعضهم.

5. علاوة على ما تقدم، نصادف مفارقة لغوية أخرى في الجزائر تدل على راهن اللّغة فيها، ونعني بها: سير الجناح السياسي في معزل على الجناح اللساني والثقافي والاجتماعي، في تحقيق الأمن اللّغوي والوحدة اللّغوية في الجزائر المعاصرة، وهذا وسع الهوة بين الأجنحة المذكورة؛ بحيث لا يوجد تنسيق بينها على الأقل ظاهريا.

6. ومما له صلة بهذا، وجود العديد من المظاهر التي لا تتوافق والطموح الذي تسعى إليه الدولة الجزائرية، أ وبعبارة مغايرة، توجد مظاهر متعددة على المستوى الرسمي وغير الرسمي تدل على افتقار الجزائر إلى تحقيق وحدة لغوية شاملة، جادة وفعلية، والأمثلة كثيرة إذا نظر إلى سلوكيات الأفراد اللغوية- ولدى أهل المناصب الحساسة في الدولة تحديدا - وكذا السلوكيات اللغوية عند الجماعات والهيئات الوطنية، مثل الأحزاب والجمعيات والنوادي ... إلخ. بمعنى افتقارها إلى الالتزام اللغوي فرادى وجماعات.

7. وهناك مفارقة أخرى جديرة بالذكر، تتحدد في قصر الأزيمة اللغوية على الجانب اللساني المحض، والتغاضي عن جوانب أخرى لها حضورها القوي في معالجة هذه الأزيمة، بل هي جوانب فاعلة ومؤثرة تأثيرا مباشرا وغير مباشر فيها؛ إذ ليس من الصواب أن نحصر قضية من هذا الحجم في الجانب اللساني بحيث تكون النظرة جزئية، والمعلوم لدى صنّاع القرار وأهل الحلّ والعقد بأنها أزيمة تتجاوز البعد اللساني لتأخذ أبعادا أخرى ما وراء لسانية، وإذا كانت كذلك، كان لازما النظر إليها من جوانب متعددة تعدد الأبعاد التي أخذتها.

8. التدخلات الخارجية المهددة للوحدة الوطنية عموما، وللوحدة اللغوية خصوصا وهذه التدخلات السافرة لا ينبغي النظر إليها على أنها معزولة عن مجريات العالم المعاصر السياسية والإيديولوجية، بل ينبغي وضعها في سياقها الحقيقي، الاجتماعي والسياسي والحضاري والثقافي، وحتى السياق اللساني بالمعنى الكوني الذي تتادي به العديد من النظريات اللسانية المعاصرة، على هذا هي ليست قضية مستثناة من المشروع الغربي الرامي إلى بسط سيطرته على الجزائر خاصة، وسائر الأقطار العربية والإسلامية عامة؛ إذ لا معنى للموضوعية في هذا المجال الحساس والمصيري، خاصة ونحن نعلم بأن القضية اللغوية في الجزائر اتخذتها فرنسا القديمة والحديثة زريعة من ذرائع ضرب أمن واستقرار ووحدة المجتمع الجزائري أ وعلى الأقل العمل على زعزعته، "وليست الدعوة إلى الكتابة باللهجات الدارجة

في الأقطار المغاربية إلا ثمرة ناضجة من الشجرة الفرنكوفونية التي غذتها فرنسا واستساغها أهلنا أ وبعضهم⁽⁶⁾ في بلدنا اليوم.

وعليه لا يجب الاتكال على القرارات والتشريعات القانونية والسياسية في صدّ خطر التدخلات الأجنبية الساعية إلى تأطير القضية اللغوية في الجزائر، بل صار من الحتمي أن يتعاقد القرار السياسي والتشريع القانوني مع البحوث التاريخية والأثرية، والتوجيهات المقاصدية المستقاة من شريعتنا السمحة، وكذا الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية والفيلولوجية؛ لأنّ الواقع العام لعالمنا المعاصر على المستوى اللغوي كفيل بأن يحجر على العربية والأمازيغية بسهولة منقطعة النظير على اعتبار ضعف المناعة اللغوية لدينا.

هذه بعض مظاهر الراهن اللغوي في الجزائر، والغرض من سردها هو محاولة تخطيها عبر تقديم بعض الاقتراحات التي نحسبها في مرتبة الإسهامات الموضوعية أو والشروط الضرورية، آمليّن أن تسهم في تشخيص بعض الجوانب الهامة في معالجة القضية اللغوية في الجزائر وحلّها.

- الأمن اللغوي في الجزائر رهن بتطوير اللغتين الوطنيتين:

لا يقلّ تحقيق الأمن اللغوي في أهميته عن الأمن السياسي والثقافي والاجتماعي ، وربما تعادل أهميته عند الإنسان المتحضر أهمية الأمن الغذائي؛ لأنّ المجتمعات الإنسانية في حاجة دائمة إلى توفير أمنها الغذائي، وإننا نشاهد الدول الكبرى في عالمنا المعاصر تضع المخططات المستقبلية لضمان أمنها الغذائي للأجيال اللاحقة وهي بالمقابل، وبالنفس ذاته تجتهد وتبذل الوسع في سبيل وضع مخططات واستراتيجيات مستقبلية للحفاظ على أمنها اللغوي عبر تطوير مستمر للغاتها الوطنية وعلى جميع الأصعدة⁽⁷⁾، فناعة منها بأن الأمن اللغوي يشجع على تفجير مختلف الطاقات العلمية والعملية في جميع الجوانب الحياتية، ويفتح أمامها أفاقا طويلة المدى داخل البلاد وخارجها، وهذا ما تطمح إلى تحقيقه سائر الشعوب والأمم، وللجزائر نصيب في هذا الطموح المشروع.

من هذا المنطلق ارتأينا تقديم بعض الاقتراحات علّها تسهم في رسم الخطوط العريضة لقضية الأمن اللغوي في الجزائر، وما ينجر عنه من تطوير اللغتين الوطنيتين العربية والأمازيغية، ولا مناص لنا من استحضار جملة الشروط العامة والضرورية في ذلك، فضلا عن إخلاص النية لبعث اللغتين من جديد بما يتوافق ومتطلبات العصر الحالي، وبما توجبه علينا التقنية المعاصرة.

أولا: التعريب أو ترميم اللغة العربية.

ما يلاحظ على أغلب البحوث والدراسات التي اهتمت بقضية التعريب في الجزائر، هو أنها لم تستطع تجاوز حدّ الازدواجية اللغوية⁽⁸⁾ (الفرنسيّة ≠ العربية) أو عدم تخطيها قضية العربية الفصحى وطرق ترقيتها في خضم انتشار الدارج أو الهجين اللغوي، الذي صار وما زال يشكل تهديدا عنيفا ومتواصلا للفصحى. ومن دون ذكر لعنوانات الدراسات والبحوث في هذا الشأن، ينبغي الإقرار بأن قضية التعريب عولجت من جوانب وزوايا مختلفة لكنها لم تكن لتتخلص من هاجس الازدواجية أو الهجين اللغوي في مقابل الفصحى، ولا يعني هذا أننا ننفي وجود الدراسات الجادة التي سعت إلى تقديم تصورات موضوعية لحل هذه الأزمة، كما لا يعني استخفافا بمشكل الازدواجية أو الهجين اللغوي في الجزائر، وإنما المعنى هو افتقار تلك البحوث والدراسات إلى حلقة أساسية في معالجة أزمة اللغة العربية.

علينا أولا أن نميز بين ثلاث مراحل كبرى بها يتم تشخيص قضية التعريب وسبل تعميمه، وهذه المراحل كالآتي:

- 1/ مرحلة الدارج أو الهجين اللغوي.
- 2/ مرحلة اللهجة الجزائرية قبل الاستعمار.
- 3/ مرحلة اللغة العربية الفصحى.

هذه المراحل أ والمحطات الأساسية للتعريب في الجزائر وتعميمه ليست منفصلة عن بعضها، هذا في جهة، وهي تكشف عن تجاوز المرحلة الوسطى في معظم الدراسات التي اهتمت بالتعريب وسبل تعميمه في الجزائر، في جهة أخرى؛ إذ عادة ما تحاول تلك الدراسات الانتقال من الدارج أو الهجين اللغوي إلى الفصحى متخطية المرحلة الوسطى وهي ضرورية جدا في تعميم التعريب، وما دنا هنا في سياق لا يتعلق بقضية التعريب في الجزائر خاصة، وإنما بالأمن اللغوي والثقافي، فلا يسعنا إلا الاكتفاء بالعرض السريع والمجمل لهذا المقترح، وعليه ينبغي حصول وعي تام بأن اللغة العربية في الجزائر إذا ما أريد لها الرقي، ومن ثم تحقيق تعريب شامل لجميع الجوانب والمجالات، علينا أن نعمل على نقل الفرد أو المواطن الجزائري من الدارج أو الهجين اللغوي المستعمل اليوم إلى اللهجة الجزائرية الخالصة التي كانت منتشرة في المجتمع الجزائري قبل الاستعمار الإسباني، وأعلى الأقل قبل الاستعمار الفرنسي.

إنّ السرّ في ذلك - في اعتقادنا على الأقل - هو تهيئة المواطن الجزائري لمرحلة اللغة العربية الفصحى، فكرا وعملا وممارسة وسلوكا يوميا؛ لأن علة عدم نجاح تعميم التعريب في الجزائر، لا يعود إلى عامل سياسي أو لساني خالص، بل يعود إلى العامل النفسي بدرجة أولى، العامل النفسي المتعلق بسلوكات الناطقين للغة العربية في الجزائر، وإلى عامل آخر وهو عدم التقطن إلى وجود مرحلة وسطى في قضية التعريب؛ إذ العواصة كامنة في هذه القفزة التي لا مسوغ لها من مرحلة الدارج أو الهجين اللغوي إلى مرحلة العربية الفصحى باعتبارها الأنموذج الأعلى الذي نطمح إلى استعادته في مجتمعاتنا العربية عموما.

إذاً، لا بدّ من نقل المتكلم الجزائري من وضع لغوي سيء إلى وضع لغوي حسن، ومن الحسن إلى الأحسن، واحترام هذه التراتبية أمر لا بد منه. فالعبرة هنا بما يؤول إليه المجتمع لا المؤسسات، جراء تهيئة الأفراد على أن يتكلموا أولا باللهجة الجزائرية الخالصة، التي تكلم بها أجدادنا قبل تعرضهم للاستعمار الغاشم،

وهذا يتطلب تسخير جميع الوسائل والآليات المتاحة لتحقيقه؛ إذ ليس من السهل نقل مجتمع ألف الهجين اللغوي وصار يفكر ويكتب به، إلى لهجة جزائرية خالصة، من كل دخيل وهجين، فكيف بنقله من الهجين إلى الفصحح دون واسطة؟ بالإضافة إلى هذا يجب مراعاة عامل الزمن قصد عدم الوقوع في شرك العجلة. وإذا كان هذا هكذا، سهل علينا نقل المجتمع الجزائري من لهجة جزائرية خالصة إلى لغة عربية فصيحة، وهذا ينطبق خاصة على مستوى الأفراد والجماعات والفئات المجتمعية، أما فيما له صلة بمؤسسات الدولة فالتعريب وتعميمه قد لا يحتاج إلى هذه المراحل وإلى هذا التدرج في ترميم اللغة العربية، بل ينبغي إحداث النقلة مباشرة من إدارة جزائرية بلغة فرنسية إلى إدارة جزائرية بلغة عربية فصيحة، وهذا الالتباس بين تعريب المجتمع الجزائري باعتباره أفرادا وجماعات لهم سلوكات لغوية قابلة للترميم، وبين التعريب لمؤسسات الدولة وتعميمه فيها سببه هو عدم الالتفات إلى المرحلة الوسطى في قضية التعريب في اعتقادنا.

وهكذا يصبح الأمر واضحا جدا، إن أمن في النظر؛ لأنّ علة السهولة في الانتقال من المرحلة الوسطى (الثانية) إلى المرحلة النهائية (الثالثة) كامنة في قرب هذه من تلك، وعدم غرابتها عنها، وانعدام الهوية بينهما، وكذلك قصر المدة الزمنية في الانتقال من الثانية إلى الثالثة، بخلاف علاقة الأولى بالثالثة، أ والهجين اللغوي بالعربية الفصحح. بهذا الاعتبار يكون التدرج في التعريب في الجزائر وتعميمه ترميما للغة العربية وبعثا وتمكينا لها على مستوى الأفراد والجماعات والمؤسسات، ومظهرا من مظاهر الوحدة اللغوية والأمن اللغوي في الجزائر المعاصرة.

وعلى العموم، لا بد من العمل على ترسيخ الاعتقاد القاصي بأن تحقيق الاستقرار والأمن اللغويين، ومن ثم حدوث التطور الشامل لجميع الميادين لا يتم بلغة أجنبية عن خصوصيات ومقومات المجتمع الجزائري، ومبادئ هويته، كما أن "إصلاح اللغة من حيث المتن والتركيب، ووضع قواميسها، ومعجمها التاريخي، وإثراء رصيدها العلمي والتكنولوجي، وتوليد المفردات التقنية وتغذيتها عن

طريق⁽⁹⁾ الترجمة وغيرها من أساليب التنمية اللغوية لا يفي بالغرض، بل يحتاج إلى استحضار البعد التأصيلي، أ والمنطلق الأساس في ذلك، وهو ضرورة إدراج البعد المقاصدي لقضية اللغة العربية، فضلا عن مراعاة تراتبية المراحل الثلاث التي بها نتمكن من تجاوز إشكالية تعميم اللغة العربية على جميع المستويات المذكورة آنفا. والحق إن هذا التصور أو المقترح يحتاج إلى فضل بيان وتفصيل إلا أن السياق الذي نحن فيه يحتم علينا الالتزام بالإيجاز والاختصار.

ثانيا: الأمازيغية.

من البديهيات التي لا يجدها إلا مكابر أو معاند، هي تداخل اللغتين العربية والأمازيغية تداخلا قديما في الجزائر، إنه تداخل له امتداداته التاريخية، فلا جرم إذا اتخذناه منطلقا نروم به ترميم اللغة الأمازيغية على غرار اللغة العربية والعمل على تعميمها، لأن نجاح التعريب في الجزائر يعد قاعدة متينة ونواة صلبة لتحقيق ذلك، خاصة إذا اعتمدنا على الشرط التاريخي الذي يشهد على تكامل اللغتين وتعاضدهما طيلة عهود سحيقة، إذ لم يسجل لنا التاريخ أن حدث في يوم ما قبل الاستعمار الفرنسي للجزائر أن قمعت الأمازيغية أو حصلت اعتراض عليها من قبل أي كان من الفاتحين العرب الأوائل⁽¹⁰⁾ خاصة. وكفى بهذا دليلا على تعايش اللغتين معا وتعايش العرب مع الأمازيغ والعكس صحيح.

تأسيسا على هذا يمكننا تشخيص أزمة اللغة الأمازيغية في مشكلة الكتابة، أي: إشكالية الحرف الذي تكتب به، وهذا في اعتقادنا يعد المشكل الجوهرية في اللغة الأمازيغية؛ لأن ضبط الحرف الذي تكتب به اللغة عموما يسمح لها بالانتشار والذبوع، وهو ما تعاني منه الأمازيغية حاليا، فمحدوديتها لا تكمن في المستوى التعبيري بقدر ما تكمن في افتقارها إلى الحرف الأصلي الذي يبرزها ويضعها في مكانها الصحيح ضمن مجموع اللغات الإنسانية، وهكذا يكون استعار الحرف اللاتيني لكتابة اللغة الأمازيغية مكلفا جدا؛ لأنه يضاعف من حدة تعقيد الإشكالية أكثر مما يكلفه البحث في الجذور الأولى للحرف الأصل التيفيناغ.

من هذا المنطلق يحق لنا أن نصادر على أن إشكالية الحرف الأمازيغي هي قطب الرحي فيما تعاني منه اللغة الأمازيغية، وإذا كان هذا هكذا، يكون الاشتغال على بعث الحرف الأصل التيفيناغ من جديد أمرا لازما؛ لأن في بعثه ترميما للأمازيغية، وترميمها يقتضي الاستجابة إلى تفعيل المراحل الثلاث التي نقترحها هنا، والتي يجب مراعاتها على الأقل في ذلك. وهذه المراحل هي كالاتي:

1/ مرحلة بعث التيفيناغ.

2/ مرحلة التفعيل الأولي للتيفيناغ.

3/ مرحلة التفعيل النهائي للتيفيناغ.

إلا أننا قبل الشروع في تفصيلها يحسن بنا التذكير بأن اللغة الأمازيغية في الجزائر أمام ثلاثة أنماط من الحروف: الحرف العربي واللاتيني والتيفيناغ. مبدئيا، علينا أن نضع الحرف العربي جانبا؛ لأنه لا يشكل عائقا للغة الأمازيغية نظرا للتعايش بينهما منذ الفتح الإسلامي، وللالفة التي بين منكملي اللغتين في الجزائر، فضلا عن وجود العديد من المخطوطات الأمازيغية في شتى فروع المعرفة العلمية مدونة بالحرف العربي، فهي لغة "أقرب إلى العربية في قاموسها، وخاصة ما يتعلق بالعبادات، وهناك اليوم جدل حول الحرف الذي تكتب به بعد أن كان المخطوط منها كله بالحروف العربية"⁽¹¹⁾، وهذا يوحي بمدى التداخل والتضامن بين اللغتين، وأنهما عماد الهوية الوطنية قديما وحديثا وحاليا أيضا، وأن الصراع بين اللغتين ما هو إلا صراع وهمي ومفتعل، وضعه الحاقدون على هذا البلد.

لذا يجدر بنا العمل على إبراز القواسم المشتركة بين العربية والأمازيغية، ومن جوانب وزوايا متعددة، على اعتبار أن اللغة هي الحامل الثقافي والمعرفي والتاريخي والحضاري والمنطلق والمنتهى عند جميع الأمم، مضاف إلى هذه المذكورات كلها، قاسم مشترك حاسم هو (الدين الإسلامي) باعتباره من خواصنا الذاتية الثابتة.

أما فيما له صلة بدعوة بعض الأطراف إلى كتابة اللغة الأمازيغية بالحرف

اللاتيني، فهي دعوة تبطن الكثير من السموم والإيديولوجيات الأجنبية التي أقل ما توصف به أنها متعصبة ضد الإسلام والمسلمين، حتى لا نقول ضد العرب جميعا. إنها دعوة مرفوضة؛ لكونها غريبة عن المكون اللغوي الجزائري؛ لأنها تكسر مظاهر التبعية للآخر اللاتيني عموما، والفرنسي خصوصا؛ لأن اللغة إذا فقدت حرفها واقتضت حرفا آخر من لغة أخرى غريبة عنها، فقدت آليا أصلها الخالص، وهذا ما لا نريده للغة الأمازيغية، والحق أننا لسنا بحاجة إلى بيان مخاطر هذه التصورات الهدامة للوحدة الوطنية ولأمنها اللغوي والثقافي، فهي أشهر من أن تذكر.

بقي علينا من مطالب هذه القضية الحرف الثالث وهو التيفيناغ، ويمكن توضيح مقترحنا انطلاقا من المراحل الثلاث المتقدمة على النحو الآتي:

1. مرحلة بعث التيفيناغ:

تعد هذه مرحلة قاعدية، وتتطلب اللجوء إلى العمل الجماعي والتعاضدي بين مختلف فروع المعرفة العلمية، وفي مقدمة هذه الفروع العلمية علم الآثار ودراسات ما قبل التاريخ، وهنا يتجلى البعد التاريخي الذي يعد هو الآخر شرطا أساسيا في تحقيق متطلبات المرحلة الأولى أو مرحلة البعث؛ والخطوة الأولى التي ينبغي أن تقوم بها الجهات المسؤولة هي فتح الباب أمام علماء الآثار والباحثين في علم الاستحاثة والمستحجرات، قصد تقديم برنامج بحث علمي ميداني يكشف عن الحفريات والمستحجرات القديمة المتعلقة بحضارة الأمازيغ وتراثهم، ومن ضمن هذه المخلفات الوجيهة، الخط الأمازيغي الأصل التيفيناغ الذي كانت تكتب به اللغة الأمازيغية قبل أن يصيبها الذي أصابها، وذلك سيرا على منوال بعض الدول الشقيقة التي فتحت أبوابها للعلماء من سائر أقطار الأرض، وسخرت كل الإمكانيات الضرورية للبحث في المخلفات الأثرية، إننا نقصد مصر وحضارة الفراعنة وخطها الهيروغليفي.

إذا تمكنا من تحضير هذه المرحلة الأولية، كان بمقدورنا تباعا توفير مادة علمية

ثرية وكفيلة بأنّ تغيير الكثير من الاعتقادات المتعلقة بتاريخ الحرف الأمازيغي خاصة، وبتاريخ الجزائر عامة، ومن ثمّ نستطيع فتح قنوات هادفة للتعريف باللّغة الأمازيغية، وتاريخها الحضاري ماديا ومعنويا لسائر بلدان العالم، وتكون هذه أولى الخطوات الجريئة للوقوف في وجه تغلغل الحرف اللاتيني ومخاطره، ناهيك عن تمكين فهم عميق يعمل على سدّ باب الفرضيات والأهواء والآراء غير المؤسسة علميا، والخرافات والأساطير التي نُسجت حول أصل الأمازيغ وتاريخهم القديم، بدعوى انعدام الوثائق المطلوبة والضرورية في الكشف عن الحقائق التاريخية المتعلقة بأمة الأمازيغ، وتكون هذه المرحلة الأولى أيضا بهذا الوصف سداً لذرائع كثيرة مشوشة ومشكّكة في أصل الأمة الأمازيغية وحضارتها العتيقة، وهنا تتجلى أهمية الشرط المقاصدي في هذه القضية الوطنية، بجلب المنفعة للوطن ودرء المفسدة عنه.

عموما، يحتاج الأمر في هذه المرحلة الابتدائية إلى مجموع الوسائل المادية والبشرية، وإلى التمكن من المناهج العلمية المتطورة في مجال علوم الآثار، والتاريخ والاستحاثة، والفيلولوجيا، والأنثروبولوجيا، والأنتوغرافيا، وعلم الاجتماع والجغرافيا، علاوة على ضرورة إنشاء مراكز بحوث متخصصة. إنّ هذه المطالب بدورها تحتاج إلى مطلب رئيس يوطرها، وهو الرعاية والدعم السياسيين من السلطات الحاكمة؛ لأنّ المسألة متصلة بهوية الجزائر ومصيرها.

2. مرحلة التفعيل الأولى للتيفيناغ:

نقصد بالتفعيل الأولى للحرف الأمازيغي التيفيناغ، بضرورة العمل الدؤوب على إدراجه في الميادين العلمية والكتابات والمراسلات الرسمية، فعلى سبيل المثال يمكننا الاجتهاد في تطبيق المرحلة الأولى بإدخال التيفيناغ في منظومة الرموز العلمية كالرياضيات والفيزياء والمنطق وسائر العلوم التقنية بشكل عام، باعتبار التيفيناغ بديلا عن الرموز اللاتينية واليونانية القديمة، وهذا في نظرنا يفضّل كثيرا الاجتهاد في التقريب بين اللّغة الأمازيغية واللّغة اللاتينية مع العلم بانعدام القرابة

بينهما.

صحيح أن هذا الطموح يستدعي الكثير من الجهد والمثابرة، والنقاش العلمي والحوار الجاد، وصحيح أيضا أنه أمر ليس من السهل أن يستسيغه المجتمع العلمي ويلتف حوله، نظرا لألفتهم الحرف اليوناني واللاتيني أو الرموز اليونانية القديمة، ولكننا يجب أن نسعى إلى ذلك خدمة لهذه اللغة، وإسوتنا في ذلك هو تاريخ اللغة العربية التي استطاعت قديما في أيام أوج الحضارة الإسلامية أن تفرض منطقتها على العالم كله، وفي المجال العلمي تحديدا؛ لكونها كانت لغة العلم والعمل معا، وضمنت بذلك حضورها القوي وحافظت على خواصها.

بالإضافة إلى ذلك، لا بد من توسيع حضور حرف التيفيناغ في المجال العلمي عبر الترجمة من التيفيناغ وإليه في شتى الميادين والجوانب الحياتية، تعليما وإدارة ومؤسسات عامة وخاصة، وكذا الوثائق الرسمية من قبيل شهادة الميلاد وشهادة الإقامة، وجواز السفر، ورخصة السياقة، هذه الوثائق ينبغي أن تكتب بالعربية وبحرف التيفيناغ معا؛ علاوة على بذل الوسع في وضع معجم تأثيلي للأمازيغية انطلاقا مما تُسفر عنه نتائج مرحلة بعث التيفيناغ.

هذا، ولا يتوقف الأمر على ما ذكر، بل المطلوب أيضا توسيع الكتابة به في اللافتات الإشهارية، والمرورية عبر أرجاء الوطن كله، وليس الاقتصار على المناطق التي تنتشر فيها اللغة الأمازيغية (القبائل الكبرى والصغرى)، كأن تكتب لافتات المرور بالعربية والتيفيناغ، بدل العربية والفرنسية، أو الفرنسية وحدها، أو العربية تحت الفرنسية؛ لأن عملا من هذا القبيل، وإن بدأ بسيطا وسطحيا، إلا أنه يتضمن رسائل قوية جدا، في مقدمتها التعبير عن التعايش الحقيقي والفعلية بين العربية والأمازيغية، والرد على الافتراءات والمزاعم الخارجية المروجة لوجود صراع بين اللغتين وإبطالها، فضلا عن كونه مظهرا صحيا ودائما من مظاهر الوحدة الوطنية، ودالا قويا على سيادة أمن لغوي متين في الجزائر، وإلا كيف يتم فهم معنى ترسيم اللغة الأمازيغية؟

3. مرحلة التفعيل النهائي للتيفيناغ:

بناء على ما تقدم، ستكون هذه المرحلة الثالثة مرحلة نهائية، إذ فيها يتم إزاحة الحرف اللاتيني والتخلص من مزاحمته للحرفين الوطنيين جملة وتفصيلا، عن طريق القرارات السياسية الفاصلة والحازمة، والقاطعة لكل خلاف أو تشكيك في قضية الحرف الذي تكتب به اللغة الأمازيغية، فدور هذا الحزم السياسي يتجلى في فرض تعميم حرف التيفيناغ في جميع القطاعات والمجالات العامة والخاصة معا، حتى على مستوى الشوارع وواجهات الحوانيت، وكذلك ضرورة تفعيل دور الجمعيات لنشر الوعي لدى المواطن الجزائري بحقيقة المخاطر والتهديدات الخارجية ضد الوحدة الوطنية، وبأهمية الحفاظ على مكسب الأمن السياسي والاجتماعي جراء توافر أمن لغوي حقيقي وفعلي، فأهمية هذه المرحلة تمكّن من هيبه الدولة بتنفيذ القرارات والتشريعات القانونية في هذا الشأن، وربما لجأت الدولة إلى القوة القانونية والسلطوية لتعميم التيفيناغ على المؤسسات والأفراد إن دعت إلى ذلك مصلحة راجحة، وهذا من مقتضيات العمل بالبعد المقاصدي في قضية اللغتين الرسميتين، كما سنوضحه في سياقها إن شاء الله.

بالجملة ينبغي مراعاة هذه المراحل الثلاث في قضية كتابة اللغة الأمازيغية بالحرف الأصلي التيفيناغ، حتى تتحقق سنة التدرج التي تجلب الكثير من المنافع وتدفع الكثير من المضار، وهذا ما يكشف عنه المقترح الآتي.

ثالثا: البعد المقاصدي.

والمراد منه وجوب العمل بروح الشريعة ومقتضاها في البت في القضايا المصيرية وحلّها، والعمل بمقاصد الشريعة في حلّ المشكلة اللغوية في الجزائر يتم ابتداء بالنظر في خلق اللغات الإنسانية واختلافها، باعتبارها سنة من السنن الكونية التي وضعها الشارع الحكيم، والوقوف على الحكمة من اختلافها، فخلق اللغات العديدة في العالم يوجب العمل بمقتضى الخبر، وهذا بدوره يستلزم استحضار النظر إلى جانب الخبر، قصد إدراك الحكمة من ذلك كله، وهو تحقق التكامل

والتعاون والتعارف بين متكلميها بما يفضي إلى جلب المصلحة العامة للجميع، ودرء المفسدة عن الجميع في إطار قاعدة التعارف والتكامل بين الشعوب والقبائل المختلفة⁽¹²⁾ هي الأخرى والمتعددة.

فإذا تحقق التكامل والتعارف وفق مقتضيات الحكمة الشرعية والسنن الكونية، تبعه لزما سلمٌ وتسامح لغويان بين الشعوب والأمم قاطبة على الرغم من اختلافها لونا وعرقا ولسانا. وتجسيدا لهذا البعد الشريف على أرض الواقع ينبغي العمل على نقل مهمة العلماء والدعاة من مجرد الترغيب في الحفاظ على الوحدة اللغوية في الجزائر والترهيب من التفريط فيها، إلى إشراكهم الفعلي في إيجاد الحلول الجذرية والنهائية للأزمة اللغوية في الجزائر، وذلك يحتم تفعيل البعد المقاصدي أو روح الشريعة؛ لأجل الخروج بنظرة شرعية علمية ببعد مقاصدي، نابعة من مراعاة الحكمة والعلة في ذلك، خاصة إذا علمنا أن البعد المقاصدي يتضمن العديد من القواعد والقوانين الشرعية الكلية، التي لا تقتصر على تشخيص الأزمة اللغوية في الجزائر - إن عمل بها - بل تتجاوز ذلك لتسهم مباشرة في حلها الحل النوعي والنهائي، لما لها من الكفاية العالية في البت في المشكلة اللغوية في بلدنا ولأبد.

يندرج هذا كله تحت قاعدة جلب المصلحة ودفع المفسدة بمراعاة المصالح الوطنية العامة والعالية الراجحة، على حساب المصالح الخاصة المرجوحة. ولعل من أبرز هذه القواعد الشرعية التي لا بد منها في هذا السياق الراهن قاعدة "تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة". قد لا نشاطر الرأي في إعمالها باعتبارها قاعدة شرعية تخص الأعمال الدينية دون الدنيوية، وأن في إعمالنا لها إسقاط ساذج لا يفيد في حل المشكلة اللغوية في الجزائر؛ فإننا نقول: إن الأمر بخلاف ما وصف، ذلك أن المقاصد الشرعية لها بُعد كلي، والبعد الكلي يسمح باحتواء سائر القضايا الدينية والدنيوية، وهذه من خواص الشريعة الإسلامية.

إن القاعدة المذكورة هي أداة في يد القائم بالأمر على البلاد أ والحاكم؛ إذ بها

يتمكّن من " تجلي حدود السلطة العامة، ومعالج التدبير الإداري... جلبا للرشاد، ودرءا للفساد، وحسماً لمادة الاضطراب والتهاجر وفوت الأمان، مما يُعبّر عنه في عرف الفقهاء بالمصلحة العامة"⁽¹³⁾، وليس هناك مصلحة راجحة أكبر من مصلحة حفظ الأمان بكل أشكاله، كما أن ليس هناك مفسدة أكبر من مفسدة فقدان الأمان بكل أشكاله، وهذا يستلزم قطع كل الأسباب المؤدية إلى فقدانه أو اختلاله عملاً بقاعدة سدّ الذرائع.

إنّ أخطر الذرائع التي تشكل تهديدا مباشرا على الأمان الوطني عموماً، ذريعة الصراع الوهمي بين العربيّة والأمازيغية، ودعوى حماية الأقليات المحرومة، والإثنيات، فهذه ينبغي قطع الأسباب الموصولة إليها عن طريق العمل بمقتضى ما توجبه هذه القاعدة المقاصدية، فرعاية المصلحة الراجحة في هذا السياق أولى وأجدر من المصلحة المرجوحة الخاصة، وهذا هو الذي يفترض أن تتمسك به الجهات المسؤولة في إنفاذ قراراتها، وهو في جانب آخر أعمال لأصل من أصول المرجعية الفقهية في الجزائر، نعني: من أصول المذهب المالكي التوسع في تطبيق قاعدة سدّ الذرائع بوصفها نوعاً من الاحتياط الذي تدفع به المفسد والمضار الواقعة أو المتوقعة، مراعية في ذلك المآلات⁽¹⁴⁾ بما يتوافق والمصلحة العامة في العاجل والأجل.

بالإضافة إلى هذه القاعدة المقاصدية الجليّة، يمكن الاستعانة بقواعد أخرى لا تقل نفعاً في فض الخلاف والعبث في القضية اللغوية في الجزائر، وأهمها، قاعدة " الضرر لا يزال بمثله"⁽¹⁵⁾. إنّ لهذه القاعدة صدى قويا في رهن اللغة في الجزائر إذا أحسن العمل بمقتضاها؛ لأنّ الضرر الحاصل من جراء تصور صراع بين العربيّة والأمازيغية لا ينبغي أن يزال بجلب ضرر آخر أكبر منه وأشد على هوية الأمة، وهو الدعوة إلى عدّ اللغة الأمازيغية لغة تنتمي إلى العائلة اللاتينية، فهذا الضرر الثاني وقعه أقوى وأشد على الوحدة الوطنية، وهوية الأمة الجزائرية. والقواعد المقاصدية كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال قاعدة: " يُتحمّل

الضرر الخاص لدفع الضرر العام⁽¹⁶⁾، لهذه القاعدة الأثر النفعي القوي والعام في مراعاة المصالح العامة للوطن، وهو توفير الأمن اللغوي باعتباره أمرا واجبا وضروريا لتحقيق أمن سياسي ووحدة وطنية متلاحمة. وكذا قاعدة: "إذا تعارض المانع والمقتضي يُقدم المانع"⁽¹⁷⁾، وقاعدة: "درء المفسد أولى من جلب المصالح"⁽¹⁸⁾. وقاعدة: "الأصل في المضار التحريم"⁽¹⁹⁾.

بالجملة، المراد من الإشارة إلى البعد المقاصدي في حلّ الإشكالية اللغوية في الجزائر هو بيان أهميته ودرجة سعته في احتواء القضايا والمشاكل الكبرى والمصيرية، في جانب، وبيان غفلة الدارسين عنه في حل الأزمة اللغوية في بلدنا، في جانب آخر، كما يجب أن ننوه إلى أن نظرنا إلى هذه الإشكالية لا تكون نظرة جزئية وضيقة متغاضية عن باقي الأبعاد والأجزاء الأخرى إذا ما عملنا بمقتضى مقاصد الشريعة وقواعدها العلمية، مما يستلزم حصولها عند انتفاء البعد المقاصدي، وهو ما نعيشه اليوم فعليا.

لذا ينبغي علينا ونحن نبحث عن حل للأزمة اللغوية في الجزائر، أن نوظف كل الأبعاد الأساسية من سياسية واجتماعية ودينية وثقافية وتاريخية ولسانية وأدبية وأنتروبولوجية، وأيضا مقاصدية لما لقواعدها الشرعية من معاني الدقة العلمية، والكلية والاستشرافية؛ بحيث "تدرك العقول السليمة ملاءمتها للمصلحة أو منافرتها لها، أي: تكون جالبة نفعا عاما أو ضررا عاما"⁽²⁰⁾ وعليه صار الأمر واضحا جدا بأن هذا البعد لا يقوم به إلا أهل الاختصاص من علماء الشريعة ومقاصدها. فالعبرة من اختلاف اللغات هي تحقيق التكامل والتعاون الإنساني وهذه هي أعلى مراتب المصلحة العامة التي ينشدها الإنسان المعاصر، وليست العبرة في اختلافها ابتداء الصراعات والفروقات القاتلة للنوع الإنساني وهذه هي أعلى مراتب المفسدة العامة التي تنفر منها الفطر الإنسانية الصافية.

وفي الختام نقول إن الأزمة اللغوية في الجزائر - سواء أعلق الأمر باللّغة العربية وحدها، أم بالأمازيغية وحدها، أو هما معا في مقابل الفرنسية - في حاجة

ماسة إلى تضافر هذه الأبعاد المذكورة، المقاصدية والسياسية والاجتماعية والثقافية، والتاريخية والاقتصادية والمؤسسية والقانونية وحتى الجغرافية، باعتبارها أبعادا كفيلة بأن تحسم أمر الراهن اللغوي داخليا وخارجيا بتحقيق أمن لغوي فعلي يمهد لأمن سياسي واجتماعي واقتصادي شامل في الصالح العام للجزائر.

قائمة المراجع

- 1- أحمد فلاق عروات، خلود العربية ونماؤها المستمر وإيغالها بعدا في جوانب الوجود الإنساني، مجلة اللّغة والاتصال، جامعة وهران، ع3 ربيع الثاني 1428- ماي 2007.
- 2- بوزيان دراجي، القبائل الأمازيغية، أدوارها وأعيانها ومواطنها، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط1/ 1999.
- 3- خالد محيي الدين البرادعي، اللسان العربي والفرنكفونية وجراحنا القديمة، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة الجزائرية، ع 110-111 سبتمبر - ديسمبر 1995.
- 4- دستور الجمهور ية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، دار بلقيس، الجزائر، ط 2016.
- 5- صالح بلعيد، التخطيط اللّغوي الضرورة المعاصرة، ضمن كتاب: أهمية التخطيط اللّغوي، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2012.
- 6- صالح بلعيد، هكذا رقىّ الفرنسيون لغتهم، فهل نعتبر؟ منشورات مختبر الممارسات اللّغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر 2014.
- 7- عبد الرحمن سلامة، التعريب في الجزائر، مكتبة الشعب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1981.
- 8- عبد الكبير حميدي، التعدد اللّغوي ووحدة الهوية المغربية، ضمن كتاب التعدد اللّغوي في منطقة تافليلات، منشورات فريق البحث في اللّغة والآداب والفنون بمنطقة تافليلات، المغرب، ط1/ 2013.
- 9- عبد الكريم زيدان، الوجيز في شرح القواعد الفقهية، مؤسسة الرسالة، دمشق، سوريا، ط1/ 2009.
- 10- قطب الريسوني، قاعدة تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة، دار الكلمة، مصر، ط1/ 2013.
- 11- قطب الريسوني، قاعدة ما حرم سدا للذريعة أبيع للمصلحة الراجعة، دار الكلمة، مصر، ط1/ 2013.

12- محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار السلام، مصر، دار

سحنون، تونس، ط5/ 1433-2012.

13- محمد العربي ولد خليفة، كلمة افتتاح أشغال ندوة التخطيط اللغوي، ضمن كتاب

التخطيط اللغوي، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2012.

الهوامش والإحالات

(1) ينظر في هذا الصدد : الدستور الحالي للجمهورية الجزائرية المعدل بتاريخ 06 مارس 2016، الباب الأول، الفصل الأول، المادة الرابعة، دار بلقيس - الجزائر - ط 2016، ص 09.

(2) ينظر أحمد فلاق عروات، خلود العربية ونماؤها المستمر وإيغالها بعدا في جوانب الوجود الإنساني، مجلة اللّغة والاتصال، جامعة وهران، ع 3 ربيع الثاني 1428، ماي 2007، ص 143.

(3) صالح بلعيد، التخطيط اللّغوي الضرورة المعاصرة، ضمن كتاب : أهمية التخطيط اللّغوي، اللّغات ووظائفها، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2012، ص 248.

(4) <https://www.sasapost.com>.

(5) <https://www.aljazeera.net> و <https://www.sasapost.com>.

(6) خالد محيي الدين البرادعي، للسان العربي والفرنكفونية وجراحنا القديمة، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الثقافة الجزائرية، ع 110-111 سبتمبر - ديسمبر 1995، ص 154.

(7) ينظر في هذا المجال : صالح بلعيد، هكذا رقى الفرنسيون لغتهم، فهل نعتبر؟ منشورات مختبر الممارسات اللّغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ط 2014.

(8) ينظر في هذا الصدد تمثيلا لا حصرا، عبد الرحمن سلامة، التعريب في الجزائر من خلال الوثائق الرسمية، مكتبة الشعب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.

(9) محمد العربي ولد خليفة، كلمة افتتاح أشغال ندوة التخطيط اللّغوي، ضمن : أهمية التخطيط اللّغوي، اللّغات ووظائفها، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2012، ص 08.

(10) ينظر : بوزيان دراجي، القبائل الأمازيغية، أدوارها ومواطنها وأعيانها، دار الكتاب العربي، القبة، الجزائر، ط 1/ 1999، ج 1/ ص 42.

(11) محمد العربي ولد خليفة، كلمة افتتاح أشغال ندوة التخطيط اللّغوي، ص 11، وينظر أيضا : بوزيان دراجي، القبائل الأمازيغية، ص 42-43.

(12) ينظر : عبد الكبير حميدي، التعدد اللّغوي ووحدة الهوية المغربية، ضمن كتاب : التعدد اللّغوي في منطقة تافيليات، إعداد أحمد الباوي ومحمد الغريسي، منشورات فريق البحث في اللّغة والآداب والفنون بمنطقة تافيليات، المغرب، ط 1/ 2013، ص 204.

- (13) قطب الريسوني، قاعدة تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة، دار الكلمة، مصر، ط1/2013، ص 05.
- (14) ينظر : قطب الريسوني، قاعدة ما حُرِّمَ سدًّا للذريعة أُبيح للمصلحة الراجحة، دار الكلمة، مصر، ط1/2013، ص 42.
- (15) عبد الكريم زيدان، الوجيز في شرح القواعد الفقهية، مؤسسة الرسالة، دمشق، سوريا، ط1/1430-2009، ص 88.
- (16) عبد الكريم زيدان، الوجيز في شرح القواعد الفقهية، ص 92.
- (17) المرجع نفسه، ص 108.
- (18) المرجع نفسه، ص 99.
- (19) المرجع نفسه، ص 197.
- (20) محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار السلام، مصر، ودار سحنون، تونس، ط5/1433-2012، ص 55.

الأمن اللغوي وإستراتيجية النهوض باللّغة العربيّة وثقافتها عند الدكتور
عبد السّلام من خلال كتابه "الهويّة العربيّة والأمن اللغوي
- دراسة وتوثيق -".

أ. د أحمد عزوز

جامعة أحمد بن بلة وهران 1.

مقدمة

كثر الحديث في السنوات الأخيرة عن المشاكل التي يتعرّض لها الإنسان المعاصر في محيطه الطبيعي والاجتماعي، وبرزت دعوات عديدة تهتمّ بالأمن الغذائي والاقتصادي والبيئي وكذا الفكري واللغوي؛ ذلك أنّ ازدياد عدد سكان العالم وانبعث ثاني أكسيد الكربون المتزايدة في العالم الصناعي أدّى إلى إثارة القلق في مصير الإنسان وعلى هوائه ومعاشه وتنفسه...

كما أصبحت مسألة الأمن اللغوي والثقافي والهوية، وما يرتبط بواقع اللّغة العربية، والتحدّيات التي تواجهها موضوع نقاش في ندوات متعدّدة ومؤتمرات وتليها إشكالات كثيرة مثل التحدّد اللغوي واللسان المشترك والهيمنة اللغوية وغيرها، ولم تعد موضوعات لسانية من اهتمامات اللساني فحسب؛ بل باتت قضايا فكرية ومعرفية وإعلامية، وسياسية، لأنّها تعزّز حقيقة الارتباط والتفاعل بين الأفراد في المجتمع ومؤسّساته.

وهو ما طرحه الدكتور صالح بلعيد في كتابه "في الأمن اللغوي"¹، وحاول التحليل والوقوف على وسائل الأمن اللغوي التي تحقّق سلامة العربيّة وحمايتها وتجاوز العقبات التي حالت دون تطوّرها في مجالات المعجمية والمصطلح والتعبيرات عن مستجدات العصر وغيرها.

ولقد تناول الموضوع نفسه -أيضا- عز الدين ميهوبي² في أكثر من مناسبة خاصة عندما طرح السؤال التالي: "أي لغة سيتحدث العالم في 2100"، في محاضرة بجامعة "الطائف"، أشار فيها إلى "الأمن اللغوي للغة العربية"، وذهب إلى إيجاد حلول لأزمة العربية مع أبنائها أنفسهم أولا، وتساءل بقوله: كيف سيكفل النظام التعليمي والثقافي والاجتماعي الذي تديره المؤسسة الرسمية في بلادنا ذلك؟ وهل يمكن أن يوضع برنامج أو خطة عربية لتحقيق هذا الأمان؟³

وفي هذا المجال أصدر عبد السلام المسدي "الهوية العربية والأمن اللغوي- دراسة وتوثيق"-⁴، حيث يقول في مقدمة فصله الأول: "ما كنت أحسب أنني أعود إلى لغة الضاد أكتب عنها واصفا حالها بين أهلها، مشخصا أوضاعها بين أبنائها وذويها، مستجليا ظروفها كيف تبدو إذا قيست بسائر اللغات في سائر الثقافات مستطلعا مآلها في غير فزع ولا امتلاء، والناس بعضهم في غفلة وبعضهم يتغاضى.. ما كنت أحسب عائدا لأنني حين حررت كتابي "العرب والانتحار اللغوي" خلال عام 2010 ظننت أنني أرسلت صيحة لن أقوى على زفيرها كرة أخرى"⁵...

ويرى أنه: "لن يندم العرب على شيء كما قد يندمون على أنهم لم يلبوا نداء لغتهم، وهي تستجير بهم منذ عقود أن أدركوني. هتفت بهم همسا منذ أيام الاستعمار ثم صاحت عند انقشاع غمته، وها هي لا تيرح تشكو وتستغيث"⁶.

1- حدود المصطلحات وأفق الدراسة

يكون من المهم في البداية أن نشير إلى التعريف اللغوي للأمن الذي يعني عدم الخوف، يقول تعالى: "الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف"⁷، فالخوف والأمن مرتبطان، إذ يكون الأول عندما ينعدم الثاني، ولكن إذا كان الأمن انعدم الخوف. ونقصد بذلك الخوف على اللغة، أي اتخاذ التدابير العلمية والموضوعية لصونها من كل انحراف في نظامها التواصلية سواء من حيث أصواتها أو مفرداتها أو تراكيبيها، أو ما يؤدي إلى زوالها أو المساس بسمعتها ومكانتها بالإضافة إلى العمل

الذي يجعلها تتطوّر وتصبح قادرة على التعبير عن الوسائل الحضارية المختلفة. ومفاد الاستراتيجية هي التخطيط وتبني سياسة لغوية تضع قواعد متينة ترسخ المكانة المميّزة للغة العربية، وسبل توظيفها في مجالات الحياة المختلفة بكلّ اعتزاز وشعور بالمسؤولية.

أمّا الثقافة العربيّة فهي كلّ المعارف التي تعزّز وتغني الشعور بوحدة الأمّة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وتجعلها قادرة على بناء نهضتها التي تميّزها عن غيرها فتسهم بها في الحضارة الإنسانية.

ونجد الغربيين يقابلون بين الأمن والأمن اللغوي الذي يعدّ إزعاجا ناتجا عن وعي بالفرق بين الإنتاج اللغوي الصحيح وما هو مئتمّن عند المجموعة المتكلّمة باللّغة. ويقصد بذلك أن يكون الأمن اللساني في مسافة بين المعيار الذي ورثه المتكلّمون والمعيار المهيمن في السوق اللغوية أو فيما هو مستعمل.

وكان هذا المنهج معروفا عند القدماء من العرب في عملهم الذي انطلق أوّل ما انطلق بصون اللّغة، ولما خيف من نفثيّ اللحن الذي سمع أنّذ من ألسنة تعرف اللّغة وتنشأ في بيئة لغوية سليمة ومع ذلك أخطأت وتخطى في كلامها. "فساد السلاتق إلى الحدّ الذي يعسر معه فهم كتاب الله، فتضيع مبادئه، وتُنسى أحكامه فبدأ العلماء - بجدّ ونشاط- في وضع حدّ للحفاظ على لغة القرآن، وقد برزت نتيجة سعيهم الحثيث، وعملهم الدوؤب دراسات متنوعة للغة.

فذهبت طائفة من العلماء إلى البادية، لأخذ اللّغة من الأعراب الفصحاء، وتدوينها صافية، لم تشبها سائبة العجمة التي بدأت في الدخول إليها، من الأقطار المفتوحة، ومن العلماء الأجلء الذين أبلوا بلاء حسنا في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، والأصمعي (ت206هـ)، ويونس بن حبيب الضبيّ (ت182هـ)، وأبو زيد الأنصاري (ت225هـ).

والشواهد على ذلك كثيرة توضّح هذه المسألة؛ وهي مدوّنة في كتب التاريخ واللّغة؛ بل في مختلف مصادر العلوم والمعارف. وقد تصدّى القدماء لذلك، ولم

يكن عملهم هذا سوى شكلا من أشكال الأمن اللغوي الذي يحفظ نقاء اللغة وصفاءها، ويصون قدرة تعبيرها عن المواقف ومجالات الحياة المختلفة، دون لحن أو خطأ.

ومما قاموا به تأسيس العلوم لتأمينها، وكان في بدايتها النحو الذي يعدّ أجلها، إذ يحفظ اللسان من الزلل، والهتات والهفوات، ويبسط الألكن منه، وهو ما ندرجه ضمن ما نطلق عليه بنظرية الصفاء أو النقاء اللغوي.

ولكن ترانا في زمن بعدت فيه الألسنة عن الفصحى أكثر مما كنا نتصوره وهو ما نتعرّض إليه في هذه المداخلة المتواضعة التي تنطلق ممّا أرساه الأستاذ الدكتور عبد السلام المسدّ في كتابه " الهوية العربية والأمن اللغوي - دراسة وتوثيق - " الذي تطرّق فيه إلى قضايا متعدّدة التي تأمن بها اللغة العربية.

ولكن ما هي اللغة التي نتحدّث عنها في هذه المداخلة؟ إننا نقصد الفصحى التي نزل بها القرآن، وهي التي ترجم الأروبيون منها العلوم العربية إلى لغاتهم، فبلغوا بها اليوم الحضارة التي ينعمون بها، والتي تتداول في الهيئات الدولية والسياسية العالمية، وفي نشرات أخبار القنوات الفضائية الأجنبية المخصّصة للعرب، وكثير ممّن يشغل بها يعشقها حتى النخاع، ويتمنّى لو كانت معرفته بها أكثر من المستوى الذي هو عليه.

وهي المطلوب تحقيقها في مدرجات الجامعات وصفوف المدارس والمنابر السياسية والدينية، وإن كان يصعب هذا الأمر اليوم، وليس بالضرورة أن تكون كما هي؛ لأن هذا غير ممكن؛ لأن اللغة تتطوّر وتتغيّر بحسب الزمان والمكان، وإنما أن تكون المصادر التي تتعلّم منها التي نسعى لتأمينها؛ لأنها الكفيلة بتعليمها وتقديم اللسان الذي يحسن التعبير به. وكلّ حديث عن اللغة من أجل الحفاظ عليها وترقيتها وازدهارها إنّما هو تأمين وأمن لها.

2- عبد السلام المسدي ومرجعيتة الفكرية

عبد السلام المسديّ أستاذ اللسانيات في الجامعة التونسية، وهو عضو في مجامع لغوية عربية كثيرة، وتولى الأمانة العامة لاتحاد الكتاب التونسيين، وهو أستاذ زائر لأكثر من جامعة عربية، كما تقلّد وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في تونس، ولكن ما نسجله هو أنّه كتب مؤلفات كثيرة أغنت المكتبة العربية، فحلل فيها تحليلاً عميقاً مواضيع رئيسة والأدب والنقد واللسانيات والفكر والسياسة⁸ ويمنحه هذا أهلية الحديث في مختلف فروع المعرفة.

وقد "صدر له كتاب «الهوية العربية والأمن اللغوي: دراسة وتوثيق"، من المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات قطر، في طبعته الأولى يوليو 2014 في 443 صفحة، ويشتمل على اثنين وعشرين فصلاً وخاتمة، وهو ثاني أهمّ الكتب التي يصدرها في المسألة اللغوية العربية بعد كتابه «العرب والانتحار اللغوي»⁹. ونففيه يعي مواقف الصراع التي تتخبط فيها لغة الضاد، وما قد يؤدي إلى تشرذمها وفقدانها دورها التاريخي في المعرفة العربية والإسلامية، وبالتالي فقدان حيويتها وروحها ومقوماتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقومية، خصوصاً أن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة أشارت إلى أن اللّغة العربية تقف على حافة الانقراض، كما أكّدت وجود خطر يهدّدها في مناسبات عدة من أهمها ما صدر عنها في حزيران (يونيو) 2006، وتشرين الأول (أكتوبر) 2007، وأيار (مايو) 2012.

فما هي أهم الإشكالات التي نبه إليها في الكتاب؟ وما علاقة الهوية العربية بالأمن اللغوي؟.

3- محتوى الكتاب والدعوة إلى مراجعة العلاقة مع اللّغة العربية

يعدّ المؤلّف خلاصة سنوات متتالية من البحث دفاعاً عن اللّغة العربية؛ بل تشكّل فصوله عصارة التفكير والتوثيق في مسائلها. وتجربته وإسهاماته في المؤتمرات اللسانية، دعت إلى استنتاج وجود قضية لغوية معقّدة لدى العرب. ومنذ

كتابه "العرب والانتحار اللغوي الذي صدر 2011" كان عبد السلام المسديّ يقدّم التحديّات الماثلة أمام لغة الضاد، وينبّه إلى تفاقم أزمة اللّغة العربية¹⁰، وهذا بتوثيق وتحليل سلسلة من المبادرات والمشاريع التي أدرجها الكاتب ضمن ما يسميه الوعي اللّغوي الجديد.

ومما لاحظته المسديّ أن اللّغة القومية والتي يمكن عدّها من أواخر الروابط التي تجمع وتوحّد الأمة العربيّة تخضع للتفكك التدريجي، بسبب عوامل متعدّدة منها: اللهجات وضعف التعليم، وقلة الوعي بدورها في حياة المجتمع وتحريك عجلة التنمية، وتمازج الفصحى بشظايا اللغات الأجنبية مما يؤدي إلى ظهور عاميات هجينة من اللهجات المحلية وقليل من العربية.

" ويبدأ الفصل الأوّل الموسوم " باستئناف أسئلة" التي تصف حال اللّغة العربيّة وتشخص أوضاعها بين أهلها وتشغل بال الكثيرين والغيورين على مستقبلها ويذكر أنّه غاب عن العرب أسئلة إجرائية عليه تتوقّف طبيعة الخطاب وفاعليته وهي: إلى من نتجه بخطابنا عندما نثير المسألة اللغوية، إلى النخبة الفكرية حيث ورشات إنتاج الأفكار؟ أم إلى النخبة السياسية حيث مطاهي صناعة القرار؟ أم إلى الجمهور الذي على كواوله تتبثق الأفكار وعلى سواعده يتنزل القرار؟"¹¹.

وبالتالي فهو يعالج موضوعات لسانية واقعية حيوية وأنية ذات صلة بحياة الإنسان العربي، اليومية والاجتماعية والسياسية، وهي مسائل تطوّر اللّغة العربيّة وأمنها، فالمتعمّن في حالها، وما آلت إليه في المناهج المدرسية وفي مختلف وسائط الإعلام، وهي وسيلة التواصل الوحيدة بين أنحاء محيطنا العربي، لا بد أن يصاب بالإحباط لتدني مستوى الفصحى في أكثر من برنامج إذاعي أو تلفزيوني أو غيرهما، وفي البيئة الطبيعية أيضا.

ولذلك تراه يشرح الانقسام اللغوي الذي يعيشه كثير من الأفراد، سواء من منظور التضاد بين الفصحى والعامية أو العاميات، أو من منظور التضاد بين الفصحى واللغات الهجينة التي تحوي من المفردات الأجنبية، والتي تتربّع على

المشاهد اللغوية في البلاد. العربية، كما يسجّل المسدي في كتابه مجموعة من المبادرات التي تهدف إلى النهوض باللّغة العربيّة في مختلف الأقطار العربيّة. ويعلّل الأمن اللّغوي فيشير إلى "مؤسسة الثقافة العربيّة"، حيث يقول: "لم يكن في سعة الضمير العربي المتيقظ إلا أن ينكفئ على وعيه الكليم، فانهارات القيم اللغوية تعود إلى أسباب متنوّعة متباينة؛ هي في نهاية تشابكها عليقة بغياب القرار السياسي الأعلى، نعني القرار المتوحّد عربيا، فلم يكن الجامع المشترك الأكبر والأبقى في مفهوم الأمة هو اللّغة إذ إليها تستند سائر المقومات من أرض وتاريخ وعقيدة"¹².

ويركّز على أن انهيار المنظومة اللغوية في المجتمعات العربيّة كانت نتيجة عدم فعالية وجدية القرار السياسي في التعامل مع الشأن اللغوي، أو فيه نوع من التساهل ما يجعل القضية لا تأخذ الأبعاد الأساسية التي يجب أن تأخذها.

4- الأمن اللّغوي من ضرورة الوعي بأهمية اللّغة

ويستأنف الدكتور المسدي في الفصل الأول من الكتاب الأسئلة كما انتهى إليها في كتابه "العرب والانتحار اللغوي" الذي صدر عام 2011، فيشير إلى أن المقصود طرح المزيد من الأسئلة، الاستفهامية منها والانكارية، ذات العلاقة بالموضوع.

ويبرّر العودة إلى هذه الأسئلة بما جدّ من أحداث لم تكن متوقعة، وبأنّ "استئناف الأسئلة هو أحد أسس النضال الفكري المتجدد". ويتساءل الكاتب: "ألا نكون قد أسأنا طرح سؤال اللّغة؟" ويشير إلى أنّ البحث في الشأن اللّغوي دأب على الاهتمام بالخطاب الطاعن في صلاح العربيّة موحياً أنّ زمنها قد ولّى، لئنتج خطاب مرافعة يقوم أساساً على تنفيذ هذه المزاعم وتفكيك آليات المناورة الثقافية.

"تبدو هذه الأسئلة قلقة تدعو إلى التمعّن فيها بتعميقها وجعلها منطلقاً للبحث الجدّي المسؤول للحفاظ على اللّغة العربيّة وحمايتها من مخاطر التلاشي أو الاندثار. ويختم المسدي كتابه بدعوة إلى صيانة لغة الضاد من خطر الامحاء

وسيمثل ذلك صيانة للهوية العربيّة وصيانة للأمن القومي، مؤكداً أن العرب لن يكسبوا رهان التاريخ من خلال اللغات الأجنبية، أو من خلال اللهجات العامية، بل سيكون متعذراً عليهم الانخراط في مجتمع المعرفة من خارج دائرة العربية¹³. ويؤكد الكاتب أن العرب لن يفلحوا في رهان التاريخ سواء اعتمدوا على اللّغة الأجنبية أو تبوّأوا اللهجات المحلية؛ لأنّ الأولى ستجعلهم تابعين لغيرهم أبد الدهر، والثانية لن تسعفهم إلا بمراكمة التأخر.

ولا يمكن تغيير المسار الانحداري إلا بإنصاف المعلمين والاهتمام بهم، وكذا رجال الإعلام الذين لا يمكن أن يفعلوا شيئاً من دون مجتمع يتسم بالسلامة التعبيرية، ومن دون إعلام يهتم ويلتزم بصناعة اللّغة.

ويقول في مستهلّ مؤلّفه -أيضاً-: "لن يندم العرب على شيء كما قد يندمون على أنهم لم يلبوا نداء لغتهم وهي تستجير بهم. لعل هذا القول يختزل في جملة واحدة قصيرة محتوى الكتاب المقسم إلى ما يزيد على عشرين فصلاً، منها: النظام العربي وخطاب اللّغة، وما وراء اللّغة، ومن ينهض باللّغة؟ ومن تجليات الوعي ونحو ميثاق معرفي، والهويّة واللّغة، ونحو المعجم التاريخي، والطفل العربي واللّغة، وفي خصائص المغرب العربي، وغيرها."¹⁴

ثم يطرح سؤال الأسئلة، كما يسميه: "كيف نعالج موضوع اللّغة خارج المسالك المعبّدة، فنوظب خطاباً مختلفاً عن السائد والمألوف؟"¹⁵. وثمة ثلاثة أنواع من الخطابات: الخطاب العاطفي، والخطاب الأيديولوجي، والخطاب الغيبي؛ وهي خطابات إذا تعالقت فسدت، وكل واحد منها، بمفرده، عاجز عن الانخراط الفاعل في الزمن الجديد¹⁶.

وتكمن أهمية كتاب المسدّي في أنه يتناول مسألة ارتباط اللّغة العربيّة بكل مستويات الحياة عند المواطن العربي، فاللّغة في نظره تؤثر على الهويّة والشخصية والوعي والفكر والمعرفة، كما أن كل هذه المجالات الإنسانية تتأثر أيضاً باللّغة وتركيبتها، فالعلاقات بين هذه وتلك حميمة ومتبادلة¹⁷.

وكما ينص عليه بحق العنوان الفرعي «دراسة وتوثيق»، يتصف هذا الكتاب بأنه ذو بعدين اثنيين.

- أولاً: البعد اللساني الذي يتناول العلاقة بين اللّغة العربيّة والقومية بكلّ وجوهها، اجتماعياً وفردياً،

- وثانياً: هو أنه يوثق بدقة وأمانة لمواقف العرب، حكومات ومؤسسات مجتمعين ومتفرقين، تجاه الخطر الدايم على مستقبل اللّغة العربية. وذلك مع ذكر المقررات والتوصيات وغيرها من النتائج التي توصل إليها العرب من أجل الدفاع عن لغة الضاد والعمل على تطوير استعمالها.

ويقدّم المسدّي دراسة للأخطار المحذقة بلغة العرب، فهي «تستجير بهم منذ عقود أن أدركوني هتفت بهم همساً منذ أيام الاستعمار، ثم صاحت عند انقشاع غمته، وها هي لا تبرح تشكو وتستغيث»¹⁸، لأنّ من «أبرز الحقائق العلمية الغائبة عن الوعي العربي ما يتّصل بموضوع حياة اللّغة من حيث عوامل بقائها ودوامها أو أسباب اضمحلالها وانقراضها»¹⁹.

ويجمع المسدّي في هذا الكتاب بين توثيق عدد كبير من المبادرات والمشاريع التي أطلقت في مختلف الأقطار العربية، وتهدف كلها إلى النهوض باللّغة العربية وتشخيصه وتحليله، وتقييمه وتقويمه لهذه المشاريع والمبادرات، خاصّة أنّه واكب هذه المحطات والمنعطفات تارة حاضراً محاضراً في المؤتمرات، أو عضواً بمجامعها العلمية وهيئاتها الاستشارية في ما كان منها مشاريع وبرامج ومؤسسات مشاركاً في جدلها، وأحياناً مساهماً في توضيبيها، أو مستقرباً لنتائجها، ومساهمياً في إنضاج بعضها.

ويضع في الأخير مسرداً يبوّب فيه تواريخ الأحداث والمبادرات والمشاريع المذكورة في الكتاب طبقاً للتسلسل الزمني. وكان الهدف من هذا المسرد تيسير مهمة القارئ حين يروم إعادة ترتيب الوقائع والشواهد، فهو يشتمل على مادة خام لإنجاز قراءة أخرى للفضية اللغوية في واقعا العربي، يعتمد فيها التعاقب التاريخي

بكل جدلياته. فتلك دعوة صريحة للباحثين والمهتمين بحقل اللغة العربية ليكون الكتاب وما حواه من تجربة سنين طويلة منطلقاً لأبحاثهم وقاعدةً تكفيهم عناء البدء من العدم.²⁰

5- الأمن اللغوي والهوية العربية

"يؤكد المؤلف أن صيانة اللغة العربية من خطر الاندثار هي صيانة للهوية العربية والأمن القومي العربي، ويرى أن النموذج الفرنسي في اعتبار اللغة أحد مكونات الهوية الوطنية مثال مهم من دولة صناعية مهمة في عالمنا، حاضر في مواجهة من يدعي أن اللغة الوطنية أضحت بذخا، بل وغيرها من الدول مثل بلجيكا والنرويج التي يسودها تواصل أفرادها اليومي أكثر من لغة.

ويذكر المواقف النضالية التي خاضها الفرنسيون ولا يزالون بهدف الحفاظ على لغتهم، وتحقيق أمنها أمام انتشار مصطلحات اللغة الإنجليزية خاصة في سوق تبادل السلع وكل ما له علاقة بمجال الإبداع، كالإنتاج الفني والكتب والأفلام والأشرطة الغنائية وغيرها.

وواجه الفرنسيون ذلك دبلوماسيا وتشريعيا للأميركيين، فسنوا مادة قانونية تعرف بالاستثناء الثقافي وتبناها في دستور الاتحاد الأوروبي، وهو الذي تجلّى عمليا فيما يطلق عليه بقانون "توبون"²¹، والذي بات يعرف شعبيا باسم قانون حماية اللغة الفرنسية، والذي ينصّ على أن لغة الجمهورية طبقا للدستور هي اللغة الفرنسية، وهي الركن الجوهري في السيادة الفرنسية وفي تراثها ولعلّ ذكر الشاهد الواقعي يدلّ على أنّ الحفاظ على اللغة ليس أمرا ثانويا أو من ورائه ترف فكري، بل هو أساس الوجود الوطني والقومي، وجوهر المحافظة عليه، وهو يفترض أن ينادى به قبل أن يرفع شعار الاستعانة باللغات الأجنبية، وهذا الأمر ليس مقصورا على الشعوب المتقدّمة بل نلفيه حتى عند الأمم السائر في طريق النمو.

ويرى المسديّ أنّ فضاء العربيّة يضيق مع كلّ فجر جديد، فتطفو اللغات الأجنبية واللهجات المحلية على التواصل اليومي، ويطرح سؤاله الإجرائي فيقول: "إلى من نتجه بخطابنا عندما نثير المسألة اللغوية؛ إلى النخبة الفكرية حيث ورشات إنتاج الأفكار؟ أم إلى النخبة السياسية حيث مطاهي صناعة القرار؟ أم إلى الجمهور الذي على كواهله تتبثق الأفكار وعلى سواعده ينتزل القرار؟"²².

التي يستشفّ منها - في بعض الأحيان - أنّ الإرادة السياسية العربيّة مرتهلة للنافذين في العلاقات الدولية، فتكون فجوة بين القول السياسي وبين ممارسته.

وبناءً على ما سبق، فإنّ الأمن اللغوي ليس في ضرورة هجر اللغة العربيّة واستبدالها بلغة أجنبية تبسّط الاندماج في هذا العصر وتلبّي متطلباته، وإنما هو في عمق الإيمان بها، والعمل بكلّ القوى من أجل أن تصبح في الواقع أكثر ممّا هي عليه، ومن ثمّ يشير الكاتب إلى عظم المسؤولية الملقاة على العرب وخطورة الموقف، فيقول: "لن يندم العرب على شيء كما قد يندمون يوماً على أنهم لم يلبوا نداء لغتهم وهي تستجير بهم منذ عقود أن أدركوني، هتفت بهم همسا منذ أيام الاستعمار، ثم صاحت عند انقشاع غمته، وها هي لا تبرح تشكو وتستغيث"²³.

ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى أنّ وجود أيّ أمة واستمرارها رهينان ببلغتها ومدى اعتزازها بها، وفي ذلك يقول: «إنه لا غنى للعربية عن أبنائها، ولا غنى للعرب عن لغتهم، قد يصدق الأمر على كل الألسنة، ولكنه على لغة الضاد وأهلها أصدق منه على سائر اللغات في كل الثقافات، ففي العربيّة مآل أهلها، وعلى مآل العرب مآل لغتهم، ذلك هو الذي عندنا وليس عند غيرنا»²⁴، وبالتالي فهي صرخة لتأمينها من كلّ نوع من أنواع الهجران.

6- نشر الثقافة والمعرفة تأمين للغة

ظهرت في أواخر القرن العشرين ثنائيات مهمّة (اللغة والثقافة، اللغة والمجتمع اللغة والمعرفة) وأصبحت مواضيع نقاش وحوار بين المتقنين، فسعى المؤلف إلى إبراز علاقة الروابط بينها من خلال المعطيات العلمية والتاريخية والواقعية فيقول

بوجود علاقة بين اللغة والثقافة إنَّ "اللغة العربيّة هي أبرز مظاهر الثقافة العربيّة، وأكثرها تعبيراً، وأثراً بوصفها وعاء الوجدان القومي، فلا ثقافة قومية بدون لغة قومية، فالمناطق الثقافية كبراهها وصغراها إنما يربطها بعضها إلى بعض الوحدة اللّغة اللغوية بالدرجة الأولى"²⁵.

كما يقرّر الترابط بين اللّغة والمجتمع فيقول: "بين اللّغة والمجتمع علاقة متبادلة صميمة؛ فلا لغة تتحرك بدون مجتمع يتحرك، ولا مجتمع يتحرك بدون لغة حركية تماثله وتواكبه، واللّغة العربيّة لهذه الأسباب جميعاً تتصل بعدة ميادين ثقافية هي من أكثر الميادين خطراً وشأناً: ففيها الخصوصية القومية والوحدة السياسية والتراث، والاستمرارية الثقافية وحيوية الفكر العلمي، والإبداع الأدبي"²⁶.

وليس هذا فحسب؛ وإنما هناك علاقة عضوية بين كل من الثقافة والمجتمع والمعرفة، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر دون إحداث اختلال في منظومة الهوية وفي كل عنصر من عناصرها²⁷.

ويزيد ذلك تأكيداً قائلاً: "ليس من شك أن الثقافة تستدعي علماً بها، وأن المعرفة تقتضي الدراية بمنظومتها وإحكاماً للغتها: كيف تتأسّس، وكيف تنمو، وكيف يعبر عنها، وإذا انعطفت هذه على تلك كان علم الثقافة، وكان علم المعرفة، وكان علم اللغة، فإذا باستراتيجية الثقافة هي في جزئها الأكبر استراتيجية للمعرفة وللغة التي بها المعرفة"²⁸.

وتشترك الأمم في كلّ هذه العناصر وترسخها في حياتها وفي نضالها التاريخي لكن الاختلاف بينها واعتزاز كلّ واحدة بتراثها وماضيها والخوف على هويتها وكيانها، فيؤدّي إلى تأمين اللّغة وتأمينها بالأدوات الكفيلة لحفظها من الضياع والذوبان.

وإذا كان هناك من يعارض توظيف اللّغة العربيّة في مجالات التواصل المختلفة، فذلك مرجعه إلى عدّة أسباب من أهمّها، كما يقول المسدي: «لأوّل مرّة في تاريخ البشرية - على ما نعلمه من التاريخ الموثوق به - يكتب للسان طبيعي

أن يعمر حوالى سبعة عشر قرناً محتفظاً بمنظومته الصوتية والصرفية والنحوية، فيطوعها جميعاً ليواكب التطور الحتمي في الدلالات دون أن يتزعزع النظام الثلاثي من داخله. بينما يشهد العلم في اللسانيات التاريخية أن الأربعة قرون كانت فيما مضى هي الحد الأقصى الذي يبدأ بعده التغير التدريجي لمكونات المنظومة اللغوية»²⁹.

لقد أصدر المسؤولون العرب عدداً كبيراً من القرارات والتوصيات دفاعاً عن اللّغة العربية، ولكنّها في معظمها في حاجة إلى المتابعة والتنفيذ، خاصة وأنا نعيش حرب اللغات على حدّ تعبير لويس جان كالفي³⁰، وتخوض العربيّة صراعات قاسية، بل تجد نفسها في ما يسمّى بحروب اللغات التي تؤدي إلى «موت» بعضها، فيقول: "ما من شك أن غياب الحقائق يفضي إلى تعطل القدرة على استشراف التاريخ، وعلى استنظار منحنياته القادمة وبما قد تأتي به الأحداث المتعاقبة. وقد سبق لنا أن حفرنا في أعماق العلل التي دفعت بالخيال العربي إلى التسليم بتأويل خاص حمل العقيدة أكثر مما جاءت به وأكثر مما تطيقه نصوصها"³¹.

ويقدّم الصورة التي عالج العرب بها قضية لغتهم ومصيرهم فيقول: «ما من خلاف حول أمر متعين بالضرورة، وهو أن «الوعي المعرفي» بمصير اللّغة العربية، واحتمال انحجابها التدريجي من مجال التداول، وإمكان التحاقها بالألسنة الفاقدة مقومات الحياة الإجرائية الفاعلة، غائب أو كالجائب في واقعنا السياسي والفكري»³².

وهو ما يلاحظ اليوم في استبعاد - تدريجياً - اللّغة العربيّة من بين اللغات العالمية في هيئة الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها، وهو تخوف أبداه كثير من الساسة العرب أيضاً على الرغم من أنّ الأمم المتّحدة أقرّت يوماً عالمياً لها، وهذا لأنّ كثيراً من الساسة العرب أصبحوا اليوم لا يتداولون بها في تلك الأروقة.

وعلى الرغم من أنّ نتائج عبد السلام المسديّ التي يتوصل إليها تحتاج إلى مراجعة، إلاّ أنّه لا يعطي مكانة كبيرة لنشاط عدد كبير من المؤسسات التي تقوم بدعم المعرفة العربية، وبالتالي بدعم لغتها وذلك عبر نشر الكتب، المترجمة وغيرها، وعقد المؤتمرات والندوات، وإطلاق التوصيات والمطالبات بضرورة العمل من أجل صون وحسن استعمال اللّغة العربيّة وضمان تداولها، ومع ذلك هناك حاجة ماسّة إلى أن تتكاتف جهود المؤسسات المختلفة وتزيد من نفقاتها على العامل الأساسي في توحيد فكر الأمة ألا وهو اللّغة.

7- حلول إشكالات اللّغة العربية

يخصّص المؤلف أقساما مهمة من عمله للإشكالات المتعلقة باللّغة العربية، ويقدم في الوقت ذاته حلولاً لها، ومن ذلك النظر في النظام التعليمي في بلادنا - الفصل الـ 19 "الطفل العربي واللّغة" ويتساءل الكاتب عن أسباب عدم إمكانية تشكيل اللغات الأجنبية أو العامية/العامية رافعةً لكسب رهان التاريخ.

وهذا الارتباط العضوي بين العرب والمسلمين وبين اللّغة العربيّة هو ما جعل الدكتور المسدي يربط أيضا بين الخسران الحضاري وبين خسران اللّغة، ويجب: "أن يفلح العرب في كسب رهان التاريخ لا بواسطة اللّغة الأجنبية ولا بوسائط لهجاتهم العامية، لو أرادوا أن يفعلوا ذلك عبر الطريق الأول لظلوا تابعين طول الدهر، ولعجزوا أن يصيروا يوما متبوعين، ولو شأؤوا أن يفعلوا ذلك بالثانية لتراكم عليهم التخلف عقودا ريثما يجروّن لهجاتهم جرّا ليصعدوا بها إلى مرتبة الأداء الذهني المصفّى من عوالم الحس والمادة؛ فاللّغة ليست وعاء، ولا اللغات الأجنبية أوعية، فأما العلم فقد فرغ من إثبات هذه البديهيات؛ وأما الذين لا يعلمون ويظنون أنّهم يعلمون، فالوهم يوحي إليهم أنّ اللّغة ليست إلاّ أداة؛ وأنّ اللغات بدائل وأنك بأيّ لغة توسّلت استطعت أن تصنع حضارة.

فما الذي بوسعه أن يقول لنا ماذا سيفعل العرب بالثورة الرقمية وبفضائها الافتراضي وبكلّ منظوماتها الحاسوبية إذا تخلّوا عن لغتهم الفصحى وراحوا

يتحسّسون التقنية العالية بواسطة اللّغة الأجنبية أو بواسطة العامية³³.

وإذا كان الحال كذلك، فكيف يمكن تخليق الإمكانيّة لإنتاج خطاب يتأسس على منجز اللسانيات، مع الالتزام بالحياد العلمي، والانفتاح في الوقت نفسه على العناصر المتفاعلة في الظاهرة اللغوية، "وبناء عليه تتمّ الدعوة إلى إنشاء محميات لغوية شبيهة بمحميات الفصائل الحيوانية"³⁴.

ويحاول حتّى الدارسين وغيرهم للنهوض بالمسألة اللغوية، ودفع عنها الخطر الداهم الذي يظهر في استفحال "التلوث اللغوي" بفعل الفضائيات المعولمة ووسائل التواصل الاجتماعي التي تولّد لغة عربية هجينة صارت هي لغة التخاطب في واحدة من أكثر لحظات التاريخ المعاصر توتراً.

8- اقتراحات وتوصيات

من بين الاقتراحات التي نراها مهمّة في موضوع الأمن اللغوي والذي به يمكن إصلاح كثير ممّا علق باللّغة العربيّة من فساد السلائق والحفاظ على سلامتها وبلوغ التعبير الأحسن والأبلغ بها، ونذكر ما يلي:

- حرص المنظومة التربوية في جميع مراحلها على تعليم اللّغة العربيّة تعليماً صحيحاً في جانبها الشفوي والكتابي، ولا يحتاج التعليم في هذا الزمن إلى إصلاح وإنّما إلى إخلاص وتفان في العمل.

- الابتعاد قدر الإمكان عن التحدّث بالعاميات في الأقسام، وحرص المعلّم على تصحيح أخطاء الطلاب في حينها، وتشجيعهم على الكتابة السليمة والمناقشات الشفوية بدون لحن.

- تفعيل الهيئات العلمية ومخابر البحث والعمل على ازدهار اللّغة العربيّة في المحيط.

- وضع تخطيط لغوي منسجم مع التطوّر التقني والتكنولوجي.

- تعزيز ثقافة حقوق الإنسان؛

- تشجيع الكتابات الإبداعية بالفصحى وخاصة الأطفال، وإخراجها في قوالب فنية مثل المسرحيات والأشرطة والأفلام.
- المراجعة المستمرة للنصوص الإعلامية من الناحية اللغوية.
- العودة إلى نظام حفظ نصوص الروائع الأدبية وتشجيع التلاميذ على ذلك لاكتساب ملكة لسانية مميزة.

خاتمة

يخلص المسدّي إلى أنّ المجتمعات العربيّة ومسؤوليها أوّلاً، إن استمروا في استخفافهم بالمعضلة اللغوية، وإن لم يبادروا برسم إستراتيجية وسنّ سياسة جريئة لحلّ مشكلتها، وتأمينها وصونها، ستجد نفسها بلغة تواصل هجينة، وصياغات من لغات أجنبية فلا يفهم أحدهما الآخر.

ويرى أنّ العرب لن يفلحوا في رهان التاريخ سواء اعتمدوا على اللّغة الأجنبية أو تبنّوا اللهجات المحلية؛ لأنّ الأولى ستجعلهم تابعين لغيرهم أبد الدهر، والثانية لن تسعفهم إلا بمراكمة التأخر.

الهوامش والاحالات

- ¹- د. صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، دار هومه، الجزائر.
- ²- وزير الثقافة في الحكومة الجزائرية الحالية.
- ³ - <https://www.alaraby.co.uk/culture/2017/7/16/>
- ⁴ - عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي - دراسة وتوثيق -، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر. ط: 1، سنة: 2014، ص: 11.
- ⁵ - د. عبد السلام المسدي، المرجع نفسه، ص: 11.
- ⁶ - د. عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، ص: 12.
- ⁷ - سورة قريش، الآية: 4.
- ⁸
- <http://www.alhayat.com/Articles/11403737/%D9%86%D8%AD%D9%88-%D8%A3%D9>
- ⁹ - د. عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط: 1، بناء 2011.
- ¹⁰ <https://bookstore.dohainstitute.org/>
- ¹¹ - د. المسدي، المرجع السابق، ص: 13.
- ¹² - د. عبد السلام المسدي، المرجع السابق، ص: 63.
- ¹³ <https://bookstore.dohainstitute.org>
- ¹⁴ - د. عبد السلام المسدي، المرجع السابق، ص: 12.
- ¹⁵ - د. عبد السلام المسدي، المرجع نفسه، ص: 15.
- ¹⁶ - ينظر د. عبد السلام المسدي، المرجع نفسه، ص: 15.
- ¹⁷ - <http://www.aljazeera.net/knowledgegate/books/2014/10/29>
- ¹⁸ - د. عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، ص: 12.
- ¹⁹ - د. عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ص: 10.
- ²⁰ - د. المسدي، المرجع السابق، ص: 7-8.
- جاك توبون سياسي فرنسي ولد في 29 جوان 1941 بنيس كان وزيرا للثقافة من 1993 إلى 1997 وبرلماني أوروبي من 2004 إلى 2009. ويهدف هذا القانون إلى تحقيق ثلاثة أهداف

أساسية: إثراء اللّغة الفرنسية، وإلزامية استعمال اللّغة الفرنسية والدفاع عن اللّغة الفرنسية²¹ باعتبارها لغة الجمهورية طبقاً للمادة 2 من الدستور لسنة 1958.

²²- د. عبد السلام المسدي، المرجع السابق، ص:

²³- د. عبد السلام المسدي، الهوية العربيّة والأمن اللغوي، ص: 12.

²⁴- د. عبد السلام المسدي، الهوية العربيّة والأمن اللغوي، ص: 14-15.

²⁵- د. عبد السلام المسدي، المرجع السابق، ص: 71.

²⁶- د. عبد السلام المسدي، الهوية العربيّة والأمن اللغوي، ص: 71.

27

<http://almahajjafes.net/2015/06/%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%A1%D8%>

²⁸- د. عبد السلام المسدي، الهوية العربيّة والأمن اللغوي، ص: 68.

²⁹- د. عبد السلام المسدي، الهوية العربيّة والأمن اللغوي، ص: 265.

- لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة حسن حمزة، المنظّمة العربيّة³⁰

للترجمة، ط: 1، بيروت، أوت 2008

³¹- د. عبد السلام المسدي، الهوية العربيّة والأمن اللغوي، ص: 261.

³²- د. عبد السلام المسدي، الهوية العربيّة والأمن اللغوي، ص: 387.

³³- د. عبد السلام المسدي، المرجع السابق، ص: 20.

³⁴- د. عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ص: 12.

قراءة في مشروع النهوض اللغوي عند صالح بلعيد (مقاربة في الأصول والامتدادات)

د/ وهيبة جراح

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميله

حين تثار مسألة الأمن اللغوي والثقافي وما يتبعها من أمن جمعي واجتماعي وحين يتم ربط هذه المسألة بالجهود اللغوية المقدّمة من قبل الباحثين في سبيل الارتقاء باللّغة العربيّة والرقي بها، نجد أنفسنا مجبرين على الوقوف وقفة إجلال واحترام وتقدير لأحد القامات البارزة التي خدمت ومازالت تخدم الشأن اللغوي في الجزائر والعربي بشكل عام؛ إنّها جهود الدكتور " صالح بلعيد" التي حاول عن طريقها التأكيد على مقولة الأمن اللغوي التي أصبحت هاجس الكاتب في كل جهوده وانتاجاته.

فماهي الأصول التي استمدّ منها الباحث مقترحاته؟ وما هي أهم الامتدادات التي يمارسها مشروع النهوض اللغوي؟ وما موقع المشروع من تحقيق الأمن الثقافي؟

2-أصول مشروع "النهوض اللغوي": المنطلقات ومسوّغات التبنّي

أ-مسوّغات التبنّي:

يستهدف مشروع النهوض اللغوي وضع آليات معاصرة للنهوض العربي الثاني، بخصوص الاهتمام باللّغة العربيّة اهتماما أوليا؛ باعتبارها لغة الانسجام الاجتماعي والتناغم البيئي، ولغة المستقبل، وقد شهد ميلاد هذا المشروع ذلك التردّي اللغوي الذي تشهده العربيّة، في أوطانها وما تنادي إليه الكثير من المنظمات المدنيّة العربيّة منت ضرورة النظر في الحلول النوعيّة لإنزال العربيّة محالها الطبيعيّة¹.

ب- منطلقات المشروع:

يستمدّ مشروع النهوض اللغوي عند "صالح بلعيد" أصوله من المنطق الأركيولوجي (الحفري) الذي اعتمده الباحث، وذلك عن طريق التنقيب في جملة التجارب اللغوية والحضارية التي اضطلعت بها الأمم الأخرى؛ إذ عكف الباحث على تحليل أسباب نهضة اللغات الأخرى في البلدان المتقدمة خاصة فرنسا محاولاً تقديم تلك التجارب طامحاً تعميمها على اللغة العربية بغية النهوض بها، وله في هذا الشأن العديد من المؤلفات كتاب " هكذا رقى الفرنسيون لغتهم فهل نعتبر؟" وكتاب " الاهتمام بلغة الأمة العبرة من الفرنسيين".

ينطلق الدكتور "صالح بلعيد" في بناء مشروعه من قناعة أساسية؛ وهي أنّ اللغة العربية هي لغتنا الأمّ، هي لغة العلم، بل هي ما يشكّل هويتنا وإبنتنا، معبراً عن موقفه الرافض الذي يقول بأنّ اللغة العربية لا تصلح لأن تكون لغة علم، وحسب رأيه أنّ ما كان ينقص اللغة العربية كي ترتقي إلى مصاف هذه اللغات هو نقص الاهتمام بها، فهي لغة " لها من الخصوصيات ما لا يوجد في اللغات العلمية، أو ما يسمى لغات العلم والعلوم، والفرق أنّ تلك اللغات العلمية وقع الاهتمام بها فترقت والعربية لم يقع الاهتمام بها فتدنت"².

ولكي يكتسب مشروع النهوض اللغوي مصداقية أكبر عمد "صالح بلعيد" إلى تحليل عدّة تجارب لغوية من بينها؛ التجربة اللغوية الفرنسية وتقديمها إلى القارئ بشكل عام وصنّاع القرار في البلاد بشكل خاص، فرأى أنّ العامل الأساس الذي جعل اللغة الفرنسية ترتقي وتزدهر وتصبح لغة العلم والمعرفة والحضارة؛ هو الصبر وطول النفس والتخطيط العلمي واعتماد استراتيجية بعيدة الآفاق باعتبار " اللغة حيّة تتطور، وتحتاج إلى مدها بأسباب الغذاء والنماء، حيث تعيش الحراك الدائم مع زحم الحال واللغات، لذا يجب أن تساير الحدث؛ بما يوافق ذلك الزحم والحراك من جمع المادة اللغوية وتعليم وتخطيط،..."³، لهذا فأول ما اتّجهت إليه السلطات الفرنسية هو إنزال اللغة الفرنسية المنزلة التي تستحقّها بدءاً بالدستور

الذي نصّ على أنّ لغة الجمهورية هي الفرنسية (دستور الجمهورية الخامسة 1958/10/04)، وقد كان القانون المتعلّق باستعمال اللّغة الفرنسيّة الصادر 1994/08/04 بمثابة النصّ الأكثر ارتباطاً بموضوع حماية اللّغة الفرنسيّة، فقد كان خوضاً في التفاصيل المستندة إلى أحكامه.

وما جعل التجربة اللغويّة الفرنسيّة محطّ جلب للاهتمام هو مبدأ الوحدة الذي استندت إليه، " أمة واحدة-دولة واحدة-لغة واحدة": " دولة المركز هي فرنسا الباريسية ولغتها هي لغة جزيرة فرنسا وكان عندهم مبدأ غلبة اللّغة بغلبة الدولة، والدولة هي التي تصنع القرار اللغوي/السياسي، وهي المسؤولة عن اللّغة الرسميّة"⁴، يضاف إلى هذا المبدأ "عدم زوال الدولة الفرنسيّة بزوال المسيرين" حيث كان الفرنسيون يفصلون بين السلطة والدولة، " فالسلطة زائلة والدولة باقية فالمواطن الفرنسي يتعامل مع السلطة بمفهوم الدولة الأمّة ومن ورائها تأتي لغة الأمّة، وفي برنامجهم أنزلوا اللغات القوميّة منزلة القداسة، ولا يناقش موضوع اللّغة القوميّة، بقدر ما تحصل المناقشة في أفضل المنهجيات لخدمة اللغات القوميّة"⁵.

ثمّ ينبغي لكلّ هذه المبادئ أن تتوّج بمبدأ أساسيّ ورئيسيّ وهو "غلبة الدولة في تطبيق القوانين"؛ وذلك من منظور القوّة التي تحظى بها السلطة في التّجديد، وفرض تطبيق نصوص الدستور، فقد أبانت التجارب على أنّ قوّة السلطة تظهر في تطبيق القوانين، وبالتالي فالسؤال الذي بقي يطرحه صالح بلعيد على أوسع نطاق هو: هل نحن نعمل على تطبيق القوانين؟.

إنّ مجرد إلقاء نظرة على التجربة اللغويّة العربيّة يجد أنّها تجربة غنيّة ببعض المحاولات التّنظيريّة، لكنّها تبقى مجردّ خطابات جوفاء ومبتورة، فما كان ينقصها هو " بناء هادف ومدروس مصحوبين بقوّة القانون وبتقلّ السلطان"⁶، من هنا انبثق التفكير في مشروع يضمن للغة العربيّة نهوضاً من أجل الارتقاء والازدهار، من

هذه التجارب حاول صالح بلعيد أن يستفيد ويفيد اللّغة العربيّة والقائمين عليها، من هنا انبثقت مجموعة من التأثيرات التي سيمارسها المشروع.

2- امتدادات مشروع النهوض اللغوي:

أ- أهداف المشروع:

من جملة الأهداف التي يروم مشروع النهوض اللغوي -الذي قدّمه "صالح بلعيد" - تحقيقها نجد؛ محاولة تمكين اللّغة العربيّة وتبيئتها وتجسيد الفعل المطابق للقول، وقد تجلّى هذا في سعي الباحث إلى الدفع بالمسألة اللغوية وإعطائها حجمها الذي تستحقّه وذلك بربط قضية تقدّم اللّغة العربيّة وازدهارها بالمشروع السياسي، فتطوّر اللّغة العربيّة حسبه هو جهد سياسي قبل كلّ شيء فقد " يزرع بالحاكم ما لا يزرع بالعالم"؛ هكذا عنون "صالح بلعيد" أحد مؤلفاته، وهو مؤلّف يحمل نظرة ثاقبة نحو مستقبل اللّغة العربيّة، لهذا سنقف عنده باعتباره وجه من أوجه الامتدادات التي يمارسها مشروع النهوض اللغوي عند الباحث، كما سنستأنس في هذا الشأن كذلك بكتاب نشد من خلاله التغيير " قراءة معاصرة تنتشد التغيير"، عبر تقديم جملة من المقترحات التي عبّرت في جانب كبير منها عن السعي الحثيث الذي أبداه الباحث في شأن المسألة اللغوية في الجزائر.

ب- البناء النظري للمشروع (المخطّط على الورق):

ما كان يعوز المسألة اللغوية العربيّة هو افتقارها للجانب العملي، أو جانب تطبيق القرارات الرسميّة، ولنا في تجربة التعريب-كما رأينا- في الجزائر وتعميم استعمال اللّغة العربيّة خير دليل على ذلك⁷؛ لهذا وجدنا الدكتور "صالح بلعيد" يُلحّ على ضرورة إخضاع جميع المنظّمات الناشطة في الميدان إلى قرار جريء من جامعة الدول العربيّة وذلك عن طريق:

-التطبيق الفوري لتعميم استعمال اللّغة العربيّة وعلى مراحل؛

-إنشاء لجان المتابعة؛

-إرداف ذلك بالقرار السياسي⁸.

وللرفع من قيمة العربية وتعزيز مكانتها؛ يقترح صالح بلعيد خططا تقوم على الآماد الثلاث:

-المدى القصير: ويتضمن ضرورة التوعية بأهمية الاهتمام باللغة العربية، وتوجيه الأنظار إليها كونها لغة الإجماع والانسجام المجتمعي، والابتعاد عن التأثير السلبي باللغات الأجنبية إلا في حدود ما يقتضيه شرط الانفتاح على ثقافة الآخر، كما ينبغي أن تجند كل الوسائل الإعلامية لخدمة المسألة اللغوية.

-المدى المتوسط: وهو ما يتعلّق بتوجيه الاهتمام للغة العربية في المنظومات التربوية والتعليمية، وينبغي أن تتبّع هذه الجهود بتقديم بحوث ومشاريع في مجال الديدكتيك بشكل يسمح بتوجيه الفعل التعليمي التعلّمي.

-المدى البعيد: ويتعلّق بالنظرة الاستشرافية لمستقبل اللغة العربية، ويكون فيه التركيز على التخطيط المنظم بغية توجيه السياسة اللغوية في أفق الحاضر والمستقبل⁹.

وقد وزّع "صالح بلعيد" المشروع بحسب طبيعة الموضوع بتحديد مواطن العلاج¹⁰:

-إنّ المحور الأساسي الذي يقوم عليه مشروع النهوض اللغوي هو ضرورة الإقرار المبدئي بالتقصير، إذ ينبغي البدء من الجانب النفسي كالإقرار بالتسامح في الانتماء والهوية اللغوية والاعتزاز الوطني، وهو جانب هام في الخصوصية النفسية واللغوية التي يكون بها الإنسان محترما، ويتضمن هذا الجانب:

-ضرورة الاعتزاز اللغوي

-إقناع صاحب القرار بمعاوضة اللجان المحلية أو العربية

-الاقتناع بأهمية تدريس العلوم بالعربية

-إقحام النخب العربية في إنجاح المشروع والدفاع عنه

-إشراك مختلف أجهزة الإعلام

-أما الشقّ التنفيذي الثاني للمشروع فيتمثّل في إعداد وسائل تعميم استعمال العربية؛ عن طريق:

-تشجيع الترجمة وإنشاء المؤسسات الترجميّة

-تجسيد التخطيط اللغوي المناسب

-تفعيل المؤسسات المختصّة

-تفعيل الوزارات

ج-مشروع النهوض اللغوي في الميدان (المخطّط على أرض الواقع):

وقد عرض صالح بلعيد في هذه المرحلة وصفة من أجل تحقيق مساعي

مشروع النهوض اللغوي، وترتكز على:

-وضع جهاز متخصص يتابع المشروع

-جهاز اقتراح مشاريع

-السلطة الكاملة للجهاز في اقتراح وتوزيع المشاريع الكبرى

-توزيع المهام الكبرى على المجامع اللغويّة

-تحديد الزمان الذي ستستغرقه هذه المشاريع

-الإغراق المادي: عن طريق الرفع من الميزانية المخصّص للبحث العلمي.

إنّ الميزة الأساسيّة التي ينفرد بها مشروع النهوض اللغوي عند صالح بلعيد هو

كونه مستمدّ أولاً من الواقع اللغوي العربيّ، هو مشروع يأخذ فيه صاحبه طبيعة

المجتمعات العربيّة بعين الاعتبار أولاً، ويعمل فيه على الاستفادة من التجارب

اللغويّة الناجحة عن طريق تحليل أسباب وعوامل نجاحها ثانياً، وفي مرحلة ثالثة

محاولة إفادة المجتمع العربي بهكذا تجارب.

أمّا الميزة الثانية التي تطبع هذا المشروع هو الطابع العملي؛ الذي تجلّى من

خلال إلحاح صاحبه على ضرورة تطبيق كلّ الخطوات التي قام برسمها، هو

مشروع بمثابة وصفة شخص فيها بلعيد الداء وقدّم الدواء، لكن عمليّة الشفاء تبقى

رهينة بمدى تكتّل الجهود وتظافرها.

الإحالات:

¹-صالح بلعيد، قراءة معاصرة تنتشد التغيير، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر،

تيزي وزو، 2014، ص125.

صالح بلعيد، الاهتمام بلغة الأمة (العبارة من الفرنسيين)، منشورات مخبر الممارسات اللغوية، دار
ص366. الأمل، تيزي وزو، 2016،

³-م ن، ص91.

⁴-م ن، ص96.

⁵-م ن، ص 103.

-عبد الغاني قبائلي، أعمال اليوم الدراسي الخاص بكتاب" يزع بالحاكم ما لا يزع بالعالم،

الممارسات اللغوية، تيزي وزو، 2011، ص85.⁶ منشورات مخبر

⁷- ينظر، وهيبة جراح، قوانين تطوير اللغة العربية في الدولة الجزائرية بين الطرح النظري

وهاجس التطبيق، ضمن كتاب جماعي، اللغة العربية والبرلماني، إشراف صالح بلعيد،

منشورات مخبر الممارسات اللغوية، تيزي وزو، 2015، ص 109-122.

⁸-صالح بلعيد، يزع بالحاكم ما لا يزع بالعالم، دار هوم، دط، الجزائر، 2010، ص25.

⁹-صالح بلعيد، قراءة معاصرة تنتشد التغيير، ص127-129.

¹⁰-م ن، ص 129-131.

العربزغية أخوة الأرض والعرض وآفاق الوحدة الوطنية

أ. عبد القادر كحلول

جامعة ابن خلدون، تيارت

تمهيد:

إن الناظر بعين البصيرة في السنن الكونية والقوانين الشرعية ليلحظ بوضوح أنها قد جاءت لتحقيق مصالح العباد و قد ألزمت الناس الحجة فحفظت لهم الحقوق في دينهم وأنفسهم وعقولهم وأموالهم وأنسابهم ، والمعتمد في كتاب الله عز وجل ومناط الامر كله فيه قائم على الأمن والطمأنينة والسلام يقول الله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: 82] وفي الحديث الذي اخبره سلمة بنُ عبَّيد الله ابنِ مِحْصَنِ الخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافَى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)) رواه البخاري في "الأدب المفرد" (رقم/300).

ففي ظلال الأمن تستقيم خلافة الانسان على الأرض و تستقر الحياة، ويأمن الناس على دينهم وفي أوطانهم فالأمن أساس ازدهار الحضارات، وقد صار الأمن من أهم الضرورات الإنسانية، وأكبر المقاصد الشرعية. قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: 67]. والأمن ددن كلِّ داع لما له من وقع على الناس، فمما اتفق عليه أن لا إبداع دون أمن واستقرار فعندما يتحرر العقل من هواجس الخوف وتنقضي وتتهدم البنى التحتية لأشباح الفرع وتتلاشى ترسو مقومات الأمن والسلامة والاستقرار وتنشأ دوافع الازدهار والحضارة.

ومن خلال هذه الأهمية الكبرى للأمن كان لرجال هذا المجلس الأعلى للغة العربية نظرة أوسع للأمن بعيدا عن المفهوم التقليدي، وهذا لتوسيع طبيعة التهديدات وإعادة تحديد الأطر الاصطلاحية له لتشمل الأمن اللغوي تصديا للإرهاب الفكري. وتروم هذه اللقاءات إلى تحقيق الأمن اللغوي للغة العربية، عن طريق تكاتف الجهود لتسوية النزاعات والمجادلات العقيمة، لمجابهة التهديدات والتحديات خاصة في ظل تسارع المد المعرفي والتكنولوجي وغياب العنصر العربي في ساحة صناع المعرفة.

الخريطة اللغوية:

العربية والأمازيغية مخبر صناعة التاريخ:

الأمازيغية كيان لغوي يحمل بين طياته تاريخ أمة ضاربة في غياهب الزمن وحضارة يشهد لها القاصي والداني وحيث أن التعدد اللغوي والتنوع الثقافي سمة ملازمة للمجتمع البشري، امتزجت الأمازيغية بلغة ربانية شاء الله ولحكمة أرادها أن يجمع الناس عليها من خلال الكتاب المنزل القرآن، وعلى هذه الأرض الطاهرة وقع تلاقح حضاري وارتباط بين الثقافتين لتُصنع بذلك ثنائية لغوية " Diglossie " صارت مكسبا هاما في مسيرة هذه البلاد وأساس ثقافتها وهويتها التي تستمد منها مقوماتها وانتمائها وأمنها، فاشعب بدون هوية ثقافية لغوية شعب ميت لا أصل له وتلك الهوية التي انبثقت من رحم اللغات أنشأت وحدة ترابية متواصلة جغرافيا صارت القوة الدافعة التي انتزعت هذه الأرض من العدو الصائل برابطة التراب وضريبة الدم ولحمة الأخوة الدينية والوطنية وكانت سببا لاستمرار المجتمع الجزائري وتواصله.

إن أمة أرادت البقاء حري بها أن تحصن قلاعها اللغوية والقومية والثقافية وأن تدوس على كل الشوائب والمثبطات وألا تعير انتباها لمن يحاول أن يمتطي أمواج الشك وسفن الريب محاولا هناك المرجعيات الدينية والثقافية واللغوية لهذا الوطن الحبيب، إن سياسة الإقصاء اللغوي والثقافي وطمس الثوابت الحضارية جلبت

الولايات وعرت الأمم وجعلتها عرضنا لسهام الغدر، إن التنوع الثقافي والتعدد اللغوي عوامل وأساسيات تُكسب اللّغة ذاتيتها وتمنح لها الأمن والسلام باعتبارهما ضرورة تاريخية للاستمرار والازدهار والتطور.

إذا أردنا أن نحقق الأمن للغتنا العربيّة ينبغي أن لا نبتز امتدادها التاريخي بحجة قصورها وتخلفها واقتصارها على المعاجم والشعر لا لشيء إلا انغماسا في اللغات الأجنبية عبادة وانتماء لعُقد متشعبة فيهم، حيث ما تزال اللّغة العربيّة في الجزائر تواجه تحديات كبيرة في مقدمتها الازدواجية اللّغوية واللهجات الجزائرية التي تعبر عن ثقافات كل منطقة ثم اللّغة الأمازيغية وتنوعاتها ورغم العمق الديني والوطني إلا أن اللّغة العربيّة الفصحى تشعر بالغبرة وسط أهلها وهي تواجه ذلك الاستصغار والتفريم بحجة عدم استجابتها لمتطلبات العلم والتكنولوجيا ولا تستهلك إلا من طرف الأقلية أو النخبة إن أردنا التدقيق، والأمازيغية حوصرت أيضا في خلوتها المتخفية إن صح التعبير فصارت مكبلة. يحدث كل هذا مقابل الانبهار باللّغة الأجنبية وخاصة الفرنسية التي أصبحت تزام بل تزيح اللّغة العربيّة من منظومتنا التربوية حتى ولو بكلمات فرنسية عُربت وحشرت عبثا في برامجنا.

إن هذا الهرج والمرج يشكل أكبر تحدي للأمن اللّغوي حيث أضحت العربيّة معزولة مقابل اقتحام الفرنسية عرضنا وحصون موروثنا وهويتنا فذُبحت وقُدّمت قربانا أمام المد العولمي المخيف وكذا حصل للأمازيغية فذُبحت قربانا على هيكل القومية العربيّة وهي اللّغة الأصل للجزائر قاطبة، فأصبحت لغة جهوية¹. يتجلى الأمن الثقافي واللّغوي في حفظ ذاكرة الشعوب وهويتها تحقيقا للانسجام، وعليه ينبغي على النخبة تكريس كل الجهود لتفعيل تلك الوحدة الترابية والعمل على لملمة القواسم الثقافية المشتركة بين اللغتين تكاملا لا تنافرا وصولا إلى إيجاد حصنا أمنيا ينبني على المقوم الثقافي واللّغوي من خلال التعايش والانسجام الجمعي والالتحام العائدي والوحدة الوطنيّة واتساع الخريطة اللّغوية بالحوار بين المكونات الثقافية واللّغوية استجلابا للأمن والاستقرار، إن حتمية العمل على إحداث هذا

التكامل الفكري بين الهويتين الأمازيغية والعربية مطلب ثوري وحصيلة تاريخية مشتركة لنضال لغوي ووطني طويل طلبا للتكافؤ الذاتي والأمن اللغوي والثقافي من خلال التصاهر بين الثقافتين ، وعليه بات لزاما علينا من خلال هذه اللقاءات الفكرية والأدبية استكمال مسيرة الثورة المقدسة وتوعية النشأ والعمل على إرساء روح المواطنة والانفتاح وإثراء الهوية وقوفا أمام كل أنواع المد الاستتصالي الحاقد الذي يغذي الصراعات إشعالا لفتيل الحقد وزرع بذور التصدع.

الخريطة اللغوية:

إن مما ينبغي الاعتقاد به أن اللغة العربية متجذرة في وطننا وموروثنا الثقافي وقد اكتسبت حيزا كبيرا في الخريطة اللغوية الجزائرية فهي لغة القرآن فاللغة العربية في الجزائر ليست غريبة ولا دخيلة بل هي في دارها وبين حماها وأنصارها".²

الأمن اللغوي ضرورة قصوى لجبر التصدع والتمزق الحضاري لهذه البلاد وتحسينا لأننا من عوامل التشكيك، إن اللغة العربية رسمية في هذه البلاد منذ عهد الإسلام برضى أهلها وناموس بلادها وعليه لا نولي اهتماما لما يثار من شذوذ القول إذا أردنا بلوغ أفق الازدهار الوطني وخدمة التنمية الوطنية، إن وحدة المصير تفرض على كل الأطياف المشاركة في رد الاعتبار لهذه اللغة أمنا وتفعيلا في دُورنا ومؤسساتنا ولا يكون ذلك إلا من خلال تعميمها في كل معاملاتنا سواء داخليا أم خارجيا.

مقولة الأصل ومكيدة الفصل:

إذا أردنا البناء حقا يجب أن يكون الإسمنت مزيجا بين هوياتنا الجزائرية جميعها عربية كانت أو أمازيغية دون اختزال وبعيدا عن أي فكر دخيل ومحاولة تجنب الارتداء في أحضان الغرب أو الذوبان فيه، إن المواطنة ليست مفهوما فضفاضا بل هي محتوى مرتبط أصلا بأرض ووطن ودولة وجنسية وقومية، وأن القومية الحقيقية هي هذا الانتماء للخصوصيات الحضارية المشتركة والتي تستمد

شرعية وجودها من الدين واللغة والتقاليد، وكلها تم تفاعلها ضمن كينونة تسمى إما الهوية العربية أو الهوية الأمازيغية، ولا سبيل لتوحيد الهوية عبر فرقة هذه المكونات من أجل هوية واحدة وثابتة، بل الأجدى والأبقى أن تكون لدينا هوية مغاربية تنتظم فيها كل الخصوصيات المميزة لكل واحدة منها، وإن الهوية الوطنية يجب أن تشكل حجر الزاوية في تكوين الأفراد والشعوب والجماعات.³

تثار اليوم قضايا أشد ما يقال عنها أنها تشبعت بأفكار هدامة تسعى لكسر روابط الهوية ومعاني الأخوة وتحطيم كل ما بناه الأسلاف طلبا لأمن البلاد والعباد، لقد حاولوا التشكيك والنبش في روابط التاريخ بقصاصات تاريخية صُنعت في مخابر الوهم، فكثرت الصراعات التي أتت على حيزا ثميننا من الوقت دون أسمى غاية ترحى، وفي الجانب الآخر يشهد العالم اليوم صراعا منقطع النظير بين اللغات خشية الانقراض واللغات التي تعمل على صناعة المعجم العلمي والمعرفي العابر للحدود والذي تمثله بالدرجة الأولى اللغة الإنجليزية التي تحاول ربح الوقت وحسم الصراع خاصة وقد تراجعت لغات أخرى وتقدمت بالمقابل لغة النقش والخربشة إن صح التعبير "الصينية" بسرعة ضوئية إلى المقدمة. ووسط هذا الواقع الصعب الذي يهدد أمننا ولغتنا نجد أنفسنا نتناقش ونتباحث حول من الأحق؟ ومن الأسبق؟ ومن تنطبق عليه القوانين الدستورية؟ ومن أحق بالصبغة والصيغة الرسمية والوطنية؟ وهل الجزائر بربرية أو عربية أو حتى رومانية؟ ... لقد كثر النسّابين فربطوا أصل هذا الشعب تارة إلى الرومان أو إلى القبائل التي تاهت في الأرض باحثة عن موطن وأصل لها، وهي قضايا تجاوزها التاريخ وتجاوزتها النكبات التي صنعت من هاتين الأختين العربية والأمازيغية مضغة هي أقرب شكلا من عضلة القلب التي لا يمكن لأي كان الاستغناء عنها.

ومما علم أن الأمازيغ من أقدم الشعوب في العالم حيث توصل أهل الاختصاص عن الأصول الأفريقية للسكان الأمازيغ، ويعتبرونهم وهدم السكان الأقدمين الذين استوطنوا شمال أفريقيا منذ زمن قديم. وأنه من العبث البحث في جذور الأمازيغ،

إن من يتمحل البراهين لإثبات أصل دون أصل لا ريب أن الحافز من وراء هذا الادعاء سياسي، سواء أكان عن حسن نية أم غير ذلك، لقد أفضت البحوث الأركيولوجية والأنثروبولوجية واللسانية أن الأمازيغ استقروا أفريقيا منذ ما قبل التاريخ، فالإنسان الأمازيغي عمر هذه الأرض منذ أكثر من 130.000 سنة ق.م أو أكثر و ظهر على مسرح التاريخ وتكونت لغته وثقافته وهذا قليل بحقهم إن لم يكونوا أقدم من ذلك، اعترف الإغريق قديما أن الأمازيغ أحد الشعوب الأقدم في العالم وفيما يخص النقوشات وبعض المخلفات الأمازيغية التي وجدت هنا وهناك فليس بغريب، فالأمازيغ حكموا الأمصار والبلدان وكانت لهم بطولات امتدت إلى بابل والشام وفلسطين وغيرها. وعليه فمن العبث أن يُبحث عن موطن أصلي، غير الموطن الذي نشأنا فيه، وإنها لمغالطة كبرى الهدف من ورائها زعزعة استقرار هذه البلاد ومحاولة تقسيم لغتها وأبنائها وفصلها عن هويتها وموروثها الثقافي والفكري المقدس الذي كونه صنّاع التاريخ حيث كبر وترعرع في بيت الثورة المقدسة.

الأمن الوطني والتكامل اللغوي الرهانات والتحديات:

يتلخص أمننا اللغوي والثقافي والوطني في تفعيل المرجعيات الوطنية والتاريخية والحضارية والدينية واللغوية ومحاولة تأمين الوحدة الوطنية وإعادة القراءة لهذه الأخيرة بما يخدم لغتنا وثقافتنا ويجسد ذلك الانسجام الجمعي القائم على التعدد اللغوي والتنوع الثقافي ونبذ تلك النظرة الدونية للأمازيغية أو العريية والابتعاد عن مبدأ التعالي للغة على أخرى بحجج واهية قائمة على حق السيادة أو التقديس أو الشرعية والتي تأسست على فكر إيديولوجي هدام يسعى إلى كسر أواصر الأخوة وهناك الروابط الأمنية التي بها تحقق ذلك الحلم الكبير مبتغى طارق بن زياد الذي عبر إلى ما وراء البحار فحقق معجزة شهد لها التاريخ الرباني، إن تلك الهوية المهملة هي التي جسدت وانتظمت تحت رايتها الثورة الأسطورة والمقاومة المباركة دون عناء البحث في الأفق اللغوي أو الديني، الواقع يصرخ قائلاً إن فرنسا قد حققت جزءا كبيرا من مخططاتها اللغوية الوطنية

والرسمية، فإن هذا لهو النصر العظيم لفرنسا. إن التاريخ الجزائري وثيق الارتباط باللّغة العربيّة وقد نُشر الإسلام على أيّد رجال أشاوس بلسان عربي مبين فهذا طارق بن زياد أكبر دليل على ذلك، "قد نبغ منهم في أوائل الفتح رجال، قد ضربوا بسهم وافر في ميدان البلاغة والفصاحة، ومن بين هؤلاء الرجال القائد العظيم طارق بن زياد البربري، الذي مازالت خطبته مضرب الأمثال"⁴.

إن النخبة اليوم مطالبة بالعمل على تحقيق ذلك الانسجام المغيب بين اللغات الوطنيّة ومحاولة إبراز فكرة الهوية الجزائرية العربيّة والأمازيغية والإسلامية مقابل المعتدي. ولا يكون ذلك إلاّ بكسر النعرات العرقية والطائفية والعودة إلى الحوار البناء الهادئ بنظرة مستقبلية تحمل على عاتقها مقومات الازدهار الوطني واللّغوي تحقيقاً للتزاوج الثقافي والفكري و تجذيرا لهاته الهوية المنفتحة على الآخر وإدراجها في سلوكنا وتفكيرنا ومناهجنا المدرسية ووسائل إعلامنا، وغرس في أجيالنا مجدنا وتراثنا النضالي والاسلامي يقول التيجاني بولعوالي أن: "الشعب الأمازيغي استطاع أن يصمد ويحفر في ذاكرة التاريخ بإبائه وماضيه وكرمه، وهو خلق وكريم ونبيل ويؤمن بالمبادئ التي يحاسب من أجل نيلها وإثباتها..."⁵

فنجاح أي مشروع مرهون بإدراج كلّ الخصوصيات الثقافية والاعتراف بها واتخاذها كموروث تاريخي يوحد الانتماء لهذا الوطن بما يسمح بإعادة المفاهيم للخصوصيات اللّغوية كمكون للثقافة والتاريخ، ونبذ الجهوية حتى يتحقق للفرد الشعور بالأمن الثقافي واللّغوي تحت رابطة التراب تعميقا للوفاق الوطني وراية الوطن ووحدة المصير وهي كلها أساسيات صناعة كل حضارة كما يراها مالك ابن نبي والقائمة على رؤية متكاملة " التراب والإنسان والزمن". وعليه يجب إعطاء كلّ ذي حق حقه ومراعاة الخصوصيات من حيث لغة رسمية لها مكانتها العالية ولغة وطنية يجب الاهتمام بها، وهو حق من الحقوق اللّغوية وعدم الاحتكار اللّغوي الذي يعني الهيمنة سواء من اللّغة الرسمية أو من اللّغة الأجنبيّة.⁶ ماتزال اللّغة العربيّة في الجزائر تواجه تحديات كبيرة في مقدمتها الازدواجية اللّغوية واللهجات

الجزائرية التي تعبر عن ثقافات كل منطقة ثم اللغة الأمازيغية وتنوعاتها فرغم العمق الديني والوطني إلا أن اللغة العربية الفصحى تشعر بالغرابة وسط أهلها وهي تواجه ذلك الاستصغار والتقزيم بحجة عدم استجابتها لمتطلبات العلم والتكنولوجيا ولا تستهلك إلا من طرف الأقلية أو النخبة إن أردنا التدقيق ، أما الأمازيغية فحوصرت في خلوتها المتحفية، يحدث كل هذا مقابل الانبهار باللغة الأجنبية وخاصة الفرنسية التي أصبحت تزامم بل تزيح اللغة العربية من منظومتنا التربوية حتى ولو بكلمات فرنسية عُرِّبَتْ وحشرت عبثاً في برامجنا.

إن هذا الحصار الذي تعيشه اللغة العربية أثقل كاهلها وأصبحت عندنا متخلفة عن ركب المعرفة حيث أدخلوها في صراع مفتعل مع الأمازيغية العمود الركن في تكوين الهوية الوطنية لتبقى العربية متخلفة بعيدة عن ساحة المعرفة رغم أن الاستراتيجيات العالمية تعترف لها بالتفوق وسمو الرفعة، والثقافة الأمازيغية ما كانت يوماً طرف صراع مع خليلتها اللغة العربية إذ شكلا مزيجاً ثقافياً عبر عن العمق الجزائري والهوية والعقيدة الإسلامية التي ألغت كل الفوارق، فاكتمل الدرع والحصن في وجه التحديات. مما ينبغي الاعتقاد به أن اللغة العربية متجذرة في وطننا وموروثنا الثقافي وقد اكتسبت حيزاً كبيراً في الخريطة اللغوية الجزائرية فهي لغة القرآن ولسان التواصل على هذه الأرض. "إن اللغة العربية في الجزائر ليست غريبة ولا دخيلة بل هي في دارها وبين حمايتها وأنصارها".⁷

إيقاظ الهمم والاستشعار بالمسؤولية:

إن إعادة ترميم تراثنا الثقافي والفكري ومعاودة التفكير فيه بشكل دائم وجدّي من مستلزمات بناء قاعدة لغوية مؤمنة قوية لمجابهة تحديات العولمة والانفتاح والانتهاك من الآخر، واللغة العربية عنصر أساسي للهوية الثقافية للشعب الجزائري، ولا يمكن فصل شخصيتنا عن اللغة الوطنية التي تعبر عنها، ولهذا فإن تعميم استعمال اللغة العربية وإتقانها، كوسيلة عمل خلاقية يشكلان إحدى المهمات الأساسية للمجتمع الجزائري في مجال التعبير عن مظاهر الثقافة، وعن

الإيديولوجيا. وأن الجزائر باستعادتها توازنها من خلال التعبير عن إرادتها الوطنية، بالأداة المشروعة الأصيلة والمحكمة التجهيز ستساهم في إثراء الحضارة الإنسانية بصورة أفضل وتستفيد في الوقت نفسه عن دراية من مكتسباتها وخبراتها. إنالخيار بين اللّغة الوطنيّة ولغة أجنبية أمر غير وارد البتة ولا رجعة في ذلك.⁸

ما نلاحظه في بلادنا عدم الجدّية في معالجة هذا الإشكال فالقوانين تسن ونأمل خيرا في تطبيقها لكن الواقع السياسي يختلف تماما عما يوجد بين دفات الدستور فهذه القوانين مازالت عرجاء لا تفي بالغرض،" يجب العلم بأن اللّغة الفرنسية لغة أجنبية في الدستور لكن في الاستعمال لها نصيب وافر، إن لم نقل هي اللّغة الرسمية، وهي لغة السوق اللسانية الوطنيّة حاليا بل لغة الانتقاء الاجتماعي...اكتسبت سوق الاستعمال في وطننا بسبب التراجع عن التعريب، وبدعم وجود سياسة لغوية واضحة، وعدم وضوح خطابات الحكومات حول التخطيط اللغوي ".⁹

ذلك أن الوضع الراهن نتيجة لمعطيات تاريخية ما تزال الفرنسية تمارس سلطتها علينا شئنا أو أبينا. هناك تناقضات بين ما يصاغ من قوانين وبين ما يطبق إذا فاللّغة العربيّة رسمية بحكم التاريخ والقانون والدين ولكنها بعيدة في معاملاتنا فاللّغة المسيطرة في معظم المجالات هي اللّغة الفرنسية سواء أكان ذلك في الاستعمالات اليومية أم الرسمية والإدارية، وأعتقد أن الأخطر هو ما يحدث على مستوى النظام التربوي حيث تغلغت الفرنسية إلى التعليم بكل مستوياته ووضّع في وجه اللّغة العربيّة حواجز كي لا تعود إلى وضعها الطبيعي فتكون رسمية في المواثيق، وغير وظيفية في الحقائق، وتبقى عند ذلك اللّغة الأجنبية الفرنسية اللّغة الوحيدة في الدقائق والوثائق...لمواجهة الخطر القادم من تبعات اللّغة الأجنبية التي لم نحسن الاستفادة منها لأننا أوليناها المكانة التي تحجب بها مواطنة اللّغة العربيّة والأمازيغية.¹⁰

لقد انتهج أهل الفرنسية كلّ الطرق لحمل لغتهم إلى أعلى القمم بمختلف الاستراتيجيات والنظريات الحديثة وصولاً إلى المبتغى وحتى رجال السياسة الذين استغلوا المناصب لتمرير مشاريعهم الهدامة، وعليه "من الضروري أن نصل إلى وضع تكون فيه الفرنسية هي لغة النخبة وأن تكون اللّغة الفرنسية هي لغة الخطاب في المحافل الدولية، وأن ندعو إلى ازدواجية اللّغة في المغرب العربي وإلى تعدد اللغات في أوروبا، ازدواجية اللّغة في المغرب العربي تجعلنا وجها لوجه مع اللّغة العربية فقط، أما الازدواجية في أوروبا فاللّغة الإنجليزية تستطيع أن تحلّ محلها، ولهذا ندعو إلى تعدد اللغات... ولهذا أصبحنا بالفعل أمام لغة رسمية وهي العربية، ولغة إجبارية، كما قال أحمد المعتصم، وهي الفرنسية لغة منصوص عليها في ورق الدستور ولا قيمة لها في سوق اللغات، ولغة متسلطة بالقوة وهي الوحيدة التي تحتكر السوق"¹¹.

إن دائرة الاهتمام عند حماية الفرنسية وأذيالهم لم تتوقف عند هذا الحد بل بلغت درجة التخطيط اللّغوي وتجاوزت حدود المعاملات إلى الدعوة إلى تعميم هذه اللّغة في الوطن العربي بالإجبار والقوة خاصة إذا علمنا أن المنطق المعمول به يظهر أن الفرنسية في الطرف الأقوى من خلال المد العلمي والثقافي وانبطاح وانبهار الكثير لهذا التيار اللّغوي الجارف. لقد تلبس الكثير بثقافة اللّغة الفرنسية ونصّبوا أنفسهم حماة لها على حساب دينهم ولغتهم وأمن بلادهم تنكرا لموروثهم اللّغوي والثقافي. "وعند تحليل وضعية الازدواجية اللّغوية في المغرب بين العربية والفرنسية سنجدها من ذلك النوع الذي تهيمن فيه اللّغة الأجنبية هيمنة مطلقة وتهتمش فيه اللّغة الوطنيّة وتغيب بشكل متعمد وممنهج والفرنسية لم تمارس إقصاء حقيقيا وعنيفا ضد اللّغة العربية وحدها ولكنها مارسته أيضا ضد الأمازيغية من جهة وضد اللغات الأجنبية الأخرى كالإنجليزية والاسبانية"¹².

وهذا الفعل الإستدماري الشنيع ارتبط بفرنسا منذ احتلالها الجزائر وهو مشروع خطير لهتك أمن اللّغة العربية، ودعاة الفرنسية واعون أن اللّغة العربية تشكل لحمة

الاتحاد والتوافق والأخوة لدى الشعب الجزائري كما أنها أداة تواصل مع تاريخ الجزائر العريق وجذورها الحضارية وهي بمثابة صمام الأمان للوحدة الوطنية وعليه حيكمت المؤامرات لتخريب هذه الأسوار " ثقافيا واجتماعيا وبالتالي أصبح في حكم المؤكّد تحطيم هذا الصور الواقعي وهذا الحصن المنيع للفرد والمجتمع".¹³

أن حرمة الأرض مرتبطة بحرمة العرض وكلاهما موثوق إلى العربية ولا تصان هذه الحرمة إلاّ بالحفاظ على اللغة، فما كان يُتصور للعروبة ولا للقومية مفهوما خارج حصون اللغة... إن تاريخ العرب في مصاعده كما في منازلهم يُكتب من خلال تاريخ لغتهم في مدها وجزرها.¹⁴

إن الذين قدموا أقلامهم قربانا للمعتدي الخائن محاولين الطعن والعبث في العربية لا يتوانون في نعتها بأرخص الأوصاف حجتهم في ذلك أن اللغة العربية قد أفلت وبأن زمانها قد انقضى، إن هذا الخطاب العدائي لكل ما هو عربي يدل على حقد دفين يتوسل كلّ السبل الغير مشروعة للقضاء على هوية هذه الأمة الحرة.

والقضاء على هوية شعب أو أمة معناه تجريدهما من شخصيتهما وسهولة فرض التبعية عليهما، فمن لا هوية له مضطر بلا شك لتبني شخصية الآخر وتقمصها والذوبان فيها، وسهل عليه أن يكون... وتابعا من تابعها، وفاقده الشخصية فاقد للتميز مسلوب الإرادة والرأي والقرار، ومن سلبها فهو داخل في حكم المعدوم والمفقود¹⁵.

إن هذا التناقض المقصود في القرارات وهذا التناقض في حق اللغة العربية عواقبه وخيمة على موروثنا ومعتقداتنا ومنظومتنا التربوية والأمر يحتاج إلى تخطيط لغوي راشد وإلى سياسة لغوية واعية وحديثة تتماشى وتحديات المرحلة من خلال توحيد هذا المقوم ثم تجسيد ذلك على الواقع العلمي والأدبي وسن قوانين بتعميم استعمال اللغة العربية على كل الوثائق وفي كلّ المجالات واستغلال خطابات توعوية لاستنفار كل طبقات المجتمع تحسيسا بأهمية القضية، خاصة وقد صارت العربية غريبة عند أهلها فانقلبوا عليها من خلال واقع حالهم، يقول عبد

السلام المسدي: "إن أمر اللغة عند العرب عجيب، وأعجب منه أمر العرب مع لغتهم، وبوسعك أن تجزم بأنهم يستثيرون من الاستغراب والتعجب ما لا تستثيره أمة من الأمم، وكثيرا ما يحار المتأمل بفكر خالص كيف يصار بالخيارات الجهورية في الحياة الجماعية إلى مثل هذه الأوضاع التي كأنما يتحول فيها الفاعل عدوا على نفسه. والأوجع ... أن أصحاب القرار يتبنون حول المسألة اللغوية خطابا يستوفي كلّ أشرط الوعي الحضاري ثم يأتون سلوكا يجسم الفجوة المفزعة بين الذي يفعلونه والذي قالوه"¹⁶.

وأظنني غير مخطئ أن الغالبية العظمى في هذا الوطن تعاني سوء الفهم لمقومات الهوية الوطنيّة ورموزها بما في ذلك اللغة العربية، كأن ترى البعض يستهين بهذه الرموز إما مازحا أو متهاونا أو كارها متتكرا لعروبته ووطنيته متمنيا وقابلا ومحبا للاستعمار (القابلية للاستعمار عند المفكر مالك ابن نبي). "مما أدى بالإنسان العربي المهزوم المنكسر إلى فرار نحو ذلك الأجنبي والارتقاء في أحضانه انبهارا أو انتحارا، لا أدري. فما هذه الكراهية التي أصبح بعضنا يجاهر بها ولا يخفيها ضد لغته وثقافته، الهروب الكبير من الواقع المظلم المتخلف والمهين الذي سقط فيه العالم العربي، وأفقد الناس الثقة في أنفسهم وأمتهم وتاريخهم وحضارتهم وثقافتهم ولغتهم وكل ما يمت إلى عالمهم المنهار بصلة"¹⁷.

إن أزمات اللغة مازالت تلقي بضلالها على مجتمعنا وأبنائنا حتى صار المتعلم يبدي امتعاضا وانزعاجا ونفورا من دراسة اللغة العربيّة وتراه كالمغشي عنه إذا ما تقرب من كتب النحو واللغة العربيّة والأسباب كثيرة، والأسرة التربوية تغض الطرف ولا تعير لذلك أي اهتمام وفي المقابل تجتهد اللغات الأجنبية في توظيف التكنولوجيا وأساليب أخرى حديثة لتحقيق مآربها محاولة تعميم وبسط سيطرة اللغة على أرجاء المعمورة، ومن الثغرات التي تشكل خطرا على هوية المتعلم، التعلم المبكر للغات الأخرى دون أن يتوصل إلى فهم لغته وتحسينها. فقد أثبتت الدراسات أن إدراج اللغات الأجنبية في برامجنا التربوية في سن مبكرة يشكل

عاملا سلبيا على تعلم اللّغة الأم ويتجاوز ذلك إلى التشويش في مكونات الهوية ويهدد بذلك أمنه اللّغوي بفعل الخلط في الثقافات وتزوير القيم، إنّه علينا استهداف لغة المستقبل لغة العلم، ولغة التواصل العالمي فنعلّمها لأجيالنا كي يكونوا أبناء 2040، ولذا لا بدمن الخروج من شرنقة اللّغة الفرنسية التي لا ينطقها إلاّ 160 مليوناً، ويقترح ترتيب اللغات على هذا الشكل: الإنجليزية، الصينية، الإسبانية، الفرنسية الألمانية الروسية¹⁸.

متى نتحرر من عقّداً أولاً؟ ثم من هذا المشروع اللّغوي الاستعماري الذي يسعى لاختراق حدود أمننا؟

يجب علينا تصحيح الأفكار الخاطئة التي أقمنا بها المستدمر الفرنسي بشأن اللّغة العربية، وضرورة العودة إلى أمجاد اللّغة العربية، واستعادة الثقة في أنفسنا، وفي وطننا، ولغتنا، وذلك لا يكون إلاّ بتكوين معلمين وأساتذة يحملون هذه القناعة وينقلونها للأجيال اللاحقة عوض الاحتقار الذاتي الذي يعانون منه، الوعي بالهوية والإفصاح عن هذا الوعي لا يتمان إلا من خلال اكتساب أداة مهمة جدا هي اللّغة الطبيعية التي هي مؤسسة اجتماعية تقتضي وجود الآخر، فدونه ليس ثمة من حاجة إلى هذه اللّغة أصلاً، ذلك أن اللّغة الطبيعية لا توجد إلاّ عندما يجتمع الأنا والآخر ويشرعان في تبادل المعرفة والتعاون على إنتاجها.¹⁹

والصراع الحقيقي ليس بين العربيّة والأمازيغية إنما جعل وحرفت حوله القضايا وشوهت تشنيتنا للفكر وصرفا عن القضية المصيرية، إن الذات الجزائرية والهوية الوطنيّة أصلاً بُنيت منذ غابر الأزمان على معتقد الدين والأخوة ووحدة التراب. إنّهذا التعايش اللّغوي الذي شاء الله أن يكون على هذه الأرض لا يمكن أن يمحي هكذا فهو أصل الهوية وهذا المزيج هو المكون الحقيقي للذات الجزائرية "يرى علماء اللسانيات إن اللّغة والهوية شيء واحد والمقصود بالهوية هنا هوية الفرد وهوية المجتمع، ولهذا يمكن تأسيس الكيانات الاجتماعية والسياسية على

أساس لغوي، ومن هنا تأتي خطورة المكون اللغوي في تحقيق أو زعزعة الاستقرار السياسي للمجتمعات²⁰.

أن أبناء هذه الأمة قصروا في واجبهم إزاء لغتهم العربية، وبالغوا في تقديس اللغة الانجليزية والفرنسية إلى درجة العشق؛ إذ جعلوها لغة التواصل والتعليم بحجة مواكبة العلم. لقد شخص الأستاذ صالح بلعيد وضع اللغة العربية اليوم بقوله إنها "تئن من أهلها الذين فقدوا ثقّتهم في أنفسهم وفي لغتهم، فما سايروا اللغات، وما تقدموا بالأجنبيات، وما حصلت لهم الطفرات، فهم تبع في كلّ الحالات"²¹.

لقد حشد العدو كلّ الوُسع معتمدا آليات التكنولوجيا مستعينا بآليات العولمة لينقض على المقوم اللغوي والهوية الثقافية في عقر دارها يقول الأستاذ صالح بلعيد: "ماذا أقول في موضوع الأمن اللغوي الذي كثر الحديث فيه منذ استفحال ظاهرة العولمة، وما تعرفه الهويات الوطنية والأصالة من تراجع، والشكوك التي تلحق اللغات الوطنية على أنها في طريق الانقراض، والسيطرة/الهيمنة الثقافية التي تنتامي بفعل لغات المستعمر القديم والحديث، واندفاع المواطنين لتعليم أبنائهم اللغات الأجنبية توهما منهم أنها سبيل للحاق بالركب"²² لقد شهدت البشرية أجمع أقوى دولة انحنت لها الأديان الوضعية فصارت أنموذج الازدهار والتقدم فكانت قبلة كلّ عالم، لقد أنجز النبيّ فيها موعود الله بلغة عربية استوعبت كلّ ثقافات الشعوب فقامت دولة على ربوع مترامية تحوي أجناس متفرقة ومتنوعة وما طرح فيها يوما قضية اللغة العربية وادعاء تخلفها. "وهل قامت دولة في العالم دون لغة البلد، فإن قامت فهل حصلت لها قائمة بما قامت، وهل هي في قائمة الدول التي هي في قائمة القمام، فأعد حسابك أيها القائل فلا يمكن قيام دولة عربية دون لغة عربية يا بشر"²³.

إن سياسة البتر المنتهجة من قبل صنّاع القرار ستوصلنا يوما إلى ما يسمى باليتم اللغوي "واقعنا العربي قد يعرف نمطا آخر من التنظيمات التي حملت أمانة الانتصار للغة العربية والذّب عن كيائها صوتا لها من التهوي الذي ما برح

يتصيدها".²⁴ نتأسف لحال هؤلاء وهم يلهثون وراء كل ما هو غربي انبهارا بمواد المعرفة وهم في مشقة اتباعهم ومكابدة اللحاق يتخلون وينتزعون ثياب العز والستر لاعتقادهم أنها تنقل مسيرتهم وتبطن سرعتهم وتسبب لهم العناء أو بالأحرى تبعدهم عن ودّ أهلال غرب، وهم في حقيقة الأمر إنما ينسلخون من هويتهم ووطنيتهم، ويقدمون مقابل رضى الأعاجم لغتهم قربانا لهؤلاء، إنها استماتة مناهضة لما قدمه هذا الشعب الحر منذ غابر الأزمان ومقابل هذا العار نحلم اليوم بإنجاز الوعد المنتظر من طرف أهل القرار للخروج من هذا المأزق اللغوي في جميع مجالات حياتنا للتصدي لهذا الخلل والزلل في القيم .

ينتشر هذا الكفر البواح باللّغة العربيّة وهي تذبج في أعلى هرم في الجامعات والمؤسسات العلمية من خلال لغة عرجاء لا نسب لها ولا أب، فهذا طه حسين يصف حال هؤلاء فيقول: "وكان من المرّبين من لايعربون إلّا حين يقرؤون في الكتب، فإذا تكلموا غرقوا وأغرقوا طلابهم في اللّغة العامية إلى أدقّانهم أو إلى آذانهم"²⁵.

"لغة العرب، قطعة من وجود العرب، وميزة من مميزات العرب، ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة. فإذا حافظ الزنجي على رطانتة، ولم يبيع بها بديلا وحافظ الصيني على زمزمتة، فلم يرض عنها تحويلا، فالعربي أولى بذلك وأحق؛ لأن لغته كانت -في وقت ما- لسان معارف البشر، وكانت -في زمن ما- ترجمان حضارته، وكانت -في وقت ما- ناقلة فلسفات الشرق وفنونه إلى الغرب، وكانت -في وقت ما- هادية العقل الغربي الضال إلى موارد الحكمة في الشرق، وكانت -في جميع الأوقات- مستودع آداب الشرق وملنقى تياراته الفكرية، ومازالت صالحة لذلك، لو لا غبار من الإهمال علاها، وعاق من الأبناء قلاها، وضيم من لغات الأقوياء المفروضة دخل عليها، وهي - قبل وبعد كل شيء- حاضنة الإسلام، ودليله إلى العقول، ورائده إلى الأفكار"²⁶.

إن اللغة حبالاً متينة من تمسك بها صار في مأمن من كلّ غاز ولذلك كانت هدفاً للاستعمار الفرنسي كسراً لذاتية الأمة الجزائرية وثقافتها وحضارتها، لأنها بكل بساطة مرتكزاً أساسياً من مرتكزات الأمة، كما أنها موقظة للوعي، إن تفعيل هذه اللغة بإمكانها صقل القومية وتغيير مفاهيم سلوك المواطنة وحقيقة الانتماء والسيادة. " الذين يتكلمون لغة واحدة يكونون كلاً موحداً ربطته الطبيعة بروابط متينة، وإن كانت غير مرئية، ومن هنا كانت اللغة هي الهدف الرئيسي عند المستعمرين الطامعين في استعباد الشعوب ومحاولة السيطرة عليها، ولن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته، إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطع عن نسب لغته انقطع عن ماضيه ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ لا صورة محففة في الوجود" ²⁷.

توصيات:

- ✓ اللّغة العربيّة تحيا بحياة أهلها وتتقضي بهم، تحيا بإبداعهم من خلالها فتصير أداة واساس تواصلهم وتندثر بالابتعاد والنفور منها.
- ✓ اللّغة العربيّة مرجع الهوية الوطنيّة والوعاء الذي يتسع كلما ضاقت سبل الثقافات فهي الجامع المشترك الذي يستوعب كل أطياف المجتمع الجزائري.
- ✓ ان السعي لانتزاع اللّغة العربيّة من بطاقة الشخصية الوطنيّة هو تمرد على الهوية الوطنيّة وخروج على الأعراف العرقية والقومية.
- ✓ محاولة دراسة وتحليل الخريطة اللّغوية بكل موضعية بعيدا عن كلّ الحساسيات.
- ✓ التحدي لأعاصير التكنولوجيا والعولمة الثقافية.
- ✓ يجب ان نظهر سماء اللّغة العربيّة في بلادنا من هذا التلوث اللّغوي وتلك العامية العرجاء المختلطة بالفرنسية الفتاكة حفاظا على هويتنا الحضارية واللّغوية وعلى الانتماء.
- ✓ يجب على العلماء والمفكرين وأصحاب القرار والفاعلين في الساحة التعليمية وأصحاب المؤسسات الوقوف للتصدي لتحديات العولمة والتكنولوجيا من خلال غرس بذور الانتماء وحب اللّغة العربيّة وترميم روابط الأخوة والمواطنة والانتقال من الإطار النظري إلى التجسيد العملي حفاظا على أمن لغتنا وديننا ووطننا.
- ✓ تصحيح المصطلحات في مختلف المجالات بما يتطلبه المقام والحرص على اعتماد اللّغة العربيّة في كلّ الميادين.

مكتبة البحث:

- 1- ينظر: اللّغة الأمّ والواقع اللّغوي في الجزائر، صالح بلعيد، مجلة اللّغة العربيّة، العدد التاسع، خريف، 2003م، المجلس الأعلى للغة العربيّة، 140ص.
- 2- محمد البشير الإبراهيمي: المختار في القراءة والنصوص، المعهد التربوي الوطني، الجزائر، 1985ص. 22.
- 3- ينظر: مسألة الهوية العروبة والإسلام والغرب، محمد عابد الجابري، منشورات مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 1995م، ص: 192.
- 4- محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمة روح ثقافتها، دار الشهاب للطباعة والنشر، الجزائر، ط2، 1993م، ص: 54.
- 8- التيجاني بولعالي، الاسلام والأمازيغية نحو فهم وسطي للقضية الأمازيغية، منشورات افريقيبا الشرق، المغرب، 2008م، ص: 83.
- 9- محمد البشير الإبراهيمي: المختار في القراءة والنصوص، ص: 22.
- 10- ينظر: محمد عابد الجابري، (السياسات التعليمية في أقطار المغرب العربي، المغرب الجزائر، تونس)، منتدى الفكر العربي، عمان، ط 2، 1990م، ص: 138.
- 11- صالح بلعيد، الأمازيغية في خطر؟، منشورات مخبر الممارسات اللّغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2011م، ص: 292.
- 12- ينظر: صالح بلعيد، المواطنة اللّغوية وأشياء أخرى...، دار هومة للنشر، الجزائر، 2008م، ص: 40.
- 13- عبد العلي الودغيري، "اللّغة العربيّة في مراحل الضّعف والتبعية"، مجلة الممارسات اللّغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ع: 06، 2011م، ص: 99.
- 14- المرجع نفسه، ص: 98.
- 15- الطيب ابن إبراهيم، استشرق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، دط دار المنابع للنشر، الجزائر، 2004م، ص. 14.
- 16- ينظر: الهوية العربيّة والأمن اللّغوي، عبد السلام المسدي، المركز العربي للأبحاث، بيروت، لبنان، ط1، ص: 25.
- 17- عبد العلي الودغيري، "اللّغة العربيّة في مراحل الضّعف والتبعية"، ص: 91.

¹⁸-ينظر: صالح بلعيد، الأمازيغية في خطر؟ منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، ص 29.

¹⁹-ينظر: عبد النبي اصطيف، المعرفة حصيلة الشراكة بين الأنا والآخر، مجلة التسامح، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، عمان، 2004م، ع4، ص:126.

²⁰-المصطفى تاج الدين، نحو سياسة لغوية متسامحة في زمن العولمة، مجلة التسامح، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، عمان، 2005م، ع9، ص: 146.

²¹-في الأمن اللغوي، صالح بلعيد، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص: 08.

²²-صالح بلعيد، المرجع نفسه، ص: 15.

²³-صالح بلعيد، المرجع نفسه، ص: 15.

²⁴-الهوية العربية والأمن اللغوي، عبد السلام المسدي، ص: 159.

²⁵-طه حسين، نقد وإصلاح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط، 1956م، ص: 166.

²⁶-الآثار، محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط 1، 1997م، ج3، ص: 281.

²⁷-مصطفى صادق الرافعي: من وحي القلم، دار المعارف، مصر، ج 3، ص، 126 وأيضا: نقولا زيادة، العروبة في مييزات القومية، دار الثقافة، بيروت، ط5، ص: 25.

التعاش اللغوي بين الأمازيغية والعربية في الجزائر منطقة الأوراس نموذجا

د. زهور شتوح
جامعة باتنة 1

لا أحد ينكر حقيقة أن المستعمر الغربي أيام استعمار له للجزائر عمل على خلق الشنار والصراع بين مكوناته الأصلية: العرب والأمازيغ، وذلك بهدف تفكيك وحدة هويتها الاجتماعية الجزائرية المشتركة، وتسهيل عملية السطو على ثرواتها المادية والرمزية، واحتلال أراضيها الواسعة بكل أريحية، عملية التآليب هاته تمت بتسخير الفرنسيين لكل الوسائل والطرق، وكان من بينها القدر في العرق الأمازيغي.

وما نشهده من خلال الكثير من الكتابات والمقولات، تلك المغالطة التي يعمد فيها أصحابها إلى التفريق بين ما هو عربي وما هو أمازيغي وخلق المثبطات بين الثقافة العربية التي تقتنع أحيانا بلبوس الإسلام، وتجعله مسندا لها لما يمنحها صفة القداسة، ويضفي على مكوناتها طابع الشرعية، وبين ذلك التراث الأمازيغي الذي ظل يختزله التصور الرسمي فيما هو فلكلوري.

وتعد مسألة التعدد اللغوي في الجزائر مسألة متشعبة بعض الشيء، حيث ظهر في عدة سياقات تتفرع بين ما هو لساني وما هو تاريخي وجغرافي، بل حتى أحيانا بين ما هو سياسي وثقافي واجتماعي، وهو ما يزيد هذا التعدد تفرعا، حيث إن المجتمع الجزائري على وجه الخصوص يتكون من بنيات لغوية كثيرة، تتشابه أحيانا في مستوياتها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية، وتتباين أحيانا أخرى، فكل جهة من ربوع هذا الوطن تتفرد بلهجة متميزة، ليضعنا كباحثين أمام فسيفسائية تلتقي في غالبية أوجهها مع اللغة الأم وهي اللغة العربية، وبما أن البناء الثقافي لأي مجتمع لا يمكن أن يتأسس خارج إطار اللغة، فهذه الأخيرة هي العامل الأساس المعبر عنه فكما كانت اللغة قوية ومتعددة كانت الثقافة متنوعة ن وأضحت أداة استعمال مرنة

في سياق معين من جهة وأداة التواصل بين الجماعات داخل المجتمع الواحد من جهة أخرى، وعندما يصبح أمام تعدد لغوي نكون أمام تعدد ثقافي بالضرورة. ولعل ما يفرض علينا ضرورة تعرف كيفية تدبير وضع التعدد اللغوي داخليا هو وضعه الجغرافي والاجتماعي والاقتصادي، بالإضافة إلى ما عرفه من إكراهات بالخصوص، وكذا الدور الذي اضطلع به الاستعمار من خلخلة بنائه الثقافي والقومي، مما أثر في اللسان واللغة على وجه الخصوص، فالتعدد اللغوي في الجزائر حكمته خلفيات متعددة وعوامل كثيرة منها:

✓ الظروف التاريخية بما حملته من تغيرات على مستوى التعدد اللغوي بالجزائر.

✓ تأثير العامل التاريخي على الجغرافيا اللغوية في الجزائر، وخاصة تلك الحضارات التي تعاقبت عليه من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب. وهذا ما جعل المجتمع الجزائري سوقا لغويا تجلى من خلال تعدد واختلاف اللهجات سواء العربية أو الأمازيغية مع اختلاف نفس الدوارج من منطقة إلى أخرى.

إن التعدد اللغوي في الحقيقة شيء عادي، فهو يتخذ صبغة عالمية لا تكاد تخلو منها بقعة من بقع الكرة الأرضية التي يحي عليها الانسان، فاليونان كما يؤكد "دي سوسير" كانت لهم لغة مشتركة koine الناتجة عن اللغتين الإيتيكية والأيونية، إلا أن لهجاتهم المحلية ظلت مستعملة إلى جانب هذه اللغات المشتركة، وهذا ما يدل على أن التعدد اللساني هو مسألة تملحها سجية الانسان، وما الإلغاء الذي يمس بعض الألسن إلا قصور في استيعاب مفهوم الحضارة، الذي يحتضن مختلف الإنجازات الانسانية المادية والمعنوية، ابتداء من أسلوب الكلام ووصولاً إلى طريقة صنع الأكل، امثالاً لقوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ سورة الروم.

وبهذا يمكننا القول بعيد عن الإجحاف ومراعاة للتعايش التاريخي: إن التكامل بين اللغة العربية كلغة رسمية، وكلغة القرآن وبين اللغة الأمازيغية في الجزائر لا يثير في الحقيقة أي إشكال على مستوى الوحدة الوطنية، لأن المسألة اللسانية في الجزائر لم تكن أبدا عاملا من عوامل التفرق والتشتت.

العلاقة التاريخية بين الأمازيغية والعربية:

الأصول الأمازيغية:

الأمازيغ هم سكان شمال إفريقيا، تطلق عليهم كذلك تسمية "البربر"، وقد اختلفت الروايات بشأن أصولهم، فمنهم من يقول أنهم أبناء "بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار" وهو من الذين قدموا إلى بلاد المغرب هربا من أخيه "عمرو بن قيس"، ومنهم من يرى أنهم من أبناء "الملك النعمان بن حمير بن سبأ" أرسلهم والدهم إلى بلاد المغرب ليعمروها، وأخيرا هناك من يرجح أن أصولهم من أبناء "يفشان بن إبراهيم الخليل"¹.

وقد تعرضت كل هذه الطروحات إلى النقد تارة والمعارضة تارة أخرى، ومن المرجح في ذكر أصولهم ما أقره "ابن خلدون" في ديوانه من أن أصلهم أبناء "مازيغ بن كنعان بن حام" من أبناء نوح عليه السلام، قدموا من فلسطين، كما نجد "علي فهمي خشيم" في كتابه "لسان العرب الأمازيغ" يذكر أنهم أهل البداوة من أصول كنعانية تركزت في سوريا، فلسطين، لبنان، الأردن، والكنعنة تشمل اللغة الفينيقية والبونيقية والأمازيغية، وهي اللغة العالمية التي تفرعت عنها الأرامية والنبطية والسريانية والعبرانية².

وقد قال القديس الجزائري الأمازيغي "أو غسطين" قولة مأثورة وهي أن الأمازيغ كنعانيو الأصل: « إذا سألتم فلاحينا عن أصلهم، سيجيبون، نحن كنعانيون³، ويؤكد هذه الفكرة كذلك الباحث "عز الدين المناصرة" الذي أرجع الأمازيغيين وكتابتهم إلى أصول كنعانية إما فلسطينية وإما فينيقية لبنانية، حيث يقول: لقد أخذت الأمازيغية نظام تربييع الحروف من هذه اللغات (يقصد اللغات السامية) كما أخذت نظام

الحركات (الإشارات والتقطيع) من النظام الفلسطيني والنظام الطبراني، لكن أقرب مصدر للأمازيغية (حروف التيفيناغالتواركية) هو اللغة الكنعانية الفينيقية القرطاجية، فالمصدر الأساسي للأمازيغية إذا هو الألفباشية الكنعانية التي تفرعت منها كل لغات العالم، كما يرى الدكتور "أحمد هيو" في كتابه الأبجدية : نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب «أن الكتابة البربرية القديمة (تيفيناغ) استوحت مبادئها من الكنعانية الفينيقية، ولا علاقة للأمازيغية باللاتينية من قريب أو بعيد»⁴.

وتؤكد معظم الكتب التاريخية أن الشعوب الأمازيغية هم السكان الأصليون لشمال إفريقيا، ونظرا للموقع الاستراتيجي لشمال إفريقيا الذي يضم عدة بلدان (كموريكانيا) وتونس والجزائر والمغرب وليبيا ومصر، فإن الشعوب الأمازيغية في هذه البلدان قاومت كل أشكال الغزو الوارد من الشرق أو من الغرب، وقد تفاعلت الحضارة الأمازيغية مع الحضارات المختلفة التي سيطرت على ضفاف البحر الأبيض المتوسط من الفينيقية والرومانية والعربية والأوروبية.

ويصف "ابن خلدون" في مقدمته بقوله: «إنهم أمة معروفة بعزة الجانب والقيم وكذا الدفاع عن الشرق، فلم ير قوم من الأمم التي استقرت بالمغرب تكتسب صفة من صفات الأمازيغ فهم جيل من الأدميين الأقدمين الذين عمروا المغرب وعاشوا فيه منذ أزمنة لا تعرف بدايتها من نهايتها»⁵.

وعلى هذا يمكن أن نرجح القول أن الأمازيغ والعرب هم من جذور سلالية وجينولوجية واحدة هي الجذور الكنعانية السامية، ومن موطن واحد هو شبه الجزيرة العربية، وفي هذا السياق نجد "ليون الإفريقي" في كتابه المشهور "وصف إفريقيا" في جزئه الأول يقول: « لم يختلف مؤرخونا كثيرا في أصل الأفارقة، فيرى البعض أنهم ينتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا إلى إفريقيا حين طردهم الأشوريون، فأقاموا بها لجودتها وخصبها، ويزعم آخرون أن أصلهم راجع إلى السبئيين (أي الحميريين) الذين كانوا يعيشون في اليمن قبل أن يطردهم الأشوريون والإثيوبيون منها، بينما يدعي فريق ثالث أن الأفارقة كانوا يسكنون بعض جهات آسيا فحاربتهم

شعوب معادية لهم، وألجأتهم إلى الفرار إلى بلاد الإغريق الخالية آنذاك من السكان، ثم تبعهم أعداؤهم إليها، فاضطروا إلى عبور بحر المورة واستقروا بإفريقيا، بينما استوطن، أعداؤهم بلاد الإغريق كل هذا خاص بالأفارقة البيض القاطنين في بلاد البربر ونوميديا»⁶.

ومن الباحثين من يؤكد على أن اللغة الأمازيغية لغة عروبية، قاموسها متكون من الكلمات العاربة والمستعربة، مستمدة من الحميرية اللغة العاربة القحطانية، العمود الفقري للغتين الحميرية والأمازيغية وزن أفعول، هذا الوزن غير موجود في اللغة العدنانية التي نزل بها القرآن الكريم، والأمازيغية تحوي هذا الوزن مثل: أغروم أكسوم، ولا ينكر عربيتها حتى المستشرقون ك: "جابريلكامبس" G,Camps في كتابه المشهور "البربر ذاكرة وهوية" حيث نجده يقول «إن علماء الأجناس يؤكدون أن الجماعات البيضاء بشمال إفريقيا سواء كانت ناطقة بالبربرية أو بالعربية تتحدّر في معظمها من جماعات متوسطية، جاءت من الشرق في الألف الثامنة بل قبلها، وراحت تنتشر بهدوء في المغرب والصحراء»⁷.

اللغة الأمازيغية في الجزائر:

تعد اللغة الأمازيغية إحدى اللغات الإفريقية الحية، يتحدث بها أمازيغ شمال إفريقيا خاصة، يتفرع عنها ما يقارب 11 لهجة تتحد في القاعدة اللغوية المشتركة، ويمكن للناطق بأحد هذه اللهجات أن يتعلم اللهجة الأخرى في غضون أيام قليلة، حسب رأي "أندريه بارسية" واللهجات العربية المغاربية متأثرة بشكل كبير باللغة الأمازيغية، ويظهر ذلك من خلال الأسماء والكلمات الأمازيغية التي تستخدم في هذه اللغة⁸.

وتتراوح نسبة المازيغ في الجزائر 20 إلى 25 % أي من 6 إلى 7 ملايين نسمة وترتكز أكثر في منطقة القبائل الكبرى بما يمثل أكثر من ثلثي الناطقين بها، أما المجموعات الأخرى فهم:

الشاوية: في الأوراس حوالي المليون و 500 ألف نسمة، ثم الميزابيون: بمنطقة غرداية والمدن الإباضية الأخرى حوالي 100 ألف نسمة، كما يتواجدون أيضا في قورارة بالجنوب الوهراني، نجد كذلك مجموعة الشنوة: في تيبازة وضواحيها وأخيرا نجد التوارق المقسمين على عدد من البلدان الواقعة في المنطقة الصحراوية الأهقار⁹. هذا يؤكد التلويينات اللغوية الكثيرة للغة الأمازيغية في الجزائر والذي يعود بشكل

أساسي إلى تعدد القبائل التي تقطن هذه المنطقة حيث نجد منهم من ينتمي إلى:

1_ قبيلة كتامة كقبائل بني خطاب في القل وبجاية ومجانة أو قبائل بن سليلين قرب الميلية وأولاد محمد قرب جيجل أو قبائل عياد قرب أقبوا وغيرها.
2_ قبيلة صنهاجة: نجد منها نجدا مزتية، عجيسة، واسيني، بني يفرن في جبال الأوراس وجبال جرجرة المسماة القبائل الكبرى، أما في منطقتي شرشال والتنس نجد زوارة، فليسة، بني رانن، بطرون عمور..ألخ.

3_ قبيلة زناتة: في الغرب الجزائري خاصة في شمال غرب تلمسان مع الطرارة ولهاصة ومديونة في مستغانم، أما في الجهة الشرقية بالقرب من قسنطينة تنتشر قبائل أولاد عبد النور، تالغمة امتدادا إلى سطيف، وزردانة بين عزابو الحروش وصنهاجة بالغرب من عنابة وبني ولبان في السمندو، النمامشة بتبسة والحنانشة في سوق اهراس وغيرها.

ورغم هذا التباين وتعدد القبائل إلا أن القاسم المشترك هو اللغة الأمازيغية التي يرجعها المؤرخون إلى أصول حامية، حيث نجدهم استقروا بشمال افريقيا قبل الاسلام، وتعلموا العربية بسرعة، وقد كان هذا دائما مبعث تساؤل بين المؤرخين، وقد علل المؤرخ "بيروني" هذا الاتساق والانسجام بين العربية والأمازيغية إلى تقارب العربية من الفينيقية فضلا عن تشابه العرب والبربر في العادات والأخلاق والاتحاد في النسب الذي يقرب الطبائع¹⁰.

ولعل خير من يوجز التشابه بين العرب والأمازيغ العلامة "ابن خلدون" بقوله: «يتخذون البيوت من الحجارة أو الطين، ومن الخوص والشجر، ومن الأشجار

والوبر، ويظعن أهل الغزو والغلبة لانتجاع المرعى، فيما بين الرحلة، ولا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس، ومكاسبهم الشاة والبقر، والخيل في الغالب للركوب والنتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلاح، ودواجن السائمة، ومعاش المعتزين من أهل الانتجاع والأطعان في نتاج الإبل وظلال الرماح، وقطع السابلة، ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف»¹¹

العوامل المساهمة في الحفاظ على اللغة الأمازيغية في الجزائر:

يمكن أن نوجز أهم العوامل التي ساهمت في الفاظ على اللغة الأمازيغية فيما يلي:

1_ العامل الجغرافي: حيث أن تواجد الأمازيغ وتمركزهم في المناطق الجبلية الوعرة والمعزولة، لم يدع المجال لدخول وتغلغل الأجانب فيهم مما ساهم في الحفاظ على إرثهم الثقافي واللغوي في آن واحد.

2_ العامل الديمغرافي: نلاحظ أن اللغة الأمازيغية تتمركز في المناطق ذات الكثافة السكانية المرتفعة مما يجعلهم قوة واحدة يصعب اختراقها.

3_ امتلاك الأراضي ونظام الانتاج: يرى "سالم شاكر" أن الأمازيغية تمكنت من الحفاظ على مكانتها في المناطق ذات الطابع الريفي أين تلعب الأرض دورا هاما في حياتهم اليومية.

4_ خصوصية المنطقة: نجد منطقة ميزاب مثلا ساعدتها الخصوصية الدينية الإباضية، في حين أن التوارق ساعدتهم خصوصية المعيشة والثقافة، دون أن ننسى دور الأسرة في حماية اللغة والثقافة وتمريها للأجيال.

ونجد أن الباحثين كـ"سالم شكري" يجد أن هذه العوامل قد بدأت تختفي في الوقت الحالي بفعل النزوح إلى المناطق الناطقة بالعربية واختفاء نظم الانتاج التقليدية والتأثير اليومي لوسائل الإعلام المختلفة، جعل الأمازيغية اليوم تواجه ما يسمى

بالانجراف اللغوي، وأن من أهم الأمور التي لا بد من الاهتمام بها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه هو مسألة التهيئة اللغوية¹² Aménagement linguistique.

تعايش اللغة العربية والشاوية بمنطقة الأوراس:

لماذا التّعايش اللّغوي؟

نقصد بالتّعايش اللّغوي هنا ذلك الامتزاج والتلاحم والاختلاط، أي أن على كل عنصر مشارك في عملية التّعايش أن يتخلى عن جزء أو بعض من خصائصه ومميزاته للآخر من جهة، ويسعى في الوقت ذاته إلى أن يعوض ويسترد ما تنازل عنه لغيره من جهة أخرى، ومن هنا يكون في مفهوم التّعايش امتزاجا وتنازلا وتنازعا معا، لكن يتقبل كذلك معنى اختلاف الإيديولوجية والنظام، وإذا تحدثنا عن التّعايش اللّغوي فهو خليط مشكل من مجموعة من العناصر الملتمتة في هيكل واحد وكيان موحد محدد بحدود، فإن ذلك هو اللغة ذاتها.

لم يأت اختيارنا لمصطلح "التّعايش" بين اللغة العربية والأمازيغية هنا اعتباطا بل تم طرحه لتفنيدي الصراع بينهما، هذه الفكرة التي لطالما كانت مطروحة بشدة في الساحة اللغوية الجزائرية، ولعل التاريخ اللساني للجزائر يشهد على فكرة التّعايش اللّغوي والمتمثل في الكيفية التي تعامل بها سكان المغرب الكبير، عند قدوم قبائل بني هلال وبنو سليم في القرن العاشر الميلادي، عندما أنتج الأمازيغ لغة تخاطب مشتركة تتفق والتواجد الجديد للقبائل العربية، وبهذا برهنوا على قدرتهم على التّعايش والتأقلم بعيدا عن الصراعات التي قد تنتج بين مختلف اللغات الأمازيغية المنتشرة في كل المنطقة المغاربية (نقصد بذلك الجزائر، تونس، المغرب على وجه الخصوص) وقد صرح "عبد الرزاق دوراري" مدير المركز الوطني البيداغوجي لتعليم ثمازيغت "«كان البربر في كل مراحل تاريخهم متفتحين على اللغات الأخرى... منذ قدوم بني هلال طيلة القرنين 10 و13 تحولت لغات المغرب الكبير من الأمازيغية المختلفة إلى ما يسمى بـ "العربية المغاربية"... هذه اللغة تشكلت وأصبحت لغة من لغات الأم، تكونت لضرورة الديناميكية الاجتماعية... وتختلف هذه

اللغة من حيث البنى التركيبية والنحوية والصوتية عن اللغة العربية التي أسمىها بـ: "اللغة العربية المدرسية"¹³، وعليه لابد أن نفهم العلاقة بين الأمازيغية والعربية في ضوء رؤيا التعايش، وعزوفا عن أي مقولة إجحافية تقصي الآخر لتكون ديمقراطية مع نفسها لاغير، وأيضا أن تراعي ذلك التعايش التاريخي الذي كان قائما بينهما، على أساس أن التكامل بين اللغة العربية كلغة رسمية، وكلغة القرآن وبين اللغة الأمازيغية، لا يثير في الحقيقة والواقع أي إشكال على مستوى الوحدة الوطنية لأن المسألة اللسانية في الجزائر، لم تكن أبدا عاملا من عوامل التفرق والتشتت، ومن هذا المنطلق يمكن الرد على تلك المغالطات والأقويل التي تزرع في ذهن المتلقي صراعا مزعوما بين ما هو أمازيغي وما هو عربي، ولا هدف لذلك سوى بث الضغينة والحقد بين هذين المكونين التاريخيين والحضاريين، فالأمازيغية لم تكن يوما نقيضا للعربية أو ندا لها، بقدر ما كانت تتصافر وإياها لنسج التاريخ الجزائري المغربي الإسلامي، فالأمازيغية والعربية، على حد قول "محمد جسوس" «هما كالرجل اليمنى والرجل اليسرى بالنسبة لأي شخص عادي، إذا فقد أي واحدة منهما فلن تكون له القدرة على المشي بشكل عادي، وبالأحرى القدرة على السير بالسرعة والوثيرة التي تتطلبها تقلبات التاريخ المعاصر»¹⁴، إن ما نحتاجه فعلا هو حسن التوظيف للغتين والحفاظ عليهما وترقيتهما، ويطرح "صالح بلعيد" هذه الفكرة بقوله: «ومن هنا أعتقد أن المسألة اللغوية عندنا تكون معالجتها الناجحة في إطار تطبيق مفهوم التعددية المندمجة، أي الاندماج المؤسساتي الحامي لممارسة الحقوق اللغوي والثقافية للمجتمع، لا تطرح فيها الخيار اللغوي الأجنبي، ولا تكون لغة من اللغات محل تفاضل، بل التوظيف هو الذي يضع التصنيف بصورة عفوية»، ويواصل صالح بلعيد فكرته بقوله فـ: «بالعربية نمارس وجودنا الثقافي والعلمي وبلغاتنا القومية نمارس وجودنا الفني والفكري والتخصصي»¹⁵.

خصوصية منطقة الأوراس:

الموقع الجغرافي لمنطقة الأوراس:

من الوثائق التاريخية القديمة التي ذكرت الأوراس وحددت موقعه كتاب المؤرخ البيزنطي بروكوب Procope، حيث يقول: "هذا الجبل يقع على مسافة ثلاثة عشر يوما من قرطاج، ومحيطه ثلاثة أيام كاملة من السير، لا نستطيع أن نتسلقه إلا عبر ممرات وعرة وانعزالات موحشة. لكن وصولا إلى القمة، نجد هضبة شاسعة تسقى من ينابيع متدفقة، مولدة وديانا، مغطاة بكم عجيب من البساتين، والحبوب والفواكه حجمها ضعف ما هو موجود في باقي إفريقيا.¹⁶

عرفت المنطقة باسم الأوراس منذ القديم، حيث ورد ذكر الأوراس عند الرحالة والمؤرخين العرب كالبركري والإدريسي وأطلق البركري* اسم الأوراس على المنطقة الممتدة من طبنة إلى باغاي أو أكثر، وهي مسافة سبعة أيام من السير.

بينما مددها الإدريسي** إلى إثني عشر يوما من السير. وقد أرجع عبد الحميد زوزو هذا الاختلاف لدى المؤرخين العرب إلى أنه كان عليهم الأخذ بعين الاعتبار التأثير اللغوي والأثوغرافي، حيث تجاوز انتشار سكان الأوراس مساحة 8.000 كلم²، وهي مساحة السلسلة الجبلية للأوراس إلى مساحة 30.000 كلم²، أي على مسافة 200 كلم من الشرق إلى الغرب محصورة بين سوق أهراس، العلمة، بريكة، بسكرة، نقرين وتيسة¹⁷

هذه الآراء حاولت تحديد حدود الأوراس بالاستناد إلى العامل اللغوي والأثوغرافي، بينما ثمة من يحدده تحديدا جغرافيا بوصفه على شكل مضلع رباعي بمعنى أن الموقع الجغرافي لمنطقة الأوراس يتحدد بالسلسلة الجغرافية المحصورة بين المربع الممتد من باتنة - خنشلة وخنشلة خنقة سيدي ناجي، وخنقة سيدي ناجي بسكرة، وبسكرة باتنة.¹⁸

وقد قسم الفرنسيون - في عهد الاحتلال - الأوراس جغرافيا إلى قسمين: الأوراس الشرقي، الذي يضم السلاسل الجبلية شرق شليا، بينما يشمل الأوراس

الغربي السلاسل الجبلية غرب شليا ونقصد بها السلاسل الجبلية الممتدة بين وادي لرباع، ووادي بوزينة وهما كتلتا مالو وجبل بوص، وبين وادي بوزينة ووادي عبدي (كتلة المحمل)، إضافة إلى السلسلة الفاصلة بين وادي عبدي والوادي الأبيض ووادي شناورة (كتلة زلاطو) المستمرة إلى غاية مضيق تيغانيمين، بينما تتحدد كتلة جبل أحمر خو بين الوادي الأبيض وروافد وادي العرب.¹⁹

أصل التسمية: يذكر المؤرخ الإغريقي Ptolémée (القرن الثاني للميلاد) الأوراس باسم (أودوس) ²⁰Audus، بينما ذكرها Procopé (المؤرخ البيزنطي) باسم أوراسيوس Aurasius وهذا أثناء مقاومة المنطقة للجوش البيزنطية*، وتذكرها المصادر العربية في القرون الوسطى باسم "أوراس"، وإضافة "أل" أداة التعريف العربية حديثة.²¹

كما اجتهد كوستاف مرسى "Gustave Marciée"، ولويس رين Louis Rinn لتحديد معنى هذه التسمية، فقدمت فرضيتين: الأولى من قبللوتورنو Letourneux وأيدها إميل ماسكوراي Masqueray والتي تعني بلاد الأرز، لكثرة أشجاره بالمنطقة.

أما الفرضية الثانية والتي قدمها جورج مرسى George Marcy، فقد قرن التسمية باللون، حيث أرجع أصلها إلى كلمة أمازيغية (إهرس) والتي تعني لدى سكان المغرب الأوسط "اللون الرمادي الحديدي" Gris-Fer وهي التسمية الأقرب إلى الصحة حيث نجد كلمة (آراس) متداولة لدى سكان المنطقة كقولهم: "ييس آراس" بمعنى "حصان لونه أحمر قاتم" وهو نفس لون جبال المنطقة.²²

ولقد أخطأ هيج (Hyghe) حين قال: إن كلمة "آراس" فقدت في لهجات الأوراس، وهذا في قاموسه عن اللهجة الشاوية. أما روني باسي (René Basset) فذكر أن المقصود من كلمة "آراس" هو اللون الأسمر في لهجات القبائل.²³

ويستنتج أحمد بوساحة "أن كلمة آراس التي تطورت إلى أوراس كتسمية جغرافية، بل وأطلقت كاسم على مدينة، تعني اللون الذي يتفاوت بين الأحمر

والأسمر، ويطلق كصفة على الوسط الطبيعي كالتربة والأحجار، وعلى الإنسان والحيوان أيضا²⁴.

ويظهر جليا مما سبق أن "للأوراس" عدة تفسيرات متعلقة بأصل التسمية، فمنهم من ركز على لفظ الكلمة ومنهم من ركز على معناها عند أهل المنطقة، والأرجح أن تكون بمعنى اللون الذي يتفاوت بين الأحمر والأسمر، وهو لون جبال الأوراس.

أصل السكان:

يتكون المجتمع الأوراسي من تشكيلتين بين أساسيتين:

أ_ التشكيلية الأولى:

وتتمثل في السكان الأصليين لهذه المنطقة والمعروفون باسم "الشاوية" وهم أقوام بربرية ويرى البعض من المؤرخين أن هذه التسمية قد اشتقت من كلمة "شاه" أي رعاة الماشية²⁵.

وكلمة شاوية عربية الأصل وتعني "راعي القطعان" وهي مرادفة لكلمة "مازيغ" والتي تعني الجنس الحر، الرفيع، الشريف... وتطلق أيضا على الطوارق لفظة أمازيغ²⁶ فللكلمة بهذا معنيان: معنى لصيق بسكان المنطقة والذي يعني "مربو القطعان" أو "رعاة الماشية".

معنى ثان خاص بميزة نطقية عند برابرة الأوراس، والذين في نطقهم للحرف كاف (ك) كقطع لفظي ينطق "تشا".

حافظت هذه التشكيلية من السكان على لغتها وعاداتها وتقاليدها ونظام حياتها وفي هذا يقول "اندري برنيان" وآخرون في كتاب "الجزائر بين الماضي والحاضر: «للبربر صفات مشتركة ذات طابع واضح رغم تنوعها، فلغتهم ذات هيكل أساسية متماثلة نسبيا رغم تعدد اللهجات واللغات المحلية... فهي لغة شفوية منذ الزمن البعيد رغم أنها كانت تكتب قديما ولطالما تركت مكانها للغات المكتوبة كالقرطاجية واللاتينية والعربية ومن دون أن يؤدي ضعف استعمال اللغة البربرية إلى اضمحلال الحدث البربري الذي يميز أهم تعمير شمال إفريقيا»²⁷

ب_ التشكيلة الثانية:

تشكل هذه الفئة من العنصر العربي، الذي ترجع أصوله إلى "بني هلال"، الذين قدموا من مصر سنة 1051م، فقد لعبت الهجرة الهلالية دورا هاما في تعريب المغرب ونشر اللغة العربية وساعد على ذلك « شدة التشابه بين هذه القبائل الجنوبية والجاليات العربية، سواء ذلك في حياتهم البسيطة الساذجة [أو] في أذواقهم وميولهم واتجاهاتهم»²⁸ إلا أن هناك من يرى أن المنطقة تعربت بشكل نهائي بعد استقرار "بني هلال" فيها، وهذا ما ذهب إليه الباحث " عبد الحميد بورايو" في قول " عبد الحميد يونس" : « وإن كان لهذه الهجرات الهلالية التي اتخذت مظهر الفتح من أشر شمال إفريقية، فهو العمل على تعريب هؤلاء البربر، ذلك لأن الفتح الإسلامي الأول وإن طبعم بالدين واللغة، إلا أنه لم يطبعهم بالدم العربي... حتى أصبح الأثر البربري القديم لا يلمس إلا في معاقل طبيعية ضيقة، ولا يميز إلا ببعض الظواهر اللسانية العامة»²⁹.

تفاعل اللغتين العربية والشاوية:

إن المتأمل لمنطقة الأوراس بما تحمله من زخم ثقافي وتنوع سكاني وشساعة مكانية يلحظ ذلك التفاعل القائم بين العربية والأمازيغية (الشاوية)، حيث نجد أن بعض الأمازيغ تعربوا، وبعض العرب تمزغوا- إن صح التعبير- (خاصة بعد الاختلاط والقرابة العائلية)، حيث لا تكاد تفرق بين العرب والشاوية إذا اعتمدت على اللسان (اللغة) كمعيار، جراء الاندماج الحاصل في المجتمع، والتزواج القائم بين الطرفين، فلدينا عدد من الأوراسيين من أصول عربية متزوجون من نساء من أصول أمازيغية كما أن لدينا نفس العدد - أو يفوقه- من الأوراسيين أمازيغي الأصل متزوجون من نساء من أصول عربية، ولديهم أبناء مختلطون، نصفهم شاوي ونصفهم الثاني عربي، والأسر تتزاور وتتلاقى بينها في الأعراس والمآتم والمناسبات الدينية، وتتقاسم الأفراح والأتراح، ولا تكاد نشعر في الأسواق، أو في

الشارع أو في المدرسة أو الإدارة أو المستشفى أو المسجد أن هناك فرقا بين الأوراسي من أصول عربية أو أمازيغية .

وبهذا نجد عائلات كبيرة ذات أصول عربية ولكنها تتحدث بالشاوية _ كقبائل السراحنة على سبيل المثال لا الحصر _ وهي فخورة بذلك، كما نجد كذلك الكثير من العائلات الشاوية التي تعربت كليا _ الأمر هنا يمس بشكل كبير العائلات التي نزحت إلى المدن واختلطت بالعرب _ ولكنها لا تنكر أصلها الأمازيغي، لتبقى منطقة الأوراس محضن العديد من اللهجات المختلفة العربية منها والشاوية والتي تختلف باختلاف المنطقة.

فالوافد إلى الأوراس يمكنه التكلم بالعربية أو الأمازيغية أو حتى الفرنسية دونما حرج، لأن المواطن الأوراسي متشبع باللهجات العربية والشاوية والتي تجعله يفهم بسهولة بعض الكلمات التي تخدمه لفهم آية لهجة يستمع إليها، فمثلا نجد كلمات شاوية يستعملها العرب بشكل عادي في حياتهم اليومية من مثل:

_ ايفوين الخير [صباح الخير]

_ مسالخير فلون [مساء الخير]

أو بعض العبارات الترحيبية على غرار:

_ أزوول فلون [والتّي تعني أهلا بكم]

كما نجده يردد عبارات كاملة من مثل:

_ أزول فلون سوقولومول [أهلا بكم من صميم القلب]

أو بعض عبارات الدعاء والتقدير من مثل:

_ أرباشيحفظ [حفظك الله وأحاطك برعايته " لمخاطبة الذكر"]

_ أرباشميحفظ [حفظك الله " لمخاطبة الأنثى"]

_ أرباكنيحفظ [حفظكم الله " لمخاطبة الجمع"]

_ هستاهلذ كل خير [أي تستأهلين كل خير]

_ اشمعاونغ امي زمرغ [سأساعدك بكل ما أستطيع]

فضلا عن استعمال العرب لبعض الكلمات الشاوية ذات المعنى القوي من مثل:
 _ أن أرقاز [والتّي تعني أنا رجل]
 كما تم استدخال العديد من الكلمات الأمازيغية في التواصل اليومي عند عرب الأوراس من مثل:

_ آغروم [الكسرة] _ الغنجاية [الملعقة] _ الخزمي [السكين] _ أمقران [كبير]
 قيم [اجلس]
 إضافة إلى العديد من الكلمات التي تعد ضرورية لفهم الخطاب بين اللغتين (العربية / الشاوية) والمجال لا يتسع لذكرها كلها.
 وكثير من الأغاني في منطقة الأوراس تكون مزيجا متجانسا من الشاوية والعربية نذكر على سبيل المثال:

أهُوتْ أَيَا إِعْسَاسَنْ إنزلوا يا حراس
 الْجُنُودُ أَحْسَنْ أَدَاسَنْ الْجُنُودُ يَرِيدُونَ المَجِيء
 أَهَنْ غَنِينْ أُمْسَاكَنْ إنهم يثيرون الشفقة
 أَرَبِي فَرَجْ فَلَاسَنْ يارب فرج عليهم
 وكذلك المقطع التالي من الأغنية:

" سجداد آيمنة سجداد آذ راعيع ما ثلزيد آذ راجيع ما وليش آذ قاجيع " وفيها نجد مزيجا من الكلمات العربية والشاوية والفرنسية.

وفي المقابل كذلك نجد الشاوية في منطقة (الوراس يستدخلون) العديد من الكلمات العربية في عباراتهم خاصة عندما يتعلق الأمر بالعبادات والدين وبعض المعاملات اليومية على غرار: صباح الخير / واش راك [كيف حالك] / وين رايح؟ [أين أنت ذاهب؟] في سياق الكلام بالشاوية.

وكذلك عبارة "جيناكم بالحسب والنسب" التي تستعمل في افتتاح الخطبة بين العائلات الأوراسية التي تتزوج فيما بينها عربا وأمازيغ وكذلك عبارة [ربي يجيب السوق] أو [الشاري يربح] في المعاملات التجارية، وهي تعابير يستعملها الشاوي

للدلالة على رفض الثمن المقترح للشراء، وهي بلسان عربي ونجدها مفهومة ومتداولة بينهم.

إن ما يمكن قوله والحال هذا أن الأمازيغية في اللهجة العربية للأوراسيين واضحة في المستوى الصوتي والصرفي والتركيبى والدلالي، وما هذا إلا نتيجة للتفاعل بين اللغتين على ألسنة السكان المحليين عربا كانوا أو أمازيغ لقرون عديدة، فالدراسة الأوراسية مجال توارد بين الشاوية والعربية من باب قانون التأثر والتأثير وقد ساعد الإسلام على الرغم من الاختلاف اللغوي القائم على التناغم بين اللغتين دون كثير من التصادم في الاتصال بين الثقافتين، فهو لم يقص الأمازيغية ولم يهمل العربية « فالقرآن الكريم منح اللغة العربية باعتبارها عنصر أسلمة، لكونها تلقن في القرآن الكريم سلطة مكتوبة وصفة مقدسة قائمة على إلهام آت من السماء، وتحولت إلى لغة العبادة والطقوس الدينية بالنسبة للعرب كما للأمازيغيين في منطقة الأوراس، مما ولد الانصهار اللغوي والتأسيس للثقافة الوطنية، وذلك بالتكامل بين اللغتين، مما تولد عنه لهجة محلية في الأصل، وللتمعن فيها خليط ممزوج بحكمة معينة بين اللغتين »³⁰، حيث تشكلان لحمة مترابطة وأصرة لغوية متشابكة سواء على مستوى ترابط الجذور والفصيلة والمستويات اللسانية واختلاطها انسجاما وتوارثا نتيجة عدة قرون من التفاعل بين اللغتين على ألسنة السكان المحليين عربا كانوا أو أمازيغ نظرا للعلاقة الجوارية الموجودة بينها والتي تتأسس على التعايش والتكامل والانصهار الحضاري لغة وكتابة وتداولاً، ومن هذا المنطلق يمكن أن نستبدل معادلة التصارع اللغوي المفتعل بين اللغتين (العربية / الأمازيغية) بمعادلة التعايش اللغوي والثقافي المحتمل كالطبي يوجد عند الكثير من دول العالم .

مراجع البحث :

- _ ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1949م.
- _ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج6، بيروت، 1986.

- _ أحمد هبو، الأبجدية، نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب، منشورات دار الحوار اللادقية، سوريا، ط1، 1984.
- _ الدراجي بوزياني، القبائل الأمازيغية (أدوارها، مواطنها، أعيانها)، الجزائر [د،ت].
- _ أمزيان وناس، الانصهار الثقافي الأمازيغي العربي في منطقة الأوراس وتأثيره في هوية السكان، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، عدد خاص بالملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيو ثقافية في المجتمع الجزائري.
- _ أندري برنيان، تندري نوشي، ليف لاقوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د، ط، 1984 .
- _ يوساحة أحمد- أصول أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر- ج1، دار هومة للطباعة والنشر، 2001م
- _ سالم شاكر، الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر، الجزائر، دار القصة للنشر 2003.
- _ صالح بلعيد، الأمازيغية والعربية تكامل لا تصادم، مقال بمجلة المجلس الأعلى للغة العربية، ع: 19، 2007، الجزائر.
- _ عبد الحميد بورايو بن الطاهر، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، دراسة ميدانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
- _ عبد الرحمن الجبالي، تاريخ الجزائر، ج1، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1988.
- _ عز الدين لمناصرة، المسألة الأمازيغية في الجزائر والمغرب، إشكالية التعددية اللغوية، الأردن، دار الشروق، 1999.
- _ ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، تر: محمد الأخضر ومحمد حجي، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط2 1983.
- _ محمد اعزوي، القصة الشعبية في منطقة الأوراس وملحق النصوص، ماجستير إشراف العربي دحو، جامعة باتنة 1993_1994م.
- محمود عبد السلام - جغرافية دائرة آريس - تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من 1837 - 1954 إنتاج جمعية أول نوفمبر في الأوراس، دار الشهاب، باتنة.

المراجع الأجنبية:

_Abdelhamid ZOUZOU - L'Aurés au temps de la France coloniale. Evolution politique, economique et sociale (1837-1939) Tome 1, Edition HOUMA, ALGER, 2001

_ E.F. Gautier : le passé de l'afrique du nord , les siècles obscures , payot , paris , 1952 .

_ G, Camps : les berbères : mémoire et identite, paris , 1995 .

Jean Morizot _ L'Aurés ou le mythe de la montagne rebelle _

Histoire des guerres vandales , livre deuxieme.

_ZOUZOU- L'Aurés au temps de la france coloniale....p15 Tome 1 AbdelhamidProcopé de Cesaree : de la guerre contre les vandales –traduit par: LEON de Manger 1670

revue africaine , M ,le professeur , E , Masqueray , documents historiques , recueillis dans l'aures (juillet 1876) , 21 année , N°122, mars 1877.

الهوامش والاحالات

¹ _ الدراجي بوزياني، القبائل الأمازيغية (أدوارها، مواطنها، أعيانها)، الجزائر [دبت]، ص: 19.

² _ ينظر : عز الدين لمناصرة، المسألة الأمازيغية في الجزائر والمغرب، إشكالية التعددية اللغوية، الأردن، دار الشروق، 1999، ص: 17.

³ _ E.F. Gautier : le passé de l'afrique du nord , les siècles obscures , payot , paris , 1952 , p : 139 .

⁴ _ أحمد هبو، الأبجدية، نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب، منشورات دار الحوار اللادقية، سوريا، ط1، 1984.

⁵ _ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1949م، ص: 45.

⁶ _ ينظر : ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، تر: محمد الأخضر ومحمد حجي، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط2 1983، ص: 35.

⁷ _ G, Camps : les berbères : mémoire et identite, paris , 1995 , p :11

⁸ _ عبد الرحمان ن خلدون، المقدمة، بيروت، درا الكتاب اللبناني، 1949، ص: 45.

⁹ _ سالم شاكر، الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر، الجزائر، دار القصبية للنشر 2003، ص: 18

¹⁰ _ http://www.arabiclanguageic.org/view_page.php?id=443 شهرزاد بن يونس، التعايش اللغوي بين العربية والأمازيغية _ قراءة في بعدي الانسجام والتناظر في المجتمع الجزائري .

¹¹ _ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج6، بيروت، 1986، ص: 175_176.

¹² _ سالم شاكر، الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر، ص: 28.

¹³ _ التجاني بولعالي، هل العلاقة بين الأمازيغية والعربية علاقة تصارع أم تعايش ؟ <http://www.hespress.com/opinions/12207.html>

¹⁴ _ صالح بلعيد، الأمازيغية والعربية تكامل لا تصادم، مقال بمجلة المجلس الأعلى للغة العربية، ع: 19، 2007، الجزائر، ص: 17.

¹⁵ _ المرجع نفسه، ص: 23.

¹⁶ أنظر :p51، L'Aurés ou le mythe de la montagne rebelle _ Jean Morizot نقلا عن :

Histoire des guerres vandales , livre deuxieme , p20

* مؤرخ وجغرافي عربي من القرن 11م

** مؤرخ عربي من القرن 12 ميلادي

¹⁷ أنظر : Abdelhamid ZOUZOU - L'Aurés au temps de la France coloniale. Evolution politique, economique et sociale (1837-1939) Tome 1, Edition HOUMA, ALGER, 2001;p.18-19

¹⁸ أنظر : المرجع نفسه، ص15

¹⁹ أنظر : محمود عبد السلام _ جغرافية دائرة آريس _ تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من 1837 - 1954 إنتاج جمعية أول نوفمبر في الأوراس، دار الشهاب، باتنة، ص 18

²⁰ أنظر : Tome 1 p15 ZOUZOU- L'Aurés au temps de la france coloniale....

Abdelhamid نقلا عن : Procopé de Cesaree : de la guerre contre les vandales -traduit par: LEON de Manger 1670

* الحروب البيزنطية (543م - 565م)

²¹ أنظر: بوساحة أحمد- أصول أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر- ج1، دار هومة للطباعة والنشر، 2001م، ص13

²² أنظر: , L'Aurés au temps de la France coloniale... Abdelhamid ZOUZOU- p16

²³ أنظر: أحمد بوساحة -أصول أقدم اللغات.... ص 14

²⁴ المرجع نفسه، ص 15

²⁵ _ محمد اعزوي، القصة الشعبية في منطقة الأوراس وملحق النصوص، ماجستير إشراف العربي دحو، جامعة باتنة 1993_1994م، ص: 10.

²⁶ _ revue africaine , M ,le professeur , E , Masqueray , documents historiques , recueil dans l'aures (juillet 1876) , 21 année , N°122 , mars 1877 , p : 96 .

²⁷ _ أندري برنيان، تندرني نوشي، ايف لاكوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: اسطنبولي رايح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1984، ص: 61

²⁸ _ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج1، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1988، ص: 187.

²⁹ _ عبد الحميد بورايو بن الطاهر، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، دراسة ميدانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص: 13.

³⁰ _ أمزيان وناس، الانصهار الثقافي الأمازيغي العربي في منطقة الأوراس وتأثيره في هوية السكان، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، عدد خاص بالملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيو ثقافية في المجتمع الجزائري، ص: 4.

التعدّد اللّغوي حلبة صراع أم فضاء للتعايش؟

د. صفية بن زينة

جامعة حسبية بن بوعلی، شلف

مقدمة:

يتناول هذا البحث موضوعاً جوهرياً في الثقافة العربيّة وفي حياة الأمة العربيّة، ألا وهو موضوع اللّغة العربيّة وما يحيق بها من أخطارٍ محدقة، ما تكاد تتوارى حيناً حتى تطلُّ برأسها مجدداً وقد ازدادت شراسةً وأصبحت أكثر خطورة، سواء أكانت هذه المحدقات من اللغات المنافسة المهيمنة التي تتناهش أطراف هذه اللّغة، والتي ترتدي لبّوس العالمية والكونية، وتسعى بكل ما أوتيت من المناورة والخطرسة للاتهام اللغات الأخرى، في موجات متعاقبة تستهدف سلب الأمم والشعوب والحضارات أهمّ خصيصةٍ مما بقي لها من الخصائص، و مقوم من مقوماتها، مقوم اللّغة التي تدافع به عن وجودها وتميزها، هويتها وكيونتها. خصوصاً وأن اللّغة مطلب يجسد من خلاله المواطنة اللغوية، وفي الوقت نفسه تعد سلاحاً للحفاظ على الهوية؛ كونها تمثل دينه ومواطنته. وعليه فالحفاظ على اللّغة إنما هو المحافظة على المواطنة الجزائرية وتشبّث بالإسلام؛ لذا فإن الذي يدافع على لغته فهذا مشحون بحب وطنه، وحب الوطن من الإيمان، فاللّغة هي شعار الأمم ومشعلها، فكيف يعيش مجتمع بلا لغة، إن أنت طمست هويته اللغوية.

كما أن اللّغة العربيّة ليست دخيلة على أية لغة أخرى كما يدعيها كثيرون. بل هي اللّغة المتجذّرة في التاريخ، بنشرها لحضارة إنسانية وأخلاقيّة ومثالية، فهي بجمالها وعراقتها وقدسيتها معززة مكرمة في دارها وعند أهلها وأنصارها، ممتدة العروق والأصل لأنها لغة القرآن والإسلام؛ لغة الكتاب الذي لا ريب فيه ولا عوج، فقد نقلت

قيم الخير والسلام والمحبة والإخاء وجمعت بين الأجناس والألوان تحت راية الدين الواحد والكتاب الواحد.

الواقع اللّغوي العربي: ولا شك أن طرح إشكالية الواقع اللّغوي ممثلة في علاقة اللّغة العربيّة بالعاميّة التي تشكل امتداداً لها، يأتي في صلب الانشغالات التي أصبحت تطرح بالحاح وتتطلب دراسة تسمح بإيجاد حلول للواقع اللّغوي الذي يشوبه الاضطراب وفوضى الاستعمال مع التأكيد أن على هامش كل لغة رسمية توجد لغات ولهجات تشكل في غالب الأحيان الاستعمال اليومي لهذه اللّغة الرسمية لما يميزها من تخفيفات وتعديلات تتناسب مع أمور الحياة والمعيشة.

لا يقل اهتمام الأمة العربيّة بلغتها، فما يعكسه الواقع اللّغوي العربي - بكل أسف - أن العرب اليوم لا يتكلمون بالعربيّة الفصيحة حقيقة، و تكمن المشكلة اللغوية في أننا نقرأ بلغة، و نناغي أطفالنا بلغة، و نغني بلغة...، ولا بد من معالجة الواقع اللّغوي الحالي بكل الطرائق الممكنة، والتي منها تطوير لغة يزواج فيها بين القديم والحديث وبين الأصيل والمولد الجديد، في خط متوازن وبطريقة واعية، وبمنهج سيّد لا يقر بالتنازل عن اللّغة الأصل، أو استبدالها أو إسقاطها. ورأيت أن الحل يكمن في العمل على تسهيل الفصحى التي " هي لغة القرآن الكريم والتراث العربي جملة، و التي تستخدم اليوم في المعاملات الرسمية، وفي تدوين الشعر والنثر والإنتاج الفكري"¹ وتقريب العامية منها التي "هي عبارة عن مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة"²، أو "هي نمط من الاستخدام اللّغوي داخل اللّغة الواحدة، يتميز عن غيره من الأنماط داخل نفس اللّغة بجملة من الخصائص اللغوية الخاصة، ويشترك معها في جملة من الخصائص العامة"³، حيث أن العلاقة بين اللهجة واللّغة هي علاقة عموم وخصوص، إذ تشمل اللّغة الواحدة عدة لهجات متباينة في خصائصها اللغوية، مع اشتراكها في صفات لغوية أخرى⁴ والبحث عن القاسم المشترك البسيط، ويمكن أن يحصل هذا عن طريق التخطيط لإصلاح اللّغة العربيّة وتيسيرها والارتقاء بها عن طريق الإجراءات التربوية المساعدة. وهذا بالعمل

على الإصلاح اللغوي وخاصة النحوي، والاهتمام بلغة الإعلام، والعمل على محو الأمية، وإقحام المجمعين في عمليات التطوير والإصلاح، والاهتمام بترقية العامية، ورد ألفاظها إلى الفصحح، والاهتمام بالألفاظ والمصطلحات العلمية المعاصرة⁵. فاللغة العربية مؤهلة بامتياز لكي تكون أداتنا وقاتنا في التأصيل والتحصيل العلمي وما علينا إلا أن نرعاها بالدعم والتأهيل والتمكين في كل القطاعات لأن القضية ليست قضية شخصية وطنية أو هوية ثقافية إنما إلى جانب ذلك قضية تنمية اقتصادية وبشرية، فاللغة بمثابة خزان لثقافة المجتمع ولأسرار عبقريته بحكم تجذرها في الأذهان والنفوس. فهي منطق الأمة والحافظ لثقافتها وهويتها، وهي التي تدخر في كلماتها أخلاق أهلها وعاداتهم ونشاطهم الفكري والأدبي.

وعليه فالسعي للتقريب بين اللغة الفصيحة واللغة العامية قصد التعايش والتلاحم أمر مشروع شريطة ألا تفقد الأولى من منزلتها ومكانتها كونها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمنزلة التي يحتلها مستعملوها. وبالتالي هل يعد التعدّد اللساني معضلة؟

الحقيقة أن التعدّد اللساني التي تعني تداول أكثر من لغة واحدة في البلاد الواحدة ليست خطراً على اللغة الموحدة التي تضمن الوحدة الوطنية في البلاد، إذا تم استغلال هذه التعددية واستثمارها استثماراً إيجابياً؛ إذ يمكن أن تتحول هذه التعددية إلى مصدر لتنمية المعرفة، وتوسيع سبل التواصل وإغناء الرصيد الثقافي؛ فالحفاظ على التعددية اللغوية لا يعني التنازل عن سيادة اللغة الوطنية التي ينبغي أن تكون لغة جامعة تعمل على احتضان اللغات الأخرى، وموازرتها والاستفادة من مخزونها المعرفي، ومن خصوصياتها اللغوية والثقافية والحضارية. فنحن نشارك جاك لانغ Jack Lang الرأي حين يعقب بقوله: "إن التعدّد اللغوي ليس عقوبة، بل هو فرصة وحثية أخلاقية، ثقافية، اقتصادية..."⁶.

فاللغات بحد ذاتها لا تشكل مصدر النزاع والصراع، إلا عندما يحولها الناس إلى وسيلة لرفض التعاون المتبادل ولا تتحول اللغات في منطقة ما إلى مصدر للخلاف إلا على يد الناطقين بها، وما دام التواصل بين الناس ذوي اللغات والثقافات المتعددة

يقوم على الاستعداد للتعاون فإن اللغات المعنية سرعان ما تجد لنفسها قنوات للتجانس الوظيفي. إن تعدد اللغات في منطقة ما يصبح قادرا على أداء وظيفته شريطة التعامل العقلاني مع هذه اللغات من قبل الناطقين بها⁷

ومن المعروف أن العاميات العربية كلها متفرعة تاريخيا عن العربية وتوابعاتها التي كانت تنطق بها القبائل العربية القديمة، وبينها وبين اللغة الأصلية فوارق، ومن البديهي أن الدين والوطن واللغة أهم مكونات الهوية وأوثق الروابط بين المجتمعات وعاملا رئيسا صهر الأقطار العربية الإسلامية في أمة واحدة من المحيط إلى الخليج. إن مكانة اللغة في الهوية الوطنية وهوية الأمة العربية الإسلامية قاطبة، باعتبارها لغة القرآن الكريم، واللغة الرسمية لكل البلدان العربية مشرقا ومغربا، واللغة المشتركة والجامعة للعرب والمسلمين منذ ما يزيد عن ألف عام. إن هذه الوحدة لا تخص بلدا واحدا فقد تصير اللغة الرباط الوحيد الذي يربط بين عدد كبير من الشعوب، وأن يوجد بالفعل مثل هذا الرباط يعتبر قوة وسؤدا وحظا كبيرا قد لا يتوفر في الغالب وذلك مثل الاتحاد الأوروبي الذي ينقصه الرباط اللغوي.

كما أن القول فيما تعانیه لغتنا من تخلف وتهاون أهلها، وما حل بها من اضطهاد وإقصاء عن شؤون التعليم والإدارة والاقتصاد أثناء ليل الاحتلال الاستيطاني الحالك، حيث كانت لغة أجنبية في هذه الديار، ولولا صمود الشعب الجزائري أثناء المقاومة المسلحة ونضالات الحركة الوطنية، وفي مقدمتها جمعية العلماء المسلمين بقيادة إمامها عبد الحميد بن باديس، وثورة التحرير الكبرى وشهداءها وقادتها العظام الذين قاموا حصنا منيعا للذود عنها في هذا البلد الذي دفع للحفاظ على اللغة العربية، والمناضلة في سبيلها ثمنا باهظا من الشهداء الأبرار الذين اعتبروا الاستشهاد في سبيل حرية وطنهم يحمل في طياته رسالة استرداد هويتهم، وثقافتهم ولغتهم وعقيدتهم التي من دونها ما كان مذاق الحرية في نظرهم له نفس الطعم والنكهة والبهجة، فمحاولات الاستعمار كانت تذهب أدراج الرياح، و تتحطم أو هام أصحابها على صخرة التمسك العنيد والتشبث الحميد باللغة الأم اللغة العربية.

هذا المستدمر الذي تمطّى بصلبه على الشعب الجزائري زهاء مائة وثلاثين عاما لم يستطع أن يمحو كلمة واحدة من لغة الشعب، فغادر هذا البلد خائبا، والعربية أقوى مما وجدها، مع أن الفضل كل الفضل يرجع إلى هذا الشعب برمته. بل إن النخبة المفكرة والمصلحة في الجزائر في فترة الكفاح الوطني كانت تعتبر المساس باللّغة العربية، إعدامها يوازي في جُرمه وفضاعته إعدام الشخصية الجزائرية مثلما جاء في مقال يحمل عنوان " إعدام الشخصية الجزائرية بإعدام اللّغة العربية والدين الإسلامي - نشرته جريدة البصائر في 21 ماي 1954.

لقد تركت تلك المرحلة الحالكة من تاريخنا الحديث جرحا عميقا في الذاكرة الجماعية وتلوثا لسانيا سببه البرنامج الإجرامي للكولونيالية الفرنسية المتمثلة في التجهيل والتفجير وتحقير الإنسان الجزائري وتشويه تراثه في الأذهان والنفوس.

تشخيص وضع العربية اليوم:

إن الفرضية التي نركن إليها هي أن اللّغة - أية لغة - لا تتقدم أو تتخلف أو تنهجن لذاتها، إن التقدم والتخلف والتهجين من صفات الناطقين بها، فهم الذين يغنون لغتهم وينمون ثروتها المعرفية والإبداعية أو يتراجعون إلى الوراء إذا أصابهم الوهن والتخاذل والكسل، ويرى (كالفى) في هذا الصدد: "أن اللغات ليست صروحا مهددة بالسقوط والواجب ترميمها، ولا أنواع آيلة للزوال فيجب حمايتها، بل هي نتاج البشر وممارساتهم الاجتماعية، وهي نتاج التاريخ وتتحول بتحوّله"⁸. فلقد أثبتت العربية كفاءتها في الزمن العربي الإسلامي الزاهر، وأبدعت في علوم اللسان والبيان والبرهان وفنون الجمال من الخط إلى الرسم والعمران.

وعليه من المهم العناية باللّغة لسانا وتراثا. مما يستدعي منا طرح إشكالية علاقة اللّغة العربية بالعاميات مع الإثبات أنه لا يوجد خلاف وصراع بين اللّغة الفصيحة وبين اللغات العامية الشعبية والتي تمثل عامل إثراء وغناء. أما عن العاميات المتداولة في مجتمعاتنا فيجب أن نهذبها للتعايش ونقاربها ليس كظاهرة مرضية يجب القضاء عليها، ولكن كواقع يمكن ترقيقته من خلال تقريب العربية وتحبيبها للناشئة

وللناس مع الإشارة إلى أن الكثير من التراث الإبداعي لمجتمعاتنا مكتوب بهذه اللهجات.

ولا يمكن من إشارتنا إلى العامية الجزائرية أننا نمجد العامية أو ندعو إليها بدل الفصحى، ولكننا لا نزيد عليها أو نعددها من الخطابات والتواصلات المذمومة المدحورة، فهذه العامية على مختلف مستوياتها تملك تراثا شعبيا خالدا في كل الأجناس الأدبية والفنية، فضلا عن ذلك فإنها عملت دون هوادة في صيانة هويتنا وخصوصية ثقافتنا. وهكذا ظلت الشعوب العربية تحافظ على سلامة لهجاتها وعلى صلاتها الحميمة بالفصحى، وهذا بفضل توفر عوامل التقريب والتهذيب والتوحيد بينهما مما أدى إلى بروز لغة تفاهم مشتركة، وهي مستمدة أساسا من الفصحى مع اختزال صوتي في نطق بعض الكلمات وتبسيط الصيغ اللغوية ونظام تركيب الجملة، ونود أن يستقر في الأذهان - بعد الذي ذكرناه - أن العامل الأساسي والحاسم الذي حافظ على تماسك اللغة العربية وتعايشها مع اللغات المحلية، بحيث أصبحت كالجسد الواحد هو أنها لغة القرآن الكريم الذي كتب الله له الحفظ حيث قال تعالى: " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) سورة الحجر. فلقد أنزل القرآن الكريم وهو كتاب الله الخالد ليجسد هذه الوحدة بين اللغات؛ وحدة لم تلغ لهجات البيئات العربية بل جمعتها في كل يهيمن على الجزء، حيث حوى هذا النص ألفاظا وتراكيب ممثلة لتلك البيئات اللغوية.

على الرغم من المحن التي عرفتتها اللغة العربية في تاريخها الطويل وعلى الرغم من محاولات التشويه والتمزيق والإبعاد إلا أنها حافظت وباستمرار على تماسكها في صورتها الكلية ومقاومتها لمختلف أنواع التحدي التي واجهتها، وصمدت إلى جانب اللغات الرئيسية في العالم، وإحدى اللغات العصية عن الانحلال والنوبان والانصهار في أي كيان آخر، وفي أي تشكّل مغاير. وعليه فإن اللغة التي حملت كتاب الله قادرة على أن تحمل أي شيء آخر من العلوم والمفاهيم والمصطلحات.

ظاهرة التعدّد اللغوي في المجتمع الجزائري:

يعدّ التعدّد اللغوي ظاهرة طبيعية لدى كل الشعوب والأمم، إذ لا يوجد مجتمع يتكلم لغة واحدة، فالترواج الذي يحصل بين اللّغة الأصلية، واللّغة الدخيلة هو الذي يولد ما يسمى باللّغة العامية، التي يتم التعامل بها أكثر من غيرها، سواء في الجزائر أو غيرها من الدول، وهذه الداريجة في الغالب هي التي تعمل على تكسير قواعد اللّغة الأم، وذلك من خلال انفتاح اللّغة الأصلية على غيرها، من خلال تجاوز القواعد النحوية تحت لواء ما يسمى بـ"الانزياح"، والميل إلى الجمل القصيرة، وشيوع اللحن. وهو في نظر البعض الآخر من النقاد ليست أخطاء، وإنما هي ظواهر لغوية أخرى ليس من السهل تجاهلها لسعة الفئات، بل والمؤسسات التي تتواصل بها، كما نجد الإقبال عليها أكثر من غيرها، وهذا نظراً لأن هذه اللغات تعمل على تكسير القواعد اللغوية التي تضبط المتكلمين، وتساعدهم على التعامل والتعبير والتواصل بسرعة، وترفع عنهم كلفة التعامل مع الغير⁹، وهذا ما نلاحظه فعلاً في مستويات التخاطب عند المجتمع الجزائري، الذي نجده يستخدم العديد من اللغات في الفكرة الواحدة، إذ نجده يوظف العربيّة (الفصحى والداريجة)، والفرنسية، وبعض الأسماء الأجنبية، وعليه بات على اللّغة العربيّة "أن تستوعب بذور هذا الوعي اللساني المتحول، حتى تمتلك قدرة أعمق على التشخيص الملائم لتباين العلاقات الاجتماعية وتمايزها، وحتى تمتلك تداولاً أوسع وأكثر فعالية، وأقرب إلى الحياة. وهنا يكمن أحد رهانات الخطاب"¹⁰

إن المسألة اللغوية تشكل اليوم إحدى التحديات الكبرى، التي يجب مواجهتها بشجاعة وحكمة وهي رهان يتوقف عليه نجاح مشروع الحداثة الذي مازلنا نتخبط على أعتابه، ونضع رجلاً في الماضي الذي لم نستوعبه، ورجلاً في الحاضر الذي لا نملك أدواته. وإذا كان هناك من رجاء، فإنه يتمثل في تبني استراتيجيات كبرى، تنخرط فيها كل الدول العربية، عبر مؤسساتها العلمية والبحثية والأكاديمية، لتقديم تصور شامل للتكفل بأسئلة الراهن اللغوي في العالم العربي.

أما عن العامية المتداولة في المجتمع الجزائري، فيتحم علينا تهذيبها ويتوجب علينا أن نقاربها ليس كظاهرة مرضية تلزم القضاء عليها، ولكن أن ننظر إليها كواقع يمكن ترقيته وذلك من خلال تقريب العربيّة وتحبيبه للناشئة وللناس بواسطة أساليب وبرامج مدروسة، ومما لا شك فيه أن الكثير من التراث الإبداعي لمجتمعنا مكتوب بالعامية، لذلك يجب أن نسعى للتقريب بين الفصحى والعامية دون أن تفقد الأولى من مكانتها ومنزلتها. بحكم أن ظاهرة العامية أصبحت منافسةً منافسةً غيرَ محمودةً للفصحى، لاسيما في مجالات الإعلام، وعلى شاشات القنوات الفضائية، وفي المسلسلات، وحتى في بعض الإبداعات، وإذا كانت لا تشكل في الوقت الراهن خطراً جسيماً وشيكاً فإنها ستشكل خطراً أشد جسامة فيما لو غضّ الطرف عنها، وتُرك لها الحبل على الغارب كما يقال.

إن ما ورد في كتاب أنور الجندي الموسوم بـ "اللغة العربيّة بين خصومها وحماتها" يعد كأقرب تعريف للهجات العامية، حيث عرض فيه لجملة من آراء الكتاب العرب بهذا الخصوص، من بينهم: جورج زيدان الذي يرى بأن: "العامية تمتاز بركاكة عباراتها مع ما فيها من الألفاظ الأعجمية والعامية"، بينما اعتبر الكاتب المصري عبد القادر المازني بأن: "اللغة العامية تحتاج إلى ضبط وإصلاح وتوسيع"¹¹، أما علي عبد الواحد وافي فإنه في كتابه "فقه اللّغة" يعرف العامية بأنها لغة فقيرة كل الفقر في مفرداتها، ومضطربة في قواعدها وأساليبها ومعاني ألفاظها وتحديد وظائف الكلمات في جملها"¹².

ومن هذا المنطلق وعلى هذا النحو تتعدد آراء العلماء العرب وتتفق على أن اللهجات العامية لا تحمل مقومات البديل عن اللّغة العربيّة التي حافظت على بنيتها وتغيرت مع الزمن وقاومت مختلف أنواع التحدي التي واجهتها، وصمدت إلى جانب اللغات الرئيسية في العالم. ويعود سبب ذلك إلى ما حققته اللّغة العربيّة في العقد الأخير على الأقل نقلةً نوعيةً إذ تدرجت هذه اللّغة نحو التيسير والتهذيب والتوليد مماشاةً للعصر، وشاع استعمالها بين سائر أفراد المجتمع، إضافة إلى ارتفاع نسبة

التعلم التي مكنت الجميع من مستوى مشترك من التفاهم. فاللهجات هي لسان التخاطب اليومي وقد سارت في طريق التطور بفضل عوامل لغوية واجتماعية وزمانية متشابكة، ولكن هذه اللهجات قد فارقت الفصحى في إحدى أبرز خصائصها وهي الإعراب وهو الفرق الحاسم بين ما سماه ابن خلدون (اللسان المضري) ولغات الأمصار - وهي صنو اللهجات المحكية اليوم-. "فإنه تغيّر بالجملة ولم يبق له أثر" حيث قال في مقدمته: "إن كلام العرب واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة"¹³. وقد أفضى هذا الصدع الذي نجم عن افتراق اللهجات المحكية عن أصلها المشترك الجامع وهو الفصحى إلى نشوء الأزودواجية.

ويتجاذب مستوى التخاطب عند المجتمع الجزائري مستويين لغويين رئيسيين: الأول ممثل في الفصحى وهي النموذج اللّغوي الذي نتعلمه ولها مواقع ووظائف هي مواقع الرسمي والثقافي.

والثاني ممثل في العامية وهي النموذج اللّغوي الذي نكتسبه ويستحوذ على البرنامج اللّغوي الأول في الدماغ لدى الناطقين بالعربية وله مواقع ووظائف هي مواقع الشفاهي واليومي. ولكن هذا الواقع اللّغوي الإزدواجي قد أعقب في حياتنا اللغوية حالة من اللجاجة بعبارة شكري فيصل، ونجم عن تلاقح الفصحى المتعلّمة والعامية المكتسبة مستوى لغوي ثالث هو العربية الوسطى حيث يعدل كثيرا من التحولات الصرفية، فيتجاوز العامية ولا يرقى لبلوغ الفصحى.

استثمار فصيح العامية في إغناء العربية:

إننا نجد اجتهادات في المجتمع الجزائري لتفصيح الدارجة، وخلق فضاء للتعايش بينها وبين الفصحى، وهذه الفصحى تؤثر بارودياً¹⁴ على الدارجة، إذ يتم تحويلها في مستوى المعجم والتركيب لتؤدي محتوى عالماً مستمداً من حصيلة ثقافية عميقة ومنه فإن "هذا التركيب اللّغوي يضيف على الكلام طابعاً تهجينياً ويقوي من خلال ذلك طابع السخرية. فتداخل مستويات الكلام وتنوعاته يتيح تنشيط اللّغة الجماعية التي تمّ

استيعابها ذاتياً بقصد مقارنة الواقع وتشخيصه جمالياً¹⁵.

وهذا الاجتهاد ينتسب إلى التخطيط اللغوي ويتمثل في جملة من الإجراءات لترويج الفصحى وإشاعتها في حياة أفراد المجتمع الجزائري على كل مستوى، بما تمتاز به من جمالية على العمامة بمحدوديتها واستغراقها. فبين الفصحى ولهجات الخطاب العمامة نسبا وثقا يتمثل في استثمار المشترك بين العمامة والفصحى من المفردات والأينية ذات الأصول الفصيحة. وقد جرى مجمع القاهرة في هذا الاتجاه وعينت به لجنة اللهجات فقدمت إلى مؤتمر المجمع مجموعة من "الألفاظ العمامة التي تجري في البيت والمصنع والسوق والحقل، مستهدفة توثيق علاقتها بالفصحى والتنبيه إلى أنه لا وجه لإغفالها أو الترفع عنها في لغة الكتابة، وهي تعايش الحياة اليومية في التفاهم والتحدث والخطاب"¹⁶. وقدمت اللجنة قائمة بمئة كلمة عمامة سجلتها معجمات الفصحى في مفرداتها، ومنها:

العيل: الولد

الشجيع: الشجاع

الشب والشبة: الشاب والشابة

السبوع: الأسبوع

الريحة: الرائحة

زوق: زين

السفرة: المائدة

الأطرش: الأصم

النشط: النشاط

بياع: بائع

الضننا: الولد والنسل .

وقد سار عدد من المهتمين بواقع اللغة على هذا الدرب، وانتهى بهم هذا التوجه العلمي إلى "أن ليس كل ما تستعمله العامة خطأ"¹⁷، وليس من الخير للعربية أن يكون بين اللغتين - وهما في الأصل لغة واحدة - حاجز حصين يحول دون الخاصة واستعمال لفظ بدلا منه، لا لشيء إلا لأن العامية استعملته أو استحدثته"¹⁸.

فقد تهيأ للعامية، وهي تواكب الحياة، أن تستعمل ألفاظا صحيحة فصيحة ربما كانت اندثرت لو لم تستعملها، وأن تستعير ألفاظا عربية أصيلة لمعان جديدة، وأن تحدث من طريق الاشتقاق ألفاظا يحتاج إليها الناس في حياتهم العملية، وأن تختار السائغ المقبول من الألفاظ التي تعددت فيها اللغات"¹⁹.

ومن الألفاظ التي أحدثوها:

الجرارة: تُجر بها الأتقال

الحفارة: لما تحفر بها الأرض

العجانة: لما يعجن بها الدقيق

ومما خففوه أو هذبوه:

الرّز: من الأرز

الوز: من الإوز"²⁰

وعلى هذا النحو رأى عبد القادر المغربي في إحياء فصيح العامية واستثماره في إغناء العربية حقا يطالبنا به الوفاء للغتنا المحبوبة. وشبه ذلك بما نعمل عليه من " إدخال الكلمات المعربة والمولدة في لغة الحياة الجديدة"²¹. ففي العامية الجزائرية مثلا " مواد فصيحة لا نجدّها إلا في بطون المعجمات، ومن ذلك:

نوء: ويعني المطر

عقبة: مرتفع

سويقة: تصغير سوق

دويرة: الدار الصغيرة

عجّار: العجار ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها ثم تتجلبب فوقه بجلبابها

الثنية: الطريق المعطوف أو عطفة الطريق

هيا: بمعنى تعال. ينادي الجزائري مثلا ولده الصغير فيقول: هيا²². "وتطول قائمة المفردات التي تستعملها لهجة (لهجة) وهي ذات أصول في الفصحى²³. وتحفظ اللهجات العربيّة الحديثة بظواهر صرفية وصوتية منسوبة في اللهجات القديمة التي أقيمت الفصحى على ائتلافها وتأليفها²⁴.

وعليه فالعامية تعد كرافد من روافد اللّغة العربيّة، فلا تكون بديلا عن الفصحى أو تشرّفها، ولكن الاهتمام بها عن طريق تكريس الاستعمال المهدب لما يسمع في ميادين مختلفة كالسوق، والمصنع والحقل، لأنّ بالسماع تقرب بين العامية والفصحى لتتألفا وتتعايشا، باعتبار أنّ اللّغة وضع واستعمال وبهما نصل ما بين اللّغة والحياة مع احتفاظ الفصحى بكل مقوماتها وأوضاعها النحوية والصرفية ونبذ الألفاظ العامية المبتذلة. وهذا ما نجده في الحقيقة في أسلوب أحمد بن فارس 395 في كتابه (متخير الألفاظ) يقول: "الكلام ثلاثة أضرب، ضربٌ يشترك فيه العليّة والدون، وذلك أدنى منازل القول، وضرب هو الوحشي، كان طباع قوم فذهب بذهابهم. وبين هذين ضرب لم ينزل نزول الأول، ولا ارتفع ارتفاع الثاني، وهو أحسن الثلاثة في السماع وأدّها على الأفواه وأزينها في الخطابة، وأعذبها في القريض، وأدلّها على معرفة من يختارها²⁵.

فانطلاقا من هذا القول نجد أحمد بن فارس يقر بفصاحة اللّغة التي لا تتحقق مع الدونية ولا مع التكلف، بل في اجتناب السهل من الخطاب واجتناب الوعر منه، وهذا لا يكون إلا في المستوى الوسطي الذي يستمد عناصره ومكوناته الأساسية من الفصحى المعيشة، ومن الروافد الداخلية والخارجية العاملة على التأثير اللغوي. فكانت الفكرة العامة بأن البحث في اللهجات شيء هام، لأن هذا يخدم العربيّة الفصحى على اعتبار أنّ اللهجات فصحى محرفة. كما اتهم بعض المعاصرين اللّغة الوسطى بأنها تعمل على الخرق اللغوي، ولا يقصد بها إلا إقصاء الفصحى

وزحزحتها عن مكانها ليخلو العامية والأجنبية "ولقد كان الهدف من وراء ذلك وقف العربية عن النمو، وهي لغة الفكر والعلم والعبادة لدى ملايين المسلمين، وإحداث لغة وسطى بين العامية والفصحى، وذلك للنزول بالثقافة والفكر إلى مستوى العامية"²⁶. والمطلوب بحسب رأي الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح في استعمال اللغة هو المستوى المتأدب المهذب وهو الغائب في استعمالنا الدائم، لأن اللغة وضع واستعمال، حيث أن اللهجات هي ثاني مستوى للفصحى لما تحتويه من اقتصاد وخفة وتقليل في الجهد العضلي والفكري. "فكلما كان المقام مقام أنس كان المتكلم إلى حذف ما هو غني عنه لإبلاغ مراده أميل وأكثر ارتياحا، وهذا هو بالذات ما يمنح للغة حيويتها، وقد كانت الفصحى التي دونها اللغويون العرب الأولون تتصف بهذه الصفة، وأكبر دليل على ذلك كثرة ما سجله أولئك اللغويون من العبارات المختزلة ذات العناصر المضمرة، وكثرة ما ورد في كتاب سيبويه وكتب القراءات من شواهد الاختلاس والتسكين والتخفيف للهمزة وحذفها والإدغام والإبدال والقلب مما لا سبيل إلى وجوده في اللغة التي يتعلمها الطفل في المدارس واللغة الفصحى التي يلتقطها في الإذاعة والتلفزة وغيرهما"²⁷. وهذا يبين ما أجازته العرب من تسهيل للهمزة وإدغام الكثير من الحروف بين كلمتين، وانتفاء الحركات واختلاسها وتسكين بعض المتحركات وبالتالي تكون العامية أكثر اقتصادا من اللغة الفصحى. وتكملة لهذه الفكرة نجد توفيق الحكيم يرفع شعار اللغة الثالثة؛ وهي لغة وسط بين الفصحى والعامية التي يرى تجسيدها في لغة المسرح، لغة تبتعد عن الزخرف اللفظي وغريب اللغة، ولا تهتم بالجوانب الشكلية، فقال: "يجب الاقتراب قدر الإمكان من اللغة العامية التي تتطلبها حياة بعض الشخصيات العادية... إنها تجربة النزول باللغة العربية الفصحى إلى الأدنى لتلاصق العامية دون أن تكون هي العامية، والارتفاع بمستوى العامية دون أن تكون هي الفصحى، إنها اللغة الثالثة التي يمكن أن يتلاقى عندها الشعب كله"²⁸.

يرى توفيق الحكيم بأن اللغة الثالثة ضرورية في المسرح، إذ تتسع لتجسيد حالات شعورية محددة في سياق درامي محدد، فتشكل عملية تواطؤ بين المكتوب الشفوي لتوليد لغة حية ومعاصرة، لا حاجزا إضافيا يقف حجر عثر بين الخشبة والجمهور وهو كواقع لغوي نلمسه في المسرح الجزائري من خلال أقوال القوالين والمداحين باعتبارها لغة يفهمها الجمهور ويتفاعل معها، وفي هذا الصدد كان (عاللو) يقول: كنت أكتب باللغة العامية المفهومة من طرف الجميع، ولكن ليست بالعامية السوقية الرديئة، فهي لغة غريبة ملحونة ومننقاة.

فكثيرا ما نسمع ألفاظا في اللهجة العامية نعتقد أن ليس لها أصولا في العربية الفصحى، ولكن عندما نمعن النظر فيها نجد أصولها عربية فصيحة حدث فيها تحريف بسيط، مما جعلها تخرج من فصاحتها إلى العامية مثلا: في المجتمع الجزائري إذا حدث شيء مروع للشخص العاصمي يقول: (ياخا) ولكن بالعودة إلى أصولها الفصيحة تعني (وا أخاه) وهو أسلوب فصيح استعمله العرب للتحسر. ومن بين ألفاظ الندبة في المجتمع الجزائري نجد ما يلي:

يا حوجي: ينطق بها أهل منطقة شلف والحوج هو السلامة باللغة العربية الفصحى

يا عيتي: ينطق بها أهل منطقة تيارت والعي من العياء والتعب

يا الشومي: ينطق بها أهل الشرق الجزائري ولفظة الشومي من الشؤم والتشاؤم

يا بردي: ينطق بها أهل تلمسان مأخوذة من لفظة البرد أملهم على أن تكون بردا

وسلاما على المصاب والمواقف الحرجة.

يا كبي: ينطق بها أهل الجنوب - صحراء الجزائر - والكب هو السقوط على

الوجه.

نلاحظ مما سبق من أمثلة أنها ألفاظ عامية ذات أصل فصيح، أخذت مجاري

جديدة عن طريق الحذف أو الإبدال أو التسهيل في النطق، وهذا ما يمكن أن نلاحظه

في كثير من الأسماء والصفات والأفعال مثل عفس ودفل وغيرها.

فمن هذا المنطلق ظهرت فكرة إيجاد علاقة بين العامية واللّغة الفصحى من خلال التّعايش بينهما، أو رد العامية إلى أصلها الفصحى، وهي ما يسميها البعض بالفصحى المعاصرة.

اللّغة الثالثة أو الفصحى المعاصرة: لقد فرضت الفصحى المعاصرة نفسها بديلا وحلا لإشكالية الواقع اللّغوي الذي تواجهه اللّغة العربية، فيمكن أن تكون حلقة الوصل التي يتوحد عليها أو يلتقي عندها أفراد المجتمع الجزائري في مجالات التعليم والتثقيف، كما يمكن أن تكون الوسيلة التي من شأنها التخفيف من حدة الصراع بين الفصحى والعامية لأنها لغة وسطى، لا يلغى فيها الإعراب بتاتا، وإنما يتخفف منه باستثناء مواقف الشبهة واللبس، فتكون بمثابة لغة الوسيط الواصل بينهما - الفصحى والعامية - . وهي لغة مشتركة سليمة يجيدها الخاصة ولا تعجز عنها العامة. " لغة تتسع الفرص بها للتعبير بالعربيّة الصحيحة في كل مجالات الإعلام والتعليم والتوعية والتثاقف المحكي بنحو عام. وهكذا تسهم هذه اللّغة في تحقيق المزيد من ديمقراطية العلم والمعرفة في المجتمع العربي، وفي تضيق الفجوات الثقافية بين طبقات المجتمع"²⁹.

وعليه فإن قضية الفصحى المعاصرة هي الضرورة المطلوبة التي نسعى وننشد وجودها بالفعل في البحث عن التطوير اللّغوي الجاد في التخطيط اللّغوي الذي يعالج مشكلة الواقع اللّغوي بالجزائر وغيرها من الدول العربية.

خاتمة: نخلص إلى نتيجة مفادها أن وجود تعددية في لغة أصلية ولهجاتها هو ظاهرة عامة الوجود، إذ تختلف اللغات مع متفرعاتها في ذلك في درجة اختلاف الأولى بالنسبة للثانية وبالمكانة التي تحظى بها إحداهما بالنسبة للأخرى. فالعامية تمثل رافدا من روافد الفصحى والعلاقة بينهما علاقة تواصل وتلاحم، تعايش وتآلف وليست علاقة صراع ونزاع؛ فاللّغة العربيّة حققت وحدتها الوطنيّة في أسمى صورها، وكذا أمنها الثقافي الذي هو ركيزة أساسية من ركائز أمنها القومي.

الهوامش والاحالات

- ¹ إميل بديع يعقوب : فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلوم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص 144.
- ² إبراهيم انيس : في اللهجات العربية، مطبعة أبناء وهبة حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2003، ص 15.
- ³ محمد محمد داود :العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2001، ص 64.
- ⁴ انظر : محمد محمد داود :العربية وعلم اللغة الحديث، ص 66.
- ⁵ انظر: صالح بلعيد : الفصحى المعاصرة، طعنة أم ضرورة، الفصحى وعامياتها، أعمال الندوة الدولية التي نظمت بالتعاون مع وزارة الثقافة ضمن فعاليات الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007، يومي 4 - 5 يونيو 2007، بنزل الأوراسي، منشورات المجلس 2008، ص 165.
- ⁶ Jack Lang, Lamour de Babel , in panoramiques n° 48 , Langues une geurre a mort , dir ,gury gauthier,corlet , 2001 , p 128- 130.
- ⁷ ينظر: هارلد هارمان : تاريخ اللغات ومستقبلها، ترجمة : سامي شمعون، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الدوحة، ط 1، 2006، ص 49.
- ⁸ Louis – Jean Calvet , La guerre des langues et les chances d'un véritable plurilinguisme , in panoramiques n° 48 , 2001, p 10- 16.
- ⁹ Vladimir KRYSSINSKI, Carrefour: essais sur le roman moderne, Mouton, 1981 p.81 .
- نقلًا عن المرجع نفسه، ص: 18.
- ¹⁰ المرجع نفسه، ص: 18.
- ¹¹ أنور الجندي :اللغة العربية بين حمايتها وخصومها، مطبعة الرسالة، القاهرة، (د ت)، ص 236.
- ¹² علي عبد الوافي : فقه اللغة دار نهضة مصر، القاهرة، (د ت) ص 151.
- ¹³ ابن خلدون : المقدمة، مطبعة المعارف العلمية، مصر، (د ت)، ص 700.
- ¹⁴ الباروديا: نوع من الأسلبة يقوم على عدم توافق نوايا اللغة المشخصة مع مقاصد اللغة المشخصة، فتقاوم اللغة الأولى الثانية وتلجأ إلى فضحها و تحطيمها. لكن يشترط في الأسلبة

البارودية ألا يكون تحطيم لغة الآخرين بسيطاً وسطحياً، بل عليها أن تقوم بخلق لغة بارودية، وكأنها كل جوهري. ومنه فإن إشارة "باختين" إلى هذه الملفوظات داخل الرواية، وكذا إشارته إلى توظيف اللغات الأجنبية، هي إشارة إلى توليد المعاني الجديدة، وإشارة إلى رؤية الآخر للعالم. ينظر ميخائيل باختين، الخطاب الروائي. تر: محمد برادة، دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع، ط1، 1987، صص: 18-19.

¹⁵ عبد الحميد عقار، الرواية المغربية، ص: 135.

¹⁶ مجلة مجمع اللغة الأردني: آب - كانون الأول، 1980، السنة الثالثة، العدد 9 - 10.

¹⁷ عارف النكدي: العربية بين الفصحى والعامية، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد 44، ج 1 - 2، ص 59.

¹⁸ عارف النكدي: العربية بين الفصحى والعامية، ص 59.

¹⁹ المرجع نفسه، ص 49.

²⁰ انظر: المرجع نفسه: ص 57 - 59.

²¹ انظر: عبد القادر المغربي: دراسة في اللهجة المصرية، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ج 3، 1936، ص 301.

²² إبراهيم السامرائي: العربية الدارجة في القطر الجزائري، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج 4، المجلد 55، ص 778 - 779.

²³ حسين علي محفوظ: تقريب العامية من الفصحى، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ماي 1978، ج 41، ص 11.

²⁴ إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 6، (د ت)، ص 12 - 13.

²⁵ أحمد بن فارس: متخير الألفاظ، مطبعة المعارف، بغداد، 1970، ص 43.

²⁶ عبد الرحمن بودرع أحمد شفيق الخطيب عبد الله أيت العشير: اللغة وبناء الذات، ص 61.

²⁷ عبد الرحمن الحاج صالح: اللغة العربية بين المشافهة والتحرير، مجلة مجمع مصر، القاهرة 1990، العدد 66، ص 118.

²⁸ توفيق الحكيم: مسرحية الصفقة، مكتبة الآداب، القاهرة، ص 158.

²⁹ أحمد محمد المعتوق: نظرية اللغة الثالثة، دراسة في قضية اللغة العربية الوسطى، المركز الثقافي العربي بالدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2005، ص 7.

موقع المسألة اللغوية في جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين -مقاربة اجتماعية-

عبد الحفيظ شريف

جامعة آكلي محند أولحاج، البويرة.

ملخص:

تتناول الورقة موقع البُعد اللغوي وما استأثر به من تفكير وأعمال رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إن في التَّأصيل أو الممارسة، وممَّا يلفت نظر الدَّارس لتلك الجهود تحديداً؛ هو تكييف مختلف النِّشاطات اللُّغوية بالتَّشكيل المُجتمعيّ الذي أضحي سطحا انعكست عليه كثيرٌ من تداعيات الوضع العام الذي عرفته الجزائر المحنَّلة، ممَّا يحيل مرَّةً أخرى على علاقة اللُّغة بالمجتمع، ولكن في وضع عرف شيئا من الخصوصية التي صنعها الاحتلال بإجراءاته وممارساته.

فما الاستراتيجيات التي اعتمدها الجمعية لتأطير الوضع اللغوي المُقتل بالجوار الفرنسي الضَّاعط؟ وما نوع تلك الجهود، ومدى فعاليتها؟ وهل من سبيل للاستئناس بما أمكن من ذلك في زمننا الحاضر، بغرض تحصين أفضل للجبهة الاجتماعية الجزائرية المهدَّدة؟

نص المداخلة:

لم تعد اللُّغة أداة تواصل وتبليغ فحسب؛ بل صارت عاملا يُوجِّه مسارات سياسات الدُّول، ووسيلة تُوطِّر فكر الأمم وثقافات الشعوب، وأضحى للأُمم والأفراد من المنازل والدرجات، بقدر ما للُّغتهم من الوجود والحضور، وقد بات في حكم المعلوم أنَّ الحضور والبقاء في عالم اليوم مكفولٌ لمن استجمع مقومات ذلك، وأنَّ من فقدها أو آثر عليها غيرَها فمصيره الهزيمة والتَّبعية، وتلك سنن الكون لا تُحابي ضعيفا لعجزه، ولا تُعادي مُجِدِّا لعزمه. وتردّد تجارب الأمم أنَّ اللُّغة رهينة بأهلها ترفع شأنهم بين الأمم

إذا رفعوا شأنها، وتَهْوِي بِهِمْ إِذَا قَعَدُوا عن الحفاظ عليها، وأنَّ مَمَّا يَرْفَعُ الأُممَ، هو اجتماع جملة من الأدوات، لتحقيق جملة من الأهداف والغايات، تصبح في ضوئها اللُّغة مسألة استراتيجية للأُمَّة، وقضية من قضايا أمنها القومي.

ولعلَّ من وسائل تحقيق المجتمعات لأسباب أمنها الثقافي واللُّغوي، هو استحضار أيِّ نموذجٍ تاريخيٍّ ناجحٍ يعزِّزُ الألفةَ الوطنية، فتعادُ قراءتهُ في سياقه التاريخي، وتمثُلُ ما أمكن من طرائقه وأدواته، وتتمين جهوده ومشاركاته، فكم من تجارب إنسانية ناجحة لم تكن إلاَّ إحياءً لنماذج سالفة خضعت للتَّحيين والتَّهذيب بما يلائم العصر.

ومن الحركات الإصلاحية التي يُشْهَدُ لها بفضل الإسهام في الإصلاح الدِّيني واللُّغوي بالجزائر والمغرب العربي في العصر الحديث جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي بدأت دعوتها الإصلاحية في زمن أحال فيه الاحتلال الفرنسي المسألة اللُّغوية في الجزائر معضلة ثقافية واجتماعية.

استندت حركات الإصلاح الحديث في العالم العربي والإسلامي إلى مقوِّمات وركائز كبرى، تحدَّدت من خلالها الأسس والمُنطلقات واتَّضحت في ضوئها الأهداف والغايات، ومن ثمَّ رصدت لها الوسائل والأدوات، ذلك أنَّ الحركات الكبرى عبر التاريخ بدأت من مقولات فكرية نظرية، سواء على مستوى العالمين العربي والإسلامي أم عند الغربيين.

ولعلَّ أهمَّ مرجعية اشتركت فيها كلُّ حركات الإصلاح العربي الإسلامي الحديث هو الإجماع على بناء فكريٍّ صحيح يُعاد به التَّعامل مع القرآن الكريم ويتجدَّد به فهمه، بوصفه كتابٌ هدايةٌ مُهيمِن، وهي المرجعية التي اختلفت الأدوات في التأسيس لإعادة صياغة فهمها وتثبيتها من بيئة إسلامية إلى أخرى، وقد استدعت ضرورة التَّعامل مع القرآن الكريم قيام مرجعية أخرى لا تقلُّ أهميَّة وحضوراً، هي المرجعية اللُّغوية باعتبارها لغة الكتاب الكريم، وعاملاً أسهم في بناء حضارة استحوذت على ما قبلها، ونافست ما حولها، ومن هنا تلازمت الدَّعوة إلى القرآن الكريم والدَّعوة إلى اللُّغة العربية، واشترطَ لقيام إصلاح دينيٍّ سليم، قيام إصلاح لغوي مصاحب، فلم نجد حركة

دعوة دينية في العصر الحديث إلا وقد خصّصت للغة العربية من جهدها حيزاً يقيمها وتقوم عليه.

جذور الجدل اللغوي في الجزائر المحتلة: أفرز مخبر الاستشراق الفرنسي في الجزائر -ضمن ما أفرز من الشبهات- مقولة مفادها أنّ من أظهر حقوق الشعوب، احترام ثقافتها، ومن هنا فإنّ من الحقّ والإنصاف احترام الثقافة البربرية في الجزائر والشمال الإفريقي، وأنّ للعرق المازيغي ولغته امتداداً تاريخيًّا يختلف عن بقية المكونات الاجتماعية واللسانية لهذا الشمال.

وأجاد غلاة المستشرقين عرض هذه المقولة التي استهوت كثيراً من الدارسين والسياسيين، فنشرت في ذلك المقالات، وأحيطت منطقة زاوية دون غيرها من مناطق الوطن برعاية مشبوهة. فهذا المُستشرق رينيه باصيه (René Basset / 1855-1924) قد نشر أكثر من خمسة وعشرين (25) عملاً حول البربرية منذ 1883م، وقد استفاد من تلميذه سعيد بوليفة في ذلك إلى أن انتهى به الأمر إلى إنشاء كرسيّ البربرية في كلية الآداب بالجزائر وتولّى تدريسها، وأكثر من ذلك، أنّ خلفه على عمله ذلك تلاميذ آخرون، كابنه هنري باصيه وألفريد [بيل] و[جوزيف] ديبارمي، وأنشئ كرسي اللغة البربرية في كلية اللغات الشرقية بباريس¹ وما لبث أن أخذ هذا المسعى بُعداً استعماريًا حولّ به المخبر الكولونيالي المسألة الثقافية في الجزائر إلى بؤرة اضطراب ثقافي تجلّى من خلال الأداء اللساني في الجزائر، وازداد الأمر سوءاً حين استكملت فرنسا احتلال الجغرافيا الجزائرية كلّها واستحكمت حلقات المسألة اللغوية في الجزائر بداية القرن العشرين بتخريج أنصار هذه الفكرة، وتكوين نخبة أُشربت هذه الدّعوى وانقسمت النخبة الجزائرية فصليين، فصيل بقي على ما وجد عليه أسلافه من التزام بمقومات الأمة واعتبارها مسلمّات بعد أن أضحت عناصر أسهمت في تشكيل الأمة الجزائرية عبر أطوارها المختلفة ككلّ أمم الأرض. وفصيل آخر مكنّ له الاحتلال حين تعاهدّه بالتكوين والرعاية وهياً له من أسباب الظهور والدعاية ومن أهداف ذلك ما نقله صاحب السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر عن أحد غلاة الاستعمار (أوليفي

لوكور) صاحب كتاب: (الاستعمار الإبادة) من ادعاء بـ "وجود حقدٍ يفصل بين عُصْرَيْنِ هما: قبائل العرب والقبائل البربرية، وهو أمرٌ ينبغي دعمه، وعلى فرنسا أن تدفع لمزيد من التناحر، وأن تستفيد منه"² وإذن فليس للاحتلال من قصدٍ من وراء إثارة المسألة الثقافية واللغوية في الجزائر، إلاّ ضرب الأخ بأخيه، والاستمتاع بطحين حرب ليس لها أمد، الرّايح فيها خاسر، والضّحية فيها الجزائر، بكلّ مكوناتها البشرية، وتتوّعاتها الأدائية، وتاريخها ومستقبلها.

افتكاك جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للوضع اللغوي في الجزائر المحتلّة:

ورثت جمعية العلماء المسلمين في ما ورثت من مشكلات الوطن الجزائري الدّينية واللّغوية والأخلاقية همّ المُعضلة اللّغوية وأثارها الاجتماعية الآنية والقادمة، وقد وقف كلُّ رجالها على غرض الاحتلال من توظيف عامل اللّغة في إثارة النّعرات العصبية بين مكونات الأُمَّة الجزائرية، وإشاعة الفرقة والاختلاف وإضاعة جهد البناء والإصلاح في إثارة الشُّبهات وإحياء أحداث تاريخية وتوجيهها توجيهها مقصودا، ليس من ورائه إلاّ المزيد من الانتكاسات والهزائم.

وحَتَّى تقطع الجمعية الطّريق على أبواب الاحتلال في جعل المسألة المازيغية قضية كبرى، وبؤرة فتنة لا تهدأ، فقد انتهجت جملة من الاستراتيجيات استهدفت انتزاع المسألة اللغوية من مخالب المدرسة الكولونيالية الفرنسية، وذلك ما تضمّنه سجلُّها التّاريخي، وصرّح به أعلامها كلّما دعت لذلك المناسبة، وتمثّله علماءها وخطبائها والعاملون في هيئاتها في مواقفهم وأعمالهم.

1- تنوع التّشكيل البشري لأعلام الجمعية وتناغمه: تشكّل الهيكل البشري

العامل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ أوّل وهلة من تمثيل رمزي يمسُّ جميع القطر الجزائري، وهو وإن لم يكن مقصودا لذاته إذ كان معيار الانتقاء علميا بالدّرجة الأولى، إلاّ أنّ اعتبار التّمثيل الجغرافي قد أخذ في الحسبان تحقيقا لوطنية الجمعية وشموليتها، فمن شرق البلاد وغربها إلى شمالها وجنوبها، ومن زواوة إلى

ميزاب ومن داخل الوطن إلى خارجه ظهرت استراتيجية الجمعية الجامعة لكل القوى الوطنية الحيّة.

اعتبرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تشكيلها البشري امتدادا طبيعيا للنموذج التاريخي السائد في البلد منذ قرون، والذي كان أساسه الولاء للدين وللغة الدين دون إقصاء للأداءات المحليّة التي كان كل أقطاب الجمعية مدينا فيها لناحية من نواحي القطر، فابن باديس صنهاجي مازيغي، والإبراهيمي هلالي عروبي، وإبراهيم بيوض ميزابي جنوبي، وأبو يعلى مازيغي زواوي، وتعزّ القائمة على الحصر من الرواد والتلاميذ، بل وفي عموم الشعب.

ولم يحفظ التاريخ الجزائري قديمه وحديثه - نزاعا قام على أساس جهوي أو لغوي قط، بل كان مقام العلماء بين الناس واحدا، إن في الغرب أو في الشرق بل حتى في تونس والمغرب.

ومن ناحية أخرى فقد كان ذلك التشكيل رداً عنيفا صامتا أحرست به الجمعية نعيق الفرقة التي غرس الاحتلال بذورها، ورعى أشواكها وجنى ثمارها، وهو صوت كان يعلو فوق أصوات الجمع والوفاق، كما كان ذلك النسيج من العلماء في مناصبهم وأدوارهم الإدارية والدعوية درسا بليغا، فهمت من خلاله فرنسا الاحتلال بأن سعيها لشق وحدة الأمة قد وجد في طريقه ما يخبى رجاءها، وذلك ممّا زادها حنقا وضيقا مكرت على إثره بالعلماء واحدا واحدا فما منهم من أحد إلا وأصابه من بلاتها، ذلك هو التناغم الذي دان فيه العاملون في الجمعية إلى تعاليم الدين تُرشدهم وتهديهم، والتفوا بلغة يخدمونها وتحميهم، وتعلقوا بوطن يدفعون عنه ليأويهم تتاعم يستجيب فيه الإبراهيمي لرأي أخيه ابن باديس بالإشراف على منطقة الغرب الجزائري، فينزل في تلمسان معلما ومربيا وخطيبا، ويستجيب فيه الفضيل الورتيلاني والسعيد صالحى لتكليف الجمعية بالاهتمام بالجالية الجزائرية والمغربية في فرنسا، وهما مازيغيان يجيدان اللغة الفرنسية، فقدما للإسلام والعربية والجزائر في فرنسا ما تقر به الأعين وتشرح له الصّدور. وينخرط في العمل الإصلاحي الوطني علماء زواوة، كأبي يعلى

الزواوي وغيره عاملين محتسبين، ولقد كان هذا التشكيل أحد استراتيجيات الجمعية التي رصّنت به صفوفها، وأغاضت به عدو الجزائر وعدوّها.

2- معالجة المسائل اللغوية ضمن استراتيجية متكاملة: من خلال استعراض الجهود التي بذلتها الجمعية في سبيل إعادة ترتيب الوضع اللغوي في الجزائر بعد أن عبثت به فرنسا الاحتلال عبثا شديدا قرنا من الزّمن؛ فإنّ الملاحظ هو الإدراك الجيّد لحقيقة الوضع اللغوي وعلاقته بالتركيب الاجتماعي، وتشريح واقعه ومعالجته على وجه من الشمول والتكامل دون إثارة لأسباب الفوضى والاضطراب، والوقوف الواعي على رعاية العلاقة بين تنظيم الواقع اللغوي وتحقيق الوفاق بين جميع المكونات الوطنية، وجعلها جبهة واحدة -على ما فيها من تنوع- ضدّ عدوّ واحد هو الاحتلال الفرنسي، وبذلك تجاوز علماء الجمعية أتناء معالجتهم لمسألة اللّغة النظرة الجزئية للقضايا اللغوية كالعامة والأمية، واختلاف الأداءات الوطنية، وموقع اللّغة الفرنسيّة بين الأداءات الجزائرية وترابنية ذلك، وهي الطريقة التي مكّنت الجمعية من تخفيف حدّة الصّراع مع المحتلّ الفرنسي، حين أظهرت أنّ دوافع معالجة القضايا اللغوية في الجزائر، ليست إلّا حقّا طبيعياً فطرياً يمتلكه كل إنسان مهما كانت ظروفه، ولئن كانت الجمعية قد أشهّرت ذلك لدفع مضايقات الاحتلال، فإنّها في الحقيقة كانت تعمل على هدم بنائه الرّامي إلى هناك الوفاق اللغوي السائد منذ قرون، وإفساد مشاريعه لتمزيق اللّحمة الاجتماعية بالتّبع.

وجامع الأمر أنّ ما حقّقته الجمعية من إعادة ترتيب الوضع اللغوي في الجزائر إيّان الاحتلال، وإعادة تمّتين الحصن الاجتماعي -وإن اختلف الدّارسون في تقيّمه- فإنّه يُحسب للجمعية دورٌ حدّ من عبث الاحتلال بهذه المنظومة الخطيرة، كما يُحسب لها في الوقت نفسه دورها في تطعيم الجبهة الدّاخلية الوطنية ضدّ سموم الصّراع اللغوي، وما ينجرّ عنه من الفرقة التي كان المحتلّ حريصا على جني ثمارها.

3- تلازمية الإسلام والعربية في خطاب الجمعية: من أهمّ الاستراتيجيات التي اعتمدها خطابُ الجمعية إزاء الشّأن اللغوي، صدور مقولات الموقف من اللّغة العربيّة

تعلُّماً وتعليماً واستعمالاً وتأليفاً، في إطارٍ يحمل بعداً شرعياً ينبع من علاقة اللُّغة العربيَّة بالقرآن الكريم ذي القداسة التي تأصَّلت على مرِّ القرون، ولم يعد استعمال اللُّغة العربيَّة والدِّفاع عنها وتبنيِّ قضاياها من منطلق لسانيٍّ فحسب؛ بل استند إلى منطلق عقديٍّ، وهو مبدأ دانت له جميعُ الأجناس على اختلاف مواقعها من منطلق هيمنة الدِّين ولغة الدِّين، وشاع الإحساس الاجتماعي والثقافي بأنَّ السُّلوك إزاء اللُّغة العربيَّة ليس استسلاماً للجنس العربيِّ بقدر ما هو انقياد للدِّين الإسلامي في كتابه العربيِّ.

وضمن هذه الخلفية؛ صاغت الجمعية مقولاتها ومواقفها إزاء اللُّغة العربيَّة في تجاورها مع الأداءات اللسانية الأخرى على درجة من الحكمة والفهم، فجاءت متناغمة مع الخطاب الدِّيني الذي تنبَّته، واختارته قاعدة للإصلاح العقدي والاجتماعي، وربطت إليه كلَّ الفروع والقضايا مستغلَّة العاطفة الدِّينية القويَّة، والعقد الاجتماعي التَّاريخي المتين.

وها هو الإبراهيمي يرفع مقام اللُّغة العربيَّة في علاقتها بالإسلام إلى درجة يجعل من اللُّغة والدِّين شيئاً واحداً فيقول: "قاماً اللسان العربي، فهو لسان هذا الدِّين الذي نزل به كتابه، وهو - يعدُّ - ترجمانه الحاذق الذي نقل الإسلام وما فيه من عقائد سامية، وحكم غالية، وأخلاق عالية، وأسرار جلييلة، وآداب قيِّمة إلى أمم أجنبية عن لغة هذا الدِّين، وأخذهم بها أخذة السَّحر بكيفية تُريهم أنَّ الدِّين هو اللُّغة وأنَّ اللُّغة هي الدِّين، فبينما هما دينٌ ولغةٌ إذا هما شيءٌ واحدٌ، وإذا تلك النفوس التي كانت بعيدة عن مزاج هذا الدِّين وعن مزاج لغته، تعتقد أنَّ معنى العربيَّة جزء من معنى الإسلام، وإذا بهذا الدِّين وبهذه اللُّغة يقرِّبان البعيد من تلك الأهواء، ويؤلِّفان بين المتنافر من تلك الميول³ ومن عجيب الأمر، أنَّ يلتفت المستثمرون في تعفين المسألة اللُّغوية في الجزائر إلى متانة هذه العلاقة بين الإسلام ولغة كتابه، فيرمونهم من قوس واحدة، ويقذفون المعرَّبين والدَّاعين إلى التَّعريب بما فنَّفوا به الإسلام من التَّطرُّف والظلامية.

4- رؤية الجمعية للبعد المازيغي؛ آراء ومواقف: اعتمدت جمعية العلماء منذ

أول ظهورها رؤية كشفت عمق تفكير أعلامها وبُعد نظرهم، فثمَّنوا جهود الأسلاف في

الحفاظ على مقوّمات الأمة من دينٍ ولغةٍ، ودانوا للمسار الوطني منذ الفتح الإسلامي، واستقرار الإسلام واللغة العربيّة بالشّماليّ الإفريقيّ، فهذا الشّيخ مبارك الميلي في كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث يُولي البُعد المازيغي أولويةً وإنصافاً ظاهرين، فيخصّص للمسألة المازيغية ما تستحقُّ من ذكر تاريخها، ونقل الشّهادات العلمية المُصنّفة حول حقيقة أمرها، فيروي شهادات مؤرّخين أجانب عن الموقف الحقيقي للأمازيغ مع الإسلام والعربية، وصورة تعامل المسلمين والعرب مع أهل البلاد الأصليين وفي ذلك يقول: "ولما جاء العرب إلى المغرب كان انتشار لغتهم به مسايرا لجنودهم، فما فتحت قطعة منه حربيا؛ إلا انتشرت بها لغتهم، وكان لذبوع حضارتهم بين البربر، نفس السُرعة التي كانت لفتوحهم. قال (أغسال) وقد انتشرت العربية بين البربر بسرعة وذلك قضا بسرعة على حضارات الأمم السّابقة⁴ كما ينقل صورا عديدة من صور التّآلف بين العرب الوافدين بالفتح أو الهجرة، وبين أهل البلاد الأصليين متعمّدا أخذها عن مؤرّخين أجانب من ذلك ما نقله من قول (بيروني): "احتار كلُّ المؤرّخين من سرعة تأثير العرب على البربر في ديانتهم وعاداتهم وأخلاقهم، ويوجّه ذلك بعضهم بأنّ العرب والفينيقيين متقاربون في اللّغة، ومتحدون في الأصل الذي ينشأ عنه تقاربٌ في الطّبائع⁵ والموقف صريحٌ في ردِّ شبهة الاحتلال حول أصل البربر ودعواه في تمايز الجنسين العربي والبربري، وأنّ الأولوية في احتضان البربر هم الرّومان السّابِقون، ثمّ خلفاؤهم الفرنسيون اللّاحقون، فينسِف الميلي في مدوّنته هذه المقولة ومثيلاتها، ويثبت في أجزاء معتبرة من الكتاب صورا مضيئة لحقيقة التّآلف اللّغوي والاجتماعي في شمال إفريقيا تاريخيا.

وهو الموقف نفسه الذي ينقله الإمام الإبراهيمي بلهجة الأديب المُبين، ثمّنا نقل الميلي العلمي التّاريخي الرّصين، يقول الإبراهيمي: "من قال إنّ البربر دخلوا في الإسلام طوعا، فقد لزمه القول بأنّهم قبلوا العربية عفواً لأنّها شيان متلازمان حقيقة وواقعا، لا يمكن الفصل بينهما، ومُحاول الفصل بينهما كمُحاول الفصل بين الفرقدّين، ومن شهد أنّ البربرية ما زالت قائمة الذات في بعض الجهات، فقد شهد للعربية بحسن

الجوار، وشهد للإسلام بالعدل والإحسان، إذ لو كان الإسلام دينَ جبريةٍ وتسَلُّطٍ لمَحَا البربرية في بعض قرن، فإنَّ تسامح في قرن. إذا رضي البربري لنفسه الإسلامَ طوعاً بلا إكراه، ورضي للسانه العربية عفواً بلا استكراه، فأضيقُ شيءٍ ما نقول العواذل، واللغة البربرية إذا تنازلت عن موضعها من السنة ذوبها للعربية لأنها لسان العلم وآلة المصلحة؛ فإنَّ كلَّ ما يزعمه المبطلون بعد ذلك فضول⁶ ولا شكَّ أنَّ الإنصاف العلمي للنص سيقف بالقارئ على حجاج يقابل ذلك الحجاج الذي أثاره أمثال لويس برتران وقرناؤه، ويردُّ في إقناع لا يستغرب صدوره عن مثل الإبراهيمي، فيهدم على الساعين في التمكين لمقولة رومنة البلاد البربرية (romanisation de la Berbérie) بنيانهم، ويهدُّ في هدوءٍ قاتل أركانهم، ولا عجب؛ فهي مقولة صنعها مخبر الاحتلال، أو عز بتسويقها، وحشد لها حتى أوشك سامعوها على التصديق.

ولا يبتعد الإمام ابن باديس عن الموقف العام للجمعية عن أخويه بل كانت أقواله على قلة مبادئها أسساً نظرية في علم اللغة الاجتماعي ببيان موقع اللغة من المجتمع وموقف المجتمع من اللغة واللغات "إنَّ أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرناً، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتولَّف بينهم في العسر واليسر، وتوحدتهم في السراء والضراء، حتى كوَّنت منهم منذُ أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً، أمه الجزائر وأبوه الإسلام. وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أرقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسألوا من محابره في مجالس الدرس لخدمة العلم"⁷ والنصُّ على ما فيه من بيان تاريخيٍّ مذكَّر بحقائق يسعي المختبر الكولونيالي لطمس الملامح الكثيرة المضيئة فيها؛ فهو ردُّ يشترك مع مقولات أخرى وآراء كثيرة في هدم أباطيل الطرح المتحيز لمسألة التعايش الإنساني في المغرب الإسلامي، ويسخر بلهجة علمية واثقة من جهود المستشرقين في المسألة، من رينيه باصيه حول الشأن البربري والتي بلغت العشرات من الدراسات والمقالات، إلى دراسات إرنست كاريت (Ernest

(Carette) العسكري المثقف الذي ستكون دراساته أرضية لما بعدها من الدراسات السّاعية إلى فكرة الانقسام المجتمعي الجزائري على أساس لغويّ. وهذا أبو يعلى الزواوي يقرّط "كتاب الجزائر" لأحمد توفيق المدني، فيثني عليه، وقد علم ما أورده في شأن البربر وتاريخهم واختيارهم للعربية والإسلام بل زاد على ذلك أن قال في نص التّقرير: "وبالجملة، إنّ البربر عربّ نزحوا إلى هذا الوطن إمّا عند قوة التّابعة، أو عند سيل العرم وفساد سدّ مأرب، أو هم مندفعون مع العماليق والكعانيين الفينيقيين"⁸ وتكرّر المواقف من شيوخ الجمعية وعلماؤها في مختلف المناسبات مثبّته حقيقتين داحضتين لشبهتين خطيرتين أقام عليهما الاحتلال على مرّ عقود أطروحة الطّعن في نسب الأمازيغ وردّه إلى غير أصله. محاولة منه لإثبات أحقيّته بالإرث الرّوماني، وما محاولته لإقامة هاتين الشّبّهتين الكبيرتين، إلاّ محاولة لإثبات مقولاته بأنّ اللّغة العربيّة دخيلةٌ على هذا الشّمال، وأنّ من جاء بها محتلّ، فضرب بذلك على وتر هزّ الاستقرار الاجتماعي الضّارب في التاريخ بإشاعة هذه الفتنة وصناعة أنصار لها.

وقد كانت مواقف الذين انتسبوا إلى الجمعية أيّا كانت جهاتهم الجغرافية أو انتمائهم القلبيّ القديم عاملا على تمجيد التاريخ المازيغي العربي المشترك "إنّ الإصلاحيين لم يكونوا ينكرون الظّاهرة البربرية قطّ، وكانوا من الأوائل الذين سلّموا بها بكلّ هدوء وسكينة، بل كانوا يفتخرون بالإصداع بفضائل الإثنية والاعتراف لها بمزايا النّبيل"⁹ وتنمين جهود الألفة والوفاق خلال مسيرة هذا الوجود البشري الطّويل، وتمجيد الألفة اللّغوية بالتّبع. ومن ناحية أخرى فإنّ إشاعة هذه القناعات التّاريخية واللّغوية، وتمتين الوفاق الاجتماعي الدّخلي هدّم لمشروع الاحتلال -في الوقت ذاته- القائم على إثارة مبرّرات التّآكل الدّخلي للمجتمع بفعل المقولات الجاهلية، وتطعيم عوامل الصّراعات الاجتماعية المدمّرة.

5- موقف الجمعية من التّجاور اللّغوي في الجزائر المحتلّة: أبدى العلماء النّاطقون بمواقف الجمعية من أمثال الإبراهيمي وابن باديس وغيرهما وعيّا واضحا

بحقيقة الواقع اللغوي سواء في موقف اللغة العربية من الأداءات الوطنية، أم موضعها من اللغة الفرنسية التي اكتسبت لنفسها مواقع خطيرة طيلة قرن من الزمن، ففي تعليق للإمام ابن باديس على إثر احتفالية أقيمت لجمعية العلماء، وألقى خلالها الشيخ يحيى حمودي خطابا بالقبائلية اهتز لها الحضور ودوت القاعة بالهتاف والتصفيق، وإثر ذلك يمجّد ابن باديس ألفة المكوثات البشرية الجزائرية التي جمعتها العقيدة قبل الجغرافيا واللسان، وجعل اجتماعهم امتثالا لأمر الدين واختلافهم مخالفة له، فيقول تحت عنوان ما جمعته يدُ الله لا تفرقه يدُ الشيطان: "لولا الظنون الكواذب والأمانى الخوادع يا عجباً! لم يفتروا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوي كلاً والله، بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم (ذمّتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم) والإسلام له حارس، والله عليه وكيل. نعم إننا نتحد لننفع أنفسنا، ولننفع إذا استطعنا غيرنا، ومعاذ الله والإسلام أن نتحد على أحد، أو ننشق على باطل، أو نتعاون على إثم أو عدوان" وغلبة المسحة الدينية التي صبغت مجمل أعمال الجمعية ومواقفها ظاهرة على النص، فعبارة "ما جمعته يدُ الله لا تفرقه يدُ الشيطان" صريحة في تعيين المرجعية الدينية للفصل في الأحكام، وتمييز المواقف، إذ مع اعتبار النظر في المسألة اللغوية الداخلية الجزائرية التي يُعترف فيها للجوار اللغوي التاريخي بين المازيغية والعربية وأثر ذلك على المجتمع الجزائري؛ فإنه يُؤثر أن يصطبغ هذا الوفاق بطابع شرعيّ عقديّ يعود فيه المختلفون في الألسن إلى وفاق اجتماعي. احتكاما إلى رؤية الشرع في تنوع الألسن ووجوب تألف القلوب. وبهذا يقف ابن باديس بالجميع على مسافة معلومة من الشرع باعتبار سلطانه البالغ على المعتقدات والتصرفات.

ولم يقف الأمر بإعطاء مسألة تجاوز المازيغية والعربية بُعدها الشرعي، بل تجاوز ذلك إلى استنباط الحكم الشرعي لمسألة التعامل مع اللغات الأجنبية وهي في هذه الحالة (اللغة الفرنسية) فيرجع بها إلى تأصيل شرعيّ ينطلق فيه من الحديث النبوي الذي رواه زيد بن ثابت قال: أمرت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن أتعلّم له كتاب يهود قال: (إني والله ما آمن يهود على كتاب) قال: فما مرّ بي نصف شهر حتى

تَعَلَّمَتْهُ. قَالَ: فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ¹⁰. و قد تناول ابن باديس بيان هذا الحديث تحت عنوان: **مِنَ السَّنَةِ تَعَلَّمَ اللُّغَاتِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهَا**. و عتبه العنوان الحاملة لمصطلح (الحاجة) كافية في تعيين الغاية التي يجب أن يُقصد لها تعلُّم اللُّغات الأجنبية، و حدود استعماله و مجاله، فيبين ذلك على مبدأ (الحاجة) وهو مصطلح شرعيٌّ أيضاً، تُكَيَّفُ طريقةُ التعاملِ معه و مقدارُ ذلك بحسب نصوص الشَّرْع و قواعد الضَّرورة، يقول الإمام الشَّاطبي: " ثبت أنَّ الشَّارِعَ قد قصد بالتَّشريع إقامة المصالح الأخروية و الدُّنيوية، فذلك على وجه لا يَخْتَلُّ لها به نظامٌ، لا بحسَب الكُلِّ و لا بحسَب الجزء، و سواءً في ذلك ما كان من قبيل الضَّرورياتِ أو الحاجياتِ أو التحسينياتِ، فإنها لو كانت موضوعاً بحيث يُمكن أن يَخْتَلَّ نظامها أو تَحَلَّ أحكامها، لم يكن التَّشريعَ موضوعاً لها¹¹".

وبهذا التَّأصيل ينادى ابن باديس بموقف الجمعية من الآراء الشخصية، و الأحكام الاعتبارية حين ردَّ الأمر إلى تَأصيلٍ شرعيٍّ يطمئنُّ له الأتباع، و يُلجِمُ به الخصوم، و تتجلى جوانب الخطاب الشرعي أثناء عرض ابن باديس لمواقفه إزاء قضايا المسألة اللُّغوية في الجزائر، و التي غالباً ما كانت مواقف تتبناها الجمعية كهيأة و يتعاقد العلماء في الترويج لها و إشاعتها.

يربط ابن باديس هدف التَّفَاعُل اللُّغوي النَّاجح بـ "المصلحة" و هي لفظَةٌ حملت في تاريخ التَّشريع الإسلامي شحنةً اندرجت تحتها كلُّ القضايا المستجدة ممَّا ليس عليه دليل صريح من نص قرآنيٍّ أو نبويٍّ، أو إجماع ظاهر، أو قياس بيِّن، و لمَّا كان ابن باديس - وهو الأصولي الحاذق - قد بنى أُسُسَ دعوته الإصلاحية على مبادئ دينية صريحة؛ فقد كان من الضَّروري أن تجد مسألة اللُّغة بتداعياتها المستجدة، و رؤاها الحديثة، تخربجا شرعياً لائقاً، و لم يجد ابن باديس مشقةً كبيرة في إيجاد سند التَّأصيل و امتداده تحت ضابط المصلحة المعتبرة شرعاً. فيقول: " فعلى القوم المترابطين بالمصلحة أن يفهموا بعضهم لغة بعض و خطه، و بقدر ما تكثر الأقوام المترابطة بالمصلحة تكثر اللُّغات و الخطوط و يلزم تعلُّمها، لأنَّ العلة هي الحاجة. و سواء كانت

المصلحة التي تربط الأقسام عُمُرانية أو علمية لأنَّ المصلحة من حيث هي مصلحة محتاج إلى تحصيلها¹² وبذلك يرفع ابن باديس من مستوى التعامل مع هذه المسألة من أنْ تطالها الآراء الشخصية، والاجتهادات الفردية، وذلك مظنةً للخلاف.

الخاتمة: باستعراض بعض الاستراتيجيات التي اعتمدها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تأطير المسألة اللغوية الجزائرية التي لغمها الاحتلال، نقف على أداء لافتٍ ودورٍ معتبرٍ استطاع علماء الجمعية بواقعتهم الظاهرة وبذلهم الصادق عرقلة مسيرة مشروع التآكل الداخلي للمجتمع الجزائري، بل الأكثر من ذلك أن استطاعوا تحويله إلى سبب للوفاق الداخلي، وتمتين الجبهة الاجتماعية بعد أن أبانوا عوار الخطاب الانقسامى الاستشراقى، وكشفوا في حكمة وهدوء وفعالية أهدافه ومراميه.

كما أبانت القراءة الدقيقة لجهود علماء الإصلاح عن مدى عمق النظرة الإصلاحية وشمولها وتأطيرها الواعي للقضايا الكبرى في المجتمع، ودرجة الفعالية التي كان عليها فريق العلماء، فجعلوا من الفترة التي كانوا يديرون أحداثها أغنى الفترات بمظاهر الألفة الوطنية، رغم ما أحاط بها من مفسدات الاحتلال ومنغصاته، مما يجعل من الرؤية اللغوية العامة لجمعية العلماء المسلمين التاريخية مشروعاً جديراً بإعادة الطرح من جديد، وإدراجه ضمن الحوار الدائر حول القضية اللغوية في الجزائر وتحيين إجراءاته ومقولاته، واعتباره أحد أهمِّ التجارب الهامة في الجزائر الحديثة.

المصادر والمراجع:

- 1- إبراهيم بن موسى الشَّاطِبي، الموافقات، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط1. القاهرة: 1417هـ/ 1997م، دار ابن عفان.
- 2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط خ. الجزائر: 2011م، عالم المعرفة.
- 3- أبو يعلى الزواوي، حياته وأعماله "مقالات" جمع وإعداد: عبد الرحمن دويب. محمد الأمين فضيل، ط خ. الجزائر: 2013م. دار زمורה للنشر والتوزيع.
- 4- عبد الحميد بن باديس، عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، إعداد وتصنيف: عمار طالبي، ط1. الجزائر: 2014م.
- 5- عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف: عمار طالبي، ط1. الجزائر: 2014م، عالم المعرفة.
- 6- علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925- إلى 1940 بحث في التاريخ الديني والاجتماعي، تر: محمد يحياتن، ط خ. الجزائر: دار الحكمة.
- 7- فريد حاجي، السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر، د ط. الجزائر: 1434هـ- 2013م، دار الخلدونية للنشر والتوزيع.
- 8- مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، د ط. الجزائر. 2014م دار الكتاب العربي.
- 9- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1. بيروت: 1997م، دار الغرب الإسلامي.
- 10- محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تح: بشار عواد معروف، د ط. بيروت: 1998م دار الغرب الإسلامي.

- 1 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط خ. الجزائر: 2011، عالم المعرفة، ج6، ص30.
- 2- فريد حاجي، السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر، د ط. الجزائر: 1434هـ-2013م، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ص306.
- 3- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1. بيروت: 1997م، دار الغرب الإسلامي، ج1، ص109.
- 4- مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، د ط. الجزائر. 2014م، دار الكتاب العربي، ج1، ص358.
- 5- المصدر نفسه، ج1، ص359.
- 6- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص206-207.
- 7- عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف: عمّار طالبي، ط1. الجزائر: 2014م، عالم المعرفة، ج2، مج3، ص452.
- 8- أبو يعلى الزواوي، حياته وأعماله "مقالات" جمع وإعداد: عبد الرحمن دويب. محمد الأمين فضيل، ط خ. الجزائر: 2013م. دار زمורה للنشر والتوزيع، ج3، ص321.
- 9- علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925- إلى 1940 بحث في التاريخ الديني والاجتماعي، تر: محمد يحياتن، ط خ. الجزائر: دار الحكمة، ص430.
- 10- محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تح: بشار عواد معروف، د ط. بيروت: 1998م دار الغرب الإسلامي، ج4، ص365.
- 11- إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط1. القاهرة: 1417هـ/1997م، دار ابن عفان، ج2، ص62.
- 12- عبد الحميد بن باديس، عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، إعداد وتصنيف: عمار طالبي، ط1. الجزائر: 2014م، ج1، مج2، ص231.

الهوية الوطنية...أرضية ومرجعية ثقافية

أ. عاطف عبران.

أ. التعليم الثانوي وطالب دكتوراه
جامعة الشيخ العربي التبسي، تبسة.

مقدمة:

تشكل الهوية الجانب الروحي لأمة ما ومرآة عاكسة لشعبها الذي يتبوأ من مقوماتها مكانا يباري فيه الهويات القومية الأخرى، ومنه سيركز البحث عن دور الهوية الوطنية في بناء الأمة والحفاظ على أمنها الثقافي؛ خاصة أن مقوماتها تعد ركيزة رئيسة بل من النقاط المهمة والبؤر الحساسة.

وإذا كانت الهوية تمثل الوطن والتاريخ واللغة والدين والثقافة، فإن الأمن الثقافي ينطلق أيضا من هذه المكونات. بيد أن مستجدات العالم فرضت على الهوية والثقافة واللغة منحى يساق إليه الفرد متصلا لأصله؛ فالصراع المفروض بين الأصالة والمعاصرة في معقل الأمة وبرعاية العولمة، هذا المصطلح المهذب وما يحمله في طبيئته من غزو فكري وثقافي ينخر جسد الهوية، وعليه سيسعى البحث إلى سبر غور هذا الموضوع من خلال الكشف عن مدى تأثير العولمة على الهوية والأمن الثقافي متناولا مفهوم المصطلحات وبيان مقومات الهوية الوطنية ومعايير الأمن الثقافي، وإلى أي مدى يمكن للهوية الوطنية أن تكون جدارا عازلا أمام هذا الغزو من أجل الحفاظ على الأمن الثقافي وخاصة أهم جوانبه المتمثلة في اللغة والثقافة.

فباللغة تفسر الدين وتذكر بالتاريخ والتراث وتوضح الجانب الإيجابي للعولمة حتى يستورد ما يناسب مفاسه الثقافي، فلا يمكن لوم التكنولوجيا على ما آلت إليه لغتنا وثقافتنا، بل يجب على الأفراد أن يتجنبوا فكرة الثقافة الاستهلاكية الدائمة وأن يعرفوا ما يأخذوه من العولمة" لم يكن ذنب الريح...هم كانوا أورافا"، فما أسلحة الفرد في

مواجهة هذا الاستعمار؟ وهل تمثل الهوية وظيفة للثقافة واللغة؟ وما مصير الهوية الوطنية بعدما وجدت نفسها بين سندان الأصالة ومطرقة المعاصرة؟ وما علاقة الهوية الوطنية بالأمن الثقافي؟ وللإجابة عن هذه الإشكالية سيعتمد البحث المنهج الوصفي والتحليلي فهو بصدد تشخيص الهوية الوطنية وحالة الأمن الثقافي انطلاقاً منها مع بيان الوضع الراهن ومؤشرات المستقبل التكنولوجي.

الهوية الوطنية ومقوماتها:

لا ريب أن الهوية كمصطلح يشير إلى الذات أو إلى الشخص، فهي "حقيقة الشيء في تميزه عن غيره"¹ فهي المعيار الذي يجعل الفرد يختلف عن غيره أو الجماعة أو الأمة. والهوية: "بئر بعيدة المهواة وتصغير لكلمة هوة: عميقة."² والهوية كميزة وطنية تمثل "رابطة قيمية ومسلكية بين أفراد المجتمع ككل أو فئة معينة."³

فالصفة الجامعة والشاملة لمجتمع ما تسمى هوية، بطاقة تعريف له لا تتعلق بزمن محدد بل تختص بالمكان حيث يعيش هذا المجتمع. والهوية الوطنية تنطلق من مجموعة مبادئ تسنها الأمة للحفاظ على أصالة شعبها وربطه بتاريخه وهناك هوية إسلامية: "الإيمان بعقيدة هذه الأمة والاعتزاز بالانتماء إليها واحترام قيمها الحضارية والثقافية وإبراز الشعائر الإسلامية والتمسك بها والشعور بالتميز والاستقلالية الفردية والجماعية."⁴

تميزنا الهوية الإسلامية عن بقية الأمم الغربية الأجنبية غير الإسلامية، بينما تميزنا هويتنا الوطنية عن جميع الأمم الأخرى؛ لأننا انطلقنا من معطيات خاصة بنا: معطيات ثقافية معرفية وعقلية ومنطلق شمل العقيدة والقيم والتاريخ تراث وحضارة. وإذا بحثنا في هويتنا نجد مصدرها القرآن الكريم ثم السنة النبوية، وعليهما تأسس دستورنا الوطني:

يقول تعالى: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (13) "الحجرات: 13"

قال فيها الزمخشري: " الحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض." ويقول عز وجل: "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (85) آل عمران، وقال في موضع آخر: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ" آل عمران:19.

وأيضاً: "وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ" البقرة:132.

مثلت الآيات هويات إسلامية دينية قومية واجتماعية. وركزت على الثبات على الإسلام.⁶ فالإنسان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" فأمرنا بالحفاظ على هذه الهوية والميزة التي خلقنا فيها. وجاء الدستور ورسم لنا حدود ومعالم هويتنا:⁷

المادة 01: الجزائر جمهورية ديمقراطية شعبية، والمادة 02: الإسلام دين الدولة، والمادة 03: اللغة العربية لغة وطنية ورسمية، والمادة 04: اللغة الأمازيغية لغة وطنية ورسمية. فالدستور رسم حدود ونظام الجمهورية بشريعة إسلامية معتمدة لغة عربية واجهة للأمة وأمازيغية رابطة للأصل.

ومن مكوناتها:

الوطن: وما يرمز إليه من وطنية وقومية، فبناء الوطن وتتميته والعمل على تقدمه والذود عنه من أولويات الهوية فبحضورها يشعر الفرد بمأمن من الشرور وفي غيابها تنتعش الهويات الثانوية وبذلك تبرز كعنصر مهم من عناصر الاستقرار والتقدم والبقاء. تمكن الفرد من الشعور بوطنيته والأرض التي نشأ منها، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم عندما أخرج الكفار من مكة قوله: " ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك" فهذا يدل على تأثر النبي صلى الله عليه وسلم وحبه لمكة أين ترعرع ونشأ، وعن قوله تعالى: " وإنا لرادك إلى معاد" قال البخاري: أنها مكة. وقد ورد عن الحافظ الذهبي ان النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب جبل أحد ويحب وطنه كما ورد عنه: اللهم حبيب إلينا المدينة

كحبنا مكة أو أشد." والمواطنة والقومية مجموعة حقوق وواجبات وطنية تختص بأفراد الأمة.

فحب الوطن من شيم الرجال ومن سمات الهوية وركيزة مهمة لبقية المقومات. **العقيدة أو الدين:** كما سبق ذكر الهوية الإسلامية التي تمثل "انتماء للعقيدة في المقام الأول يترجم ظاهرا في مظاهر دالة على الولاء لها والالتزام بمقتضياتها."⁸ فالدين واجهة الهوية وله فضل كبير في ضبط الحدود ورسم طريق واضح المعالم للأفراد والمجتمعات خاصة الإسلامية.

اللغة:

إذا نظرنا إلى تعريف اللغة عند ابن جني نجدها: " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁹ نستشف صفة الخصوصية والجمعية، خصوصية مجتمع ما بتبني لغة ورثها عن أجداده ومطالب بالحفاظ عليها، والجمعية في اشتراك فئة من الأفراد والتواصل بلغة موحدة تجمعهم، وصفة القصدية: تواصلية إيلاعية إلهامية، وهي وسيلة تطور الشعوب كما ينظر مالك بن نبي، وعرفها ابن خلدون بأنها: " عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة رد فعل لساني ناشئ عن القصد لإفادة الكلام فلا بد أن تصير ملكة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة حسب اصطلاحاتهم."¹⁰ لقد أجاب عن السؤال: لماذا نتكلم؟ وكيف نتكلم؟ وهل اللغة موحدة؟ فائدة اللغة التواصل والتعبير عما يجول داخل الإنسان فيفصح عنه باستعمال اللسان، حيث عده أداة ووسيلة للغة، واللغة وسيلة تواصل. وتختلف بين أمة وأخرى فاللسان غير موحد، كما قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ " إبراهيم:03.

واللسان يقصد به اللغة، وهو الأداة التي يعبر بها ووسيلة استعمال اللغة. وعلاقتها بالهوية أنها رمز من رموز المجتمع وسمة بارزة فيه وجزء لا يتجزأ من الهوية.

الأصل الأمازيغي: يعود أصل المجتمع الجزائري إلى البربر كما أشار ابن خلدون إلى ذلك: "...ويقال أن أهل إفريقيا من البربر وأن الإفرنج منهم أيضا، ويقال أن أهل الأندلس منهم أيضا."¹¹

هذا الأصل الأمازيغي مظهر من مظاهر الهوية الوطنية، لأنه الأساس الذي تكون منه هذا المجتمع، كما قال ابن باديس "فما من منكر أن الأمة الجزائرية كانت أمازيغية بربرية من قديم عهدها وأن أمة من الأمم التي اتصلت بها استطاعت أن تقلبها عن كيانها." ولذلك لم يهمله الدستور من خلال توظيف اللغة الأمازيغية في الجانب الحياتي والاجتماعي للأفراد وربطهم بأصولهم والاعتزاز بهذا الانتماء.

التراث: يعد عنصرا مهما من عناصر الهوية الوطنية وامتداد السلف في الخلف واستمرار مآثر الأجداد في الآباء ومآثر الآباء في الأبناء والأحفاد. فالتراث يمثل الأصل والعتبة الأولى لبناء أي صرح وأي أمة فهو التاريخ والحضارة، والمجتمع إذا ترك أصالته أفلتت منه عروبته وثقافته، وإذا ترك المعاصرة أفلتت منه عصره.¹² فالفرد مطالب بالتوفيق بين القديم والحديث والأصالة والمعاصرة والمحلي والمستورد لا إفراط ولا تفريط.

الوحدة الجغرافية: يمثل هذا العنصر مكان إقامة الهوية الوطنية وحدود سريانها حتى تطبق بقية المكونات بكل استقلالية، وترتبط بالتاريخ والتراث والحضارة التي كانت سائدة في هذا المكان فتدفع بالاعتزاز والشعور بالشرف خاصة إذا كانت مهد بطولات وانتصارات سيخلدها التاريخ على مر العصور.

لغة وثقافة الهوية بين سندان الأصالة ومطرقة المعاصرة:

ترتبط اللغة العربية بين الماضي والحاضر والمستقبل وتشكل الطريق الذي تسير عليه الأمة على مدار السنين واختلاف الأفراد، فثباتها ثبات للقيم والحضارة والتراث، وتعلم اللغة المحلية أمر واجب وحتمي لأنها وسيلة تواصل وبنية خطاب ووعاء فكر وأداة تعبير، واللغة العربية لغة القرآن من وسائل حماية الذات وتخليصها من التبعية للغات الأجنبية دون إهمال تعلم بقية اللغات للاستفادة وزيادة

الرصيد المعرفي للإنسان خاصة إذا فرضها الواقع والعولمة، وهذا ما يرفضه الباحث عباس الجراري الذي شن هجمة شرسة على فكرة تعلم اللغات حيث قال: " فلا نوهم أنفسنا بأنها أداة للرقى والسبيل إلى اللحاق بالعولمة.¹³ إن مرد هذه النظرة هو الوطنية والغيرة على اللّغة العربيّة مخافة أن يصيبها الرطانة فتدخل قاموسنا اللغوي مما يؤدي إلى التشويه والعبث ومن ثم فقدان العروبة والقومية والخاصية والقيم، وهذا ما يؤكد الغزالي حين يهاجم دعاة العولمة والتكنولوجيا واللّغة الأجنبية: " والذين يستقبلون الغزو الثقافي برضا وبحماس ينظرون إليهم ثم يفتحون الباب على مصراعيه لهذا الغزو فهو في تصورهم إنقاذ من التخلف.¹⁴ وما نلحظه اليوم من دخول بعض الكلمات لا هي أعجمية ولا فارسية ولا حتى "فرانكوآراب" خاصة على مواقع التواصل الاجتماعي أين يشار لحرف الحاء بالرقم7، وحرف العين ب3، وتكتب بقية الحروف بالفرنسية. فهذا ليس نوعا من اللغات التي ترفع الرصيد المعرفي، وإنما وسيلة للابتعاد عن العروبة وقيمها والترحيب بالدخيل على هويتنا. صحيح أن اللّغة عامل مهم للترابط بين جيل وآخر، "ووسيلة انتقال الثقافات بين العصور.¹⁵ لكن ما هكذا تورد النوق، على الفرد أن يعرف لغته حتى يعرف دينه وقرأ القرآن من أجل أن يحمي نفسه ومجتمعه من اللغات والأفكار الهدامة التي تبعث بالسموم الثقافية. يقول البشير الإبراهيمي: "لغة العرب قطعة من وجود العرب وميزة من مميزاتهم ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة."¹⁶ فالقارئ أو الناظر للغة مجتمع ما لن يكتفي بتلك المدة الزمنية التي حبسه فيها النظر بل ستأخذه اللّغة إلى البحث في تاريخها وعراقتها وقدمها واستمراريتها عكس اللغات الأخرى التي لم تعمر مقارنة باللّغة العربية، "واللحاق بالركب الحضاري والتطور العلمي لا يكون باستعمال اللغات الأجنبية فقط بل ضرورة التوازن في الذاتية العربيّة مع الإنسانية الحضارية وجوهر الذاتية يكمن في اللّغة العربيّة.¹⁷

وعن تعلم اللغات الأجنبية ورد في الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم حين أمر زيدا بن ثابت أن يتعلم اللغة العبرانية وقال: "إني لا آمن يهوديا على كتابتنا أو على سرنا فأمره أن يتعلمها فتعلمها في خمسة عشر يوما.¹⁸ إن تعلم اللغات الأجنبية مفيد وضروري في هذا العصر لكن ليس على حساب اللغة الرسمية، فلا يمكن التخلي عن الأصل في سبيل المعاصرة لأن الفضل للسابق ولو أحسن اللاحق، والفرد مجبر على المزج بين اللغة العربية ومقتضيات التكنولوجيا والعولمة حتى لا يهمل هويته. إن اللغة حافظة وناقلة للثقافات تحفظ وحدة الأمة وتمكن الأفراد من التواصل، قال ابن تيمية: "للغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب"¹⁹ لأن تعلمها ومعرفتها لن يتوقف عليها أو على استعمال التكنولوجيا والتواصل فقط بل تفسر الدين وتقرب الفرد إلى ربه وتعرفه بتاريخه وتاريخ أمته. وهي تمثل مع الهوية الوطنية خاصية إنسانية وكلاهما يشيران إلى العقل والإنسان لغة وهوية وهو وحده الذي يملك شعور الذاتية. وقوله تعالى: " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً" فمن صور التكريم والتفضيل للغة وأعظمها العربية. وهي مع الدين عنصران مركزيان لأي ثقافة أو حضارة.²⁰ ورأس كل ثقافة هو الدين بمعناه العام والذي هو فطرة الإنسان.²¹

والدين مرتبط ارتباطا شديدا باللغة فهي بذلك أيضا من مصادر الثقافات وأحد رموزها، "ويجري إزاحة اللغة العربية تدريجيا لمكانة اللغات الأخرى سواء في الخطب الشفوية والمراسلات أو وسائل الإعلام وغيرها."²² ومن ناحية الثقافة فاللغة تعد ثروة ثقافية وفكرية يجب الحفاظ عليها خاصة عند التقاط قارب العبور في محيط العولمة.

الثقافة: من ثقّف: حذق، مهرة، فطن، ثقّف الشيء أقام المعوج منه وسواه وثقّف الإنسان أدبه وهذبه وعلمه.²³ ويعرفها مالك بن نبي بأنها: " مجموعة صفات خلقية وقيم اجتماعية تؤثر في الفرد منذ ولادته لتصبح لا شعورية تلك العلاقات التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه فهي على هذا المحيط الذي يشكل فيه

الفرد طباعه وشخصيته كما يشير إلى ضرورة التركيب المتآلف للأخلاق والجمال والفن من أجل تكوين الثقافة.²⁴ فالثقافة مزيج مركب من قيم وأخلاق وفنون وغير ذلك تشكل صفات يتغنى بها الفرد أو المجتمع، وهي تراكمات معرفية وأخلاقية وحضارية عبر العصور والأجيال لها علاقة بمكونات الهوية كاللغة والتراث والدين، ولها قابلية الانفتاح والتفاعل مع الثقافات الأخرى مع الاحتفاظ بذاتيتها وخصوصيتها التي تميزها عن باقي الثقافات. كما أنها "تراث حضاري ومنهجية تفكير وأسلوب عيش ومعاملة."²⁵ تشير إلى الماضي والحاضر وترسم المستقبل حيث تشكل المعتقدات والمعرفة والفنون والعلوم والأخلاق وحتى العادات ملامح وأشكال ثقافية ثابتة نطلق عليها هوية ثقافية؛ لأنها أصبحت ميزة للمجتمع فتحفظه من الاختلاط بالثقافات الأخرى وتعزز الذاتية الثقافية وروح الانتماء لها.

الهوية الوطنية والأمن الثقافي والعولمة:

تمثل الهوية الوطنية مرجعا للثقافة والثقافة جزء ومكون لها، والأمن الثقافي من وسائل الحفاظ على الهوية الوطنية. والعولمة تمثل تهديدا لكليهما خاصة إذا حملت لواء نشر الثقافة العالمية الموحدة والتدخل في الثقافات المحلية القومية، ومع ذلك فالخوف من فقدان الخصوصيات الوطنية خاصة أمام العولمة لا يعني الانكماش على الذات ورفض الآخر، فالمجتمعات التي تحاول صد الأخطار الثقافية الخارجية عن طريق سن تشريعات المنع والحظر والرقابة هي أكثر المجتمعات تعرضا لها أما التي تصنع ثقافتها الخاصة المستنيرة المنفتحة وتواجه بها تلك الثقافة تستطيع أن تصمد أو تنتصر.²⁶ فلا بد من الاستفادة من إيجابيات هذا العصر للحفاظ على الذاتية الثقافية وتطويرها. فالصنع والإنتاج مرحلة من عمر الثقافة يجب أن تكون محلية بأسس وطنية لا أن تستورد إن لم نقل تلتقط، فهي "لا ترتجل ولا تستورد ولا تنشأ من العدم لأنها ترتبط بأمة معينة وتعبر عن معطيات فكرها ووجدانها."²⁷ وما يؤثر في هذا الارتباط هو الهوية الوطنية من خلال الاحتفاظ بالقيم الثقافية، وانتقاء ما يوافق المبادئ أو تعديلها حتى توافق ذلك، مما يؤدي إلى تحقيق الوعي بالذات

الثقافية والوعي بالدور الحضاري وغرس روح التنمية لتحقيق حصانة ومناعة ثقافية وفكرية، مع تجنب وهم الحداثة.

الأمن الثقافي: يشير الأمن إلى الاستقرار، والجو المريح مما يتيح ويسمح للتعبير بحرية. والثقافة مزيج فكري غير محدد بزمن لكنه مرتبط بمكان حيث يعكس صورته. فهما يحملان صفة الإيجابية والتوسع والحرية والتنوع.

والأمن الثقافي: نوع من الأمن يحافظ على الذاتية الثقافية في مواجهة الهيمنة على القومية؛ الحفاظ عليها من التيارات الثقافية الأخرى ومستجدات العصر وتحولاته، وتكون المحافظة على المقومات الوطنية والثقافية من خلال تأصيلها وتطويرها.

وقد أشارت دراسة بيتر كانزيستن²⁸ 1996 إلى أهمية تحقيق الأمن الثقافي من خلال المحافظة على الثقافة الوطنية في جميع المجالات لأنه الأساس في تحقيق الأمن القومي الشامل في عصر العولمة وتكون المحافظة قيما ومعايير.

ومما أصبح يؤخذ على الثقافة المحلية: التبعية الثقافية من خلال عدم تجانس النخبة المثقفة مع السياق الاجتماعي، والتغريد خارج الصندوق، إضافة إلى الثقافة الاستهلاكية التي من نتائجها الهيمنة الذاتية والهيمنة على لغة شعب ما، ونجد أن الهوية الثقافية تنطلق من الهوية الوطنية في بعث مكوناتها لمجتمع ما: الإنسان، العقيدة، اللغة، التاريخ، العادات، الحضارة، التراث، والجغرافيا.

والحضارة مظهر مادي للثقافة والثقافة مظهر عقلي لها، كما أن الهوية لب الثقافة، ونجد في الهوية الواحدة عدة ثقافات، وإذا كان مفهوم الأمن الغذائي والمائي والاقتصادي هو التوفير واتخاذ الإجراءات الوقائية لضمان الاستقرار والعيش؛ فإن الأمن الثقافي هو الحفاظ على الهوية الثقافية والمقومات التي يركز عليها الشعب لضمان استقرار معرفي متفتح على تبادل الآراء واحترامها ولتشكيل تفاعل إنساني قائم على تبادل هذه الآراء والعلاقات باستخدام وسائل تختلف بين فترة وأخرى وإذا تحقق هذا الأمن فإنه يهيئ للقضاء على الأفكار المتطرفة والعنف، وبسط التعايش السلمي.

ومحاولة طمس الأمن الثقافي لأي أمة يبدأ بالهوية الوطنية فعناصرها تشكل وحدة وطنية متلاحمة، والمهمة الجوهرية للأمن الثقافي لا تتعلق الثقافة فقط كما يشير إليه المصطلح بل مهمته هي الحفاظ على مكونات الهوية الوطنية وأما هذا التحول العصري يجب التأسيس والتطوير وفق المبادئ التي نشأت منها هذه المكونات. وبصفته شكلا من أشكال التنمية البشرية والفكرية فإن ما يحاول زعزعه وبالتالي زعزعة الهوية الوطنية هو العولمة، ذلك المصطلح المذهب إيجابي في بداياته وحتى في بعض جزئياته لكنه مع الوقت ومع الاستعمال غير العقلاني والنوايا غير الحسنة للمصدر أصبحت وحشا ينخر جسد الهوية من أجل الوصول إلى ثقافة عالمية موحدة حتى وإن كانت على حساب المكونات القومية الوطنية (الدين، اللغة، مراعاة البيئة الاجتماعية...) فكل هذا يجعل من الأمن الثقافي "امتدادا لبقية الأمن يحمل معنى دفاعي، وأحد جوانب الأمن القومي وشكلا من أشكال حرية الرأي وحرية التفكير والتعبير وفق أسس قومية ووطنية من أجل المصلحة العامة".²⁹

وللأمن مستويات:

أمن الفرد: ضد كل ما قد يهدد حياته وممتلكاته وأسرته والعمل على تحقيق رفاهيته.

أمن الدولة: ضد الأخطار الخارجية أو الداخلية والحفاظ على الوطن.

أمن المجموعة: تأمينها من أية أخطار تشوب هويتها أو ثقافتها أو معتقداتها.³⁰

ويمثل أمن المجموعة الأمن الثقافي والحفاظ يكون من خلال الهوية الوطنية، والإنسان في هذا العصر ثقافيا يجد ثقافته بين الاحترام والتأثر (ثقافة الحوار وتقبل الآخر) وأمام تحدي هيمنة نسق ثقافي واحد.

وبذلك تكون الهوية الوطنية في مواجهة العولمة إما الصمود وأخذ ما يلائم الهوية ومقوماتها أو الاستسلام لمغريات العولمة. وهجمات الاستعمار، فالاستعمار الغربي "مزدوج الهدف طامع في الخيرات ومثقل بالضغائن يكره الإسلام كراهية شديدة ويشند ضيقه بالعرب خاصة أنهم قوم محمد وحملة رسالته وما تزال لغتهم مستودع

كتابه وسنته.³¹

العولمة: نظام عالمي يقوم على تحرير الأسواق والفضاءات الاقتصادية والتبادلات التجارية والمالية والخدماتية وعلى الاختراق المتواتر للخصوصيات والحدود الثقافية والقيمية والجغرافية والسيادية.³²

فهي نظام منطور لا يعنى بمجال معين بل يلج جميع مجالات الحياة، ولها أثر في خلق الهويات الجزئية وتأثيرات ثقافية ولم تعد الهوية الوطنية مرتبطة بمكان.³³ لأن الهوية والثقافة تتميزان بالزمن غير المحدد بينما المكان ثابت منذ زمن ماض، لكن العولمة تلغي فكرة خصصة المكان وتفتح الأفطار على بعضها، فهي "تتضمن امتداد خارجي للثقافة المحلية المعنية إلى أقصى حدودها أي العالم أجمع وتصبح الثقافات المختلفة منخرطة في الثقافة الغالبة التي سوف تغطي بعد حين جميع العالم"³⁴. وهنا المقصود الهيمنة الثقافية فتصبح الشعوب منافدة لها لأنها حلت محل الثقافة المحلية والقومية. فالمغلوب مولع بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه وسائر أحواله.³⁵ فالعولمة تحمل أبعادا اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية وحضارية وتكنولوجية، "أنتجتها التغيرات العالمية التي حدثت في العصر الحالي وكان لها تأثير عظيم على حياة الأفراد والمجتمعات والدول"³⁶.

وإذا أخذنا العولمة من البعد الثقافي فهي نتيجة تطور لثورة المعلوماتية والتقنية والاقتصادية والتطور الحضاري الذي يوحد مصير الإنسانية أو يصبح نازعا للتوحد.³⁷

فهي محاولة إدخال نموذج ثقافي لمجتمع ما وتعميمه على بقية المجتمعات والأمم من خلال الاختراق الثقافي، واختراق مقومات الهوية الوطنية وكسر حاجز الأصالة، فلغة الشبكة العنكبوتية ومواقع التواصل الاجتماعي متفق عليها، وهذا سبب في الشعور بالتمرد على النظام الثقافي والاجتماعي والاعتراب وتنشأ الازدواجية الثقافية واللغوية وتؤثر على مسار الهوية الوطنية ومقوماتها خاصة اللغة والثقافة، ومن نتائج ذلك أيضا:

الحرية الكاملة لانتقال المعلومات والبيانات والاتجاهات والقيم على الصعيد العالمي، وفقدان القدرة على التحكم في تدفق الأفكار والقيم والقناعات، وانتشار الثقافة الاستهلاكية، وكما أشرنا فالعولمة الثقافية تلغي الحدود والحواجز الثقافية بين الأمم والمجتمعات وتسعى نحو صياغة ثقافة عالمية موحدة وإذابة الثقافات الأخرى والقضاء على التراث الثقافي دون النظر في الهويات القومية، وهنا يكمن دور الأمن الثقافي الذي يعتمد الاعتزاز بالذات الثقافية الحضارية وعدم التضييق عليها والانفتاح والحوار مع الثقافات الأخرى المعاصرة. ويمثل الإعلام قوة كبيرة في هذا العصر تدعمه التكنولوجيا يجب استثماره وخلق الإبداع كمحاولة تطوير الثقافة المحلية بما يناسب الهوية الوطنية صمام الأمان الذي يهدف إلى حماية الوطن من التفكيك وطمس هويته وتدمير حضارته ونهضة ثقافته، ومن متطلبات ذلك أيضا: ترسيخ عقيدة دينية صحيحة وتوظيف اللغة العربية في الوسط الاجتماعي والمهني وتنمية الأخلاق والوعي مع مراعاة التنشئة الاجتماعية ونشر روح المواطنة.

ويكون التنوع أو التواصل الثقافي من منطلق الهوية الوطنية واستعادة ذاكرة التاريخ للوقوف على تاريخ هذه الحضارة، إضافة إلى تطوير المعارف من خلال استيعاب القديم بعقل منفتح، والاعتزاز بالذات وتنمية الثقة لدى الأفراد والاعتزاز بالرموز الوطنية، " الأمة التي لا تثق بقدراتها ولا تقدر إمكاناتها الذاتية لا يمكن إلا أن تكون ظلا للآخرين تابعا لهم ما يؤدي إلى التسول الحضاري الذي يشير إلى العجز والفشل"³⁸.

وأهم من ذلك كله استغلال السلبيات وجعلها إيجابيات في صالح الهوية الوطنية، كتنشئة الثقافة الإسلامية وتطوير الثقافة واللغة في حيز المبادئ الوطنية والأصالة، وللأسرة دور في الحفاظ على الهوية الوطنية لأنها تمثل التربية الجسمية والنفسية والأخلاقية والثقافية والدينية ومحاولة الوقاية من الانترنت والإعلام (السلبي).

خاتمة:

إن الهوية الوطنية هي تاريخ الأمة وحاضرها ومستقبلها، ومحاولة الإخلال بأي جانب من جوانبها تكون عواقبه وخيمة على شعب هذه الأمة في الأمد القريب أو البعيد، وبمكوناتها والحفاظ عليها يستطيع الفرد مجابهة العولمة التي أصبحت قطبا مغناطيسيا يدافع عن لغته وقوميته وثقافتها التي نشأت في أحضان الركام التاريخي والحضاري والتراثي ولأن الأمن الثقافي يقوم بالهوية الوطنية ويزول بزوالها ويسعى للحفاظ عليها من المستجدات والتحولات السلبية لهذا العصر ومحاولة صد الأطماع الثقافية الساعية لدمج الثقافات وتوحيدها دون مراعاة خصوصية الأمم ومبادئها، ولقد مر البحث على أهم حدود المصطلحات كالهوية واللغة والثقافة والعولمة، وسعى لبيان مكونات الهوية الوطنية وآليات الحفاظ عليها واستراتيجية الأمن الثقافي في تأمين الهوية، ولأن الثقافة تنطلق من الهوية وتمشي في دربها وتنتهي إليها، كان لزاما تأمينها بالأمن الثقافي الذي يحمل معاني الدفاع والتحصين والتطوير والاستقرار في جوانب الهوية الوطنية، لأنها بذلك تشكل استقرارا للوطن والأمة، ومن أجل تأمين ذلك كله نلتمس من الطبقة السياسية تخصيص برنامج موسع للجانب الثقافي أو حتى جوانب الهوية الوطنية كاللغة والتراث...

وتخصيص يوم وطني احتفاء بالهوية الوطنية ومقوماتها وتقريبها للمواطن البسيط الذي يجهل مكوناتها، أو تعيين أيام معلومة لمقومات الهوية الوطنية وإقامة ندوات علمية في هذا المجال من أجل الحفاظ والتطوير ومواكبة العصر. كما نثمن حرص السلطات ومراقبتها للأفكار والتيارات الفكرية الدخيلة سواء على المستوى الإلكتروني أو الواقعي والتي تهدف إلى زعزعة الوطن-حفظه الله- ومحاولة التشويش على الهوية الوطنية والمبادئ القومية، ويعد هذا الحرص من مظاهر الأمن الثقافي وطرق المحافظة على الهوية الوطنية.

روافد البحث:

- زغو محمد، أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، ع2010، 4، ص:93.
- أبعاد الأمن الثقافي لدى الشباب، موقع المعركة: 2012/11/01
www.alma3raka.net.
- www.uqu.edu.ar118295.15-03-2012.
- ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، مطبعة السنة المحمدية، ط1369، 2هـ.
- ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، أحمد حاد، دار الغد الجديد، القاهرة، مصر، ط1، 2007.
- الزمخشري، الكشاف، تح: عادل أحمد، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ط1، 1998-1418.
- ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتاب، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
- برهان غليون، سمير أمين، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1999.
- جلال أمين، العولمة والتنمية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999.
- حمد بن صراي، جذور التراث وتشكيل الهوية الوطنية لبنات راسخة ومقومات حضارية، البيان: 2017/01/05 www.albayan.ae
- صمويل هنتجتون، صراع الحضارات، بالإنجليزية، نيويورك، 1997. نقلًا عن فيصل الحفيان، الألوكة:
- عادل زقاغ، إعادة صياغة مفهوم الأمن برنامج بحث في الأمن الاجتماعي،
- عبد الإله بلقزير، في مفهوم الأمن الثقافي، جريدة الوطن، الإمارات، ع153، 2009/06/03.

- عبد العزيز بن عبد الله، تطور الفكر العلمي ولغة التقنيات في المغرب منذ العصور الوسطى، مجلة اللسان العربي، المنظمة العربية للثقافة والفنون، الرباط، م10، ج1.
- عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشهاب، باتنة، 1984.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1986.
- محمد السويدي، مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته، المؤسسة الوطنية للكتابة والنشر، الجزائر، 1991.
- محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الشروق، القاهرة، د. ط، د. ت.
- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997.
- محمد عبد الله الجريبي، وسائل الإعلام العربي والعولمة الثقافية، الدراسات الإسلامية، ع100، أيلول 2000.
- محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، نهضة مصر للطباعة، ط1، 1999.
- مصطفى محسن التربية وتحولات عصر العولمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2005.
- .1430/09/15-2009/09/05/www.alukah.net
zeggargh/lints.htmlwww.geocities.com.Adel
- هولمبسو هولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة: حاتم عيد محسن، دار كيوان دمشق، سوريا، ط1، 2010.

لهوامش والاحالات

- ¹ابن منظور، لسان العرب، ص:375-376.
- ²المعجم الفلسفي، مجمع اللّغة العربية، ص: 208.
- ³عبد الله الجسيمي، الهوية وثقافة العولمة، ص: 100.
- ⁴خليل نوري، الهوية الإسلامية، ص:45.
- ⁵الزمخشري، الكشاف، ج5، ص:585.
- ⁶مرجع سابق، ج1، ص:329.
- ⁷الدستور الجزائري، 2016، ص:06.
- ⁸جمال محمد الزكي، الفرق بين الهوية الإسلامية والهويات الأخرى، موقع الجمعية الشرعيةية.
- ⁹ابن جني، الخصائص، ص:67.
- ¹⁰عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ص: 548.
- ¹¹ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ص: 64.
- ¹²حمد بن صراي، جذور التراث وتشكيل الهوية الوطنية لبنات راسخة ومقومات حضارية. مقال إلكتروني.
- ¹³عباس الجراري، الهوية الوطنية والجهوية، ص:70.
- ¹⁴محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، ص:70.
- ¹⁵محمد المبارك، فقه اللّغة وخصائص العربية، ص:32.
- ¹⁶أحمد بن نعمان، التعريب بين المبتدأ والتطبيق، ص: 18.
- ¹⁷عبد العزيز بن عبد الله، تطور الفكر العلمي ولغة التقنيات في المغرب منذ العصور الوسطى، ص:45.
- ¹⁸الترمذي، كتاب المناقب، ح3861.
- ¹⁹ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج2، ص:207.
- ²⁰سمويل هنتجتون، صراع الحضارات، بالإنجليزية، ص57. نقلا عن فيصل الحفيان.
- ²¹محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا.
- ²²جلال أمين، العولمة والتنمية العربية من حملة نابليون إلى جولة الأوروغواي، ص: 117.
- ²³ابن منظور، لسان العرب، مادة ثقّف.

- ²⁴ ط: محمد السويدي، مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته، ص:68. و عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ص:110، ومالك بن نبي، شروط النهضة، ص:82.
- ²⁵ زغو محمد، أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، ص:93.
- ²⁶ محمود محمود النيجري، الأمن الثقافي العربي-التحديات وآفاق المستقبل.
- ²⁷ أبعاد الأمن الثقافي لدى الشباب، موقع إلكتروني-03-15-118295.15 www.uqu.edu.ar
- 2012.
- ²⁸ مرجع نفسه.
- ²⁹ عبد الإله بلقزيز، في مفهوم الأمن الثقافي، جريدة الوطن، الإمارات، ع153-20093/06/3.
- ³⁰ عادل زقاغ، إعادة صياغة مفهوم الأمن برنامج بحث في الأمن الاجتماعي.
- محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، ص: 32.³¹
- ³² مصطفى محسن، التربية وتحولات عصر العولمة، ص:19.
- ³³ هولمبسو هولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ص:98.
- ³⁴ محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ص:167.
- ³⁵ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ص:123.
- ³⁶ محمد عبد الله الجريبي، وسائل الإعلام العربي والعولمة الثقافية، ص:70.
- ³⁷ برهان غليون، سمير أمين، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، ص:75.
- ³⁸ محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، ص: 44.

الأمن اللغوي ضرورة وطنية

ع. بغدادي

وسأعالجه عبر طرح الإشكالية الموالية:

هل تشكل اللغة إسمنت الوحدة الوطنية؟ وبالتالي هل يعتبر الأمن اللغوي ضرورة وطنية؟

ولتحليل الإشكالية المطروحة رأيت بسط الموضوع عبر المحاور التالية:
المحور الأول يتعرض لمفهوم الأمن اللغوي والظروف التي ظهر فيها هذا المصطلح أما

المحور الثاني فيستعرض التحديات التي تواجه اللغة العربية على المستويين الداخلي والخارجي

بينما يتناول المحور الثالث فكرة الأمن اللغوي كضرورة وطنية وأعالج فيه شمولية مفهوم الأمن ودوره في الحفاظ على اللغة العربية وكذا دور اللغة العربية في تعزيز وحدة المجتمع وترسيخ الهوية الوطنية بمختلف أبعادها وفي الأخير أتعرض لأهمية العمل على بعث آليات التكامل بين اللغتين العربية والأمازيغية بوصفهما عاملَي تكامل وانسجام وليس عنصرَي تصارع وتضاد،

وأختتم المداخلة بنتائج عامة

أولاً: مفهوم الأمن اللغوي

1 – مفهوم الأمن: يُقصد بالأمن عاد توفير كل الأسباب التي تمكّن كياناً سياسياً ما، أو مجتمعاً بشرياً معيناً من التصدي لكل العوامل التي تهدد كيان الدولة أو تمس بوحدة المجتمع فبدون تحقيق الأمن لا يمكن الحفاظ على الكيان السياسي وعلى وحدة المجتمع ومن ثم فعند غياب الأمن يصبح كيان الدولة وكذا المجتمع

مهدها في وجوده؛ لذلك يرتبط الأمن ارتباطاً وثيقاً بالسعي لتحقيق المصالح العليا لذلك الكيان أو هذا المجتمع. ونظراً لارتباط مفهوم الأمن تاريخياً بالكيان السياسي أي الدولة أو الوطن فإنه يعرف عادة بالأمن الوطني ويعتبر الاستقرار أحد الأهداف الرئيسية لنظرية الأمن الوطني؛ لأن الاستقرار يترتب عليه بعث التنمية والتطور وبسط النفوذ وقد ظلّ مفهوم الأمن الوطني لعهود مديدة مقتصرًا على الجانب العسكري؛ أي استخدام القوة في العلاقات الدولية، ومع تطوّر الأحداث توسع هذا المفهوم ليشمل العديد من جوانب الحياة في المجتمعات، فظهر الأمن الاقتصادي والأمن الاجتماعي والأمن الغذائي والأمن المائي والأمن البيئي ويندرج ضمن هذا التطور الحاصل مفهوم الأمن اللغوي وهو مصطلح مستحدث كان حصيلة للتطور التاريخي لمفهوم الأمن وهو حقل جديد من حقول المعرفة يتمحور حول دراسة سبل الحفاظ على اللغة من مختلف من مختلف مصادر التأثير الذي تتعرض له وكذا تطويرها بما يحول دون ضعفها أو انقراضها.

يقوم الأمن اللغوي على ركيزتين أساسيتين: هما معرفة التحديات الداخلية والخارجية التي تواجه اللغة من جهة ووضع الحلول الملائمة لمواجهة تلك التحديات من جهة أخرى بما يضمن بقاءها حية في قلوب الناطقين بها، فاعلة في محيطها ومؤثرة في فضائها.

وباعتبار اللغة محور الثقافة والوجه الأبرز لها والحاملة لقيمها، فقد ارتبط الأمن الثقافي بالأمن اللغوي، وبحكم أن الثقافة تعني مجموعة الأنشطة الفكرية والفنية وما يتصل بهما من مهارات تبرز خبرات الإنسان وتراثه عبر الأجيال، كان اهتمام المجتمع بثقافته وتراثه يعد بمثابة اهتمام بكيانه ومصيره ومستقبله ومن هنا تأتي أهمية الاعتناء بالثقافة عبر إحيائها وتطويرها ومواجهة كل أساليب الغزو والثقافي من خلال تحقيق الأمن الثقافي ونظراً لمركزية اللغة ضمن المنظومة الثقافية، فإن الأمن الثقافي والأمن اللغوي متلازمان ويعتبر كل منهما حلقة مهمة في سلسلة الأمن الوطني.

2 - الظروف التي ظهر فيها مصطلح الأمن اللغوي

كثُر الحديث في عصرنا عن الغزو الاستعماري والغزو الثقافي والغزو الفكري وسواها من مختلف أشكال الهيمنة، ولذلك ظهرت طرق متعددة لمواجهة مختلف أساليب الغزو ومستوياته فكان الأمن العسكري والأمن الثقافي والأمن الاقتصادي والأمن الاجتماعي والأمن الغذائي والأمن المائي والأمن البيئي وسواها من مختلف أساليب التصدي للقضايا التي تستهدف المس بحياة المجتمع والكيان السياسي الناظم لشؤون حياته وهو الدولة، ونظرا للدور المركزي الذي تقوم به اللغة في حياة المجتمع وصقل هويته والحفاظ على شخصيته وترسيخ ثوابته، ظهر مفهوم الأمن اللغوي خلال منتصف الستينيات من القرن العشرين وهو يهتم بالحفاظ عليها من مختلف صور الغزو وجعلها تسير التطور وحفظ خصوصيتها وتصل مآثرها بما يجعلها تستجيب لقضايا العصر دون أن تذوب في الفضاءات اللغوية الأخرى المنافسة لها أو تندثر لعدم القدرة على البقاء في تلك الفضاءات التي يتواجد فيها كم هائل من اللغات والثقافات.

ظهر هذا المفهوم في الولايات المتحدة الأمريكية على يد عالم الاجتماع اللغوي وليام لايوف وانتشر فيما بعد وكانت مناطق انتشاره في البلدان التي تتميز بالتعدد اللغوي والتعدد الثقافي وتعدد الجاليات المتساكنة فيها؛ مثل كندا وبلجيكا وسويسرا وكذا في البلدان التي تشعر بغيرة على لغاتها كفرنسا وألمانيا.

بالنسبة للجزائر كانت أهم البحوث الصادرة بالعربية والتي عالجت موضوع الأمن اللغوي هي تلك التي كتبها كل من السيد عز الدين ميهوبي وزير الثقافة والرئيس السابق للمجلس الأعلى للغة العربية والدكتور صالح بلعيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية، إضافة إلى عدد من البحوث الجامعية أما على المستوى المغربي فتأتي كتابات الدكتور عبد السلام المسدي من تونس في مقدمة من تناولوا هذا الموضوع ويعود اهتمام متقفي كل من الجزائر وتونس بموضوع الأمن اللغوي إلى التحدي الذي فرضته هيمنة اللغة والثقافة الفرنسيين على المجتمعات المغاربية

والذي نتجت عنه حالة الصدام الحاصلة بين اللغتين العربيّة والفرنسية بحكم تلك الهيمنة وهي هيمنة تعاني منها اللّغة العربيّة التي أصبحت مُحارَبَةً ومنبوذة في عقر دارها من طرف القوى المرتبطة ثقافيا ولغويا بفرنسا القوة الاستعمارية السابقة.

ثانيا - التحديات التي تواجه اللّغة العربيّة

تواجه اللّغة العربيّة العديد من التحديات بعضها داخلي ينبع من بيئتها وفرضته طبيعة وضعها بين مجتمعاتها والبعض الآخر خارجي له علاقة بظاهرة العولمة والصراع الدائر بين مختلف الثقافات والكيانات الحضارية الكبرى في العالم المعاصر ولم تعرف العربيّة في مسيرتها عبر التاريخ وضعاً معقداً يكاد يعصف بها لولا أنها حُفِظت بالقرآن الكريم كتاب الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه فمثلاً حملته وجعلت من ألسن أكثر من مليار مسلم تلهج به على مدار الزمان، حفظها القرآن من الزوال يقول المولى تبارك وتعالى في محكم تنزيله (إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون) ولعله من أبرز التحديات التي تواجه العربيّة ضمن محيطها وفي بيئتها ما يلي:

— تزايد الدعوات لاستخدام اللهجات العامية في التعليم بالرغم من أنه توجد عاميات وليست عامية واحدة وبدأت هذه الدعوات تجد طريقها، ولو باحتشام، إلى التنفيذ عبر برنامج الإصلاح الذي تقوده وزارة التربية الوطنيّة كما تظهر بصورة واسعة في الإعلانات التجارية وتصنف العربيّة من طرف دعاة اللهجات العامية باللّغة العربيّة الكلاسيكية أي العربيّة القديمة بالمقارنة مع اللهجات العامية والتي يعتبرها هؤلاء عربية جديدة. إن الثنائية اللغوية وتعدد مستويات الخطاب التي تعيشها العربيّة اليوم بين فصيحها وعامياتها تقلص من قدرتها على التطور وتعمق النفور منها بوصفها لغة عديمة الاستعمال، وهي سمة يراهن عليها دعاة اللهجات العامية لتحجيم العربيّة، كنا يراهن عليها دعاة الحفاظ على الفرنسية.

— التمكين للغة الفرنسية، لغة المستعمر، عبر الإعلام والتعليم والوسائط الاجتماعيّة وعقد المؤتمرات والندوات وفي إعداد التقارير والمراسلات الرّسميّة

وتوسيع مجال استخدامها في الفضاءات الاقتصادية وفي المعاملات التجارية وكذا في الدراسات الجامعية العليا باستثناء العلوم الإنسانية وقد تسبب التمكين للفرنسية في المجتمع من طغيان الازدواجية اللغوية التي أصبحت خطرا يهدد سلامة العربية ويقص من فضاءات استخدامها لإفساح المجال للاستخدام المتزايد والمتسارع للفرنسية على كل المستويات بحيث أصبحت لغة تخاطب يومي فضلا عن كونها لغة علم وعمل وتكنولوجيا ومدخل للتوظيف وبالتالي نافذة للتقدم في نظر دعاة استخدامها.

— ولعل أخطر تحدّ يواجه العربية في بيئتها هو تحدي القابلية للتفرنس أو التغريب فالقابلية للتفرنس أصبح ميزة تتفاخر بها الطبقة المتوسطة التي تسعى للحاق بفئة واسعة من الطبقة العليا في المجتمع والتي تميل في الغالب لاستخدام الفرنسية بوصفها تمثل أسلوب حياة عصرية تدل على الرقي والتحضّر، بالتوازي مع النفور من العربية بوصفها مرتبطة بالتخلف والانغلاق والتدين ولذلك يرى العديد من الباحثين الاجتماعيين أن تنكر الفرد للغته وثقافته وبالتالي لقيمه، ينجبرّ عنه التنكّر لحضارته وماضيه؛ وهو هنا عرضة للاستلاب الثقافي واللغوي أمام طغيان حضارة الغرب وهيمنتته الثقافية واللغوية، وقد رفع البعض أصواتهم مؤخرا للقول بأن الفرنسية هي التي حررتنا وهي مزيدة صريحة على أن تحرير الجزائر لم يتم عبر استشهاد مليون ونصف مليون جزائري قدموا أرواحهم عربونا في سبيل الحرية والاستقلال؛ ولكن بفضل استخدام لغة المستعمر في المفاوضات التي جرت بين الوفدين الجزائري والفرنسي خلال اتفاقية إيفيان وتناسى هؤلاء أن صوت الثورة كان يبيت باللّغة العربية عبر أمواج إذاعة صوت العرب.

يتوازي مع هذه التحديات الداخلية، تحديات خارجية تواجه اللّغة العربية، فهي ضحية منافسة شرسة وغير شرعية من اللّغة الفرنسية، بوصفها في نظر البعض لغة العلم والعمل والتكنولوجيا والرقي الفكري والحضاري؛ ولذلك فالتحديات الخارجية التي تفرضها الصراعات اللغوية والثقافية والحضارية الدائرة في عالم

اليوم لا تقل خطورة عن التحديات الداخلية التي تعانيها اللّغة العربيّة في محيطها وضمن بيئتها. وبالتالي فإنّ الأمّن اللّغوي أصبح ضرورة وطنيّة تمليه التحديات التي تواجه اللّغة العربيّة.

رابعا - العربيّة والأمازيغيّة نحو التكامل بديلا عن التّضاد

يعتبر التنوع اللّغوي سُنّة من سُنن الكون وظاهرة اجتماعيّة رافقت الإنسانية عبر تاريخها الطويل وهي ليست خاصية من خاصيات المجتمع الجزائري ولكنها سمة طبعت حياة المجتمعات البشريّة يحصل التنوع اللّغوي كمحصلة لظروف تاريخية واجتماعيّة تمر بها الدول والجماعات الوطنيّة وفي كثير من الحقب وعبر امتداد التّاريخ لم يكن التنوع اللّغوي عامل اضطراب وتفكك للجماعات الوطنيّة بل شكل في الغالب عنصر ثراء ثقافي ومادة انسجام اجتماعي وهناك أمثلة كثيرة من التّاريخ الحديث والمعاصر تؤيد ما ذهب إليه ولعل نماذج الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والهند وهي بحجم قارة والصين وهي قارة أخرى والاتحاد الروسي والاتحاد السويسري وغيرها، تعتبر أمثلة حية على ما ذهبنا إليه ولعله من أبرز العوامل التي تجعل من التنوع اللّغوي عامل ثراء ثقافي وانسجام اجتماعي تأتي القيم الدينية في المقدمة بوصفها قيما كونية لا ترتبط بمنطقة معينة ولا تعبر عن عرق بذاته كما يلعب التّاريخ المشترك للجماعة الوطنيّة دورا رئيسيا في الانسجام الاجتماعي، رغم التعدد العرقي واللّغوي ولا يقل دور الثقافة وما تحمله من فطر وفن وتراث وكذا العادات الاجتماعيّة المتماثلة أهمية عن دور الدين والتّاريخ في وحدة الجماعة الوطنيّة، إن فناعة الجماعة الوطنيّة بالمصير المشترك والتطلعات المتماثلة ترسخ هي الأخرى عُرَى الوحدة ضمن التنوع بين مكوناتها.

وعندما تكون المشتركات الكبرى بين أبناء الجماعة الوطنيّة هي السّمّة الغالبة في المجتمع، يطغى الشعور بالتكامل والقدرة على التعايش وهذا ما يشعر به غالبية الجزائريين فعوامل الوحدة أكثر حضورا من عناصر التفكك والولاء للجزائر بكل ما تحمله من تنوع وثراء أكثر بروزا في الوجدان الجمعي الجزائري.

ومثلما شكل الإسلام، دين السلام والعدالة والتسامح، عامل وحدة بين الجزائريين كانت العربية التي تحمل قيم الدين الجديد مرتبطة به، فلا انفصام بينهما فكان انتشار الإسلام مرفوقا بانتشار العربية، فسادت بسيادته وانتشرت بانتشاره، ولم تفرض مطلقا على الجزائريين وعامة سكان بلاد المغرب بل تبناها عن وعي وقناعة كما ساعد في ترسيخها بين هذه الربوع استقرار قبائل عربية في الهضاب العليا والجنوب وهجرة طوائف كبيرة من الأندلسيين الفارين من بطش التمسح والتقتيل، فاحتضنتهم الجزائر وكانوا حملة ثقافية عربية راقية نشرها في السواحل التي استقروا بها وهذا ترافق انتشار الإسلام الذي قام الجزائريون بنشره في ربوع الأندلس ومجاهل إفريقيا برسوخ العربية.

ولذلك لم يعرف التاريخ الاجتماعي في الجزائر أي صراع بين العربية والأمازيغية بتنوعات لسانها وعاشت اللغتان جنباً إلى جنب تتفاعلا إيجابيا وتتعايشان سلميا ولم تشهد الجزائر طيلة العصور الوسطى وخلال العصر الحديث قيام صراعات ذات طابع لغوي أو عرقي بل أسهم الجزائريون عن اقتناع تام في إثراء العربية والدفاع عنها وتطويرها بوصفها لغتهم الحاملة لعقيدهم؛ فلم يشعروا عبر القرون أنها دخيلة ولا وافدة. بل ظل ينظر إليها بوصفها لغة أصيلة بين أهلها وذويها.

لما حل الاستعمار الفرنسي بهذه البلاد سعى دون أن ينجح لخلق صراعات ذات خلفية عرقية. وجاءت ثورة التحرير الكبرى لتعبي الجزائريين كل الجزائريين من أجل تحرير بلادهم المحتل واسترجاع سيادتهم المغتصبة.

نستخلص ممّا سبق أن عوامل الوحدة والانسجام بين الناطقين باللغتين أكثر من عوامل التفرقة والتنافر بينهما. وإن العربية والأمازيغية ثنائية لغوية تعبر عن حقائق اجتماعية لها صلة بتعاقب الحقب التاريخية والحضارات الإنسانية على أيّام هذه الأرض؛ ولذلك فإن هذه الثنائية تشكل ثراء ثقافيا متميزا وعنصرا صلبا لتقوية اللحمة الوطنية وتعزيز التماسك الاجتماعي وترسيخ الوعي بالهوية الواحدة الموحدة.

خامسا_ نتائج عامة

الأمّن اللّغوي بوصفه جزءا لا يتجزأ من الأمّن الوطني، هو موضوع يخص الدّولة تقوم به عبر مؤسساتها الرّسميّة ولا يتعلق الأمر بالأفراد أو هيئات المجتمع المدني فقط، والتي تظل ملزمة بتنفيذ ما ترسمه الدّولة من خطط وما تعده من وسائل وما تضعه من إمكانيات لتنفيذ السياسات المتخذة بهذا الشأن. فاللّغة العربيّة هي اللّغة الوطنيّة والرّسميّة لهذه البلاد منذ استرجاع السيادة الوطنيّة في 1962. وقبل ذلك كانت اللّغة العربيّة تعتبر لغة رسمية في الجزائر منذ 1711 أي منذ أوائل القرن الثامن عشر مع بدايات عهد الدايات في الجزائر خلال العهد العثماني قبل أن تكون الفرنسية لغة رسمية في فرنسا. وخلال عهد بني زيان الذي سبق العهد العثماني كانت العربيّة هي لغة العلم والعمل والمعاملات الرّسميّة للدولة الزيانية. ففي عهد بني زيان الذي سبق العهد العثماني كادت اللّغة العربيّة تعم القطر الجزائري، حيث انتشرت في مختلف ربوع الجزائر وشاع الحديث بها وصارت منذ تلك الفترة اللّغة الأولى لأغلبية الجزائريين. ولكن خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية تم استبعادها من التعليم حيث أن السلطات الاستعمارية أصدرت مرسوما سنة 1883 نظمت بموجبه التعليم في الجزائر فاقصر التدريس على اللّغة الفرنسية. وخلال عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، أصدرت السلطات الاستعمارية مرسوما يقضي بجعل اللّغة العربيّة لغة أجنبية في الجزائر.

وبحكم ذلك الواقع المظلم الذي عانت منه العربية، ارتبط النضال من أجل استرجاع السيادة الوطنيّة بالنضال من أجل استرجاع مكانة اللّغة العربيّة. فالتعريب الذي انتهجته الجزائر المستقلة يندرج في جوهره ضمن مسيرة الكفاح من أجل التحرر من هيمنة اللّغة والثقافة الفرنسيّتين، وهو يعني عمليا إحلال العربيّة محل الفرنسية في التعليم والإدارة والمراسلات الرسمية. وهي عملية ظلت مقصورة على قطاع التعليم في أطواره الأولى ولم تتجاوزه لبقية مرافق الحياة وبقية اللّغة الفرنسية سائدة في قطاعات حساسة من بينها دواليب الإدارة والقطاع الاقتصادي

وقسم مهم من قطاع التعليم العالي يمس الرياضيات والمواد العلمية والتكنولوجية. ولمعالجة هذه الاختلالات فإن الضرورة تقتضي إعادة النظر في السياسة اللغوية، بوصفها أحد الأسس التي يقوم عليها الأمن اللغوي، بما يجعلها تستجيب لتعزيز وضع اللغة العربيّة كلغة وطنية ورسمية في الجزائر المعاصرة. فالسياسة اللغوية تقوم برسم سياسة وطنية تركز على التصدي للمشاكل القائمة والعراقيل الموضوعية أمام تفعيل دور ومكانة اللغة العربيّة في المجتمع.

إن الأمن اللغوي يعنى بوضع السياسات اللغوية التي بموجبها يكون النظام التربوي والتعليمي متماشيا مع الانتماء الحضاري والثقافي للجزائر بالاستناد إلى الثوابت الوطنية وما استقر عليه المجتمع منذ مئات السنين.

وكذا البحث في المشاكل والمعوقات التي تواجه اللغة العربيّة وإيجاد الحلول الملائمة لها بما يحفظها من الزوال بالتوازي مع إيجاد حلول توافقية لمسألة تدريس اللغات الأجنبية في المنظومة التعليمية ونعني بها اللغات الغربية كالفرنسية والإنكليزية وسواهما وكذا التعميم التدريجي لاستعمال العربيّة في الإدارة وفي قطاع الاقتصاد والتجارة وفي ميادين الرياضيات والعلوم التكنولوجية والتقنيات الحديثة بما يسمح لها بأن تكون لغة وظيفية. إن وظيفة اللغة تجعل منها رافدة لتراث المجتمع وفنونه، حاملة لثقافته وفكره معبرة عن همومه ورغباته، عاكسة لتطلعاته وآماله.

إن المنظومة التعليمية هي حجر الأساس في أي سياسة لغوية تستهدف تحقيق الأمن اللغوي. ويظل الاستخدام الوظيفي للغة العربيّة وتعميم استعمالها عبر مختلف مظاهر الحياة كالإعلام والوسائط الاجتماعيّة والندوات والمؤتمرات مدخلا أساسيا لجعلها تواكب مختلف المستجدات في الحياة المعاصرة. كما تشكل عملية تنشيط مختلف الدوائر المهمة باستخدام اللغة العربيّة لتقوم بدورها المنوط بها في المجتمع حافزا لها لأداء دورها تجاه العربيّة وبالتالي تجاه المجتمع.

ومع الإقرار بأهمية وجود لغة موحدة وجامعة للحفاظ على وحدة المجتمع

وانسجامه، فإنه يجب اعتماد سياسة لغوية تستهدف تجاوز المشاكل الناتجة عن التعدد اللغوي في المجتمع وتهيئة الأفراد متعددي اللّغة للوصول إلى تعايش لغوي عبر التركيز على المحطات المضيئة في تاريخ الجزائر، وتعزيز رابطة الانتماء إلى فضاء حضاري مشترك، واعتماد سياسة التكامل اللّغوي بديلا عن التناافر والتضاد. وتعميق روح المواطنة بديلا عن النزاعات العرقية والصراعات المذهبية. فالجزائر كانت عبر تاريخها المديد خلاصة للحراك الحضاري الذي عاشته. والهوية في جوهرها هي الحصيلة الحية للتفاعل المستمر بين مختلف صنوف التواصل الحضاري والتناطف الدائم بين الأجيال والروافد اللغوية والبشرية. وما الإسلام والعروبة والأمازيغية -وهي مكونات الهوية الجزائرية- إلا لبّ الخلاصة المعاصرة لكل التفاعلات التي عاشتها وتعيشها الجزائر. إن تلك المكونات هي المحصلة النهائية لمسيرة طويلة وزاخرة بين مختلف الحقب التاريخية والروافد الحضارية التي عاشتها وتعيشها الجزائر. إن تلك المكونات هي المحصلة النهائية لمسيرة طويلة وزاخرة بين مختلف الحقب التاريخية والروافد الحضارية التي عايشها الجزائريون مؤثرين فيها، ومتأثرين بها، كغيرهم من الشعوب والكيانات. إن تحصين الجزائر داخليا يعد المدخل الأساسي لتحسينها ضد الاستيلاء الثقافي واللّغوي الوافد من بيئات غريبة طاغية في عالم مشحون بالتوترات والصراعات و نزعات التسلط و الهيمنة، و من خلال ذلك أستطيع القول إننا حققنا الأمن الثقافي واللّغوي الذي يعتبر القاعدة الصلبة لخلق انسجام مجتمعي يشكل إسمنت الوحدة الوطنية.

المراجع:

- 1- رابح بونار، المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- 2- صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، دار هومة، الجزائر.
- 3- عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات الدوحة.
- 4- عز الدين ميهوبي (أي لغة سيحدث العالم في 2100)، محاضرة قدمت في جامعة الطائف، يوليو/جويلية 2017.
- 5- مجموعة بحوث مقدمة خلال الملتقى الوطني حول التخطيط اللغوي، المجلس الأعلى للغة العربية ديسمبر 2012.
- 6- محمد العربي ولد خليفة، التنوع والتجانس الثقافي في الجزائر، سلسلة مقالات صدرت في صوت الأحرار، يناير 2017.
- 7- محمود شاكر سعيد وخالد بن عبد العزيز الحرفش مفاهيم أمني، الرياض ط1، 201.
- 8- مدان هجيرة، Analyse de la pluralité linguistique ، بحث مقدم في جامعة الشلف.
- 9 - Sécurité et insécurité linguistique أشغال مائدة مستديرة نظمت في جامعة لارينيون، 1998.

الوعي الثقافي بالمنطق الطبيعي وضرورة التدريب عليه

لكسب الانسجام الجمعي

أ. عز الدين لغاني،

جامعة سطيف

يعدّ التوافق الجمعي أحد أهمّ التّحديات التي يناضل المتفوقون المعاصرون بطرق تقنية لكسبها، فهو ضرورة حضارية تاريخية، وشرط للتّمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، ولكسب الأمر، ينبغي أولاً؛

إحداث وعي ثقافي عميق في المجتمع (خصوصاً وسائل الإعلام) بالمنطق الطبيعي واعتباره خاصية إنسانية، فهذا المنطق من حيث طبيعته هو منطق لغوي/تقنيات لغوية يراعي جوانب الاختلاف والتعدّد ويبحث سبل التقريب بينها.

وينبغي ثانياً؛ التدريب عليه وبثّه في الأجيال باستحدثاته في المقرّرات التربوية والمناهج التعليمية وذلك بطرق تقنية (سواء مباشرة أو غير مباشرة) تراعي الكميّة والكيفيّة. فالمسعى والأمر كذلك هو تكويني؛ أي تكوين فرد/مواطن يحوز منطق التعدد والاختلاف ليتعامل به مع قضايا محيطه.

سنعالج في هذا البحث النقطتين الواردين أعلاه من خلال عديد النقاط التفصيلية التي سنثيرها تبعا.

الخلاف والتمزق الجمعي سببه الإبهام اللّغوي والحاجة إلى المنطق الطبيعي:

يدعونا هذا العنوان ضرورة إلى أن نتعرف على الإبهام اللّغوي. فالإبهام هو خاصية لغوية ينبغي الانتباه لها من قبل الأفراد والجماعات، لأنها إذا لم تأخذ بجديّة ستتهار كثير من الروابط والعلاقات التي طالما حرص على تشييدها.

يكون اللفظ ملتبسا عند اللّسانيين عندما يجوز إسناد ما صدقات مختلفة جزئياً إليه ويكون مبهما إذا شقّ تعيين ما صدقه، وقد حدّدت آن روبرول الأمر بقولها: "إذا كان لجميع الألفاظ المبهمة أو غير المحدّدة من خاصية مشتركة فهي، على وجه

الدقة، طابع الإبهام الذي يكونها. غير أنه يبقى بعد ذلك أن نحدّد هذه الخاصية على نحو واضح. ونستعين على ذلك بمقارنة الإبهام باللبس الدلالي. فقد تقدّم قولنا إنّ الألفاظ الملتبسة دلاليا هي كذلك لأنها تحتل دلالة كثيرة مختلفة؛ أمّا الألفاظ المبهمة فلا تحتل إلاّ دلالة واحدة، لكن هذه الدلالة غير كافية لتحديد انطباق اللفظ على الشيء المتعلّق به في الخارج أو عدم صدقه عليه. وبعبارة أخرى إنّ اللفظ، في اللبس، هو الذي لا يتحدّد بين دلالات عديدة؛ أما في الإبهام فإنّ الدلالة هي التي لا تتحدّد بالنظر إلى ما تصدق عليه، وعلى هذا يكون اللفظ ملتبسا إذا جاز أن نسند إليه ما صدقات مختلفة اختلافا جزئيا في الأقل. ولكنه يكون مبهما إذا شقّ علينا تعيين ما صدقه على وجه الدقة¹

انطلاقا من هذا التعريف، نوكد بأنّ الخلافات خاصة المشينة التي يتدخل القانون لحلّها وتقديرها كان من المفروض أن لا تكون فالقانون يستعمل اضطرارا وإكراها، فهو حاجة أخيرة في المجتمعات ذات الوعي الثقافي اللغوي إذ وعيها الثقافي يفترض²:

العالم مبهم، واللغة تعكس ببساطة هذه الخاصية
ليس العالم مبهما ولكن إدراكنا للعالم مبهم واللغة تعكس هذه الخاصية
ليس العالم ولا إدراكنا للعالم مبهمين، بل إنّ اللغة هي المبهمة
ليس العالم ولا إدراكنا للعالم ولا اللغة مبهمة، بل إنّ استعمالنا للغة هو المبهم
وإن كان ذلك على نحو جزئي في الأقل
وقد نسبت هاته الافتراضات إلى اختصاصات، بل سميت بأسماء هي على
التوالي³:

الفرضية الفلسفية

الفرضية النفسانية

الفرضية اللسانية

الفرضية التداولية

ولا يكفينا الحيز لتفصيل كل هاته الفرضيات. وما دمنا في محلّ لساني فعلينا أن نقدّم النموذج اللساني دليلاً يرافقتنا.

فإشكالية اللبس الدلالي والإبهام اللغوي هي إشكالية ذات بال. تدخّل كثير من العلماء لتدقيقها. ومن بين العلماء اللامعين الذين تدخّلوا في هذا الأمر لملء الخلو: أوزوالدكرو، آن روبرول زجك موشلر...

وقد فسّر أوزوالدكرو الإبهام في اللّغة بعودته إلى فراغ وخلو دلالي أصلي فيها. فالمفتش في بنية اللّغة ذاتها يعثر على فراغ وخلو دلالي يؤدي إلى الإبهام. والقول التالي يوضّح ذلك: " (27) " زيد ذكي" فالمتكلم بإلقاء قوله في المثال (27) لا يلزم نفسه بصدق قضية تسند إلى زيد خاصية ما، كما أنه لا يلزم نفسه بصدق قضية تنزل زيدا في مجموعة محدّدة على نحو مستقل هي مجموعة من الناس الأذكىاء... وعند دكرو أنّ المتكلم الذي ينشئ مثل هذا القول لا ينجز بهذا عمل الإثبات. بل يحتاج لنتيجة ما. فليس للفظ ذكيّ مضمون يختص به، وهذا ما يفسّر طابع الإبهام فيه. ولكن. إذا لم يكن له معنى فكيف يجوز أن يستخدم للاحتجاج لنتيجة ما؟ إنّ جواب دكرو عن هذا السؤال يمرّ بمفهوم الاقتوال.... وبعبارة أخرى يستعمل اللفظ الذاتي بادئ ذي بدء تمشية لضرب من النتائج -وهي إجمالاً نتائج تكون للفرد الذي نخب عنه بأنّه س، أو تكون عليه- ثمّ ينشئ الاشتقاق الاقتوالي بعد ذلك (شبه) دلالة في صورة (شبه) خاصية يفترض أنّها تناسب اللفظ المشار إليه⁴. فعند دكرو نجد: " أنّ طابع الإبهام لا يرتبط باستعمال الكلمات بل بخصيصة دلالية.... وهذه الخصيصة الدلالية عبارة عن (افتقار أو) خلوّ دلالي، رغم الاختلافات السطحية: فليس للألفاظ المبهمة معنى خاص بها.... فقيم يمكن القول عن لفظ مبهم إنه خاو؟ ... فليس لألفاظ من قبيل ذكي ولطيف وجميل... إلخ في نظرية دكرو معنى في أنفسها، ولكن يمكن استعمالها لتوجيه الاستدلال إلى نتائج قد تكون للفرد الذي توضع بإزائه تلك الألفاظ وقد تكون عليه ثمّ تكون للألفاظ بعد ذلك، بواسطة الاقتوال "دلالة ضروب الحجاج التي يمكن أن تنشئها تلك الألفاظ."⁵

لاحظت أن روبولقصور هذا التصور في حلّ مشكلية الإبهام... وذلك من خلال عجز دكرو عن تفسير أصل القدرات الحجاجية التي تسند للألفاظ مادامت الألفاظ عارية من المعنى في أصلها تقول: "بيد أنه يمكن أن نتساءل عن الطابع التفسيري لهذه النظرية: فإذا كان اللفظ ذكي مستعملا للاحتجاج الموجّه وجهة ما (ولستكن الوجهة الموجبة) واللفظ غبي مستعملا للاحتجاج الموجّه وجهة معاكسة؛ وإذا كان جواز إسناد مختلف هذه القدرات الحجاجية إلى تلك الألفاظ على أنها معنى لها، إنما يكون بواسطة الاقتوال. فإنه يمكن أن نتساءل عن أصل هذه القدرات إذا كانت هذه الألفاظ، في أول أمرها عارية من المعنى تماما.... في تحليل دكرو فإن لفظ ذكي يشق دلالاته (الحجاجية) اقتواليا من الاستعمالات الحجاجية السابقة حيث لم يكن للفظ أي معنى"⁶

وقد حكم دكرو على نفسه بالقصور عند عدم: تفسير السبب الذي من أجله لا تكون مختلف هذه الألفاظ الذاتية مترادفة تماما، والسبب الذي يحول دونها ودون أن نستنتج النتيجة نفسها من جملتين نتحصل عليهما باستبدال أحد هذين اللفظين بالآخر وللنظر في هذين المثالين:

(32) مريم جميلة

(33) مريم ذكية

إذ يمكننا أن نستخلص منهما هاتين النتيجتين على التوالي:

(32) يمكنها أن تترقى في عمل عارضة أزياء

(33) يمكنها أن تلتحق بالمدرسة القومية للإدارة

وهذا الاختلاف في النتائج الذي يمكن استخلاصه من القولين (32) و(33)

اختلاف بين إذا ما نظرنا في هذين المثالين:

(32)؟ مريم جميلة: يمكنها أن تلتحق بالمدرسة القومية للإدارة

(33)؟ مريم ذكية: يمكنها أن تترقى في عمل عارضة أزياء

فمن ثم يجوز لنا ان نشك في حلّ نظريتي دكرو... لمشكل الألفاظ الذاتية فهما

قد تفسّر ان طابع الإبهام فيه، ولكنهما لا تفسّر ان قطعاً الاستعمال الذي يمكن أن يجري بتلك الألفاظ"⁷

هاته التوضيحات التي قدمناها والتي تكاد تكون طويلة. سببها هو توضيح أن إشكالية الإبهام هي إشكالية دائمة في اللغة أصلاً واستعمالاً.

فالإبهام عنصر أصلي وجذري في اللغة فيجب الوعي به من قبل الأفراد والجماعات، وذلك بالعمل على تداركه وتطوير اكتشافه وإلا سييسود التشتت والخلاف بسبب عدم إدراكه وجلبه لصالح الجميع. فالإبهام إذا وجه التوجيه الصحيح كان نعمة على الأفراد والجماعات وإذا لم يتم الانتباه إليه ستكثر الخلافات دون وعي ويكثر سوء التفاهم والقصد.

كانت هاته المشكلية مثارة من قبل علمين لسانيين ركزا على ديمومة اللبس والإبهام اللغوي في أصل بنية اللغة وفي استعمالها. إلا أنه يمكن الإشارة إلى أن قضايا الالتباس والإبهام وعدم تحديد الدلالة هي إشكالات قد خاض فيها علماء كثر تنمية لطابع الحوار اللغوي مثل الذي قدّمه "غرايس" وأسماء بمبدأ التعاون والذي قدّمه "شايمبيرلمانوتيتيكا" في الخطابة الجديدة، والذي قدّمه ميشال مايبير في نظرية المساءلة. فقد كانت بحوثاً كثيرة وإن باصطلاحات أخرى تبحث الغامض في اللغة الذي يؤدي إلى سوء التفاهم ويمزق الانسجامات الجمعية. وإزاء الوضع القائم أسس منطقاً أسمى بالمنطق الطبيعي لتوجيه الأمور.

..... انطلقاً من تلك الإبهامات المستدل عليها تدخل عالم اللغة الفرنسي أوزوالد دكرو لتقديم الأدلة اللسانية التي ينبنى المنطق الطبيعي/منطق الخطاب/منطق اللغة عليها. وذلك في فترة زادت الحاجة إليه فأصبح ضرورة معاصرة؛ لسبب عميق هو انتشار اللغة في قنوات التواصل المادية. وفيما يلي نحاول سرد أدلة دكرو التي تعبّر عن شرعية المنطق الطبيعي:

قدّم دكرو المثالين التاليين منطلقاً في إثبات شرعية المنطق الطبيعي⁸:

زيد: (أ) لم يقرأ كل روايات بلزك

عمرو: قرأ بعض روايات بلزك.... (استنتاج إيجابي) يعرف روايات بلزك
عرض دكرو على أهل علم النفس التجريبي اختيار إجابة زيد أو عمرو
فاختاروا زيدا على عمر لسبب يكون في أن:

زيد قرأ على الأقل عددا مهما منها

وعمرو لا يمكنه أن يكون قرأ كثيرا منها

وقدم دكرو على العكس أحسن إجابات اللسانيين من منطق دلالة القول؛ فاختار
الإجابة (ب) (عمرو) كأفضلية إيجابية على إجابة (أ) (زيد) التي تتجه اتجاها سلبيا
واستدل ب:

زيد: (أ) يمكن الافتراض بأن زيدا (أ) - قرأ رواية واحدة - لم يقرأ أي رواية
لبلزك

فالمعنى الحرفي (أ) لا يوقر لنا سببا يدفعنا إلى أن نقول بأن زيدا هو قارئ
بلزك

... (استنتاج سلبي) الشخص محدود المعرفة ببلزك

فالساني الجيد هو الذي يختار (ب) عمرو فالمخبر عمرو يضمن:

- قرأ على الأقل روايتين

- ربما قرأها جميعا

- عدم الإقصاء من القراءة

على الرغم مما قدم من معان ضمنية يحث عليها المطق الطبيعي إلا أن دكرو
يرفض الجوابين؛ جواب علم النفس وجواب اللسانيين بسبب عدم التعاون مع المتلقي
في تقديم نتيجة الدلالة انطلاقا من الملفوظ في ذاته ولذاته: "إن التلفظ ب"أ" إذا
فكرنا في أن زيدا قرأ عددا قليلا من الرويات، مما يعد في غير موضعه (وربما
عدّ خداعا) فمن الأنزه إعطاء المعلومة التي نعرفها كاملة والقول بصراحة: لم يقرأ
بلزك البتة. وبالمثل فإننا نغالط العالم عندما نتلفظ ب (ب) إذا علمنا أن عمرا

شغوف بأدب بلزك إن أولوية اهتمام المتكلم بأن يكون متعاوناً مع مخاطبه، تفرض عليه أن يقول كل ما يعرفه، بأن يؤكد لقد قرأ بلزك كثيراً من الروايات. والخلاصة أن نتيجة الاختبار المزعجة مردها إهمال التعليمات المشكّلة في الاختبار الذي يراد له أن يبني على الملفوظات لا أن تستنتج خلاصات نفسية انطلاقاً من سلوك المتلفظ⁹

فالإجابة التي يلفظها دكرو هو تعاون العبارة (أ) مع العبارة (ب) ف (ب) هي إكمال ل (أ) فالعبارات تخدم بعضها:

(أ) لم يقرأ كل روايات بلزك.... (ب) لقد قرأ بعض روايات بلزك يقول: "لا بد من بدء تنفيذ الملفوظات في خطاب مالا تقديم معلومات تحتويها الملفوظات بمعزل عن أيّ خطاب"¹⁰. فتلك الاستنتاجات المتعاونة يتم ملء الخلو الدلالي بها للوصول إلى نتيجة.

وعليه يشرع مقارنة المنطق الصوري (البرهنة) مع المنطق الطبيعي فيقول: "إن البرهنة كالمقياس مثلاً لا تمثل خطاباً، بالمعنى التام الذي أعطيه للفظ الخطاب. إن الملفوظات التي تتركب منها برهنة منفصل بعضها عن البعض -بمعنى أن كل واحد منها يعبر عن قضية ما، أي هو يدل على حالة الأشياء في الكون (أو مجموعة حالات) مقدمة سواء بوصفها واقعية أو مفترضة لذلك، فإن تسلسل الملفوظات، في برهنة، لا يتأسس على الملفوظات في حد ذاتها، ولكن على القضايا المعبر عنها بواسطة تلك الملفوظات، فهي تتأسس على ما تقوله الملفوظات أو تفترضه عن العالم، فإذا استنتجنا الملفوظ ص من الملفوظ (س) فلأنهما يعبران عن حالة الشئيين صوس على التوالي، وإن حالة (س) تجعل حالة (ص) ضرورية أو ممكنة. وفي الاختبار الذي ناقشته، دعي المستجوبون إلى البرهنة. ولذلك، فقد بحثوا عن النتائج الحاصلة عن حالات الأشياء في الكون التي تعرضها عليهم الملفوظات التي قدمت لهم. فإذا كانوا قد اختاروا المخبر زيّداً، فلأن المعلومة التي أعطيت لهم عنه عبر الملفوظ (أ)، تسمح لهم بالتوقع أنه أوفر حظاً من عمرو كما

عرفوه عبر الملفوظ (ب)، لإعطاء المعلومة المطلوبة منه. إنّ الوضعية مختلفة عن ذلك تماما عندما يتعلق الأمر بخطاب؛ إذ تسلسل الملفوظات في الخطاب ذو أصل داخلي، إنه يتأسس على طبيعة الملفوظ ذاته، أو على معناه إن أردنا، وليس على حالة الأشياء التي يحيل عليها في الكون، والحال أنّ الموضوع المركزي في النظرية الحجاجية هو أنّ معنى الملفوظ يحتوي إحالة على استمراره المتوقع. فمن الجوهرى بالنسبة إليه استدعاء هذه المتتالية أو تلك وإدعاء توجيه الخطاب اللاحق نحو هذه الوجهة أو تلك. فإذا كان الملفوظ حجاجيا، فليس فقط لأنّه يقول شيئا ما عن العالم، ولكن لأننا نعتبره في حد ذاته. طبعاً، نحن لا نستطيع توقع ما يمكن أن يكون تاليا له فعلا: قد يكون صمتا أو نهاية عدم تقبل، أو توجيه لكلمة له. ولكن هنالك متتالية مدّعاة، تلك التي يضعها الملفوظ بوصفها علّة وجوده، وهذه المتتالية كامنة فيه كما أنّها خارجة عنه، ومن ثمة، فإنّ النظرية الحجاجية تتصل بالنظرية العامة التي سميتها بنيوية الخطاب المثالي، وحسب هذه النظرية، فإنّ الكيان اللساني يكتسب حقيقته من الخطاب الذي تدرج فيه ذلك الكيان اختباريا، بل من الخطاب الذي يقتضيه ذلك الكيان ويطلب به وإنّ تلك المطالبة هي التي تكون الكيان اللساني¹¹.

وقد استمر في تطوير هاته الفكرة إلى أن صاغها ماير في ضوء نظرية المساءلة: "يمثّل الزّوج سؤال جواب الوحدة الأساسية للّغة، ومن ثمّ فإنّ استعمال اللّغة يحدّد دائما تبعا لها، فالكلام يعني إثارة السؤال أو التصدي له باسم الحل أو على صورته، يقول دكرو: "ما يمكن أن يقال يمكن أن يعارض، بحيث إنّنا لا يمكن أن نعلم رأيا أو رغبة دون أن نعرضه مباشرة لاعتراضات المتخاطبين المحتملة، وكما لوحظ ذلك دائما، فإنّ صياغة فكرة ما تمثّل مرحلة أولى، وبالتالي فهي حاسمة في وضعها قيد السؤال" ولأنّ هناك نقاشا بالقوة هناك نقاش بالفعل. إنّ الطرح المضمّر للسؤال يوجد محتوى في القول باعتباره دلالة له، إنّ ما يتعلق به السؤال في هذا القول، لنتذكر ذلك هو ما يجب أن نفهمه من المعنى أو الدلالة في

الخطاب، فالحجاج والدلالة مرتبطان إذن، ويمكن أن نستفهم عما إذا كان دكرو يستطيع أن يطوّر الفكرة التي تقضي أن التعليمات التي يفترضها لتخصيص تحديد المعنى تمثل طلبا موجها إلى المستمع، أي استفهما " يطلب منه أن يبحث في وضع هذا الخطاب أو ذلك عن المعلومة، وأن يستعمله على هذا النحو أو ذلك لإعادة بناء المعنى الذي يرمي إليه المتكلم، وقد يبدو مدهشا إذا لم نقبل التصور الاستشكالي أن قولنا معروضا باعتباره جوابا يطرح سؤالاً" وكل خطاب يكون أصلا للحوار من جهة طبيعته الاستشكالية، فإذا كان الخطاب جوابيا بالنسبة إلى المتكلم فإنه يطرح أي سؤال، أما إذا كان استشكاليا فإنه لن يكون كذلك بالنسبة إلى متكلمين آخرين وهذا يعني أن الجواب هو كذلك سؤال¹².

على الفرد والمجتمع بأسره أن يرحّب بشرعية المنطق الطبيعي تحقيقا لفكرة الانسجام الجمعي وزيادته، ولا يتوقف بالترحيب بل يجب أن تصبح وعيا ثقافيا يلتزم به وطبيعة في الفرد والمجتمع. لذا يجب تكريسها ضرورة عند الإعلاميين والتربويين خصوصا.

ضرورة تكريس الفكرة عند الإعلاميين والتربويين:

تعزيز الوظيفة الإعلامية بالوظيفة الحجاجية

وليكن الإعلام أول المستفيدين من المنطق الطبيعي - فواجب وضروري مادام المنطق الطبيعي يحقق شرعيته يوما بعد يوم انطلاقا من النصف الثاني من القرن الماضي أن يكون الإعلام أول المستفيدين منه-، فوعي الإعلامي بهذا المنطق يدفعه إلى دعم وظيفته الإخبارية بالوظيفة الحجاجية في بناء المعلومات أو؛ إحلال الوظيفة الحجاجية محل الوظيفة الإعلامية مادام الإعلامي يستعمل اللغة التي هي في أصلها مركوزة داخليا بالاستدلال.

لذا فعلى الإعلامي توضيح الحقيقة استدلالا وعدم نقلها خبرا فقط لأن الأمر قد يكون صحيحا أو مغلوطا، فالمؤسسة الإعلامية إذا لم تكن منطقية في معلوماتها فستمزق انسجامها الجمعي بنفسها. وأشار في السياق ذاته إلى ضرورة تجنب

السفسةطة عند الإعلامي؛ فكل معلومة غير مبنية بالأدلة الواضحة تؤدي في الجمهور نزع الثقة وتمزيقها.

...هب أن الإعلامي ظل يشتغل سفسةطة فإن علاقته مع الجمهور ستسوء من حيث الثقة...

...وهب أن اقتصاديا أو سياسيا... زحف علينا بخط ابسوطائي فإن علاقته ستسوء مع المجتمع والإعلام من حيث الثقة...

.... فعلى الجميع الالتزام بثقافة الانسجام الجمعي وتقادي المبالاة ونقل اللغة المجانية غير المبنية وغير الخاضعة لقواعد وضوابط المنطق الطبيعي، فالالتزام الالتزام مادام الاختلاف متجسد في بنية اللغة ذاتها.

تكريسها في التربية:

لابد من رعاية الطفولة بهذا المنطق حتى تبنى حياتهم الاجتماعية على الاختلاف من أساسها ويقضى شيئا فشيئا على العنف... ويصبح الاختلاف والتنوع طبيعة تلقائية.

وتشكر وزارة التربية الجزائرية على استخدامها منهجية "المقاربة بالكفاءات"¹³- لكسب الأمر- والتي تعنى بأساليب كل طفل وهذا ترسيخ للاختلاف...فجاء في المنهاج التربوي مبادئ ترسخ ثقافة المنطق الطبيعي وتعبر عنه:

يعبر عن أفكاره ويتبادل الآراء محترما آداب الحوار

يندمج في فوج العمل ويساهم في تحقيق المهام المشتركة

يثق في نفسه ويثبت استقلاليته كفرد

ينجز المهام التي التزم بأدائها

يقيم عمله ذاتيا ويقبل التقويم من قبل أقرانه في الفوج

يتطلى بروح الفضول والاطلاع والمبادرة والإبداع

وفي مجال التربية على الاختلاف دعا الباحث أبو بكر العزاوي إلى أنه من الضرورة بمكان تربية الطفل على الحوار والحجاج والإقناع والاقتناع، وذلك بخلق

الوعي لديه بأهمية الحوار والحجاج ومساعدته على اكتساب تقنيات وآليات الحوار والحجاج ودفعه وتشجيعه على احترام ضوابط وقواعد التفاوض والتناظر. وتربيته على قبول التعدد والاختلاف واحترام وجهة نظر الآخر وحسن الاستماع والانصات إليه، ومناقشته باحترام وحياد وموضوعية. وينبغي كذلك أن يعرف أن فكر الآخر هو امتداد لفكره، وأن الكل يخطئ ويصيب، وأن الكل له الحق في المشاركة في الحوار والنقاش والتسيي، وأن الحق مع الجماعة... وبخصوص هذا الموضوع... التربية على الحوار والإقناع وقبول الاختلاف هي جوهر المواطنة وأساس المجتمع المدني ونواة التربية على حقوق الإنسان¹⁴.

وأكمل مستدلاً: "ولقد اعتمد سقراط في تعليم طلابه وتنقيفهم أسلوب الحوار، فكان يطرح عليهم السؤال تلو السؤال، ويستمع إلى اجوبتهم، ويصحح الاجوبة الخاطئة، ويستدرجهم من مرحلة إلى أخرى، حتى يصلوا جميعاً إلى الغاية المقصودة. ولذلك ينبغي أن تكون تربية الطفل على الحوار والحجاج، بشكل متنام ومتدرج¹⁵. وعليه؛ يتوجب تنفيذ خصائص هذا المنطق وإشهاره في الوسط التربوي.

الهوامش و الاحالات

- 1- جاك موشر وأن رويول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: عز الدين المجذوب وآخرون، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ج2، ص403.
- 2- جاك موشر وأن رويول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: عز الدين المجذوب وآخرون، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ج2، ص402.
- 3- جاك موشر وأن رويول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: عز الدين المجذوب وآخرون، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ج2، ص403.
- 4- جاك موشر وأن رويول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: عز الدين المجذوب وآخرون، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ج2، ص412/411.
- 5- جاك موشر وأن رويول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: عز الدين المجذوب وآخرون، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ج2، ج2، ص223.
- 6- جاك موشر وأن رويول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: عز الدين المجذوب وآخرون، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ج2، ص224/223.
- 7- جاك موشر وأن رويول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: عز الدين المجذوب وآخرون، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ج2، ص224.
- 8- أوزفالدديكرو: السلام الحجاجية، تر: صابر الحباشة، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته- دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة-، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010، ج5، ص70.
- 9- أوزفالدديكرو: السلام الحجاجية، تر: صابر الحباشة، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته- دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة-، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010، ج5، ص71.
- 10- أوزفالدديكرو: السلام الحجاجية، تر: صابر الحباشة، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته- دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة-، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010، ج5، ص72.

¹¹ - أوزفالددكرو: السلالم الحجاجية، تر: صابر الحباشة، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته- دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة-، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010، ج5، 73/72.

¹² - ميشيل مايير: اللّغة والمنطق والحجاج، تر: محمد أسيداه، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته- دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة-، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010، ج5، ص16.

¹³ - جاء في منهاج مرحلة التعليم الابتدائي تعريف الكفاءة ب: "القدرة على التصرف المبني على تجنيد واستعمال مجموعة من الموارد استعمالا ناجحا (معارف مكتسبة، مهارات، قيم، قدرات فكرية، مواقف شخصية...) لحلّ وضعيات مشكلة ذات دلالة". منهاج مرحلة التعليم الابتدائي: الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2016، ص286.

فمثلا بالنسبة لكفاءة التقويم الذاتي وتقويم الأقران نجد لغة المنطق الطبيعي مبنوثة في التعريف: "إن مشاركة التلاميذ في تقويم اعمالهم وتحليلها يجعل المتعلم مستقلا، كما يساهم أيضا في تحقيق مبدأ التفاوض ليعلم المتعلم ما قيم عليه، ولماذا قيم، وكيف قيم، فيصبح المتعلم قابلا للقرارات التي تمّ التفاوض بشأنها، ويتحفز من جديد لتنفيذ التعليمات. وبذلك فإنّ إشراك التلاميذ في تحليل أعمالهم وتقويمها يكتسي أهمية بالغة، كما أنّ التقويم المشترك (التقويم المقارن للمدرس والتلميذ) والتقويم الذاتي هدفان من أهداف التعلم يجب اعتبارهما كفاعلتين ينبغي اكتسابهما" منهاج مرحلة التعليم الابتدائي: الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2016، ص286.

¹⁴ - أبوبكر العزاوي: حوار حول الحجاج، الأحمديّة للنشر، المغرب، ط1، 2010، ص62.

¹⁵ - أبوبكر العزاوي: حوار حول الحجاج، الأحمديّة للنشر، المغرب، ط1، 2010، ص63.

دور اللغة العربية واللغة الأمازيغية في تحقيق الأمن المجتمعي والوحدة الوطنية

ب. وليد يونسى وعمارة عمروس
باحثا دكتوراه بالمدرسة الوطنية العليا
للعلوم السياسية، الجزائر العاصمة.

ملخص:

نتناول في هذه المداخلة مكانة كل من اللغة العربية واللغة الأمازيغية في الواقع الجزائري وما يمكن أن تسهما به لتحقيق الوحدة الوطنية والأمن المجتمعي. وقد قسمنا المداخلة إلى عدد من المحاور، نحاول من خلالها تكوين صورة حول واقع السياسة اللغوية في الجزائر، ودور اللغة العربية واللغة الأمازيغية معا في تحقيق التعايش المجتمعي بالنظر إلى ما يشكّلانه من موروث ثقافي للبلاد ورمز للهوية الوطنية، لذلك فإنّ التعايش بينهما مطلوب بشدّة.

الكلمات المفتاحية: السياسة اللغوية، التعريب، ترسيم الأمازيغية، الأمن

المجتمعي، الوحدة الوطنية.

Abstract:

In this intervention, we study the status of both Arabic and Berber language in the algerian reality and what they can contribute to achieve national unity and social security. So we divided the intervention into a number of axes, we try to form a picture about the reality of language policy in Algeria, and the role of both Arabic and Berber language in achieving community coexistence, because of the cultural heritage and national identity, so their coexistence is desperately needed.

Key words: language policy, arabisation, Berber language demarcation, social security, national unity.

مقدمة:

تعرف الجزائر تنوعاً لغوياً يشمل اللغة العربية، الأمازيغية والفرنسية، بالإضافة إلى لهجات محلية كثيرة جداً، وهو ما يجعلها تتميز بخصوصية "سوسيو-لغوية". ولم تسلم الجزائر منذ استقلالها سنة 1962- من الآثار السلبية للاستعمار الفرنسي على كافة الأصعدة بما في ذلك الصعيد الثقافي والهوياتي. فقد ارتكزت السياسة الفرنسية في الجزائر على محور الشخصية الوطنية من خلال السعي إلى تعميم اللغة الفرنسية وهو ما تسبب بعد الاستقلال- في انقسام المجتمع على نفسه وامتزاج صراع الأجيال بصراع النخب السياسية، فكانت المعضلة أكبر أمام محاولة استرجاع ما سُرِق من ثقافة شعب وهوية مجتمع، وهو ما انعكس على النموذج الواجب اعتماده في إطار سياسة لغوية سليمة تراعي الترابط الحاصل بين اللغة والحياة الاجتماعية والاقتصادية اليومية، وكذلك الواقع السياسي بالبلاد.

وتمثل كل من اللغة العربية واللغة الأمازيغية مكوناً أساسياً للهوية الوطنية، غير أن إدراك هذه القاعدة أتى متأخراً، فمن المعلوم أن اللغة الأمازيغية هُملت لعقود عديدة حتى بات هذا التهميش -أو ربما الإقصاء- معزراً لحدوث شرخ عظيم داخل المجتمع الجزائري، هو شرخ باسم الثقافة والهوية. لذلك اخترنا أن نتناول في مداخلتنا مكانة اللغتين في المشهد الجزائري -تاريخاً وحاضراً- وأهمية التعايش بينهما لتحقيق الأمن المجتمعي، فأمن المجتمع يكون بشكل أكبر - في لغته وثقافته وهويته.

فكيف يتحقق الأمن المجتمعي والوحدة الوطنية في الجزائر من خلال تكامل العلاقة والتعايش بين اللغتين العربية والأمازيغية؟

المحور الأول: تعريف المفاهيم الأساسية في الدراسة (السياسة اللغوية، الأمن المجتمعي).

- السياسة اللغوية:

يتم الربط غالباً بين مصطلح السياسة اللغوية وما تضعه الدولة من قرارات وقوانين "الضبط أو تنظيم استعمال اللغة في الرقعة الجغرافية التي تخضع لسيادتها"¹.

إنّ السّياسة اللّغويّة فرع من علم اللّسانيّات الاجتماعيّة، ويُعدّ "إينر هوجن" أوّل من أدخل المفهوم إلى أدبيّات علم الاجتماع اللّغوي في عام 1959 في دراسة تناول فيها حالة اللّغة في النرويج خلال فترة معيّنة. وقد عرّف "لوي جون كالفي" السّياسة اللّغويّة بأنّها "مجمّل الخيارات الواعية المتّخذة في مجال العلاقات بين اللّغة والحياة الاجتماعيّة، وبالتّحديد بين اللّغة والحياة في الوطن"².

ومن خصائص السّياسة اللّغويّة أنّ فحواها قيمية - أخلاقيّة بالدرّجة الأولى، كما أنّها تمتاز بالاستقرار النسبي وتسدعي التّطبيق³. وإذ نحاول التّفصيل في ذلك نقول إنّ "السّياسة اللّغويّة هي تدخّل الحكومة على مستوى اللّغة انطلاقاً من كشف علاقة اللّغة بواقع المجتمع الممارس لها، ويمثّل التّخطيط اللّغوي إطارها العمليّ - التّنفذي ليتّم عبره معالجة مشاكل اللّغة على اختلافها (ضبط مصطلحات ما، التّصدّي لهيمنة لغة ما..)"⁴.

- الأمن المجتمعيّ:

مفهوم الأمن المجتمعيّ شديد العمق، خاصّة وأنّه يجمع ثنائيّة الأمن والمجتمع. فالأمن هو الحالة التي يجب توفرها لدى الدّولة والفرد والمجتمع، حالة تتضمّن استقرار كيان الدّولة وسلامة وحدتها التّرابيّة من التّهديدات الخارجيّة من ناحية، كما تتضمّن سلامة واستقرار النّسيج المجتمعيّ الذي يتمثّل عبر عدد من التّجليّات من بينها الهوية والانتماء.

ونشير هنا إلى أنّ مفهوم الأمن في دراسات العلاقات الدّوليّة قد تحوّل من حصر الباحثين له في الجانب العسكريّ، بمعنى أمن الدّولة من التّهديدات الأجنبيّة التي يكون مصدرها دولة أخرى، إلى توسيع المفهوم ومجالاته إذ صرنا نتناول مواضيع الأمن الاجتماعيّ، والاقتصاديّ، والبيئيّ، والأمن المجتمعيّ واحد من هذه المجالات حيث يتمّ التّركيز على صورة الفرد والمجتمع أكثر من صورة الدّولة.

انطلاقاً من ذلك فإنّ تحقيق الأمن المجتمعيّ متّصل بمجموعة تدابير تقع على عاتق الحكومة، والسّياسة اللّغويّة واحدة من هذه التدابير، فاللّغة لاعب أساسيّ في

ترسيخ هوية الفرد والمجتمع، ونستحضر في هذا السياق مقولة لأحدهم: "لغتي هي عالمي، وحدود لغتي هي حدود عالمي".

المحور الثاني: السياسات اللغوية في الجزائر بعد الاستقلال وصراع الهوية.

قد يبدو تعبير "صراع الهوية" للوهلة الأولى مخيفاً، وقد ينكره البعض، لكنه أمر واقع. فبعد الاستقلال وجدت الجزائر نفسها أمام تنوع لغوي وتضارب قيم مجتمعية ثقافية بين فئة مفرنسة وأخرى معربة بدرجة أولى، حتى أن الأمر أثر من الناحية البيداغوجية بحيث استعانت الجزائر بأعداد من المدرسين المشاركة (مصر، الأردن وفلسطين مثلاً) ممن يتقنون العربية وتلقينها. وقد ركز النظام الحاكم وقتها على بعث "سياسة التعريب" من خلال المناهج التعليمية والتربوية، معتبراً اللغة العربية رمزا للهوية الوطنية والإسلام، والأداة الوحيدة القادرة على لم شمل الشعب الجزائري إذا ما قورنت بالأمازيغية، وهي الثغرة التي أفرزت صراعا هوياتيا استمر حتى وقتنا الحالي.

يقول المفكر المغربي الراحل "محمد عبد الجابري" في حديثه عن العلاقة الترابوية بين العروبة والدين الإسلامي في تشكيل هوية الشعوب العربية⁵:

"أيُّ السلاحين يجب أن نحرك في البداية؟ سلاح العروبة أم سلاح الإسلام؟ فالتأنيئة إن لم تكن ثنائية على صعيد الهوية، بل كانت على مستوى الأداة التي ينبغي تحريكها للدفاع عن الهوية وحمايتها".

- لمحة حول مسار التعريب في الجزائر بعد الاستقلال:

مع استقلال الجزائر سنة 1962، تولى الراحل "أحمد بن بلة" رئاسة الدولة لفترة دامت ثلاث سنوات، عمل خلالها على إحياء استخدام اللغة العربية بالتعويل على فئة المتدربين، فالتعريب وقتها كان بمثابة "الوجه الثقافي للاستقلال". وقد عملت الحكومة على تخصيص عشر ساعات للتدريس بالعربية (عشر ساعات من مجموع ثلاثين ساعة أسبوعياً) بداية من عام 1963، ثم تم فرض التعريب "التام" منذ السنة الأولى في المرحلة الابتدائية بداية من سنة 1964، وهي نفس السنة التي عرفت قدوم ما يُقارب ألف مدرّس من مصر⁶.

وتوالت جهود التعريب خلال فترة حكم الراحل "هواري بومدين" من خلال تعاقب عدد من الشخصيات على منصب وزير التربية الوطنية: "أحمد طالب الإبراهيمي" (1965-1970)، "عبد الحميد مهري" (1970-1977) ثم "مصطفى لشرف" (1977-1979) بحيث عُرِفَت هذه المرحلة الأخيرة بتسمية "توقيف التعريب" لأنها اصطدمت بوفاة الرئيس "بومدين".

ويمكن تسجيل بعض الأحداث المهمة بعد 1965 كالاتي⁷:

- الأمر الصادر بتاريخ 26 أبريل 1968 والذي تضمن إجبارية المعرفة باللغة العربية لدى الموظفين الجزائريين، والأمر الصادر في 19 فبراير 1970 بخصوص تعريب الحالة المدنية⁸.

- 05 ديسمبر 1969: تشكيل لجنة وطنية مكلفة بإعداد أجندة إصلاح النظام التربوي.

- سنة 1971: بداية تطبيق الإصلاح الإداري المعلن عنه في عام 1968، كما تم عقد ملتقى إطارات التربية وتمخض التعريب التام بداية من السنة الثالثة والرابعة ابتدائي، تعريب ثلث أساتذة التعليم المتوسط وثلث أساتذة التعليم الثانوي.

- يوضح الجدول التالي⁹ تزايد أعداد المدرسين باللغة العربية في جميع

الأطوار التعليمية خلال الفترة 1962-2002:

السنة	مجموع المدرسين	باللغة العربية	باللغة الفرنسية
1962 - 1963	12696	3342	9354
1972 - 1973	47459	31437	16022
1982 - 1983	99648	76982	22666
1992 - 1993	153479	134359	19120
2001 - 2002	169993	147570	22423

والظاهر في تاريخ السّيّاسة اللّغويّة بالجزائر أنّ سيّاسة التّعريب قد ارتبطت بشكل أكبر بالصّراعات السّيّاسية القائمة حينها، كما أنّ من ربطوا اللّغة العربيّة بالتخلف -مقارنين إيّاها باللّغات الأجنبيّة وفي مقدّمتها الفرنسيّة- إنّما استخدموه كحجّة لردع الجماعات الإسلاميّة، في مقابل ذلك، لم يرد أيّ حديث عن اللّغة الأمازيغيّة¹⁰، حتّى في دستور العام 1989 الذي تضمّن عددا من الإصلاحات إلّا أنّه لم يعترف في ديباجته بهذه اللّغة التي تُعدّ مكونًا أساسيًا في النّسيج الجمعيّ الجزائري. ممّا تضمّنته ديباجة الدّستور: "إنّ الجزائر أرض الإسلام وجزء لا يتجزّء من المغرب العربيّ الكبير، وأرض عربيّة وبلاد متوسّطيّة وإفريقيّة تعترّ بإشعاع ثورتها، ثورة أول نوفمبر 1954"¹¹. نلاحظ هنا التّجاهل التّام للّغة الأمازيغيّة على الرّغم من أحداث الشّغب العارمة والتّظاهرات المطالبة بالاعتراف الرّسمي بها كلغة وطنيّة إلى جانب اللّغة العربيّة، أبرزها أحداث منطقة القبائل سنة 1980¹² ثمّ 1998 على إثر اغتيال الفنّان "معطوب الوّناس".

وإن كانت الدّولة قد بذلت مجهودا في "تعميم" استخدام العربيّة خلال المراحل التّعليميّة وعمدت الحكومات المتعاقبة إلى تعميمها أيضا في مجال الإدارة والاقتصاد غير أنّ هذا لم يتمكّن من القضاء أو تقليل هيمنة اللّغة الفرنسيّة، واللّغة العربيّة وجدت -بالمقابل- من يعارض حضورها في عقر دارها وهوما اتّضح مرارا في تاريخ الجزائر المستقلّة، ومن الأمثلة على ذلك تجميد قانون التّعريب الصّادر سنة 1990 ثمّ العمل على عرقلة مشروع تعميم استخدام العربيّة الذي أقرّه الرّئيس السّابق "اليامين زروال" بتاريخ 05 جويلية 1998¹³ وهي السّنة التي شهدت أحداث شغب بمنطقة القبائل كما أشرنا سابقا. بالإضافة إلى الإضراب عن الدّراسة¹⁴ سنة 1991 ثمّ خلال الموسم الدّراسي 1994-1995.

من جهة أخرى، "سيّاسة التّعريب" جاءت على حساب الأمازيغيّة التي ليست سوى وجه آخر للهويّة الجزائريّة، والحقيقة أنّ إغفال لغة من اللّغات الأصليّة من الممكن أن يجعلها قابلة للزّوال وهيمنة غيرها، إضافة إلى ما يخلقه ذلك من صراع هويّة داخل

المجتمع قد يذهب بالمسألة كلّ مذهب. وقد أورد تقرير لمنظمة الأمم المتحدة سنة 2001 أن "تصف اللغات المحليّة في العالم في طريقها إلى الزوال" إذ من المرجح اضمحلال 90 بالمائة خلال هذا القرن¹⁵.

ما يمكن قوله هنا هو أنّ اللغة "ليست كائنا بنفسها، وإنما يُحبيها الاستعمال المتكرّر والتفاعل المتبادل بينها وبين متكلميها، ويميتها الإهمال أو التتكرّر لها لأيّ سبب من الأسباب"¹⁶. لذلك وجبت ترقية اللغة الأمازيغية بعيدا عن الصراعات السياسيّة والتاريخية لأنها لغة شريحة معتبرة العدد من مجتمعنا.

المحور الثالث: مرحلة إعادة الاعتبار للغة الأمازيغية، والاستمرار في ترقية اللغة العربية (إنشاء المحافظة السامية للأمازيغية، إنشاء المجلس الأعلى للغة العربية).

تحدثنا في المحور السابق عن الإقصاء الذي تعرّضت له اللغة الأمازيغية بعد الاستقلال، إذ لم يعترف بها لا الدستور الجزائري -باعتباره أعلى وثيقة رسمية في البلاد- ولا أيّ قانون. لكنّ الوضع تغيّر -ولونسيًا- مع نهاية الثمانينيات ومرحلة التسعينيات إذ تمّ إنشاء قسمين للغة والثقافة الأمازيغية في كلّ من بجاية وتيزي وزو كما تمّ إدماج الأمازيغية في النظام التربوي سنة 1995، وتعزّز كلّ ذلك بإنشاء المحافظة السامية للأمازيغية بموجب القرار الرئاسي رقم 147-95¹⁷.

وقد جاء في القانون التوجيهي للتربية الوطنية الصادر سنة 2008 أن "اللغة العربية على غرار الإسلام، تشكّل مع الهوية الأمازيغية إسمنت الهوية الثقافيّة للشعب الجزائري وعنصرا جوهريا لوعيه الوطني"¹⁸.

- المحافظة السامية للأمازيغية:

تمّ إنشاء هذا الجهاز في عام 1995، وهوتابع لرئاسة الجمهورية. لقد جاءت المحافظة في وقت عصيب من التاريخ المعاصر للدولة الجزائرية والمجتمع الجزائري، إذ كانت المواجهة مشتتة بين الجيش والجماعات المسلّحة وراح ضحية ذلك أعداد هائلة من الأفراد، كما وأنّ إنشاءها أتى في إطار إعادة الاعتبار للغة والثقافة

الأمازيغية التي تُعدُّ مقومًا أساسيًا من مقومات الأمة بحيث لا يمكن الاستمرار في إغفاله أو إقصائه، خاصةً مع أحداث الشغب التي كانت تعرفها البلاد في كلِّ مرّة. وهناك من انتقد أن تكون المحافظة تابعة لرئاسة الجمهوريّة بشكل مباشر لأنّ ذلك "لا يعني.. إمكانية ازدهار اللسان الأمازيغي، وإنما يعني مصادرة المطلب الأمازيغي حتّى لا يُحوّل إلى مصدر إزعاج للسلطة وإعاقة مؤسساتها"¹⁹. لكن لا يمكن إنكار مجموعة الأدوار التي تقوم بها في سبيل ترقية استخدام اللّغة الأمازيغية وإدماجها بقوة في المجتمع.

أمّا اللّغة العربيّة فتظلّ تحظى بمكانة راقية، ولا أدلُّ على ذلك من الأمر الذي أصدره الرّئيس الرّاحل "الشاذلي بن جديد" سنة 1986 بخصوص إنشاء "المُجمّع الجزائري للّغة العربيّة" ثمّ مع إنشاء المجلس الأعلى للّغة العربيّة لاحقًا.

- المجلس الأعلى للّغة العربيّة:

تنصّ المادّة الثالّثة من الدّستور الجزائري على أنّ:

"اللّغة العربيّة هي اللّغة الرّسميّة للدولة الجزائرية.

نظلّ العربيّة اللّغة الرّسميّة للدولة.

يُحدث لدى رئيس الجمهوريّة مجلس أعلى للّغة العربيّة.

يُكلّف المجلس الأعلى للّغة العربيّة على الخصوص بالعمل على ازدهار اللّغة

العربيّة وتعميم استعمالها في الميادين العلميّة والتّكنولوجيّة والتّشجيع على التّرجمة

إليها لهذه الغاية"²⁰.

تمّ تأسيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة سنة 1996، وهو مؤسّسة علميّة استشاريّة

تابعة لرئاسة الجمهوريّة. يبذل المجلس مجهودات قيّمة في سبيل ترقية استخدام اللّغة

العربيّة والتّرجمة إليها، وله مجموعة من الدّراسات والمنشورات مثل "مجلّة اللّغة

العربيّة" التي تصدر بصفة دوريّة، و"معجم المصطلحات الإداريّة" الذي صدر في

سنة 2000، والنّدوات والملتقيات الفكرية التي تصبّ في إطار الاختصاص المحدّد له

دستوريًا، بالإضافة إلى "اهتمام ووعي كبيرين بإشكاليّة المصطلح وضعا وترجمة

واقتراحا، بما تتطلبه معطيات المرحلة الراهنة على جميع الأصعدة²¹. كما "يقدّم المجلس خلاصات وتوصيات لرئاسة الجمهورية فيما يتعلق باللغة العربية"²².
المحور الرابع: مكانة اللغة الأمازيغية من خلال الدستور الجزائري (تعديل 2002 ثم 2016).

- في تعريف اللغة الرسمية واللغة الوطنية:

تُعرف اللغة الرسمية بأنها "اللسان الموحد، والذي ينصّ عليه الدستور ويقوم عليه الخطاب الرسمي.. والحقيقة إنّ اللغة الرسمية هي مأوى الوجود في الشخصية والتميز في الانتماء"²³. وقد عدّت اللغة العربية منذ استقلال الجزائر - اللغة الرسمية للبلاد والوحيدة، حسب ما نصّت عليه الدساتير الجزائرية المتعاقبة، في حين لم يتمّ الاعتراف بالأمازيغية حتى عام 2002 - كلغة وطنية فقط - أثناء تعديل الدستور.

وتُعرف اللغة الوطنية بأنها اللغة التي تستخدمها فئات من المجتمع - قد تكون أقلية في الغالب - ولا ترقى بذلك إلى مصافّ اللغة الرسمية في الدولة. وفي حالة اعتراف الدولة باللغة الوطنية ليست ملزمة باستخدام تلك اللغة في إدارتها وفي مؤسساتها أو العمل على تعميمها، وعلى الدولة واجب حمايتها وتعزيزها وتسهيل استخدامها في مناطقها"²⁴.

- إدراج الأمازيغية كلغة وطنية في الدستور المعدّل سنة 2002، ثمّ رسمية في تعديل الدستور سنة 2016:

جاء في المادة الثالثة مكرّر من الدستور المعدّل سنة 2002:

"تمازيغت هي كذلك لغة وطنية.

تعمل الدولة لترقيتها وتطويرها بكلّ تنوّعاتها اللسانية المستعملة عبر التراب الوطني"²⁵.

وقد جاء هذا الإقرار الرسمي عقب أحداث "الربيع الأمازيغي" مطلع الألفية، ليُعبّر من خلاله عن الاعتراف بهوية فئة من النسيج المجتمعي للجزائر لطالما أُحسّت

بالتّهميش ولطالما رفعت مطلب الاعتراف بلغتها. وتحظى اللّغة الأمازيغيّة اليوم بمكانة راقية، سواء من حيث انتشارها التّدرجي عبر الوطن في الأطوار التّعليميّة أو من حيث تدريسها في عدد من الجامعات الجزائريّة كجاية وتيزي وزووبانتة. ومع ذلك لا تزال أزمة الهوية مطروحة في الجزائر، خاصّة إذا ما تمّ الرّبط بين الهوية ومستوى التّتمية والعملية الديمقراطيّة الذي بلغته بلادنا.

ثمّ جاء في المادّة الرّابعة من الدّستور المعدّل سنة 2016:

"تمازيغت هي كذلك لغة وطنية ورسميّة.

تعمل الدّولة لترقيتها وتطويرها بكلّ تنوّعاتها اللّسانية المستعملة عبر التّراب الوطني.

يُحدث مجمّع جزائري للّغة الأمازيغيّة يوضع لدى رئاسة الجمهوريّة.

يستند المجمع إلى أشغال الخبراء، ويكّف بتوفير الشّروط اللّازمة لترقية تمازيغت قصد تجسيد وضعها كلغة رسميّة فيما بعد.

تُحدّد كميّات تطبيق هذه المادّة بموجب قانون عضوي²⁶.

الملاحظ أنّ هذا التّعديل المتعلّق باللّغة الأمازيغيّة قد أتى في فترة زمنيّة اشتدّت خلالها الصّراعات السّياسية في الجزائر، بين الأحزاب السّياسية ذاتها وبينها وبين النّظام الحاكم، كما أنّه جاء في إطار مجموعة إصلاحات سّياسية ومؤسّساتيّة عمدت إليها الجزائر منذ 2011 شملت رفع حالة الطّوارئ، وإصدار مجموعة من القوانين الإصلاحية صادق عليها البرلمان²⁷، ثمّ التّعديل الدّستوري شهر مارس 2016.

لكنّ "دسترة" الأمازيغيّة منذ 2002 والعمل على ترقيتها لا تعني بالضرورة المساواة الفعلية على أرض الواقع، ذلك أنّ "التّساوي الفعلي لا يمكن تحقيقه في الوقت الرّاهن، فتمّة حاجة إلى تأهيل الأمازيغيّة لأداء الدور المنوط بها"²⁸. الفجوة هنا متمثّلة في علاقة هذه اللّغة -التي هي جزء أساسي لا يمكن فصله عن هوية المجتمع الجزائري- بالصّراعات السّياسية والأيدولوجية الرّاهنة منها والتّاريخية.

المحور الخامس: اللغتان العربية والأمازيغية إسمت الوحدة الوطنية (ضرورة التعايش والتكامل لتحقيق الأمن المجتمعي والوحدة الوطنية).

تحدثنا في بداية البحث على تطور مفهوم الأمن في علم العلاقات الدولية ليشمل أيضا البعد المجتمعي، ونؤكد هنا على أن تحقيق الأمن المجتمعي اليوم مطلب أساسي في كل دولة، فما الفائدة من تأمين الحدود الجغرافية وتقوية الجيوش إن كان المجتمع منقسما في داخله وعلى نفسه انقساما باسم اللغة والإثنية²⁹؟

وفي الحالة الجزائرية لا يمكن إنكار الثغرات التي رافقت السياسات اللغوية منذ الاستقلال، وهي البلد الذي يكون المشهد السوسيو-لغوي فيه اللغة العربية، واللغة الأمازيغية، بالإضافة إلى اللغة الفرنسية كموروث تركه المستعمر، ومجموعة لا تُحصى من اللهجات المحلية. تلك الثغرات تم تداركها لاحقا بمحاولة إعادة الاعتبار للغة الأمازيغية التي تحظى اليوم بمكانة مُعتبرة، بل إنها اليوم اللغة الرسمية الثانية في الجزائر. وتأكيدا على مكانتها إلى جانب اللغة العربية، جاء وصفهما بعبارة "إسمت الوحدة الوطنية". فمُخطئ من يعتقد بأن مسألة اللغة أمر يمكن التغاضي عنه، لأن اللغة أيضا مقياسٌ للانتماء وللاستقرار بالمقابل ويُفترض في واضعي السياسة اللغوية أخذ المشهد السوسيو-لغوي في البلاد بعين الاعتبار.

فالتعايش والتكامل بين اللغتين مطلب أساسي، لكنه لا يتحقق بين عشية وضحاها، بل بالإرادة السياسية للنخب وترك الصراعات الأيديولوجية جانبا، وبرسم سياسة لغوية سليمة تراعي علاقة اللغة بالحياة اليومية للفرد، بل أبعد من ذلك علاقة اللغة بالمجتمع عبر التاريخ. هنا نقول بأن اللغة العربية واللغة الأمازيغية يشهد لهما التاريخ بالحضور والتفاعل في تشكيل هوية المجتمع الجزائري، لذلك لا يمكن إعلاء مكانة إحداها دون الأخرى، وحرى بنا الاستفادة من تجارب التاريخ السياسي المعاصر للجزائر. ونضيف هنا فكرة نراها جد هامة وهي تتعلق بذهنيات المجتمع ومنطق "الجهوية" الذي لا يمكن إنكاره والذي لا يزال يشكل عائقا أمام تعايش

الشريحة المجتمعية المعربة وشريحة المجتمع الناطقة بالأمازيغية، حتى مع الاعتراف بالأمازيغية كلغة رسمية³⁰.

الخاتمة:

تعدُّ الحالة الجزائرية مجالاً خصباً للبحث والدراسة في موضوع اللغة وعلاقتها بتحقيق الانسجام والوحدة في المجتمع. وفي ختام هذا البحث نؤكد على أن اللغة مكون أساسي من مكونات الأمن المجتمعي، فالاعتراف باللغة والعمل على حفظها وترقيتها إنما هو اعتراف بمكانتها كصورة لهوية المجتمع وشخصية الدولة. والجزائر لا يمكنها استكمال هويتها دون التفاعل والتكامل -حتى وإن بدا صعباً- بين اللغة العربية واللغة الأمازيغية والتعايش بينهما، لأنه في الأصل -تكامل وتعايش بين فئات المجتمع وترسيخ للوحدة الوطنية والانسجام الجمعي. ونؤكد هنا على ضرورة ترقية اللغتين معاً وتجاوز الصراعات التاريخية وصراعات الأجيال، وإبعاد اللغة -بالمقابل- عن الصراعات السياسية والأيدولوجية.

الهوامش والاحالات

¹ الطاهر ميله، "التَّهْيِئَةُ اللُّغَوِيَّةُ: مفاهيم واتجاهات". في: مجموعة باحثين، أهميّة التَّخْطِيط اللُّغَوِي (اللغات ووظائفها). أعمال الندوة الوطنيّة حول التَّخْطِيط اللُّغَوِي فِي الجَزَائِر الَّتِي جرت فعاليّاتها يومي 12 و 13 أفريل 2011. الجزائر: المجلس الأعلى للغة العربيّة، 2011، ص. 63.

² بلال دربال، "السياسة اللُّغَوِيَّة: المفهوم والآلية". مجلة المخبر - أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، ع. 10، 2014، ص-ص: 325-328.

³ صالح بلعيد، النخبة والمشاريع الوطنيّة. تيزي وزو: منشورات مخبر الممارسات اللُّغَوِيَّة بالجزائر (قسم اللغة العربيّة)، 2013، ص. 13.

⁴ عمارة عمروس، "تماذج السياسة اللُّغَوِيَّة فِي الجزائر منذ الاستقلال، بين رهان الواقع الاجتماعي والرهان السياسي". مداخلة أقيمت في إطار فعاليات ملتقى الوطني الأول حول السياسات اللُّغَوِيَّة فِي الجزائر: بين تجلّيات الواقع اللُّغَوِي وتحديات السياسة، المنعقد بتاريخ: 15 و 16 أفريل 2017، بالمدرسة الوطنيّة العليا للعلوم السياسيّة بالجزائر العاصمة، ص. 02.

⁵ محمد عابد الجابري، مسألة الهوية: العربية والإسلام والغرب. ط. 3، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2006، ص. 36.

⁶ Gilbert Grandguillaume, « L'arabisation au Maghreb ». Revue d'aménagement linguistique, vol. 107, hiver 2004, p. p. 13 et 14. sur le site : <http://www.google.com/url?...grandguillaume.fr>.

⁷ Gilbert Grandguillaume, Op.cit, p-p: 14-16.

⁸ عزّ الدين المناصرة، المسألة الأمازيغية في الجزائر والمغرب: إشكالية التعديّة اللُّغَوِيَّة. مصر: دار الشروق، د. س. ن، ص-ص: 25-29.

⁹ Guilbert Grandguillaume, « La francophonie en Algérie ». sur le site:

<http://documents.irevues.inist.fr/bitstream/handle/2042/9504/HERM?sequence=1>.

¹⁰ عزّ الدين المناصرة، مرجع سابق، ص. 21.

¹¹ المرجع نفسه، ص. ص. 24 و 25.

¹² جاءت نتيجة لمنع الأديب الراحل "مولود معمري" من إلقاء محاضراته بجامعة حسناوة (تيزي وزو) بتاريخ: 10 مارس 1980 وكانت بعنوان: "قراءة في دور الشعر في المجتمع القبائلي التقليدي". وتعرف الأحداث بتسمية "الربيع الأمازيغي".

انظر:

Bruce Maddy and Weitzman, The Berber identity movement and the challenge to North African States. USA : University of Texax press, 2011, p. 79.

¹³ بوزيد ساسي هادف، "الازدواجية اللغوية في الجزائر المستقلة: دراسة سوسيو-لسانية". في الموقع الإلكتروني:

[http://edusocio.net/index.php/..](http://edusocio.net/index.php/)

¹⁴ أحمد عزوز، ومحمد خاين، العدالة اللغوية في المجتمع المغربي: بين شرعية المطالب ومخاوف التوظيف السياسي. ط. 1، الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014، ص. 79.

نشير هنا إلى أن السياسة الفرنسية في الجزائر كان لها دور كبير في ترسيخ فكرة "الجهوية" التي نعيشها اليوم والعمل على احتواء الشريحة الأمازيغية حتى بعد استقلال الجزائر. ومن الأمثلة البارزة دعم فرنسا للحراك البربري داخل "حزب الشعب الجزائري" الذي طالب أصحابه بالاعتراف بالهوية الأمازيغية، ثم إنشاء الأكاديمية البربرية بفرنسا سنة 1967 ومجموعة الدراسات البربرية بجامعة باريس سنة 1973.

للمزيد، انظر:

الربيعي بن سلامة، "اللغة العربية بين الاستجابة لمتطلبات التنمية وهاجس المحافظة على الهوية" في: مجموعة باحثين، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات التعليم والترجمة والمصطلح. ط. 1، الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013، ص. 73.

أحمد عزوز، ومحمد خاين، مرجع سابق، ص. 80.

¹⁵ الربيعي بن سلامة، مرجع سابق، ص. 141.

¹⁶ عز الدين صحراوي، "اللغة العربية في الجزائر: التاريخ والهوية". مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة بسكرة، ع. 05، جوان 2009، ص. 07.

¹⁷ Ait Mimoune, Ourida, «la place de la langue tamazight dans les attitudes et représentations linguistiques des apprenants du cycle moyen». Mémoire de

magister, université de Mouloud Mammeri, Tizi Ouzou, 2011, p. p. 70 et 71.

¹⁸ وزارة التربية الوطنية، "القانون التوجيهي للتربية الوطنية رقم 04 - 08 المؤرخ في 23 جانفي 2008". في الموقع الإلكتروني:

<http://docs.Google.com>file>edit>

¹⁹ للاطلاع على المقال كاملا، انظر:

نور الدين ثنيو، "الدولة الجزائرية.. المشروع العصي". مجلة المستقبل العربي، ع. 242، أبريل 1999، ص - ص: 22-36.

²⁰ الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الجريدة الرسمية رقم 14، المتضمنة القانون رقم 16-01 الذي يتضمن التعديل الدستوري. تاريخ الصدور: 07. 03. 2016، ص. 06. الموقع الإلكتروني:

www.majliselouma.dz/Constitution_2016

²¹ يوسف منصر، وآخرون، "الجهود المصطلحية للمجلس الأعلى للغة العربية". في الموقع الإلكتروني:

www.univ-soukahras.dz/fr/publication/article/371

²² الموقع الرسمي للمجلس الدولي للغة العربية. الموقع الإلكتروني:

[http://www.alarabiah.org/institution/..](http://www.alarabiah.org/institution/)

²³ صالح بلعيد، مرجع سابق، ص. 57.

²⁴ المرجع نفسه، ص. ص. 58 و 59.

²⁵ أحمد عزّوز، ومحمد خاين، مرجع سابق، ص. 81.

²⁶ الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، المكان نفسه.

²⁷ من بينها قانون الانتخابات الجديد، وقانون الإعلام الجديد الذي فتح مجال السّمي-البصري أمام الخواص، والقانون المتعلق بتمثيل المرأة في المجالس المنتخبة..

²⁸ أحمد عزّوز، ومحمد خاين، مرجع سابق، ص. 82.

²⁹ نعي بمصطلح الإثنية مسألة اللغة والدين والثقافة، ويقابله مصطلح العرقية الذي يشير إلى الأصل البشري (العرق)، وغالبا ما يمكن تحديد الجماعات العرقية من خلال لون البشرة.

³⁰ قد يكون "من غير الممكن تغيير المجتمع بالمراسيم" لكنها تسهم في تكوين ثقافة سياسية معينة لدى الأفراد.

من تعدّد اللّسان إلى وحدة الإنسان

أ. أحلام بن عمرة:

ب. ج. مولود معمرى تيزى -وزو

إنّه لا من نافلة القول التذكير بالوظيفة الأسمى للغة وهي التّواصل مع بني البشر على اختلاف عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم، وإنّه لمن الأهميّة بمكان أن نؤكد على أهميّة اللّغة في تحقيق الاتّصال الذي يحقق التّكامل المنشود بين أفراد المجتمعات على تنوّعها، فاللّغة وسيلة من وسائل نقل المعرفة، والاستفادة منها واستثمارها في ميادين مختلفة.

وتعكس المعرفة مستوى الفرد وثقافته والطبقة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها ولهذا يحرص الإنسان على اكتسابها؛ فنجده يستعين بمختلف الوسائل التي تبلغه مرامه واللّغة واحدة من هذه الوسائل بل من أهمّها؛ ولكن أيّة لغة؟

إنّ الإجابة على هذا السّؤال تجعلني أقرّ وأعترف بدور اللّغات الأجنبيّة في اكتساب المعرفة واللّحاق بالركب الحضاري، والعمل على الإبداع، ولكن لا بد أن لا أنكر حقيقة أنّها عملت وتعمل على إحداث الانقسام بين الفئات الاجتماعيّة من خلال خلق فئات لغوية وكل فئة تفتخر بمستواها وتقلّ من شأن غيرها؛ فمن وراء هذا التقسيم هل اللّغة في حد ذاتها؟ أم النّاطقون بها؟

إن اللّغة وأية لغة بريئة من الاتّهامات الباطلة التي تنسب إليها، لأنّها تعمل على تحقيق وحدة الإنسان وفئة من المتعلّمين يبذلون جهدهم ليحدثوا الانقسام؛ من خلال الميل للّغة ومدحها بوسمها لغة العلم وتكنولوجيا وغيرها لغة شعراء الجاهلية، وهم بذلك يقصدون العربيّة لغة القرآن واللّغة الوطنيّة، وكان ينبغي أن يعترفوا لها بالسيادة ويردوا لها الاعتبار، ويقروا بدورها في تحقيق وحدة الإنسان، ويوحّدوا جهودهم لتغيير النظرة المتشائمة للغة العربيّة، ويعملوا على الرفع من مكانتها

ويسهروا على ازدهارها، ويتعلموا اللغات الأجنبية؛ لأجل خدمتها فيحققوا بذلك وحدة الإنسان فيساوي التعدد اللغوي بذلك انسجاما جمعيا، ونفرض حقيقة غفلنا عليها وهي أن تعدد اللسان يساوي وحدة الإنسان.

إنّ الحديث عن التعدد اللساني / التعدد اللغوي هو حديث بالضرورة عن مضامين هذا المفهوم؛ فبين مساند له بدعوة أن التعدد اللغوي وسيلة من وسائل الاستثمار اللغوي الناجح؛ كونه يشجع على الإبداع ويعمل على تنمية الملكة لدى الفرد، ويسعى جاهدا إلى الرفع من مكانة اللغة الوطنية، ويدعو إلى خدمتها وترسيخها والإعلاء من مكانتها والعمل على اللحاق بالركب الحضاري من خلال الاستفادة من تجارب الدول في اهتمامها بلغاتها... الخ، وبين رافض له بحجة أن التعدد اللساني سبب للقضاء على مقومات الأمة والحط من مكانة اللغة الوطنية والأهم من ذلك أنه في نظرهم سبب من أسباب إعاقة الملكة اللغوية والفكرية لدى الفرد

هذه النظرة المتدبرة إلى واقع التعدد اللساني/اللغوي في مجتمعنا جعلتني أبحث عن حل وسط بين الطرفين ويتحقق ذلك من خلال العمل على تغيير النظرة المتشائمة والعمل على البرهنة بأن التعدد اللغوي يساوي انسجاما جمعيا، وأنّ التعدد اللساني يؤدي إلى وحدة الإنسان.

منه تكمن أهمية بحثي في سعي إلى العمل جاهدة إلى إكساب التعدد اللساني مضامين إيجابية فقط، وتحويل المضامين السلبية إلى مضامين إيجابية بنشر الوعي اللغوي الذي يهدف إلى جعل الفرد يعتز بلغته ويفتخر بها، ويبذل جهده ليراهها ترقى في السلم العالمي للغات، ويعمل على اكتساب اللغات الأجنبية بهد واحد وهو خدمة اللغة الوطنية والاستفادة من تجارب الدول للمضي قدما مع الاعتراف بالسيادة للغة الوطنية.

بناء على ما سبق سأعالج في بحثي إشكالية في غاية الأهمية وهي: كيف يمكن أن نجعل من التعدد اللساني سبب لوحدة الإنسان؟ كيف يمكن للتعدد اللغوي أن يساوي انسجاماً جمعياً؟

1. مفهوم التعدد اللساني:

تتفق المعاجم اللسانية على أنه "عبارة عن استعمال لغات عديدة داخل مؤسسة اجتماعية معينة، وفي القاموس: " نصف متكلماً ما بأنه شخص متعدّد اللغات إذا كان يستعمل داخل جماعة معينة ولأغراض تواصلية مجموعة من اللغات علاوة على ذلك فإنّ الباحثين اللسانيين يدرجون " مصطلح التعدد اللغوي ضمن علم الاجتماع اللغوي" ويحتمل كون هذه الازدواجية لها تأثير في عملية تعليم اللغة العربية الفصحى¹.

2. التعدد اللساني المطلوب والمنبوذ: أشارت سابقاً إلى اختلاف نظرة الباحثين إلى مفهوم التعدد اللساني، وقد كانت هذه النظرة وليدة أفكار بعضها صحيح وبعضها لا أساس له فانقسموا إلى فريقين: فريق يرى بأنّ التعدد اللساني أمر مطلوب بل ضرورة حضارية، وحقته في ذلك هي أنه لا سبيل لنا لاكتساب المعرفة والحقا بالركب الحضاري، والارتقاء في أعلى الدرجات سوى اتقان اللغات الأجنبية باعتباره لغة العلم والتكنولوجيا ولغة الحضارة، ويرى أن رفض اللغات الأجنبية هي عقدة يجب التخلي والتخلص منها، وإلا حكمنا على أنفسنا بالموت وحفرنا قبرونا بأنفسنا، إنّ هذا الفريق يرى بأنّ الشخص الذي يتقن لغة واحدة هو كالإنسان الذي ينظر بعين واحدة، منه أصبح تعلم اللغات واكتسابها أمر في غاية الأهمية، ويجب أن يولى العناية البالغة من القائمين على المنظومة التربوية.

إنّ تعلم اللغات الأجنبية في نظر هذا الاتجاه وسيلة من وسائل الإبداع وفتح الآفاق وخلق فرص العمل، وتكوين العلاقات العلمية التي تظهر ثمارها في القريب العاجل، فاللغة الأجنبية مفتاح من مفاتيح العصر والتقدم، ولا سبيل لتحقيق هذين الأمرين بدونها؛ ولهذا يؤكد أنصار هذا الاتجاه على المكانة التي تحتلها اللغات

الأجنبية، وهم بذلك يعملون على التّسويق الثقافي الأجنبي لأنّهم على ثقة بأنّ التّعدد اللّساني ما هو إلى وسيلة من وسائل توطيد العلاقات بين الأمم والاحتكاك بين الشعوب والتّعارف، وتبادل الثقافات والاستفادة من تجارب دول استطاعت أن ترقى بلغاتها، وأن تبرهن على أن التّعدد اللّساني نقطة إيجابية وضرورة وأن الراضين له يجب أن يوضحوا بأنهم يرفضون التماهي، والذوبان وليس رفض للانفتاح الإيجابي الذي يعمل على ترقية الفرد في جميع المجالات، ويرفع من شأنه بين الجماعات على اختلاف عاداتها وتقاليدها.

ينبغي أن نؤكد في هذا المقام على أهميّة اللّغات الأجنبية، وعلى دورها في خدمة اللّغة الوطنية؛ بحيث يكون الهدف من اكتسابها هو خدمة اللّغة الوطنية والعمل على ترقيتها وازدهارها ولن يتحقق ذلك إلا بالاعتراف لها بالسيادة، وإعادة الاعتبار لها والافتخار بها وبلك تتحقق تنمية اللّغة التي تشمل الجانب المادي والجانب المعنوي.

نروم من كل فرد من أفراد الأمة أن يبذل جهده للعمل على الحدّ من النظرة السلبية التي اكتسبها مفهوم التّعدد اللّساني، والمتمثلة في أنّه يعمل على إحداث الانقسام بين أفراد الأمة الواحدة، ويعمل على إعاقة الملكة الإبداعية لدى الفرد ذلك أن المتقن للغة يستطيع أن يبدع فيها وأن الإبداع باللّغات الأجنبية أمر صعب للغاية، ولكنها فكرة قابلة للدحض والواقع خير دليل على ذلك، فكم من شخص يستطيع الإبداع باللّغتين، وكم من شخص استطاع أن يفرض شخصيته وسط المبدعين بلغتين أو أكثر واستطاع وأن يتقاسم الأحاسيس مع غيره من خلال تجربته الإبداعية، ويعكس بتجربته الواقع ويعبر عن مساندته لآخرين، وبذلك يسهم التّعدد اللّساني في وحدة الإنسان.

إنّ الإنسان كائن بشري يحتاج إلى أن يتوصل مع مختلف الأجناس، ليستفيد منهم ويستفيد من تجاربهم، ويعبر لهم عن أحاسيسه، وينقل لهم تجاربهم، ويطلعهم

على نجاحاته، ولا يتم ذلك دون امتلاك اللغات التي تعد الوسيلة الوحيدة التي تعينه على الوصول إلى أهدافه.

وتتعدّد أهداف الإنسان بحسب سنه، وطبقته الاجتماعية، ووسطه الذي يعيش فيه ولكن يبقى الهدف الأسمى واحد يجمع بين كل الأفراد وهو تحقيق وحدة الإنسان الذي يسعى إلى التعايش مع غيره، ويطلعهم على أهدافه ومشارعه التي لا يجب أن تتعدّد حدود الانسانية.

إن نظرة بعض المنشائمين إلى التعدد اللساني تخلق الطبقة الاجتماعية، وتفرق بين المجتمعات، وبدل أن تحدّ من الأزمة تزيد الطين بلة، لذلك نوّكد على ضرورة تغيير هذه النظرة التي ما فتئت تسلب للتعدد اللساني مفهومه الإيجابي، وتشوبه بمفاهيم سلبية، وتغرس بين أفراد الشعب الواحد أفكار استعمارية.

عمل الاستعمار على طمس الهوية، من حيث مكوناتها الثقافية والاجتماعية وحتىّ العقائدية وهذا بمنع تدريس اللغة العربية، هدم المساجد، بناء الكنائس وفرض المستعمر اللغة الفرنسية على الأهالي وإلى غير ذلك من الأعمال التي تهدف إلى طمس هوية هذا الشعب "لذلك أصبح واضحا أن المجتمع الجزائري يواجه مشكلة التعددية اللغوية واللهجات المحلية مع ما تعانیه من مخاطر وجود تباينات عميقة في المنطلقات الفكرية والإيديولوجية لكل فئة، وأن الأمر أصبح فعلا بحاجة حقيقية إلى ما يسمى "الثورة الثقافية" للوقاية من عواقب الاختلاف اللغوي وأثاره السلبية على وحدة الفكر والهدف والانتماء وذلك من خلال تنظيم حملة توعوية"² تنتشر أفكار حقيقية وهي أن التعدد اللساني ظاهرة في كل دول العالم، ولا مشكل أن "يتخذ التعدد اللغوي مسلك التطعيم وافتتاح الثقافة الوطنية على الثقافات الأجنبية لتوسع دائرة التفكير اللغوي بما يخدم اللغة الوطنية، وقد مورس هذا النموذج في المجتمع الإسلامي في أزهى عصور الحضارة الإسلامية ولا تشك العربية ضيقا ولا تشويشا ولا عجزا ولا عزلة بل ظلت تلك اللغات خادمة للغة العربية معلنة انقيادها عن طواعية، وما وجود لهجات محلية في دول المغرب

العربي إلا شاهد على حسن الجوار للغة العربية³، فالتعددية اللّغوية ثروة ينبغي الحرص عليها والنظر إلى مضامينها الإيجابية والتدبر في الفوائد التي نجنيها من هذا التعدد؛ بخاصة إذا كانت هذه التعددية تعمل على خدمة اللّغة العربيّة وتحرص على ترفيتها، ولا تراحمها أو تنزع عنها وظيفتها الجامعة" وقد كان هذا شأن العرب والمسلمين في عصرهم الزاهر؛ فقد كانت مجامع العلم من ثنائي وثلاثي اللّغة وإتقان لغات الحضارات الأخرى مثل: فارس واليونان والهند هو الذي مكّنهم من نقل تراثها وتوطينه بالعربيّة الفصحى المشتركة وأوصلوه إلى أوروبا بعد أن أضافوا إليها الكثير، وصنعوا بذلك حادثة عصرهم بالتفوق في كثير من العلوم ومنها علوم اللسان، وابتكار المناهج وليست بالتفاخر اللفظي والثناء⁴.

وتزيد أهميّة التعددية اللّغوية في البحث العلمي مع التّطورات التكنولوجية، وبات على كل راغب في نشدان المعاصرة أن يتسلح باللّغات الأجنبية بخاصة العالمية منها مثل الإنجليزية التي اكتست السّاحة العلمية بخاصة في ميدان البحث العلمي، وتعلم العلوم الدقيقة والرياضيات؛ فلغات أخرى مثل الفرنسية أو الألمانية أصبحت تضيق بها الدائرة في عقر دارها؛ حيث المؤتمرات العلمية فيها بالإنجليزية وحدها غالباً، والدراسات العليا اكتسحتها الدروس التي تدعى بالدروس الدولية، ولم تعد هذه اللّغات سوى لغات الخانات، أو موضوعات خانات بمعنى أنها تستعمل فقط في بعض الموضوعات التي سبق للغة أن أبدعت فيها قبل غيرها⁵ يبدو أن تعلم التعددية اللّسانية ضرورة حضارية لا بد منها لنستطيع الإلمام بالعلوم على اختلافها، وتنوعها؛ ولا بد أن ننظر للواقع بموضوعية، ونتخلص من الذاتية التي تجعلنا نغلق على لغاتنا وحده ونبذ أي دخول حتى ولو كان لصالحنا.

يجب أن نخطط لأجل ضمان مستقبل زاهر للغتنا في ظل التعددية اللّسانية، وفي إطار الحديث عن التّخطيط رأيت أنه من الأهميّة بمكان أن أعرض بعض تعريفات هذا المصطلح:

3. مفهوم التخطيط: إنَّ للتخطيط عدّة تعاريف ومفاهيم، وللاطلاع على دلالاته الأصلية رجعت إلى أصل هذه الكلمة في المعجم العربية، وذلك لتحليل هذه الدلالة من الوجهة اللغوية حيث ورد في معجم لسان العرب لابن المنظور في مادة خطط: «أنَّ الخط هو الطريق، يقال: ألزم ذلك الخط ولا تظلم عنه شيئاً، والتخطيط: التسطير التّهذيب فالتخطيط كالتسطير، تقول خطّطت عليه ذنوبه أي سطرّته»⁶. وورد في المعجم الوجيز: «التخطيط فكرة مثبتة بالرسم أو الكتابة في حالة الخطّ، تدلّ دلالة تامّة ما يقصد في الصورة أو الرسم أو اللوح المكتوب من المعنى والموضوع»⁷. أمّا مفهومه الاصطلاحي متعدّد يؤخذ من الفلسفة المعتمدة عند مستعمليه أو الموضوع الذي يجري فيه العمل بالتخطيط والتخطيط: عملية منظمة واعية لاختيار أحسن الحلول الممكنة للوصول إلى أهداف معيّنة وبعبارة أخرى هو عملية ترتيب الأولويات في ضوء الإمكانيات المادية والبشرية المتاحة، والتخطيط منهج إنساني للعمل يستهدف اتّخاذ إجراءات في الحاضر ليحني ثمارها في المستقبل⁸.

يعلم الكلّ أنّ المعنى الاصطلاحي للتخطيط يختلف باختلاف مداخله واستراتيجيات تنفيذه، فلرجال الإدارة تعريفهم ولرجال الاقتصاد تعريفهم... الخ ونعرض لتعريف رجال اللغة للتخطيط اللغوي الذين عرفوه "على أنّه دراسة علاقة اللغة بالمجتمع، ومدى تأثر كلّ منهما بالآخر، ويأتي في العادة لعلاج مقام اللغة الأمّ، ولوضع سياسة لغوية تقوم على مسطرة تراتب اللغات في الواقع، سواء بالقوّة أو الفعل؛ حيث يهتم بإنزال اللغات محالها المناسبة بناء على النصوص القانونية"⁹؛ فالتخطيط اللغوي المقصود هو تخطيط ينظر في اللغات بحسب المقام الهوياتي والحضاري، والعلمي للغات المستعملة في بلد من البلاد؛ حيث ينزل كلّ لغة مقامها بتدبير سيادة اللغة الرسمية في المقام العالي، ثمّ اللغة الوطنية في المقام الثاني، وأخيراً اللغات الأجنبية بحسب ما تقتضيه المصلحة الوطنية والنفعيّة الآنية، وما تحمله كلّ لغة من حمولة علميّة، " كما يشمل التخطيط اللغوي وضع سياسة لغويّة واضحة الهدف تسهم في تنفيذها المؤسسات التعليميّة والإعلاميّة

والإدارية بإنجاز استراتيجيات وطنية تقضي على التخالف لا على الاختلاف باعتماد اللغة التي لا تخضع للمناقشة إلا في قضية المنهجية التي تعمل على ترقيتها¹⁰ وهكذا عن طريق التخطيط اللغوي العلمي تنهض اللغات الوطنية بنهوض المكونات الأساسية في أية خطة لغوية.

من هذا المنطلق أصبح التخطيط اللغوي مجالا أساسيا من مجالات البحث في الدراسات السسيو لسانية وزاد في الاهتمام بهذا المجال ظهور مشاكل داخل بعض المجتمعات حتى المتقدمة منها في الفترة الأخيرة بسبب عدم رسم استراتيجيات لغوية سليمة. تتسبب في بعض الأحيان في تفويض وحدة المجتمعات عرفت بوحدتها إلى فترة قريبة والأکید أن كل الدول صارت تعني بهذا المجال وحتى المنظمات العالمية الكبرى أصبحت ترصد الأموال للبحث في هذا المجال.

يهمنا في هذا المقام هو التخطيط الذي يهدف إلى خدمة اللغة العربية، ويضمن مكانتها بين اللغات العالمية، ويرى في التعدد اللساني سبيل لتحقيق الوحدة الإنسانية؛ حيث إن " جل المجتمعات متعدّدة لغويا وثقافيا، بالرجوع إلى التكوّن التاريخي الحركي للشعوب والهويات واتصال اللغات والثقافات نتيجة وجودها على وطن أرض واحدة، أو التقائها بحكم موجات الهجرة والتنقل، خاصة في عصر العولمة الذي تقوّت فيه شبكات هجرة تتجاوز الحدود الوطنية وقامت فيه حركات اجتماعية جديدة تجمعت حول اللغة، أو الأثنية أو الدين وأصبحت تطالب بالإدماج التام والعدل في المجتمع، مع الاعتراف بخصوصياتها الهوياتية في الفضاء العمومي، منتقدة التلازم المقام بين الوحدة السياسية والأحادية الثقافية، فما هو مطلوب هو إقامة حكمة سياسية معقولة للتنوع الثقافي، تنبذ الأحادية المبنية على الذوبان والبوثة في قالب واحد، وهي شرط لا بد منه لأمة شعارها: " أمة واحدة ودولة واحدة ولغة واحدة"¹¹؛ فليست التعددية اللسانية منبوذة في حدّ ذاتها، وإنما المنبوذ هو التماهي في الآخر، والافتخار بلغات الغير على حساب اللغة الوطنية

والتحدث باللغات الأجنبية؛ لأنها تعكس المستوى العلمي للفرد والطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها.

إنّ التعددية اللسانية المنبوذة هي التعددية التي تحط من مكانته اللغة العربية، فهي التعددية السلبية التي ينشرها أعداء اللغة الوطنية، الذين يعتبرونها باعتبارها عاجزة على أن تعبر على مستجدات الحضارة، ومقتضيات التطور؛ فنجدهم يأخذون على عاتقها عملية التسويق الثقافي واللغوي غير العربي متحمسة للتبشير به على أنه سمة العصر والعصرنة والرقى والانطلاق على العالمية، "وفي الحقيقة إنّ اللغة العربية لم تضعف، وإنما ممارسات من ينتصرون للغة الأجنبية هي التي تعمل على إضعاف اللغة الوطنية، وهي التي قلصت دورها في كثير من المجالات، وبخاصة المجال الاقتصادي، وكان ذلك كافياً أن تنزوي العربية وتبتعد عن الحياة العلمية، واللغة بطبعها إذا ابتعدت عن المجال العلمي، وعن الاستعمال اليومي ولها ضرة تنافسها، ولها يعمل على تأخيرها لا يمكنها أن تذهب بعيداً، بل يأتي عليها حين من الدهر تبقى في خبر كان، وأما مسألة التعدد اللغوي ليس خطراً إذا تم في أطر ضيقة، وحدث بشكل لا يحمل الهيمنة؛ فتبقى اللغة الأجنبية أجنبية وأداة تفتح واستفادة وتبقى مركزية اللغة العربية مركزية فلها السيادة والحكم"¹²، فاللغة العربية هي لغة الدين ولغة القومية، ولذلك يجب على أبنائها أن يعملوا جاهدين على رد الاعتبار لها بين لغات العالمية حتى ترتقي إلى العالمية.

أؤكد على فكرة مهمة وهي أنّ التعدد اللساني نقطة إيجابية لا بد على الشعوب التي تنشأ المعاصرة أن تحرص على اكتسابها، وأن تعتبر من تجارب الدول في خدمتها للغاتها؛ فلم ترتقي اللغات الأجنبية إلا بأهلها الذين دافعوا عليها، وحاربوا من أجل ضمان مستقبلها، وأبدعوا وابتكروا حتى يكون ليحفظوا للغاتهم المكانة التي تستحقها، فأين نحن من هؤلاء أما كان ينبغي لنا أن نبذع بلغتنا ونبتكر ونسعى للتقدم وإن عجزنا على ذلك فلندافع عنها بقلوبنا فذلك أضعف الإيمان ولا

نتهمها زورا بأنها هي العاجزة على مواكبات التطورات فهل العيب فينا أم في لغاتنا؟

يفترض أن يحاسب كل واحد منا نفسه عن تقصيره، وعدم القيام بواجبه الكامل اتجاه لغته؛ ونوحد الجهود من أجل خدمتها؛ فخدمتها عبادة يؤجر المرء عليها؛ لقد بذل أسلافنا ما بوسعهم وكان ينبغي لنا أن نحذو حذوهم، لقد كان لنا في ابن باديس والبشير الإبراهيمي عبرة لأولي الألباب فقد كانت اللغة العربية هي الركن الثاني من أركان الشخصية الجزائرية التي تكفلت جمعية العلماء المسلمين بإحيائها وحمايتها؛ لكونها الرباط الوثيق الذي يربط الشعب الجزائري بدينه، وتاريخه وثقافته، ويربطه بأجزاء الوطن العربي المختلفة فهي « لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، ولغة الوطنية المغروسة، إنها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين أرواحهم أرواحنا»¹³ وإدراكا من الجمعية لمكانة اللغة العربية في حفظ كيان الشعب الجزائري، فقد أولتها اهتماما كبيرا ورأت أنه من الضرورة الإلزامية أن تكون اللغة العربية من إحدى المبادئ المهمة التي تحارب عنها من خلال مشروعها الإصلاحي والتعديري وهذا؛ لكون العربية بكل ما تحويه من حضارة وثقافة، ولغة وقرآن كريم تمثل سدا حائلا بين فرنسا، وبين تحقيق سياستها في فرض الفرنسية، والتغريب على الشعب الجزائري¹⁴ وهذا لا يعني البتة أن الدفاع عنها يعني رفض اللغات الأجنبية فقد كان بن باديس والبشير وغيرهم يتقنون الفرنسية إلا أن ذلك لم يمنعهم من خدمة العربية، ومن القيام بالتضحيات الجسام من أجلها، وإذا كان اكتساب اللغات الأجنبية أمرا لا جدال فيه؛ فإنه من الأهمية بمكان التوضيح بأن الغاية من ذلك ليس هو التواصل بين أهل البلد؛ لأن وظيفة الإدماج خاصة من خاصيات اللغة أو اللغات الوطنية وحدها، إن غفل هذا المبدأ هو الذي أدى إلى جعل الفرنسية تتحول إلى أداة صراع داخل المجتمع؛ فاللغة الأجنبية إذا ما استعملت لأداء الوظائف المخولة للغات الوطنية

وحدها تتحول إلى أداة تواتر اجتماعي وثقافي، إي إلى وسيلة تنتج سوء الانسجام في المجتمع¹⁵، فكيف يمكن أن نجعل من التعدد اللساني يساوي انسجاما جمعيا؟

4. **التعدد اللساني والانسجام الجمعي:** يتحقق الانسجام الجمعي بتغيير النظرة السلبية لمفهوم التعدد اللساني والتركيز على الجوانب الإيجابية التي يتضمنها هذا المفهوم وتقبل فكرة أن " التعددية اللغوية ثروة ينبغي استثمارها في ترقية الجوانب المعرفية والثقافية؛ لتحديث المضامين بمستجدات العلوم والتقانات الحديثة والمتطورة، على أن يدور ذلك كله حول اللغة العربية بوصفها اللغة الواحدة الموحدة، اللغة القطب، التي لا تأخذ مكانتها، ولا يمكن مزاحمتها أو تنزع عنها وظيفتها السيادية، بالرغم ما يكاد لها من مؤامرات¹⁶ فالتعدد اللساني عامل إيجابي لإثراء الرصيد الثقافي والحضاري للمجتمعات الإنسانية، من خلال الاهتمام باللغة العربية اهتماما يجعلها تحتل مكانة أساسية مرموقة في كل المجالات توظيفا واستعمالا، وتواصلًا، ونطقًا وكتابة، واعتبار العولمة والتطور العلمي والتكنولوجيا من أهم فرض العربية على المستوى العالمي والاهتمام أكثر بتعريب البرمجيات لتوحيد طرائق التواصل وبذلك يصبح التعدد اللساني وسيلة لخدمة الإنسان ويحقق وحدة الإنسانية التي تعد هدفا منشودا ينبغي بلوغه.

5. **من تعدد اللسان إلى وحدة الإنسان:** أتاح التعدد اللساني بما يحمل بما يحمل من قيم حضارية واجتماعية وثقافية وفلسفية وإنسانية هو الذي سمح للشعوب على اختلاف عاداتها وتقاليدها بمعايشة غيرها من الأمم، إن التعدد والتنوع مبدأ طبيعى وموت وحياة لغات أيضا نفس الشيء، ولم تسبب التعددية اللسانية مع كثرتها العرقلة في التفاهم والتعايش السلمي بين الشعوب؛ فليس التعدد اللساني وضعا خاصا، وليس مقصورا على مناطق مخصوصة، ولا هو سمة من سمات العالم الثالث على وجه التحديد؛ فالتعددية اللسانية قدر مشترك ولا بد لهذا القدر أن يعمل على التوحيد لا على التفريق.

الخاتمة: تتمثل أهمّ النتائج التي توصلت إليها في ما يلي:

- اختلاف نظرة الباحثين إلى مفهوم التعدد اللساني؛ فبين مساند وله حججه وبين معارض وله حججه
- التعدد اللساني مطلوب إن كان يهدف إلى خدمة اللغة العربية والاعتراف لها بالسيادة الوطنية؛
- التعدد اللساني منبوذ إن كان يعمل على اضمحلال الشخصية، وطمس مقومات الوطنية؛
- الانفتاح على التعدد اللساني ضرورة حضارية تفرضها التطورات التكنولوجية؛
- العمل على ترقية اللغة العربية، من خلال اكتساب اللغات الأجنبية أمر في غاية الأهمية؛
- التعدد اللساني وسيلة من وسائل اكتساب المعرفة والاستفادة من تجارب الدول الغربية في خدمتها للغاتها؛
- التعدد اللساني وسيلة من وسائل تحقيق الانسجام وتحقيق وحدة الإنسان.

قائمة الهوامش والمراجع:

- 1- حساين سهام: "التعددية اللسانية وأثرها على المجتمع الجزائري، أعمال الملتقى الوطني حول: التعدد اللساني واللغة الجامعة، ج1، الجزائر: 2014، ص422.
- 2- حساين سهام: "التعددية اللسانية وأثرها على المجتمع الجزائري، أعمال الملتقى الوطني حول: التعدد اللساني واللغة الجامعة، ج1، الجزائر: 2014، ص427.
- 3- المرجع السابق، ص 422
- 4 محمد العربي ولد خليفة، كلمة في افتتاح الندوة الدولية "التعدد اللساني واللغة الجامعة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر: 2014، ص5
- 5 عبد القادر الفاسي الفهري، اللسان العربي الجامع: بين التماسك والتنوع والتعدد، ص39، 40 منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر: 2014،
- 6 ابن منظور، لسان العرب (مادة خطط) ج4، دار المعارف، مصر، د.ط، دت.
- 7- مجموعة من الأساتذة، المعجم الوجيز (مادة خط)، مجمع اللغة العربية، ط1، 1980، ص203.
- 8- ينظر: إسماعيل ونوغي، "أهمية التخطيط اللغوي في تنمية لغة الطفل" تيزي وزو: 2012 مجلة مخبر الممارسات اللغوية.
- 9- محمد برو، المبادئ والشروط الواجب مراعاتها لإنجاح التخطيط اللغوي في النظام التربوي تيزي وزو: 2012، مجلة مخبر الممارسات اللغوية، ص 44.
- 10- صالح بلعيد، التخطيط اللغوي المنشود، تيزي وزو: 2012، مجلة مخبر الممارسات اللغوية ص38.
- 11- عبد القادر الفاسي الفهري، المرجع السابق، ص24.
- 12- صالح بلعيد، حقوق اللغة الرسمية، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر: 2014 ص196.
- 13- زنودة فريدة، النص المسرحي والإصلاح الاجتماعي في الجزائر حتى سنة 1954، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، باتنة: 2008. ص130.
- 14- المرجع نفسه، ص131.
- 15- حساين سهام، المرجع السابق، ص437.
- 16- ينظر: محمد العربي ولد خليفة، المرجع السابق/

أي دور للتعدد اللغوي في تحقيق الأمن الثقافي؟

درفاوي كلتوم

المركز الجامعي أحمد زبارة، غليزان

مقدمة:

مادامت اللغة مرآة للثقافة وأداة لتحسين الذات والهوية من الاختراق والاستلاب والتبعية ووسيلة للاندماج في المجتمع القومي وتحقيق ذاته وبناء وحدته الحقيقية التي تقوم على الانفتاح وقبول التنوع كان لابد أن نوليها عناية خاصة، فبتعدد هذه اللغة وتشتتها تتعدد الثقافة وتتفرق الأوصال الرابطة بين أبناء الأمة، غير أنه وتقاديا لهذا الوضع الذي قد ينجم في الأساس عن تخطيط لغوي غير متجانس وعن عجز في تسويغ سياسات لغوية تضمن استغلال هذا التنوع اللغوي واستثماره لاغناء الرصيد الثقافي لما لا يمكننا الحديث عن لغة جامعة منفتحة كأداة لحفظ للأمن الثقافي ووسيلة للحفاظ على اللغة المشتركة من التشتت والاضمحلال وعليه يمكن أن نتساءل انطلاقا من صميم واقعنا اللغوي المتعدد كيف السبيل لاستغلال التعدد اللغوي من أجل تحقيق الأمن الثقافي؟ إذا كنا بحاجة إلى ترشيد لغوي يضع كل لغة في مقامها الخاص للخروج مما يعتبره البعض معضلة - التعدد اللغوي-، فلما لا يمكننا التركيز من زاوية أخرى على بناء لغة جامعة تستجيب لمقتضيات هذا التنوع من جهة وتكفل اغناء الرصيد المعرفي و تحقيق الأمن الثقافي.

لا شك في أن مثل هذه الدراسات والمقاربات العلمية لموضوع يشكل ملمحا فارقا في حياة جنس بشري يتطلب الإحاطة بجملة من الجوانب الفكرية والثقافية الحساسة ومختلف القضايا والمقاربات التي تتداخل معه بشكل مباشر أو تتصل به على نحو ما من قبيل الأمن الثقافي، الهوية اللغوية، العدالة اللغوية، التعددية اللغوية، اللغة الجامعة وغيرها وهي قضايا متداخلة فيما بينها يصعب التطرق لأحدها بمعزل عن

الموضوعات الأخرى.

وتأتي هذه الورقة لتثير النقاش حول أحد القضايا الحساسة والهامة التي تتمثل في دور المقاربات الإدماجية واللغة الجامعة في استثمار التعدد اللغوي من أجل تحقيق الأمن الثقافي واللغوي في البلاد.

عودة على بدء قبل أن نلج لمناقشة أهم القضايا التي نتصل بالموضوع كان لابد أن نلقي الضوء على محطات هامة يستوجب الإطالة عليها من باب ضبط الجهاز المفهومي والنظري لهذه الورقة البحثية وللإجابة عن الإشكالات الفرعية التي تتخلل الموضوع.

- اللغة والثقافة أية علاقة؟

لا شك في أن الثقافة بمفهومها العام مظهر من مظاهر المجتمع الإنساني، قد عرفت بأنها طريقة كاملة في الحياة لدى مجتمع معين يتم تعلمها وتقاومها بين أفراد المجتمع الواحد، فهي بهذا لا تقتصر على جانب دون الآخر بل تشمل جميع مناحي الحياة الفكرية والمادية وحتى السلوكية للأفراد، بل تمثل أسلوباً كاملاً في حياة الناس لذا فتقافة مجتمع " هي طريقة حياة أفرادها وهي مجموعة الأفكار والعادات والتقاليد التي مولوها وساهموا فيها ثم نقلوها من جيل إلى آخر ¹"

وبناء على ما سبق يتبين أن العلاقة بين الثقافة واللغة باعتبارها أحد أكثر القضايا المثيرة للجدل، خاصة وأن الموضوع هنا يتصل بالطريقة التي يفرض بها الكائن الإنساني وجوده، فإذا كانت اللغة جوهر الإنسانية، الملمح الحضاري والثقافي الفارق الذي يميز مجموعة بشرية عن أخرى، والوعاء الحامل للفكر وتأشيرة الوجود والانتماء، فإنها تشير كسمة جوهرية إلى مخزون معرفي فكري يتشارك فيه مجموعة من الناس يدعى بالثقافة ففي كل الأحوال تعبر اللغة عن واقع ثقافي معين، " فإذا كانت اللغة نسق من العلامات، signs نعهذا قيمة ثقافية لأن المتحدثين يعبرون عن هويتهم وهوية الآخرين من خلال استخدامهم لها، فهم يرون أن استخدامهم للغتهم رمزا لهويتهم الاجتماعية ومنع استخدامها رفض لهويتهم الاجتماعية والثقافية، وعليه

فاللغة ترمز لواقع ثقافي² ولهذا السبب جاء تفكير الأفراد والكيانات الثقافية في أن ذلك الواقع الثقافي المتميز والمنفرد هو بناء وواقع شيدته اللغة لا يمكن أن يولد إلا من رحمها وأي تغيير وتبديل هو مساس لهذه الوحدة المترابطة وطريق إلى الاضمحلال والتلاشي الثقافي والهوياتي للجماعات الإنسانية التي توحدتها اللغة والثقافة، ولعل الحديث هنا يسوقنا إلى طرق قضية أخرى تتعلق بالطريقة التي تكفل بها هذه الشعوب والمجتمعات الحفاظ على ثقافتها من كل أنواع الاستلاب الحضاري والطمس الهوياتي الذي يعمل على قطع لسانها كخطوة أولية لزعزعة أمنها الثقافي فككيف يمكن أن تكون اللغة وسيلة لتحقيق الأمن الثقافي؟

لاشك في أن تحقيق أمن الدولة هو أول أولويات مؤسساتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية بشكل الذي يكفل لها الحفاظ على وجودها في خارطة العالمية غير أنه ومع التطور التكنولوجي الحاصل الذي مس مناحي الحياة وظهور العولمة - الاستعمار المقنع - وتداعياتها أصبحت هذه الدول مهددة في أمنها واستقرارها وفي وجودها حتى أكثر من أي وقت مضى مما يفرض عليها أن تحقق أمنا من نوع آخر لا يقل أهمية عن أمنها السياسي والقومي والاقتصادي.

ويعد الأمن الثقافي مفهوما إيجابيا جديدا وتفاعليا لمأسسة رؤية جديدة للأمن حينما يرتبط بمفهوم الثقافة ويضمن حرية الرأي والرأي الآخر وحماية الثقافة الوطنية من كل غزو متربص بها ويرسم الحدود الفاصلة بين ما هو محظور وما هو متاح حينما يتعلق الأمر بالمقومات الهوية الوطنية وأبعادها الحضارية التي تشكل اللغة أحد أبرز مكوناتها المرفولوجية وميكانزماتها النفسية القوية، والتحرر من كل أشكال العبودية والاستلاب الحضاري الصارخ والمقنع باسم العولمة والحضارة الذي يرمي إلى تهديدها في أمنها الثقافي والاقتصادي والقومي عن طريق عزلها عن ثقافتها بقطع لسانها والذي يحمل كل خصوصياتها الحضارية الفاعلة وقيمها التراثية والسبيل إلى تحقيق مشاريعها النهضوية في جميع مناحي الحياة من خلال توليد الأفكار الداعية لهجره وعزوف ابناءه عن استعماله بدافع الحضارة والتقدم والاستقلالية وترسيخ

التبعية والتعشيش في القاع الحضاري للأمم،،

بناء على ما سبق يتلخص مفهوم الأمن الثقافي في كونه "الحفاظ على المكونات الثقافية الأصلية في مواجهة التيارات الثقافية الوافدة والأجنبية المشبوهة وهو بهذا المعنى حماية وتحصين للهوية الثقافية من الاختراق والاحتواء من الخارج، كما يعني الأمن الثقافي حماية المؤسسات والأدوات الثقافية من الانحراف والارتفاع بها عن العز والقصور، وتعزيز التوجهات السليمة وانتقاد التوجهات الشاذة والمتطرفة"³، من هنا فإن الأمن الثقافي صيانة لمؤسسات الثقافة وحفظها من الانفلات بمختلف أنواعه سواء كان داخليا أو خارجيا.

ولا جرم في أن اللغة هي أبرز هذه المؤسسات بل وأهمها لأنها بمثابة خزان الثقافة والمجتمع لذا فإن تحقيق الأمن الثقافي لا يكون إلا بتأهيل اللغة الوطنية ودعم مكانتها ومكوناتها من خلال تداولها وتنميتها وتقديم الحلول النوعية لكل المشاكل المتعلقة بها وبالحديث عن المشاكل التي تعانيها اللغة في المجتمعات العربية - الجزائر بوجه خاص - ماهي ملامح الوضع اللغوي في المجتمع العربي؟

الواقع اللغوي العربي المتعدد والمقاربة الاقصائية للغة العربية:

لا شك في أن نظرة عجل على الواقع اللغوي لدول المغرب العربي - الجزائر والمغرب الأقصى - توضح الاختلاف الحاصل في التركيبة اللغوية للمجتمع مع المجتمعات العربية الأخرى إذ تتميز هذه المجتمعات بتنوع حضاري ثقافي ولغوي شديد يعود أساسا إلى التركيبة الاجتماعية لسكان المنطقة وإلى الظروف السوسيو تاريخية التي شهدتها البلاد على مر عصور خلت.

غير أن هذا التنوع النابع من صميم الطبيعة لايمكن قط أن يكون سببا في الاختلاف والنزاع والتطاحن ورفض الآخر وعدم قبوله فقط لأنه مختلف ولا يمكن أن يكون عائقا للتعايش في ظل السلم والأمن، إلا بفعل عوامل خارجية وأطراف فاعلة من شأنها أن تدس السم وتغذي النزاعات والأقليات العرقية بدعوى التحرر رغبة في تشتيت الأمة والتفرقة بين أبنائها.

بناء على هذا فلا مندوحة اليوم من أن تحتزز الأمم والمجتمعات من هذا الخطر المحقق بها وأن تجدد في أمنها الثقافي وتسوغ السياسات وتحين المخططات التي تكفل بقائها متماسكة ومتوحدّة رغم التّووع وأن تستثمر هذه الميزة في بناء الأمة وتقويتها لا تستثنيها وتفرقتها.

عودة على بدء لما كانت اللّغة أبرز مظاهر هذا التّووع والاختلاف السوسبيولوجي الحضاري في منطقة المغرب كان لا بد أن نلقي الضوء على الواقع اللغوي في هذه المجتمعات -المجتمع الجزائري بوجه خاص- ويجمل " الدكتور صالح بلعيد الوضع اللساني في الجزائر في قوله "تميز الخريطة التعبيرية في الجزائر بانتشار ثلاث لغات متعايشة الأمازيغية بلهجاتها المختلفة، واللّغة العربيّة بنوعيهما (الفصحى والدّارجة) واللّغة الفرنسية حيث تستقطب العاميات والدارجات العربيّة المتنوعة أكبر فئة من المجتمع الجزائري لتليها اللّغة الأمازيغية بمختلف لهجاتها فاللّغة العربيّة الفصيحة أقل استعمالا إلى جانب الفرنسية"⁴ والملاحظ لهذا الوضع يقف على ظاهرة التعدد اللغوي التي استقبلت في المجتمع الجزائري إما بفعل العوامل التاريخيّة أو بفعل الغزو الثقافي تحت غطاء العولمة

ويشكل التعدد اللغوي plurilinguisme من أبرز الظواهر اللّغوية التي تلحق اللغات خصوصا في المجتمعات التي خضعت في فترة من تاريخها للاستعمار بمختلف أشكاله، وإن كانت في حقيقة الأمر تشكل ظاهرة طبيعية تنجم عن التطور باعتباره سنة كونية والتجاوز الذي تمليه الطبيعة الإنسانية بين كيانات ثقافية واجتماعية، غير أنها أصبحت اليوم نقمة على المجتمعات العربيّة التي لم تحسن استغلالها على غرار الجزائر ووسيلة ثمينة في يد الاستعمار المقنع الذي يعمل على تثبيت الذات واستلاب الهويّة الجزائرية من خلال تعميق الهوية بين كيانات الأمة وترسيخ التبعية المتجددة والمستدامة.

وإذا ما أردنا أن نلقي إطلالة سريعة على مفهوم هذه الظاهرة نجد أنها تنحصر في استخدام شخص يمثل مجتمعا ما أكثر من لغة بوصفها لغة التواصل اليومي

والحياتي فيستعملها لتعبير والتواصل ومختلف مناحي الحياة الفكرية والعلمية، ويحدث التعدد اللغوي عندما يتم استعمال شخص ما أكثر من لغة فنقول أنه شخص متعدد اللغات نظرا لقدرته على التعبير عن مواقفه الحياتية بأكثر من لغة أما على مستوى الدول فنقول دولة متعددة اللغات إذا كان شعبها يتقن لغتين كوسيلة للتواصل اليومي على الأقل⁵ أي امتلاك الإنسان أكثر من لغة في ذهن واحد مع القدرة على التواصل بها في مجتمع واحد بوصفها لغاته الأم، وتختلف أشكال وصور التعدد اللغوي من بلد أو مجتمع لغوي إلى آخر لئيمظهر تارة بشكل رسمي وفي أحيان كثيرة في الاستعمال الفعلي الممارس من قبل الشعوب والأمم المتعددة اللغات فتختلف من جهة باعتباره رسميا وغير رسمي معترفا به أو غير معترف به فنجد أن التعدد الرسمي هو المعترف به في دول كما هو "الحال في الهند حيث يعترف الدستور الهندي بثلاث عشرة لغة رسمية إلى جانب اللغة الهندية التي فازت بمنصب اللغة القومية National language" بصوت واحد هذا إلى جانب اللغة الانجليزية التي تستخدم في الهند لغة وظيفية في المؤسسات التعليمية.....مما يجعل الهند مسرحا للصراعات اللغوية⁶ وهو أمر قلما نجده في الدول العربية إذ أن معظمها تجعل من اللغة العربية لغتها الأولى والرسمية الوحيدة بخلاف دولة الجزائر التي ضمت الأمازيغية لغة رسمية إلى جانب العربية في سنة 2016 ودولة المغرب الشقيق في سنة 2011، أما التعدد الغير الرسمي "فهو قائم في المجتمع بحكم الواقع، فينشأ فيه نتيجة عوامل على رأسها الرحلات أو هجرات نحو بلدان أخرى فتتكون أقليات تتكلم بلغات غير لغات البلدان التي هاجرو إليها وتنتشر مع مرور الزمن وكذلك الحدود بين الدول قد تؤثر في ظهور هذا النوع من التعدد والاستعمار بما يخلفه من آثار ثقافية في المجتمع ومنها لغته⁷

وهو الأمر الشائع في البلدان العربية والجزائر على وجه الخصوص إذ أصبحنا اليوم نعيش تعددا لغويا حادا وهو في تمام مستمر يسيطر على ميادين الحياة ولا يحتاج الأمر إلى اعتراف باللغة الفرنسية واللهجات العامية في دستور البلاد حتى

نؤكد على إنها حقيقة راسخة بل هو حقيقة يؤكدها رصد الواقع اللغوي في الجزائر بجميع مظهراته في مجالات الإعلام والتعليم وحتى في لغة التخاطب اليومي أصبح التعدد مرض ينخر جسد العريبة ويسعى إلى تشطي الهوية بفعل مبطنات الاستعمار المعادية للهوية الوطنية والإسلام والعروبة تحت مظلة العولمة وتعلم لغة الحضارة والواقع أنها تعزيز لمشروع الهيمنة الاستعمارية بمختلف أشكالها وترسيخ لما تبقى من تقاليد وطقوس الفرنكوفونية الامبريالية .

— هل يتعارض التنوع الثقافي في الجزائر مع التمثلات الأحادية للغة الجامعة. مما لاشك فيه أن التعدد اللساني كظاهرة لغوية أخذت في المجتمعات العريبة معنى سلبيا وخطيرا بالنظر إلى المفهوم المعبر عنها باعتبارها مفهوما مقيدا ولارتباطه بمفاهيم سلبية أخرى تهدد أمن الدولة القومي واللغوي والثقافي كالتنافية والأقليات والنزاعات، والتحرر والانفصال... الخ، ولكون الأبعاد المؤسسة لهذا المفهوم متداخلة ومتشابكة ترتبط بها موضوعات حساسة اجتماعية وثقافية وسياسية بدرجة أولى وتتوقف بدورها على عوامل وظرف سويو تاريخية ودينية للكيانات الثقافية المتعددة في دولة واحدة.

غير أن التعددية اللسانية إذا ما أخذت بالمفهوم المرادف "التنوع والاختلاف" ظاهرة لا تشكل في حد ذاتها مشكلة أو مأزق ولكن الإشكال هو حينما يؤدي هذا التنوع ويستغل هذا الاختلاف الطبيعي في المجتمعات الإنسانية لتهديد أمنها الثقافي واللغوي وتؤدي آثاره السلبية إلى التفكك والتطاحن وتوسيع الفجوة الثقافية بين كيانات تنتمي إلى ثقافة واحدة وأمة واحدة يجمعها الدين والأرض والانتماء والتاريخ الموحد وتشترك في لغة واحدة رغم التنوع.

وعليه فإن التعددية اللغوية ليست خطرا لا على اللغة والهوية الوطنية إذا ما أحسن استغلالها واستثمارها بل هي مفهوم يعبر عن أحد أشكال الممارسة الديمقراطية الثقافية وهذا المفهوم الجديد لها من شأنه أن يعطي ديناميكية للحياة العامة بشرط أن نفرق ما بين هذا الاختلاف كأصل طبيعي وفطري في الحياة من شأنه

أن يغني رصيد الأمة الثقافي أن يقارب بين أبنائها ويرسخ ثقافة قبول الآخر واحترامه مهما كان ويكون سببا فاعلا في سبيل تقدمها وبين هذا الاختلاف باعتباره وسيلة وظاهرة مفتعلة في جانبها السلبي في يد الأنظمة والسياسات والأطراف التي تدير هذا التنوع وتحسن أو تسيء استغلاله من أجل الوحدة والحفاظ على طبيعة عناصر الأمة الجامعة أو تفتيتها وخلق واقع لغوي مركب ومتحرك غير متجانس يميل إلى التعقيد والتشنج والانفصال.

إن ما نرمي إليه هنا هو ذلك التنوع والتعدد الذي تولد من صميم المجتمع العربي فهو منبثق منه ويشكل ركنا أساسيا وطرفا مؤثرا للمشهد الثقافي داخل البلاد وعنصرا هاما ورئيسا في تشكيل هويته الثقافية العربية الجمعية يستحيل أن يكون سببا في تفرقتها وطريقها نحو الهلاك والتشتت، تنوع يقبل الوحدة والاندماج في ظل واقع لغوي عربي متعدد أساسه تماسك لسانه العربي، واختلاف يرفض الفوضى والانصياع لبعض المفاهيم والمعتقدات والممارسات الممعة في الغطرسة والاستخفاف الفكري والحضاري للمسألة تكريس لمفاهيم التهاوي اللغوي والعزلة الثقافية والتحرر والحضاري للكيانات الصغرى ضد الكيان المركزي الجامع الذي يحتويها ويحفظ تنوعها.

غير أن الحفاظ على التعددية اللغوية والاعتراف بها لا يعني التنازل عن سيادة اللغة الجامعة والمشاركة التي ينبغي أن تكون لسان جامع يعمل على احتضان لغات أخرى ومؤازرتها والاستفادة من مخزونها المعرفي ومن خصوصياتها اللغوية والثقافية والحضارية، على أن تكون هذه اللغة الجامعة مؤهلة للقيام بهذا الدور ويكون هناك رابط مشترك يربطها بكل المكونات اللغوية والاجتماعية الوطنية التي يتكون منها المجتمع في البلاد الواحدة⁸.

قد يذهب البعض للقول باستحالة الجمع والتعدد في آن واحد فنقول إن ما نسع إليه في هذا المقام هو الدعوة إلى الوحدة لا من خلال الصهر والتعصب بل من خلال التنوع الذي يقوم على مقارنة إدماجية ديمقراطية للغة تحافظ على التعدد والتنوع

كسمة جوهرية للمجتمع من جهة وتحفظ التماسك والوحدة من جهة أخرى في وجه كل استعمار مقنع يهدد أمن الدولة اللغوي والثقافي يعمل على تغذية الصراع وتحقيق التصادم بين العناصر المؤنثة للمشهد الثقافي في البلاد. غير أن الحديث عن لغة جامعة لا يعني تغذية نزعة فردانية أنانية مهيمنة تسعى لابتلاع كيانات صغرى بدعوى الجمع إذا لا معنى للتعدد ولا الجمع في ظل هويات منغلقة غير منفتحة تقصي الأخر.

خاتمة:

بناء على ما سبق فإن الحاجة إلى تدبير لغوي وترشيد لساني يضع في مقام الأول طبيعة الوضع اللغوي في البلاد ولا يقف فقط عند تشخيص تعدديته اللغوية إنما يسعى لسن القوانين وتسوية السياسات من أجل الوصول إلى حكمه سياسية معقولة لهذا التنوع الثقافي واللغوي وتدبير حل وسيط يرضي الأطراف الفاعلة والمشكلة للمشهد الثقافي للبلاد من خلال اقتراح مقارنة إدماجية ديمقراطية يتفق فيها بالإجماع على أن تكون اللغة العربية هي اللسان الجامع الذي يشكل جسر التواصل بين هذه الثقافات ويضمن استمرار الوحدة للبلاد والعباد لما لها من مؤهلات تضمن الانسجام الجمعي والثقافي للأمة وحفظ مكوناتها الهوياتية والحضارية.

الهوامش والاحالات

- ¹ - هارلمبس وهوليون: سوشيلوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد، محسن دار كوان للطباعة والنشر، ط1، سورية 2010 ص: 8.
- ² - كلير كرامش: اللغة والثقافية، تر: أحمد الشيمي وزارة الثقافة والفنون والتراث، ط1، 2010، ص16.
- ³ - الأمن الثقافي العربي، التحديات وآفاق المستقبل: محمود محمود النيجري، دط، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض 1412، 1991، الرياض ص: 15-16.
- ⁴ - ينظر: صالح بلعيد: في قضايا التربية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القبة، الجزائر 2009، ص: 185.
- ⁵ - ينظر: مايكل كلين: التعدد اللغوي ضمن كتاب دليل السوسيو لسانيات، تحرير: فلوريان كولماس، ترجمة خالد الأشهب، وماجدولين النهبي، مراجعة ميشال زكريا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009، ص: 649.
- ⁶ - د. عبد الجواد توفيق محمود، الواقع اللغوي في العالم العربي في ضوء هيمنة اللهجات المحلية واللغة الإنجليزية مقال ضمن مجلة رؤى إستراتيجية، القاهرة مصر، ص: 124.
- ⁷ - ينظر: باديس لهويمل ونور الهدى حسني مجلة الممارسات اللغوية (مجلة أكاديمية محكمة)، جامعة مولود معمري تيزي وزو العدد 30، 2014 ص: 106.
- ⁸ - ينظر: أحمد العلوي العبد لاوي دور اللغة الجامعة في تحقيق الأمن الثقافي للبلاد العربية ضمن كتاب التعدد اللغوي واللغة الجامعة، المجلس الأعلى للغة العربية الجزء الأول 2014، ص233.

دور المثقف في تحقيق الانسجام المجتمعي في ظل التحوّلات الرّاهنة: دراسة تحليلية في التّحديات والرّهانات

د. عائشة عبّاش
جامعة الجزائر 3

المجتمع هو الرقعة التي يتحرك من خلالها المثقف ومن المهام المنوطة به أن يحاول تحطيم قوالب الأنماط الثابتة للمجتمعات والتعميمات الاختزالية التي تفرض قيودا شديدة على التفكير الإنساني وعلى التواصل ما بين البشر.

فالمثقف الحق حسب سعيد إدوارد يتفاعل مع أوسع جمهور ممكن، أي أنه يتوجه إليه ولا يستهجنه، فهذا الجمهور الواسع هو السند الطبيعي الذي يستمد منه المثقف قوته، وليست مشكلة المثقف كما يناقشها كيريهي المجتمع الجماهيري ذاته، بل إنها تتمثل في ذوي السلطة في داخله، أي الخبراء والجماعات المؤتلفة على أساس المصالح أو الإيديولوجيا. الذين يقومون بتشكيل الرأي العام وتطويعه حتى لا ينشق عن السلطة.

الإشكالية:

هل لازال المثقف يحتفظ بدوره داخل المجتمع في زمن الإعلام الجديد؟ وهل لازال صوته مسموعا في وسط الجماهير في ظل وجود عدة بدائل منافسة؟ كيف يمكن إيصال صوته إلى الجماهير في ظل البدائل الإعلامية المتنوعة؟ هل غاب المثقف العربي أمام النفوذ السياسي وسطوة أصحاب المال؟.

1- لمحة عن الطرح النظري والمفاهيمي لمصطلح المثقف

2- مؤهلات الانسجام الاجتماعي بالمجتمع الجزائري

3- إشكالية المثقف العربي نظرة نقدية للمهام والأطروحات

1 - لمحة عن الطرح النظري والمفاهيمي لمصطلح المثقف

1-1- مفهوم المثقف: معنى المثقف في اللغة العربية نستمد من لسان العرب

لابن منظور الذي يربطه بكلمة ثقّف، أي وفطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه أي الشخص الكبيس الفطن الحاذق¹.

وعرف قاموس العلوم السياسية، المثقف بأنه شخص التأمل والتفكير أو شخص القدرات الفكرية العالية الذي كرس نفسه للدراسة والتأمل، وبصورة خاصة القضايا العميقة، انه الشخص الذي يسترشد بالعقل والفكر بدلاً من العواطف، وينغمس في الأعمال الفكرية والإبداعية وبصورة خاصة في حقول العلم أو الأدب أو الفن بدلاً من العمل اليدوي².

ويعرف المثقفون أيضاً بأنهم أولئك الأشخاص الذين يمتلكون المعرفة وعلى أسسها الموضوعية، وتأملاتهم الذاتية يصوغون أحكامهم عن الواقع، دون أن يستمدوا هذه الأحكام مباشرة أو بالضرورة من خبراتهم الحسية.

ويشمل المثقف جميع الذين يشتغلون بالثقافة إبداعاً، وتوزيعاً، وتنشيطاً، فالثقافة بوصفها عالماً من الرموز تشمل الفن، والعلم، والدين، والذين يمكن التمييز بينهم بين نواة تتكون من المبدعين والمنتجين من علماء وفنانين وفلاسفة وكتاب وبعض الصحفيين، يحيط بها أولئك الذين يقومون بنشر ما ينتجه هؤلاء المبدعون مثل الممارسين لمختلف الفنون ومعظم المعلمين والأساتذة والصحفيين يليهم ويحيط بهم جماعة تعمل على تطبيق الثقافة من خلال المهمة التي يمارسونها مثل الأطباء والمحامين³

وتطلعنا المعاجم العلمية أن مصطلح المثقف قد تم تداوله لأول مرة في القرن التاسع عشر، وهو مصطلح يدل على فئة من الناس تعتمد على منزلتها وخبرتها الاجتماعية، ثم تطور استخدام هذا المصطلح في العلوم الاجتماعية ليشير إلى فئة اجتماعية تمتلك جملة من المعارف المتخصصة تمكنها من إدارة الشأن في المجتمعات المعاصرة، ومن هذا المنطلق اعتبر المفكر "أنطونيو غرامشي" أن لكل طبقة اجتماعية مثقفيها، بل وقسم المثقفين إلى شقين: أولهم المثقفون التقليديون مثل

المعلمين، ورجال الدين والإداريين ممن يواصلون أداء العمل نفسه من جيل لجيل، وثانيهما المثقفون العصريون الذين اعتبرهم مرتبطين على نحو مباشر بطبقات أو مؤسسات تجارية تستخدم المثقفين لتنظيم مصالح واكتساب المزيد من السيطرة. فالمثقف من وجهة نظر غرامشي هو مرتبط بوظيفته الاجتماعية التي يؤديها خدمة للطبقة التي ينتمي إليها.

لكن ذلك المفهوم تم تجاوزه في الفكر الغربي إلى مفهوم المثقف الملترزم بقضايا مجتمعه ولا تتوقف وظيفته عند حد إنتاج الأفكار والمعارف فالمثقف في الغرب اعتبر بمثابة الضمير الحي الذي يتكلم نيابة عن المجتمع، حيث انخرط المثقفون في النضال من أجل قضايا يرونها عادلة من وجهة نظرهم ويعد جون بول سارتر نموذج تمثيلي لهم. معتمدين على آلية النقد لتصحيح الأخطاء التي يرتكبها السياسيون.

وبعد مطلع التسعينات وانهار الاتحاد السوفياتي وميلاد نظام دولي جديد أصبح البحث مرتبط ليس عن وظيفة المثقف ولكن عن مشاريعه الفكرية والمعرفية، حيث يرى "ميشال فوكو"، أنه حان الوقت للتحدث عن المثقف المتخصص أي الذي لديه معارف متخصصة، وأطلق عليه اسم الخبير⁴.

1-2- مفهوم المثقف العربي ومسؤولياته:

وبالنسبة لعالمنا العربي فقد تم استعارة الوظيفة الاجتماعية والنضالية للمثقف من الحقل المعرفي الغربي، حيث يحضر بشكل مكثف مفهوم غرامشي وفي ما بعد مفهوم جون بول سارتر عن المثقف، حيث طغى هذان المفهومان على معظم الكتابات المحددة لطبيعة المثقف العربي.

ومن بين التعريفات المقدمة للمثقف العربي نجد تعريف المفكر محمد عابد الجابري الذي يرى "أن المثقف هو في جوهره ناقد اجتماعي، وهو شخص همه أن يحدد ويحلل ويعمل من خلال ذلك على المساهمة في تجاوز العوائق التي تقف أمام بلوغ نظام اجتماعي أفضل إنسانية، أكثر عقلانية، إنه يصبح بذلك ضمير المجتمع⁵.

أما برهان غليون فيرى أن المثقف ينتمي إلى طبقة اجتماعية فاعلة في المجتمع، حيث يتميز عن غيرها بتفكيره العالي والناقد،... ويكون تأثيره واضح في المشاركة في صنع السياسة، أو من خلال أعمال فكرية كبيرة تؤثر في الناس والمجتمع فكريا وثقافيا ومعنويا⁶.

ففي الوطن العربي نجد انقسام بين مدارس الفكر العربي في تحديد ماهية المثقف، حيث نميز ما بين ثلاث مدارس منها مدرسة الحداثة التي ترى المثقف أنه يمثل ناقدا اجتماعيا انطلاقا من مرجعية محددة، بينما المدرسة الماركسية ترى في المثقف ذلك الذي يدافع على حقوق ومصالح الطبقة التي ينتمي إليها، في حين مدرسة ما بعد الحداثة تعتقد أن المثقف هو أسير هواجسه السلطوية والسياسية، مهمته هو إظهار وتفكيك التناقضات الداخلية، وبالتالي فالمثقف لما يكون مرتبطا بمدرسة فكرية يتبنى أفكارها ويستخدمها في الدفاع عن همومه وهموم المجتمع الذي ينتمي إليه⁷.

إن هذا التصور يعطي صورة بعيدة عن الواقع، وقد وجهت عدة انتقادات للمثقفين العرب حيث نجد المفكر "علي حرب" اعتبر أن المثقفين العرب يعانون من أزمة عميقة ناتجة عن فقدان المصادقية الفكرية والفاعلية النضالية، بعد تصدع النظريات الشاملة في قراءة العالم، وانهيار المشاريع الأيديولوجية والسياسية في ضوء التحولات المتسارعة على أرض الواقع. وبذلك انتهى عهد المثقف الرسولي والمثقف الحارس للقيم، والمثقف المتكلم باسم ضمير المجتمع⁸.

من هذا المنطلق نبحت في مهام ووظائف المثقف أو ما رسالة المثقف في وقتنا الراهن؟ وهو ما سوف نعالجه فيما يلي:

- **مسؤولية المثقف ومهامه:** من المهام المنوطة بالمثقف أن يحاول تحطيم قوالب الأنماط الثابتة للمجتمعات والتعميمات الاختزالية التي تفرض قيودا شديدة على التفكير الإنساني وعلى التواصل ما بين البشر، فدور المثقف أن يستفز الأحداث للإبراز الواقع.

والمثقف الحق حسب سعيد إدوارد يتفاعل مع أوسع جمهور ممكن أي أنه يتوجه إليه ولا يستهجنه، فهذا الجمهور الواسع هو السند الطبيعي الذي يستمد منه المثقف قوته، وليست مشكلة المثقف المجتمع الجماهيري ذاته، بل إنها تتمثل في ذوي السلطة في داخله، أي الخبراء والجماعات المؤتلفة على أساس المصالح أو الإيديولوجيا. الذين يقومون بتشكيل الرأي العام وتطويره حتى لا ينشق عن السلطة، فالمجتمع هو الرقعة التي يتحرك من خلالها المثقف وفيها يجابه معارضيه. غير أن في الوطن العربي نلاحظ تراجع دور المثقف لصالح دور الناشط الحقوقي ومقدمي البرامج الفضائية أي سطوة المرئي على المكتوب، وتراجع دور المثقف تبعه تزايد وزن وجبروت السلطة.

فالمطلوب من النخب المثقفة ليس القيام بحركة سياسية واتخاذ مواقف سياسية معارضة للأنظمة القائمة، بل أن تتحمل مسؤولياتها في وضع الأنظمة أمام مسؤولياتها لتحقيق ما التزمت وتعهدت قانوناً بتحقيقه بحكم الاتفاقات الدولية، وأن تحشد النخب السياسية في سبيل جميع إمكاناتها المهنية والعسكرية، وفي إطار التأثير المتزايد لهذه النخبة في إحداث التغيير فإنها تقوم بوظيفة حفظ التوازن داخل المجتمع عن طريق اندماجها وتجدها الذي يكون التغيير محوراً الأساس، وهي بتغييرها تقوم بقيادة عملية التغيير والتطور داخل المجتمع.

إن عملية فصل الحدود بين الثقافة والسياسة تعني فصل المهام لكل منهما، ورفض الهيمنة والتسلط للسياسي على الشأن الثقافي وإعادة صياغة العلاقة بينهما باعتراف السياسي بحق سلطة المثقف لممارسة مهامها في الرقابة على الأداء السياسي في قيادة السلطة والمجتمع.

يؤدي المثقف دوراً أساسياً في زيادة وتيرة الحراك الاجتماعي، من خلال إثارة الأسئلة الملحة على صعيد الواقع، وكشف عيوب السلطة وتحديد حقوق المواطن وواجبات السلطة السياسية اتجاه المجتمع، وهو ما يؤدي إلى تحقيق اصطفاقات جدية

في المجتمع السلطة السياسيّة أو ضدها، فإن جرى توظيفها على نحو يخدم التوجهات المعارضة تهيأت الظروف الملائمة للقيام بثورة اجتماعية ضد النظام القائم. لاحتواء ذلك تعمل السلطة السياسيّة على إحداث تغيير غير جوهري في الحياة السياسيّة كإجراء نوع من التحالف للالتفاف حول مطالب المجتمع أو تغيير بعض الوجوه في السلطة لامتصاص غضب الشعب ومن ثم العودة إلى ممارستها القمعية السابقة. فمسؤولية المنقف العربي أن ينبه عن الأخطار المختلفة التي تحق بالمجتمع من شتى الجوانب.

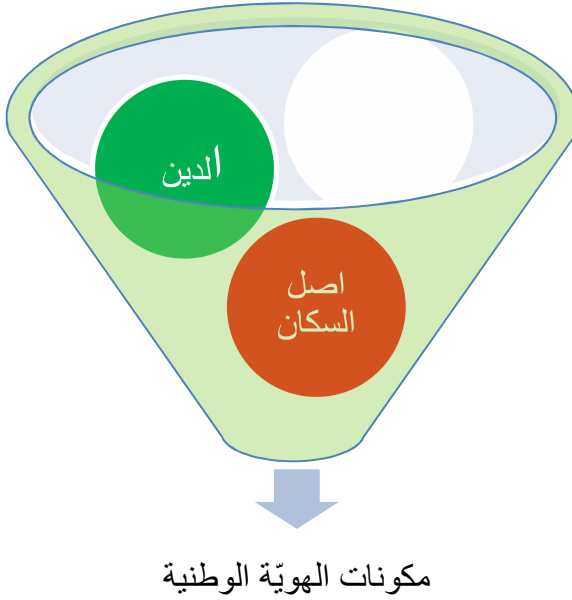
2- مظاهر ومؤهلات الانسجام الاجتماعي في الجزائر: إن المجتمع الجزائري يضم مؤهلات الانسجام على كل الأصعدة يفترض على المنقف المحافظة عليها والعمل على حمايتها في ظل المستجدات الحديثة التي خلفتها ظاهرة العولمة، وهو ما يتطلب منه وعي كبير بقضايا مجتمعه.

والهويّة الوطنيّة الجزائرية لا يمكن فهمها خارج السياق الحضاري الإسلامي والعربي ككل والمغربي على وجه التحديد، فالقطر الجزائري تفاعل على مر التاريخ مع عدة حضارات فتأثر بها وأثر فيها، غير أن ذلك لا ينفي وجود خصوصية ذاتية يتمتع بها هذا القطر، فالبحث في هوية مجتمع ما يستوجب علينا النظر إليها على أنها في حالة دائمة من التطور والتكون والتحول، و أنها كينونة مستمرة شكلا ومضمونا، أي أنها نسبية وليست أزلية بل قابلة للتعديل والتكيف والتفاعل مع الهويات الأخرى⁹، إذ لم يعد أحد اليوم ليؤمن بفكرة الجنسية البشرية المحضة مثلما يرى الكاتب "صلاح الدين التلاتي".

وعلى هذا الأساس نحاول دراسة مقومات الهويّة الجزائرية انطلاقا من المعادلة التي بنى عليها "مالك بن نبي" الحضارة التي = إنسان + تراب + زمن، وهي - حسبه - تشكل العدة الدائمة إذ لما يتحرك رجل الفطرة ويأخذ طريقه لكي يصبح رجل حضارة، فإنه لا زاد له سوى التراب والوقت وإرادته لتلك الحركة¹⁰.

وعليه فقد تحددت معالم الهوية الجزائرية في ظل الحضارة الإسلامية وفي السياق أو الفضاء المغاربي ككل، من خلال الدين الإسلامي واللغة العربية وأصل السكان.

والتي تكون وفق الشكل التالي:



-أما الدين الإسلامي: فرغم أن انتشاره ببلاد المغرب قد استغرق وقتا طويلا يزيد عن ثلاثين سنة (على عكس بلاد الشام ومصر ثلاث سنوات والعراق أربع سنوات، وبلاد الفرس سبع سنوات) حيث ارتد المغاربة أكثر من اثنان وسبعون مرة وهذا يؤكد قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما خاطب جنده (إياكم وإفريقيا فإنها فرقت المسلمين)، لكن بعدما تأكد المغاربة أن الدين الإسلامي ليس إيديولوجية سلطة خارجية اعتنقوه ودافعوا عنه رغم اطلاعهم الجزئي عليه¹¹، وتبنوا المذهب المالكي المخلص في جوهره للقرآن والسنة و النافر من كل تأويل، ولعل هذا المذهب كان أقرب إلى نفوس المغاربة الذين يخشون الخوض في متاهات الجدل والابتعاد

عن آراء الخوارج و المعتزلة، وبذلك انتشر المذهب المالكي في المغرب العربي حتى أصبح مالك بن أنس يحكم غيايبا إفريقية بموطنه ومخلصيه.¹²

- اللّغة العربيّة: لقد كانت اللّغة البربرية هي السائدة في المغرب العربي ككل قبل الفتح الإسلامي وهي لغة شفوية لا توجد حروف لكتابتها بالرغم من بعض المحاولات لكتابتها¹³.

أما بعد الفتح الإسلامي فقد اختلط السكان الأصليون بالعناصر الوافدة من اليمن والحجاز... وهو ما نتج عنها الانتشار الواسع للغة العربيّة على حساب اللّغة البربرية التي تقلصت في بعض المناطق، دون أن تدخل في صراع أو مناقشة مع اللهجات الأمازيغية التي وجدت منذ القدم، وإنما تبوأ مركز الصدارة منذ البداية بصفتها لغة القرآن والعبادات، أي أنها لغة مقدسة، كما أنها لم ترتبط في ذهن المغاربة بفكرة إمبريالية أو استعمارية كاللّغة اللاتينية والقرطاجية، ولم تنتشر بقرار من السلطة أو المخزن، وإنما فرضت نفسها كلغة دينية وكلغة للتنظيم والإدارة¹⁴.

وقد كانت اللهجات البربرية يستعملها أهل المغرب والجزائر، وهذا يقودنا للحديث عن مقوم آخر للهوية الجزائرية وهو:

- أصل السكان: مثلما سلف وأن ذكرنا فقد تعاقبت عدة حضارات على بلاد المغرب العربي، إلا أن السكان الأصليين هم البربر، وهو اسم أطلقه الإغريق على من يتكلمون بلغة غير لغة الإغريق، وبالنسبة للبربر فيطلقون على أنفسهم اسم "الأمازيغ" وهي تعني في لغتهم "الأحرار"، أما عن نسب توأجدهم وانتشارهم في الأقطار المغاربية نجد حسب دراسة إحصائية حول ذات الموضوع أجراها الباحث "سعد الدين إبراهيم" في تسعينات القرن العشرين توصل أن عددهم يفوق 15 مليون نسمة، أي ما يوازي خمس سكان الإقليم، فهم يشكلون 30% من سكان المغرب الأقصى، وما بين 20-25% من سكان الجزائر إضافة إلى توزعهم في عدة قرى بالجنوب التونسي، وفي الركن الجنوبي الليبي¹⁵.

وعليه وانطلاقاً مما سبق ذكره نخلص إلى أن هذا التمازج ما بين الأصل البربري والدين الإسلامي واللغة العربية نتج عنه هوية مغاربية مميزة و متماسكة ومنها استقى المجتمع الجزائري هويته، بمعنى أن معالم الهوية الجزائرية لا يمكن تحديدها أو فهمها خارج الفضاء (الاجتماعي -التاريخي) المغاربي، الذي يمتلك نفس البنية الاجتماعية ونفس المؤسسات والتقاليد كما أن اللغة نفسها التي يتكلمها المغرب العميق في هذا الفضاء¹⁶.

وقد دافع عن ذلك "د. طاهر لبيب" الذي يرى أن الخطاب السائد حول المغرب العربي مسكون بالخصوصية، وهذه الخصوصية تحولت من بديهية علمية إلى معتقد إيديولوجي يتجول المغربي بين شرفاته ليرى منها أبعاد مغربه متعدد، تمتد وتنقلص، وليواجه بها الآخر شرقاً وغرباً، وهي تعني تميزاً عربياً عن الغرب ومغربياً عن العرب¹⁷.

وهو ما أكده "د. محمد عبد الباقي الهرماسي" الذي يرى أن المجتمعات المغاربية مندمجة بطريقة غير موجودة في المشرق فهي متجانسة على المستوى الديني والمذهبي (إسلامية-مالكية) وأكثر من ذلك فالمغرب ينتمي بطريقة حضارية لا تقبل التقسيم، لأنه من الناحية الجيوستراتيجية هو عبارة عن منطقة حدودية، وتاريخياً أن الثقافة في المناطق الحدودية تكون عضوية، فهي لا تستسهل اعتبارات التميز لأنها تقف باسم المبادئ الأساسية الموجودة في العالم العربي الإسلامي.

غير أن الممارسات والأفكار التي تحملها العولمة الثقافية والفائنة على فكرة استبعاد وإقصاء وكذا تشويه قيم وثقافات باقي الحضارات، أفرز في النهاية تراجع الهوية الوطنية والخصوصيات الثقافية للمجتمعات.

نظراً لكون ظاهرة العولمة بشكل عام لا تحترم مبادئ الاختلاف وهي نقطة جوهرية تستند عليها، وذلك نابع من الفلسفة الإيديولوجية التي تؤمن بها، مستغلة في ذلك العوامل التكنولوجية وما أسفرت عليه من تطورات لأجل صناعة العالم بتوجه أو إيدولوجية واحدة خاصة بعد إزاحة القطب الشرقي، فانطلاقاً من منطلق الصناعة الذي

تؤمن به المجتمعات الصناعية، نجد أن هذه الأخيرة تصنع كل شيء حتى الشعراء والأدباء والفنانين والمفكرين لأجل تقديم البرامج السياسية وإدارة شؤون بلدهم فالصناعة عمل علمي مدروس لا يحتاج إلى أدوات الإنتاج ورأس المال فحسب وإنما يحتاج إلى استراتيجيات وخطط بالغة الدقة والأهمية.

وهنا يبرز دور المثقف العربي في صناعة الوعي المجتمعي والتصدي للظواهر السلبية التي خلفتها ظاهرة العولمة خاصة في جانبها الثقافي.

3- إشكالية المثقف العربي نظرة نقدية للمهام والأطروحات

حسب اعتقاد المفكر "مالك بن نبي" أن أمام كل مجتمع غاية، حيث يندفع في تقدمه إما إلى الحضارة وإما إلى الانهيار، وهو في كلتا الحالتين يكون بصدد صناعة تاريخه، وهذا الأخير يتم تبعا لتأثير ثلاث طوائف اجتماعية تتمثل في تأثير عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء، لكن هذه العوالم الثلاثة لا تتحرك أو تعمل منفردة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من (عالم الأفكار). إذ فرغم الحركية الغير مدركة لتلك البنى إلا أنها تفرز تغييرات واضحة على الدولة من خلال سلسلة الأطوار التي تمر بها من (عالم الأفكار) ومن (عالم الأشياء)، من أجل غاية يحددها (عالم الأشخاص)¹⁸.

وإن الإنسان وهو يتعايش مع تلك العوالم الثلاثة، إذا تغلب أحدها فذلك من شأنه أن يؤثر على شخصية الفرد وسلوكه، فالخلل الذي قد يصيب العوالم الثلاثة وشبكة علاقاتها يشكل مصدرا لل صعوبات التي تواجه جميع المجتمعات الإنسانية، ومجتمعنا اليوم يعاني من طغيان عام الأشياء على باقي العوالم وفي جميع المجالات مثلما سنوضحه فيما يلي:



شكل يوضح انحلال الفكر وطغيان الأشخاص والأشياء

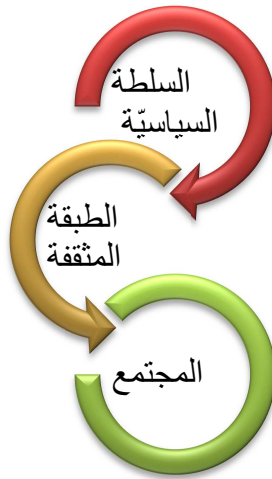
3-1- دور المثقف في صناعة الوعي المجتمعي: مقارنة نقدية للخطاب

المعرفي:

اعتبر معظم المثقفين العرب الأيديولوجيا تحيزا حتميا بالنسبة للذات العارفة المنخرطة في قضايا المجتمع، ورأوا فيها الأداة المعرفية النقدية إلى يمكن من خلالها أن يوظفوها لتبليغ مشاريعهم الفكرية والسياسية، وهو ما نلمحه في ستينات وسبعينات القرن الماضي حيث انصب اهتمام المثقفين العرب في التبشير الأيديولوجي الماركسي وفق خصوصية القومية العربية، وطبعا مساندة للتوجهات القادة السياسيين أذاك. فتحول المثقف إلى مناضل ثوري

فالمثقفون العرب يعتقدون دوما أن الواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمعات العربية لا يمكن إدراكه إلا من خلال جملة من المقولات الأيديولوجية كمقولة الحرية والديمقراطية، والاشتراكية... وغيرها من المفاهيم النابعة من الفكر الغربي، مما يعني أن المثقفين العرب استردوا المنتجات الفكرية على غرار استيراد المنتجات المادية.

وهذا ما يجعلنا نتساءل هل المتقنون العرب يحملون مشروعا فكريا وثقافيا أم حاملون لمشاريع إيديولوجية تتماشى وتوجهات السلطة السياسية؟ ومتلما نعرف فهذه الأخيرة تسعى لتحقيق مشاريعا على أرض الواقع وتفرض على المتقف مسيرتها. وهذا يجعلنا نقر بالعجز الفكري للمتقنين العرب في إنتاج أدوات التفكير ومناهج التغيير خارج أطر السلطة السياسية، مما ينفي عليه خاصية أو وظيفة النقد للواقع، وإما يقتصر دوره في الترويج للمفاهيم ومشاريع السلطة ومسايرتها في توجهاتها الإيديولوجية، وهو ما أفقد المتقنين مصداقياتهم داخل المجتمعات العربية، بسبب طغيان المنورات الإيدلوجية على خطابات المتقنين. وهو ما يفرض عليهم ضرورة إعادة النظر في ذواتهم ومشاريعهم، أي عليهم أن يتحرروا من إيديولوجيا والمراهنة على الخطاب المعرفي لمعرفة واقعهم وإنتاج مفاهيم وأفكار تتماشى معه. فالمتقف العربي كان في يد السلطة السياسيّة وآلية من آلياتها لضبط حركية وتوجهات المجتمع وفق توجهات السلطة السياسية، أو هو مثابة حلقة الوسط ما بين السلطة والمجتمع، والمترجم لقراراتها من خلال عمل الدعاة والترويج لعقيدها الإيديولوجية سواء في وسائل الإعلام المختلفة أو من خلال كتاباته، أي عمل على صناعة مجتمع وفق ما تمليه توجهات السلطة السياسية.



لكن مع التطورات السياسيّة والتكنولوجية المختلفة التي ظهرت وأثرت على كل مجريات الحياة السياسيّة، فقد تراجع دور المثقف العربي، ولم يعد باستطاعته صناعة الرأي العام، وحل محله مختلف وسائل الميديا المتطورة التي من خلالها تشكل الرأي عام الإلكتروني لم تضبطه السلطة أو النخبة المثقفة.



3-2- ضبابية المنظور الفكري للمرحلة الراهنة لدى النخبة المثقفة

لعب المثقف في الوطن العربي تاريخيا دورا مهما في عمليات بناء الدولة الحديثة، وفي محاولة بذر بعض جذور الحداثة والتحديث في البنية والهيكل المؤسسة للدولة - الأمة، كما شكل البعض منهم ضمائر حيّة للأمة وتطلعاتها للتحرر والاستقلال الوطني، إلا أن ذلك كان يتم وفق منظور السلطة السياسيّة ومخططاتها.

أما بالنسبة للنخبة المثقفة المضادة فقد كانت على مر التاريخ تعاني التهميش والإقصاء، مما يعني أن أزمة المثقف هي أزمة ممتدة تاريخيا وليست وليدة الظروف الراهنة، فهي أزمة ممتدة في تكوينه وإنتاجه ودوره ومجاله، وذلك نتيجة الاغتراب السياسي والاجتماعي الذي يعيشه المثقف، والتي من أسبابها نذكر:

- أن المثقفين العرب من أدياء وباحثين وأساتذة... عددهم في تزايد لكنهم معزولون بين كفي كماشة الأول يتعلق بالنخب السياسيّة التي تصل إلى حد ازدرائهم

والثاني يتعلق بالجمهور الذي يعتبر في نظره غير محضر لاستقبال المستجدات الفكرية والعلمية الجديدة¹⁹

-تراجع أدوار بعض المثقفين في المجال العام كنتيجة لليأس من ضعف الفعالية والقدرة على التأثير في عملية صناعة القرارات السياسية.

-الفجوة بين المثقفين والجماهير وضعف حضورهم المجتمعي، وذلك نتيجة للامبالاة بعض دوائر الصفوة بدور المثقفين في السياسة والإدارة واعتبارهم مثالين ومفارقون للواقع، ومن ثم يشكلون فئة مهمشة ومنعزلة عن الشعب.

-انصراف بعض المثقفين إلى التركيز على ثقافة المهرجانات والاستعراضات والجوائز، والتخلي عن دورهم النقدي والتوعوي.

-تحالف بعض المثقفين مع السلطة السياسية وتدعيمها في جل الإصلاحات التي تبنتها، ويأتي ذلك في سياق توظيف السلطة للمثقفين الموالين لها عبر آليات الجوائز والنشر والسفر والمواقع القيادية لمؤسسات السلطة الثقافية الرسمية، وفي المقابل تهमيش المعارضين النقديين وإقصائهم وممارسة عليهم كل أشكال العنف.

- تراجع دور المثقف لصالح دور الناشط الحقوقي ومقدمي البرامج الفضائية أي سطوة المرئي على المكتوب، وتراجع دور المثقف تبعه تزايد وزن وجبروت السلطة.

وقد نبهنا علماء الاجتماع بأن كل تشكل وراءه قوة دافعة تعمل بشكل تقضيي وتميزي تحد من عمل خيارات أخرى، كما أن سلوكيات الأفراد وأراءهم مرتبطة بالبنيات التي ينضون تحتها، وهكذا فإن علاقات السلطة أو وظيفتها في المجتمع تشمل سلطة تحديد عمليات القرار للتنشئة الاجتماعية، وبالتالي سلطة إنتاج الواقع، هذا الواقع هو ما انكبت السلطة التونسية على إرسائه من خلال صياغة قيم رمزية جسدتها في كل نشاطات الدولة الثقافية مستهدفة من ذلك تقوية جهاز الدولة، وضبط الحراك الاجتماعي والثقافي.

الخاتمة:

في الأخير وإنصافا لبعض المثقفين على حد تعبير الدكتور عبد الحليم مهور باشا، يوجد من المثقفين العرب الذين طرحوا مشاريع فكرية تتعاطى فعليا مع الأزمة الحضارية التي يمر بها المجتمع العربي، غير أن أدوات تحقيقها لم يأخذ بها صناع القرار، من أمثال ذلك نجد المفكر الجزائري مالك بن نبي، كما نؤكد مرة أخرى على أثر الميديا العالمية التي سحبت وظائف العديد من الفواعل الرسمية وحلت محلها فواعل غير رسمية جديدة التي ساهمت في تنميط المجتمعات بصيغ عالمية متجاوزة في ذلك كل خصوصيات المجتمعات. ومن ثم الفضاء العمومي لم يعد شاغرا أو خاصا بالمثقف وإنما تم اكتساحه وبتقنيات عالية وسريعة التأثير من قبل **مثقّف افتراضي** بمقاييس عالمية، يعمل على قبولية الوعي المجتمعي وفق مفاهيمه الخاصة وصناعة نماذج خيالية فارغة من أي محتوى.

من جهة أخرى نجد السلطة استبعدت المثقف تدريجيا من الفضاء العمومي وحلت محله المغنيين والممثلين -بالرغم من أن الفن يحمل رسالة لكن لا يجب المبالغة في ذلك، حيث أصبح هؤلاء في جل البرامج الإعلامية الاجتماعية والثقافية ...

من جانب آخر نلاحظ أن اهتمام الشباب العربي أصبح أكثر بالمباريات كرة القدم وغيرها على حساب الإنتاج الفكري للمثقف.

مما يعني أن مكانة المثقف العربي غدت محصورة جدا في المجتمع، وهو ما يفرض على المثقف إن أراد استعادته مكانته أن يوسع من معارفه في المجال التكنولوجي والعلمي والعمل على إعادة بناء الذات وفق متطلبات العصر.

قائمة المراجع:

- 1- ابن منظور ، لسان العرب، مصر: دار الكتب العلمية، 2005
- 2- أركون، محمد، (الفضاء الاجتماعي والتاريخي للمغرب العربي)، في محمد عابد، الجابري وآخرون، وحدة المغرب العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1987.
- 3- الجابري، محمد عابد، المثقفون العرب، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010
- 4- الهرماسي، محمد عبد الباقي، المجتمع والدولة في المغرب العربي، ط3، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 1999.
- 5- بن نبي، مالك، ميلاد مجتمع، ط8 (تر: عبد الصبور، شاهين)، سوريا: دار الفكر 2010
- 6- بن نبي، مالك، شروط النهضة، سوريا: دار الفكر، 2009
- 7- برهان، غليون، تهميش المثقفين ومسألة بناء النخبة القيادية، في أنيس الصايغ المثقف العربي: همومه وعطاؤه، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية
- 8- بركات، حلیم، المجتمع العربي في القرن العشرين، بحث تغير الأحوال والعلاقات، بيروت :معهد دراسات الوحدة العربية، 2000.
- 9- زنبير، محمد، (دور الثقافة في بناء المغرب الكبير) في مصطفى، الفيلاي وآخرون، تطور الوعي القومي بالمغرب العربي، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1986
- 10- حمادي، هواري، "ما الثقافة؟ ومن المثقف؟"، فلسفة الثقافة، السياقات -الأبعاد- الرهانات، أعمال بملتقى 2015، الجزائر: إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، 2015
- 11- مهور باشا، عبد الحلیم، محنة المثقف العربي: شقاء الوعي ومكابدات الذات فلسفة الثقافة، السياقات -الأبعاد- الرهانات، أعمال بملتقى 2015، الجزائر: إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، 2015

12-Camille;Lacoste et Dujardin ;**LiteratureBerbers :des trèsoire d'oralite Maghreb**, Paris: edition la decouverte, 1995

مقالات:

- 13-الخوني، الصادق، (من ملامح شخصية المغرب العربي: العصور الوسطى) سلسلة الدراسات الاجتماعية، العدد 09، ص147.
- 14-هبة، علي حسين، "دور النخبة السياسيّة والمثقف السياسي في التحول الديمقراطي العراق نموذجا، المركز الديمقراطي العربي
- 15- شير، أفراح فلاح، دور المثقفين في التحولات الاجتماعية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية القانون السياسية، جامعة بغداد، 1979، ص66.

الهوامش والاحالات

- 1-- ابن منظور، لسان العرب، مص ر: دار الكتب العلمية، 2005، ص 435
- 2-أفراح فلاح شيرا، دور المثقفين في التحولات الاجتماعية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية القانون السياسية، جامعة بغداد، 1979، ص66.
- 3-هبة، علي حسين، "دور النخبة السياسية والمثقف السياسي في التحول الديمقراطي" العراق نموذجاً"، المركز الديمقراطي العربي،
- 4-عبد الحليم، مهور باشا، محنة المثقف العربي: شقاء الوعي ومكابدات الذات، فلسفة الثقافة السياقات -الأبعاد-الرهانات، أعمال بملتقى 2015، الجزائر: إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، 2015، ص، 202-203
- 5-محمد، عابد الجابري، المثقفون العرب، محنة ابن حنبل وكنبة ابن رشد، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010، ص25
- 6-برهان، غليون، تهميش المثقفين ومسألة بناء النخبة القيادية، في أنيس الصايغ، المثقف العربي: همومه وعطاؤه، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص 86
- 7-هوارى، حمادي، " ما الثقافة؟ ومن المثقف؟"، فلسفة الثقافة، السياقات -الأبعاد-الرهانات أعمال بملتقى 2015، الجزائر: إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، 2015، 15
- 8-عبد الحليم، مهور باشا، مرجع سابق، ص206-207-
- 9-حليم، بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين، بحث تغير الأحوال والعلاقات، بيروت: معهد دراسات الوحدة العربية، 2000، ص62،
- 10- مالك بن نبي، شروط النهضة، سوريا: دار الفكر، 2009، ص 27
- 11-الصادق، الخوني (من ملامح شخصية المغرب العربي: العصور الوسطى) سلسلة الدراسات الاجتماعية، العدد 09، ص147.
- 12- نفس المرجع، 63
- 13 -Camille;Lacoste et Dujardin ;LiteratureBerbers :des trèsore d'oralite Maghreb, Paris: edition la decouverte, 1995,p180-181
- 14- محمد، زنيبر، (دور الثقافة في بناء المغرب الكبير) في مصطفى، الفيلاي وآخرون، تطور الوعي القومي بالمغرب العربي، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1986 ص144-145

¹⁵ - محمد عبد الباقي، الهرماسي، **المجتمع والدولة في المغرب العربي**، ط3، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، ص 19

¹⁶ - محمد، أركون، (الفضاء الاجتماعي والتاريخي للمغرب العربي)، في محمد عابد، الجابري وآخرون، **وحدة المغرب العربي**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1987، ص 32

¹⁷ - طاهر، لبيب، (المغرب العربي بين وحدة الخصوصية وخصوصية الوحدة)، في محمد عابد، الجابري وآخرون، مرجع سابق، ص 81

¹⁸ - مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ط8 (تر: عبد الصبور، شاهين)، سوريا: دار الفكر، 2010 ص 27

¹⁹ - هواري، حمادي، مرجع سابق، ص 19

الاستراتيجية الاستباقية من أجل التنمية الثقافية في المجتمع الجزائري

د. حسنية عزاز

جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس

الملخص:

بداية أود أن أشكر من فكر، ومن قام بتنظيم هذا الملتقى المهم في طرحه خاصة فيما تعلق بالأمن الثقافي، ومثل ما ذكر في إشكالية الملتقى بأن الأمن الثقافي لا يقل أهمية عن الأمن الغذائي أو المائي أو غيرهما، أقول: إن الأمن الثقافي اليوم _ وفي هذا العصر وفي ظل التطورات الحاصلة والأحداث المتسارعة وخاصة ما تصنعه العولمة بالعالم وضياح الحدود ليست الجغرافية فقط بل السياسية والاجتماعية والأخلاقية _ ضروري. فلا بد أن نضع له استراتيجية دقيقة هادفة مثل نظام الأمن العسكري فهو لا يقل عنه أهمية.

ومن أجل ذلك أحاول أن أشارك بورقة بحثية تنطلق من الواقع الجزائري، من واقع الفرد ثم الأسرة فالمجتمع، واقع الثقافة ومدى تمسك المجتمع بثقافته، فوضعت لورقتي هذا العنوان: الاستراتيجية الاستباقية من أجل التنمية الثقافية في المجتمع الجزائري، أريد من خلاله طرح إشكالية الأمن الثقافي في الجزائر ثم الاستراتيجية التي تتضمن مجموعة من الخطوات أو المتطلبات التي لا بد من ترسيخها في المجتمع. فالأمن الثقافي يحتاج إلى أمن استباقي، لا بد من التعريف بثقافتنا خاصة لدى الشباب، فإرث الأجداد ل ابد أن يلتقي مع حاضر الشباب لصنع المستقبل والتفكير في كيفية جعل الشاب الجزائري يهتم بثقافته، فهو لا يعرفها حق المعرفة أو بالأحرى لم يجد من يعرفه بها فبدأ يبحث عن بديل لها في الخارج، إذن لا بد من

التعريف بأعلامنا لنجعلهم قدوة لشبابنا حتى ننقذهم من مقولة: بمن نقندي لنهتد؟
وحيثما نقول الثقافة بمفهومها الواسع الشامل للمعتقد واللغة والفن والآثار
والموروث...

هذا المصطلح "الأمن الثقافي" الذي يجمع بين لفظتين قد تختلفان في دلالتها
فالأمن يتطلب السيطرة والعزلة والتكتم والسرية بينما الثقافة فكر وإبداع فحرية
وتحرر فهما يظهران متناقضين في دلالتهما الظاهرية، لكن في حقيقة الأمر الثقافة
بمفهومها الحضاري الواسع لا تترسخ في المجتمع دون قواعد أمنية وإجراءات
وقائية يتخذها أصحاب القرار لحمايتها، فتقافة المجتمع تنطلق من مبادئ الأمة
المتعارف عليها كالدين واللغة والعادات والتقاليد.

إن هذه الورقة البحثية ستركز على العناصر التالية:

■ مقدمة

■ مفهوم الأمن الثقافي والأمن الاستباقي، سنتحدث في هذا العنصر عن علاقة
الأمن بالثقافة ومعنى الأمن الاستباقي.

■ الاستراتيجية الاستباقية (متطلبات الأمن الثقافي)، سنتحدث في هذا العنصر
عن مجموعة من المتطلبات، من بينها: التلاحم بين اللغتين العربية والأمازيغية
الاهتمام بالموروث الثقافي، ونشر روح المواطنة وغيرها.

■ أمثلة عن التنمية الثقافية في المجتمع الجزائري.

■ خاتمة.

المدخل:

تشهد مسألة الأمن الثقافي اهتماما متزايدا من الباحثين والمسؤولين في مختلف أنحاء العالم. وانعقاد هذا الملتقى دليل على هذا الاهتمام، فالجزائر كغيرها من الدول بدأت تنتبه إلى أهمية الأمن الثقافي، فهو جزء لا يتجزأ من أمن المجتمع ويتكامل مع الأمن في مجالات الحياة الأخرى.

من المهم في البداية تعريف المقصود بالأمن الثقافي، وبعد ذلك سوف أسلط الضوء على مصادر الفلق عليه، ثم أقترح بعض الحلول لتحقيقه.

يعرف أوليه ويفر (Ole Weaver) الأمن الثقافي بأنه "مقدرة مجتمع ما على المحافظة على شخصيته المحددة على الرغم من الظروف المتغيرة والأخطار الحقيقية أو الافتراضية. وبعبارة أدق، ينطوي الأمن الثقافي على ديمومة الأسس التقليدية للغة والثقافة والروابط والهوية والممارسات الوطنية والدينية، والسماح بالتغييرات التي تعد مقبولة"¹.

وغني عن القول إن مفهوم الثقافة واسع ومرن في الوقت ذاته. ففي الإعلان العالمي للتنوع الثقافي، تؤكد يونسكو (UNESCO) أن "الثقافة ينبغي أن يُنظر إليها بوصفها مجمل السمات المميزة، الروحية والمادية والفكرية والعاطفية، التي يتصف بها مجتمع أو مجموعة اجتماعية وعلى أنها تشمل، إلى جانب الفنون والآداب، طرائق الحياة، وأساليب العيش معا، ونظم القيم، والتقاليد، والمعتقدات"².

بعض المخاطر التي يتعرض لها الأمن الثقافي مادية ومباشرة، كما في حالات الاستعمار والاحتلال، فتأتي قوة غاصبة، وتعمل بصورة منهجية على استبدال ثقافة الشعب الخاضع للاحتلال بثقافة الغاصب، فيكون الفرض بالقوة، أو يكون من خلال الترويج لثقافة الغاصب وتصويرها على أنها أكثر تطورا، وتبينها سوف يعني فوائد يجنيها الأفراد والمجتمع بشكل عام. والجزائر مثال حي على ذلك، فالاستعمار الفرنسي لم يأل جهدا من أجل تحويل الجزائر إلى جزء من فرنسا لكن هيهات أن يتحقق ذلك والجزائر ولودة لأبناء بررة محاربين محافظين على هويتهم أمثال

الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي صاح قائلاً:

شعب الجزائر مسلم
وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله
أو قال مات فقد كذب.

وثمة إجماع في الرأي على أن ظاهرة العولمة التي بدأ الترويج لها في التسعينيات، أدت دورا كبيرا في تهديد الثقافات المحلية، ويذكرنا بالدور السلبي للعولمة في هذا المجال نهلة جبر التي تشير إلى "رغبة الدول الكبرى في السيطرة على الدول الصغرى، أو حتى رغبة الدول الحديثة التي تتسلح بالقدرة العلمية والتكنولوجية في السيطرة على الدول ذات الحضارات التاريخية والثقافات المتأصلة عبر التاريخ"³.

ومثلها يفعل محمد حسين أبو العلا، الذي يشير بدوره إلى تناقض العولمة مع التعددية الثقافية: "وهكذا تجيء العولمة الإعلامية نافية لمعاني التعددية الثقافية معتمدة على مجموعة من التقنيات مثل خطوط الميكروويف والألياف الضوئية والكوابل المحورية والأقمار الاصطناعية وشبكات الإنترنت والبريد الإلكتروني وغيرها، محققة أبداع أشكال الهيمنة الاستعمارية ومكلمة لاستكمال النموذج القيمي العولمي أو دستور الإمبريالية المعاصرة الهادف إلى نسف قيم الاستقلال الوطني"⁴. ولا تكتمل مناقشة الأمن الثقافي إذا لم نتطرق إلى مخاوف مشروعة من قبيل اعتبار الأمن الثقافي وصفاً للانغلاق والجمود. يحذر كريم أبو حلاوة من "نزعات التفوق والانكفاء والخوف المبالغ فيه على الهوية الثقافية" ولا يستبعد أن يكون ذلك "سوى ردود فعل سلبية، وربما كانت ستارا يحجب الخشية من الأفكار النقدية العالمية التي من شأنها زعزعة مواقع النخب السياسية والثقافية المتعقبة"⁵.

يجب التأكيد على أن الحديث عن الأمن الثقافي لا يعني أن نغلق أبواب مجتمعاتنا، فكما يقول إدوارد سعيد، لم تكن الحضارات مرتكزة فقط على الفتوحات أو الاستعمار، بل أيضا على التعاون والتلاقح⁶. ولكن شتان ما بين التعاون والتلاقح الثقافي الذي يكون في الاتجاهين، وفرض ثقافة واحدة على جميع أمم

وشعوب العالم.

وفي سياق المخاوف المشروعة، لا ينبغي أن يعني الأمن الثقافي إلغاء التعددية الثقافية داخل البلد الواحد، سواء أعلق الأمر باللغات المحلية أم الأديان، فرغم الاختلافات داخل البلد الواحد، هنالك قواسم مشتركة بحكم المواطنة، والتنوع الداخلي إثراء لثقافة المجتمع، مثلما هو تعدد الثقافات في العالم.

ـ مكونات استراتيجية للأمن الثقافي:

إن متطلبات الأمن الثقافي بالنسبة إلى الجزائر هي: الدين واللغة والمواطنة والحفاظ على العادات والتقاليد. وسوف أتحدث فيما يلي ببعض التفصيل عن كل عنصر من هذه العناصر الأربعة.

الدين في الجزائر: أكثر من تسعين بالمائة من شعب الجزائر يدين بالإسلام، وهذه النسبة العالية جدا تحقق ركنا مهما من أركان الأمن الثقافي في أي بلد. ولكن تعامل الدول مع الدين ليس قائما على التعصب، فالجزائر من الدول العربية القليلة التي لا تذكر نوع الديانة على جواز السفر، وهذا دليل عملي على الإيمان بحرية المعتقد.

ويلاحظ أيضا أن وجود أقليات من غير المسلمين غير مشوب بأي نوع من أنواع التمييز ضدهم، ويجمعهم مع أخواتهم وإخوانهم الجزائريين روابط أخرى مثل اللغة المشتركة، والمواطنة، والانتماء للجزائر.

ورغم أهمية الدين في كونه أساسا للأمن الثقافي، إلى أن العقود القليلة الماضية شهدت ظاهرة استخدام الدين في تهديد الأمن الثقافي للمجتمع في الجزائر والدول الأخرى. هذه الظاهرة متمثلة في ظهور تفسيرات وتأويلات ضيقة للدين، وبدل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة أصبح العنف هو الوسيلة، واستهدف المسلمين وغير المسلمين. وهذا الخطر لا يزال قائما، وهناك حاجة ماسة لعزل أصحاب الأفق الضيق وتقليص تأثيرهم في المجتمع.

اللغة: العنصر الثاني في استراتيجية الأمن الثقافي في الجزائر هو اللغة. لقد

عاشت الجزائر ثلاثين ومائة عاما تحت استعمار فرنسي حاول فرنسة البلاد، وتجريدها من سمات الثقافة الجزائرية الأصيلة. وقد كان للدين دور في الحيلولة دون انقراض اللغة العربية في الجزائر أثناء الاستعمار الفرنسي. وقد شهدت الجزائر مرحلة تعريب بعد الاستقلال، ولكن التعريب يمر في حالات مد وجزر. في الوقت نفسه، أدركت الدولة أن لقسم كبير من الشعب الجزائري لغة مستقلة وهي الأمازيغية. وقد ذكرنا في تعريف الأمن الثقافي أنه يسعى إلى الحفاظ على السمات التي تميز مجتمعا بكامله، أو فئة من فئاته. ولذلك، يمكن اعتبار قرار الجزائر ترسيم اللغة الأمازيغية تطبيقا عمليا لمفهوم الأمن الثقافي. وفي تطبيق القرار تكون الدولة منسجمة مع نفسها، فهي عندما تفكر في الأمن الثقافي لعموم البلاد، لا تنسى أن الأمن الثقافي حق لمن لهم سمات ثقافية خاصة، أي اللغة الأمازيغية في هذه الحالة.

هل وجود أكثر من لغة رسمية في بلد واحد مشكلة؟ قد يبدو الأمر كذلك في الوهلة الأولى، ولكن هناك دول في العالم فيها لغتان رسميتان أو أكثر، منها كندا حيث اللغة الإنجليزية والفرنسية، وهي مثال ناجح من أمثلة التنوع الثقافي ضمن دولة موحدة، الرابط الأقوى فيها عنصر المواطنة الذي سأحدث عنه بعد قليل. ومن الدول الأخرى، سويسرا حيث توجد اللغات الألمانية والفرنسية والإيطالية. وفي المملكة المتحدة (بريطانيا) التي يتكون شعبها من أربع أمم لها لغات مختلفة، أصبحت اللغات الأخرى معترفا بها بعد أن ظلت اللغة الإنجليزية اللغة الرسمية المفروضة. وتوفر الدول المنشورات الرسمية باللغة البولندية (نسبة إلى منطقة ويلز).

كما أن وجود لغة رسمية واحدة لا يعني في بعض الدول عدم التعامل مع فئات من المجتمع بلغاتهم الأصلية، فدولة كبريطانيا فيها الكثير من المهاجرين القدماء والجدد. وتحرص المجالس البلدية التي توجد فيها كثافة سكانية من المهاجرين على توفير المعلومات التي تهمهم بلغاتهم الأصلية كالعربية والبنغالية والهندية وغيرها. ورغم ترسيم الأمازيغية في الجزائر، إلا أنني أعتقد أن استخدام الأخوة

والأخوات الأمازيغ اللّغة العربيّة سيستمر، فثمة جانب عملي يشكل حافزا للاستمرار في ذلك، فبالإضافة إلى الرابط الوجداني بين المسلمين واللّغة العربيّة التي يسعى إلى تعلمها المسلم الصيني والاندونيسي والهندي وغيرهم، ستكون اللّغة العربيّة وسيلة الوصول إلى جمهور أوسع عند كتابة ونشر الروايات والقصص والمؤلفات الأخرى. ولتوضيح هذه النقطة، هناك من الجزائريين والمغاربة يكتبون بالفرنسية لأنهم سيصلون إلى جمهور أكبر. وتوضح النقطة أكثر عند الحديث عن الكتابة بالإنجليزية، فهذا يعني الوصول إلى جمهور في مختلف أنحاء العالم.

وهكذا إذا أراد الكتاب الأمازيغيون الوصول بأعمالهم إلى جمهور أكبر فإنّ العربيّة هي الوسيلة التي في متناولهم، فهم أولا ليسوا غرباء عن هذه اللّغة، وثانيا بعض أعلام الأدب الجزائري الذي كتبوا بالعربيّة أمازيغيون. واللّغة العربيّة أيضا ستمكن الجزائريات والجزائريين من العمل في الدول العربيّة الأخرى، وهذا حافز عملي لا أظن أن أحدا يستهتر به.

المواطنة: العنصر الثالث في الأمن الثقافي هو المواطنة. كأى مصطلح آخر سيكون له تعريف واسع وآخر محدود، ولكن مختلف التعريفات تتفق على أن مفهوم المواطنة يعني وضعاً قانونياً للفرد في المجتمع، ينظم العلاقة بينه وبين مؤسسات الدولة، فالمواطن له حقوق وعليه واجبات. هذا الوضع القانوني استبدل النظرة القديمة للأفراد داخل المجتمع، فهم ليسوا رعايا بل مواطنون يتمتعون بحقوق دستورية وقانونية، مثل الحق في الانتخاب، والعمل، وخلافه.

يصبح الفرد في المجتمع مواطناً في الدولة إما من خلال المولد، أو بعد استيفاء مجموعة من الشروط المحددة في القانون كالإقامة والعمل في بلد ما عدداً محدداً من السنين، يحصل الفرد بعدها على وضع "مواطن" وعلى أثره يتمتع بالحقوق التي يتمتع بها الفرد الذي أصبح مواطناً بحكم المولد. ولذلك، يصبح الكثير من المهاجرين بطرق قانونية مواطنين بعد مرور عدد محدد من السنوات. ومنهم من ينجح نجاحاً باهراً في عالم الأعمال أو السياسة أو الميدان العلمي أو الفني. بوسع

المواطن الذي لم يولد في البلد الذي منحه وضع مواطن أن يترشح لأي منصب سياسي، باستثناء الرئيس. وقد يتغير هذا الأمر في المستقبل.

مفهوم المواطنة في الجزائر سيكون له دور مهم في الأمن الثقافي، فهو ينطوي على المساواة بين جميع أفراد المجتمع، ومن خلال مفهوم المواطنة، يصبح المجال مفتوحاً لتحسين مكانة المرأة في المجتمع، فهي في نظر القانون مواطن له كل الحقوق وعليه كل الواجبات. والأمن الثقافي في أي مجتمع يكون ناقصاً إذا بقيت المرأة مهمشة فيه، وبقي دورها محصوراً في الاعتناء بالبيت وتربية الأطفال. ورغم أهمية ذلك طبعاً، إلا أن للمرأة قدرات أخرى، فمن النساء عالمات، وسيدات أعمال، وأخريات متفوقات في مجالات أخرى.

إن المواطنة لا تعني الانتماء إلى الوطن شكلياً، أو بحكم ورقة صادرة عن مؤسسة من مؤسسات الدولة. إن من يشرب من ماء وطن وتتسخ ملابسه وهو يلعب على أرضه ويتنفس هواءه تتشأ بينه وبين المكان علاقة خاصة. وحتى لو لم يمكن الماكن وطنه الأصلي، فهو يصبح وطناً بالتبني الطوعي. اسألوا من ذهب إلى بلد عربي أو أجنبي وقضى هناك بضع سنوات وسيلغكم أنه نشأت في نفسه رابطة مع المكان الجديد. ولذا، فإن الرابطة الفطرية التي تتشأ في نفس المكان في البلد الذي ولد فيه وأبأؤه وأجداده رابطة قوية. ولذا مع أنه يبدو أن مواطني الدول الأجنبية يحبون بلادهم أكثر مما يحبها المواطن في الدول النامية، إلا أن هذه نظرة خاطئة للأمر، فحب الجزائريين للجزائر واستعدادهم للتضحية بالروح من أجلها حب أسطوري خلده النضال من أجل طرد المستعمر الفرنسي من الجزائر بعد 130 عاماً.

إن كيف نفسر الهجرة غير القانونية؟ لماذا يركب الجزائري وغيره المخاطر ويجازف بحياته لكي يذهب إلى فرنسا أو إلى بلد أوروبي/عربي آخر؟ الأمر له علاقة بالأوضاع الاقتصادية في الدول النامية. لقد تزايدت الهجرة غير القانونية بعد هيمنة برامج الخصخصة والاستغناء عن أعداد كبيرة من العاملين في

المؤسسات العامة. كذلك هناك ممارسات اقتصادية مثل نقل المصانع إلى الصين أو دول تشجع على الاستثمار فيها بأن الأيدي العاملة المتوفرة فيها ماهرة ولكن رخيصة أيضا. ومعروف أيضا أن ما يسمى النيوليبرالية الاقتصادية تمارس النشاط الاقتصادي المتوحش، والذي من آثاره أن نصف ثروة العالم مكدسة الآن في أيدي عدد محدود من الناس.

ولذا لا يمكن أن نتحدث عن أمن ثقافي بمعزل عن الأمن الاقتصادي، علما بأن المجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات نسبة الازدياد فيه عالية، ونسبة الشباب بين مجموع السكان عالية أيضا. ولذا لا بدّ من الاهتمام بالوضع الاقتصادي مع التركيز على مشاريع تحتاج إلى أيدي عاملة كثيرة. عندئذ يتقلص الحافز على الهجرة، بل إن وضعاً اقتصادياً مزدهراً سيؤدي إلى عودة الذي هاجروا ولم يجدوا الخلاص الذي بحثوا عنها في الدول الغربية، وهؤلاء كثر، ويعيشون على هامش المجتمعات التي ركبوا المخاطر من أجل العيش فيها.

العادات والتقاليد: العنصر الرابع هو الحفاظ على العادات والتقاليد، وهذه تشمل أموراً كثيرة من الطعام والملابس وطقوس الزواج، وغير ذلك. إن بعض الأكلات الشعبية تفرّض حضورها في مجتمعات غير التي نشأت فيها، فالطعام الهندي والصيني على سبيل المثال لهما حضور قوي في الدول الغربية، وتقدم الوجبات في مطاعم منها الفاخر جدا والشعبي جدا. ومن الطعام المعروف في الدول العربية الفلافل (الطعمية) التي أصبحت أكلة مرغوبة في مختلف أنحاء العالم، وحافظت على اسمها العربي (فلافل). كذلك الأمر بالنسبة للكسكس، وهو متوفر في المتاجر في الدول الغربية.

والحديث عن أهمية عاداتنا وتقاليدنا المتعلقة بالطعام لها جانب صحي مهم، فالأكلات الغربية الحديثة كالهامبورغر والبيتزا تبين أنها مسؤولة عن انتشار السمنة في الدول الغربية، وما يصاحب السمنة من أمراض من بينها السكري. ولذا قبل أن نسارع إلى استبدال أكلاتنا وتناول وجبات سريعة تصور لنا بصورة

مغرية، يجب ألا ننسى أن بيئتنا جعلت أجدادنا يبتكرون الأكلات المناسبة لبيئتنا. وفي الوقت الحاضر، النظام الغذائي الشرق أوسطي يحظى بشعبية في الدول الغربية التي تعاني من انتشار السمنة والسكري.

وملابسنا أيضا التي تصممها أمهاتنا في غاية الجمال، ولو كانت من تصميم دار نشر غربية لبيعت بمبالغ باهظة، ونعرف جميعا الأزياء الرائعة لمختلف أزياء مناطق الجزائر. ومن عاداتنا الجميلة طقوس الخطبة والزواج، وهي أجمل من حفل يستمر ساعات قليلة في كنيسة أو قاعة بينما هو في بلادنا فرحة شاملة تستمر أياما، وكل ذلك يحقق الأمن الثقافي.

دور الإعلام في الترويج للأمن الثقافي وتعزيزه:

لا يحتاج المرء لإطالة الحديث عن دور الإعلام في المجتمع، والإعلام يشمل القنوات التلفزيونية والإذاعات والصحف والمجلات، المحلي منها والموجه لعموم أراضي الوطن. ولكن يجب عدم إغفال أن المشهد الإعلامي تغير كثيرا بعد ظهور الإنترنت وانتشارها، وبروز ظاهرة مواقع التواصل الاجتماعي. فمع أن الإعلام كما عرفناه في الماضي له دور مهم، إلا أنه لم يعد له التأثير السابق بسبب الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، مثل فيسبوك وتويتر ويوتيوب. فكل فرد هذه الأيام له صفحته وقناته على يوتيوب. وبعض الأفراد يحظون بمتابعة كبيرة. وقد تأثرت الصحف تحديدا من الواقع الجديد، وتوقف الكثير من الصحف عن النشر والاكتفاء بالنشر الإلكتروني.

لذلك يجب أن تشمل الاستراتيجية الإعلامية الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، إما باستخدام الموجود منها حاليا، أو تأسيس منصات محلية تجذب المواطنين لاستخدامها، فالصين على سبيل المثال تصر أن يكون لديها بدائل صينية لفيسبوك وخلافه.

يقترح بعض الباحثين بدائل وآليات تؤدي في اعتقادهما إلى "صيانة الأمن الاجتماعي والثقافي في الجزائر في عالم متغير كعالم اليوم"⁷، وتشمل المقترحات

التربية والتعليم، ويؤكدان على أهمية "تغذية مناهجنا التربوية بالروح النقدية التي تحث على الاجتهاد".⁸ أتفق تماما معهما في هذه النقطة. لكني أشير في الوقت نفسه إلى أن الأسرة ما تزال ذات دور حيوي في غرس السمات المميزة لكل وطن في نفوس أبنائنا. وبعد الأسرة يأتي دور المدارس في مختلف المراحل. ومن المهم للغاية أن يكون الاحتفاء بالتنوع داخل الجزائر الحبيبة ضمن سياق تعزيز الأواصر المشتركة، فإذا ركزت مجموعة من الناس على ما يميزها فقط عن غيرها، يكون المآل التقنيت، فالاختلافات أكثر من أن تحصى _ فأصابع اليد الواحدة تختلف _ ولذا نحتفي بتنوع بلادنا ووجود العرب والأمازيغ والشاوية والتوارق، إلى آخره، وفي الوقت نفسه نحتفي بالأواصر التي تجمعنا كجزائريين.

قائمة المراجع:

(1) المراجع العربية

- _ زياني، صالح وحجيج، آمال. 2011. "الأمن الثقافي والاجتماعي الجزائري: التهديدات، السياسات والآفاق". المجلة الجزائرية للأمن والتنمية. العدد الأول. جويلية 2011.
- _ كريم أبو حلاوة. "هل الأمن الثقافي العربي في خطر؟" موقع العهد الإخباري. محمد حسين أبو العلا. 2015. " هذا الغياب الاستراتيجي للأمن الثقافي العربي". صحيفة "الحياة". 15 نيسان (أبريل) 2015.
- _ نهلة جبر. 2017. "الأمن الثقافي: مفهومه ودواعيه وعوامل تحقيقه". مجلة "شؤون عربية". العدد 172. ربيع 2017.
- _ يونيسكو. 2001. الاعلان العالمي للتنوع الثقافي. النسخة العربية.

(2) المراجع بالإنجليزية:

- Edward Said. 2001. "The Clash of Ignorance", The Nation, 4 October 2001.
- Scott Forrest. 2004. "Indigenous Identity as a Strategy for Cultural Security".
- Conference Paper. Presented at Northern Research Forum. 18 September 2004.

الهوامش:

¹ نقلا عن فوريست، سكوت. الهوية الأصلية كاستراتيجية أمن ثقافي. ورقة قدمت في منتدى البحث الشمالي، 18 سبتمبر 2004. شوهدت الورقة على الإنترنت بتاريخ 12 يناير 2018 على الرابط التالي:

<http://scottforrest.pbworks.com/f/nrf2004.pdf>

² يونيسكو. الاعلان العالمي للتنوع الثقافي. النسخة العربية. شوهدت بتاريخ 12 يناير 2018 على الرابط التالي:

<http://www.un.org/ar/events/iyl/resources/127160m.pdf>

³ نهلة جبر. الأمن الثقافي: مفهومه ودواعيه وعوامل تحقيقه. مجلة شؤون عربية. العدد 172. ربيع 2017. شوهد على الرابط التالي بتاريخ 12 يناير 2018.

<http://www.arabaffairsonline.org/article.php?p=251>

⁴ محمد حسين أبو العلا. " هذا الغياب الاستراتيجي للأمن الثقافي العربي ". مقالة منشورة في صحيفة "الحياة" على الرابط التالي:

<http://www.alhayat.com/m/opinion/8545157>

⁵ كريم أبو حلاوة. هل الأمن الثقافي العربي في خطر؟ مقالة منشورة في موقع العهد الإخباري على الرابط التالي:

<https://archive.alahednews.com.lb/alahed.org/archive/2002/1503/case/doc4.htm>

⁶ إدوار سعيد. "صدام الجهل". مجلة "ذا نيشن". 4 أكتوبر 2001.

Said, Edward. 2001. "The Clash of Ignorance", The Nation, 4 October 2001.

⁷ زياني، صالح وحجيج، أمال. "الأمن الثقافي والاجتماعي الجزائري: التهديدات، السياسات

والآفاق". المجلة الجزائرية للأمن والتنمية. العدد الأول. جويلية 2011. ص 21.

⁸ المصدر السابق، ص 23.

الدّراسات التّقافية العولمة وإعادة بناء- تشكيل - الهويّة.

أ. عبد الكريم عيادي

جامعة محمد الأمين

دباغين، سطيف 2

الملخص: لقد تعددت مواضيع الدراسات التّقافية لتشمل الأفكار والمواقف واللغات والفعل الاجتماعي، وهو ما يتطلب اعتماد مقاربة متداخلة التخصصات ومأسستها نظريا وعلميا، حيث كان الكلام دائما عن الثقافة، مضادا للثقافة. فالثقافة حسب أودورنو وهوركهايمر هي قاسم مشترك يحتوي بالفعل على ذلك التوصيف وعلى عملية التصنيف التي تدخل بالثقافة حتى إلى مجال الإدارة، فظهر المفهوم الحداثي للثقافة عام 1870 وتعرض لتحول شامل العام 1950، في "فترة فاصلة" مع تغيير النمط الإستهلاكي وظهور الإنسان ذو البعد الواحد حسب هربيرت ماركيز، وحيث يرى أبادوري appaduri أن العولمة ستفرغ الهويّة من طابعها المحلي، نظرا للتفاعل ما بين المحلي والعالم الخارجي، ولما كان الصراع دائما قائما بين الوافد والمحلي ما يؤثر سلبا على البناء الاجتماعي، وعليه سنتم معالجة الدراسة بطرح الإشكال الرئيسي: كيف أثرت البناءات الاجتماعية في إنتاج وإعادة إنتاج الهوية؟ وما هو دور الفاعل المحلي - المنقف - في الحفاظ على النسق المؤسس للهوية أمام الوافد الكوني؟

الكلمات المفتاحية:الهويّة التّقافية، العولمة التّقافية، الأمن الثقافي، الدراسات

الثقافية، البناء الاجتماعي.

Sixième axe: le rôle de l'intellectuel dans l'harmonie du collectif.

Il y avait de nombreux sujets d'études culturelles pour inclure les idées, les attitudes, le langage et l'action sociale, ce qui nécessite l'adoption d'une approche interdisciplinaire et l'institutionnalisation théorique et scientifique, où il parlait toujours de la culture, la contre-culture. Culture par Oodorno et Hrkheimerest un dénominateur commun contient déjà cette description et le processus de classification impliqué dans la culture même dans le domaine de la gestion, est apparu le concept de la culture moderniste en 1870 et soumis à un dans le «intermède » avec le modèle de consommation changer une 1950 complète, année de tournage, et l'émergence de l'homme unidimensionnel Herbert Marcuse, et où Oppaduraappaduri croit que la mondialisation se déroulera sur l'identité du caractère local, en raison de l'interaction entre le local et le monde extérieur, et ce que le conflit a toujours existé entre les entrants et local affecte négativement la construction sociale, et il sera traité l'étude en demandant aux forms principales: Comment a Bannaoua Sociale dans la production et re-production de l'identité? Quel est le rôle de l'acteur local - culture - dans la préservation de la mise en page de l'identité du fondateur devant le nouveau venu cosmique?

Mots Clés:"Identité, Mondialisation, Sécurité, études Culturelle", Structure Sociale

مقدمة:

يعتبر مفهوم الثقافة من بين الأعمال الأكثر وفرة وتناقضا في العلوم الاجتماعية، ويعتبر المصطلح من الأعمال المشروعة، وأحيانا ينحو منحى الدراسات الأنثروبولوجية، ليشمل طرق العيش والشعور الجمعي ومختلف أنماط التفكير لتنظيم اجتماعي ما، واعتبار مصطلح الثقافة لفظا مشروعا كثيرا ما يجابه بمعارضة في المقابل، فنجد ما يسمى بالثقافات الجماعية كما نجد الصناعات الثقافية، وتعزى إختلاف طرق وأنماط التفكير إلى التقاليد الوطنية في ممارسة السياسات والبرامج الحكومية المحلية والوطنية، حيث تعمل الدول على حماية كل صور الثقافة الجمعية، وتضمن ذلك في دساتيرها لتكريس الإنسجام الجمعي، من حيث ضمان التعدد اللغوي والعمل على خلق قنوات لإثراءها والعمل على ترقيتها كمكونات للهوية الوطنية، فالهوية هي تمظهر لطريقة إنتظام الإجتماعي في كليته، وليس فقط في جزء منه، عبر مسار طويل ومعقد من الإنتاج وإعادة الإنتاج الإجتماعي متضمنا الصراع والتكيف، حيث تشكل مقومات الهوية الهوية الفصيل في هذا التشكل، محققا للتكامل الوطني والأمن الثقافي.

إن الربط بين الأمن الثقافي واللغوي كمركز إستقطاب، يتأسس من رؤية مفادها أن الفاعلين المحليين على وعي تام بأهمية الحفاظ على مقومات الهوية الوطنية في مواجهة الوافد الخارجي الذي يصطلح على تسميته العولمة الثقافية التي تتضمن روابط مختلفة وصور عديدة ماسحة لخصوصيات الشخصية الوطنية التي تعمل النخب الوطنية على خلق أسس لها تكون إنسجاما مجتمعيا، وحيث أن الدراسات الثقافية تدرس كل نسق من الأنساق الاجتماعية وتفاعلها فيما بينها، فإن هذه الورقة البحثية تنشد التعمق في دراسة مكونات تشكل الهوية الثقافية الوطنية عبر دراسة علاقات وآليات عمل السلطة على المستوى العام للنظام الاجتماعي والثقافي، حيث يتم فهم ديناميكية الأنساق الاجتماعية.

إشكالية الدراسة:

يتبادر إلى الذهن الإنساني في بداية دراسة أي موضوع، سؤال إشكالي يستمد شرعيته حتما من الموضوع ذاته موضع الدراسة والبحث، وهو ما الفائدة المرجوة منه أخلاقيا وإنسانيا وفكريا؟، وما جدوى هذه الدراسات أيا كان تخصصها؟، يبدو هذا السؤال النفعي فيما يتعلق بالدراسات الثقافية خصوصا في شق اللغة والهوية مستهجنا ومثيرا للكره ومحرضا بشكل كبير، حيث تدرج الدراسات الثقافية أو التاريخ الثقافي ضمن تفاعل بنى معرفية في إطار التكاملية أو التكييفية مشكلة النسق العام أو مجزئة له، فالدراسات الثقافية يجب أن ينظر إليها، وخاصة من قبل الدارسين فيها، والباحثين في علم الاجتماع الثقافي والتاريخ الثقافي وتطور الحضارات والأنثروبولوجيين، كمن يحاول الوصول إلى تحليل شامل إنطلاقا من فهم المكونات الأساسية في إطار التفاعلية الرمزية بين متغيرات البحث وروابطه كبنية مساهمة في تشكيل ذلك التنوع الثقافي والتعددية اللغوية كقوة دافعة لتحقيق الأمن الثقافي واللغوي، وذلك وفق أطروحات لدى فريق من علماء الاجتماع تذهب إلى أن سلوكيات الأفراد وآراءهم مرتبطة بالبنى التي ينضون تحتها، والتي تشكل مجموعة عناصر مرتبطة ببعضها البعض بواسطة العلاقات، ولمعالجة إشكالية البحث يتم طرح الإشكالية الرئيسية التالية:

كيف ساهمت الدراسات الثقافية تاريخيا في بناء وإعادة البناء الاجتماعي

للهوية الثقافية؟

- ولمزيد من التفصيل سنقوم بطرح التساؤلات الفرعية التالية:
- كيف تطورت دراسة البنى الاجتماعية إلى دراسات ثقافية وتاريخ ثقافي؟
- لماذا تتأسس الهوية إنطلاقا من تفاعل الأنساق الاجتماعية؟
- على أي أساس تنتظم الهويات الثقافية، وكيف تتأثر مجاليا؟
- ما هي السبل (الوسائل، المؤسسات، التفاعلات) الكفيلة لتحقيق الأمن

الثقافي؟

منهج الدراسة:

ولمعالجة إشكالية الدراسة سيتم وفقا للمخطط الآتي بيانه:

أولا: الدراسات الثقافية: الأصول الفلسفية والخلفيات المعرفية.

ثانيا: الإنتاج وإعادة الإنتاج الإجتماعي للهوية.

ثالثا: العولمة وتفاعل البناء الإجتماعي المحلي مع الوافد الخارجي.

ويرجى التوصل بعد معالجة محاور الدراسة إلى النتائج التالية:

- معرفة الأصول الثقافية والخلفيات المعرفية للدراسات الثقافية.

- معرفة البناءات الإجتماعية المشكلة للهوية.

- الإنتاج وإعادة الإنتاج الإجتماعي - التفاعل والروابط -

- العولمة وأنساق التفاعلات الدولية.

- الأمن الثقافي وتكريسه محليا.

- البناء المؤسسي ودور الفاعل المحلي في الحفاظ على الهوية.

أولا: الدراسات الثقافية، الأصول الفلسفية والخلفيات المعرفية.

يتسم تعريف هذا المجال البحثي حاضرا بالتنوع، حتى وإن بقي ووفقا للعبارة

الرائقة لمؤرخ الحس والمحسوس الفرنسي ألان كوربان ولزمن طويل "من دون

إسم" فقد قابل التاريخ الثقافي تاريخ الذهنيات الذي أضحى تاريخا للتمثل أو تاريخا

جديدا بفرنسا Nouvelle Histoire وتاريخا يوميا بألمانيا Alltagsgeschichtel

وتاريخا لتقافة الشعوب Volkskunde بسويسرا ودراسات ثقافية Culturel

Studies أو منعرج ألسني LinguisticTurn أو تاريخا ثقافيا جديدا New

Culturel History بالجامعات الأنجلو أمريكية¹.

وتشي جميع هذه التسميات كل على طريقته بنظارة المبحث ضمن التقاليد

المعرفية التاريخية المتفاوتة القدم، ويعزى هذا الوضع إلى أسباب عدة لعل أبرزها

أساليب التفكير، فلكل بلد سياقاته الخاصة التي لا يمكن للمعالجة التاريخية ألا تتكيف

وفقا لخصوصياتها، غير أنه من المؤكد هو إنخراط التاريخ الثقافي ضمن معالجة

تحليل على النماذج المنهجية للعلوم الإجتماعية وأساليب البحث الأنثروبولوجي في أن، علما أن ما يشكل مصدرا لوحدرة التاريخ الثقافي حاضرا هو طموح المنتسبين إليه في توسيع دائرة الإهتمام بالتاريخ المقارن فضلا عن إنخراط هذه التوجهات التاريخية الثقافية ضمن مجال منهجي يقع على تماس علمي الإجتماع والأنثروبولوجيا²

إن للدراسات الثقافية علاقة مع التاريخ أكثر تعقيدا حتى من تلك التي تربطها بالدراسات الأدبية أو علم الإجتماع أو الأنثروبولوجيا، من الناحية الرسمية، إنها تركز على الثقافة المعاصرة على العكس من التاريخ الثقافي³، ثم إن "المعاصر"، أيضا ليس مفهوما لا يكتنفه الغموض، فأين بالتحديد ينتهي الماضي "التاريخ الثقافي" وأين يبدأ الحاضر "الدراسات الثقافية"⁴؟

ذلك سؤال صعب بخداع، وهو يزيل حدود الدراسات الثقافية، فضلا عن ذلك فإن المقولات المتعددة التي نستخدمها في تنسيق الفكر الأكاديمي وغير الأكاديمي حول الماضي وتصويراته هي تصنيفات إعتباطية على الدوام، وغالبا ما تكون سياسية ضمنا ولا يمكن للفكر النقدي التسليم بها، وأقلها مفهوم "التقدم" الذي يخيم على الفكر المعاصر حول التاريخ⁵

يتوصل صمويل هنتنغتون إلى إستنتاج مثير يشكل جوهر نظريته " صدام الحضارات وصراع الثقافات"، حيث يطرح الإشكالية الأساسية بإعتبارها ثقافية - حضارية، لأن ذلك حسبه يجعل من الثقافة سايجا للحرية، وعليه فهي تشكل إحدى قلاع " المقاومة" التي تواجه محاولات الإقتلاع أو الإندماج الكلي والتذويب في موجة الثقافة العالمية المعولمة.

قد تكون السمة الأبرز للدراسات الثقافية اليوم هي طريق توجيهها نحو العالمية - بموازاة التجارة والمال والإتصالات والنظام الجامعي إجمالا، حيث تدرس بشكل أو بآخر في معظم الأنظمة الأكاديمية الوطنية، وهذا يعني أنك، أيا كان موطنك فسوف تجد أناسا في هذا المجال يعملون في مادة تخص "ثقافة أخرى" غير ثقافتك. يشكل

هذا تحدياً. فمن ناحية مع تعولم التخصص تزداد صعوبة أخذ أي سياق ثقافي كمعيار⁶.

لقد كان مألوفاً في القرن الثامن عشر الرأي القائل أن مقدار إنتاج الثقافة - والمعرفة وتخصصها جعل من المستحيل تقديم لمحة شاملة منفردة عن المجتمع. ومع ذلك يتم في الدراسات الثقافية هذه الأيام الإحساس بهذا المعنى على أساس الخسارة أكثر منه على أساس الفوضى. على سبيل المثال، في أحد مجلدات 1998 من الدورية الرائدة «دراسات ثقافية Cultural Studies»، يمكن أن يجد المرء مقالا نقدياً أدبياً حول هاملت Hamlet وماركس، ومقالة إجتماعية حول الإستهلاكية واللوفر Louvre وقطعة تعتمد على الأرشيف حول العلم الإستعماري في جنوب الهند، ونقدا نسويًا حول نظرية «الهجنة Hybridity» الثقافية، ومقالة حول بوب مارلي Bob Marley وتخطي حدود القومية السوداء، ومقالة حول فو مانشو Fu Manchu البطل الصيني الشرير في عدد من الروايات الشعبية للكاتب ساكس رومير Sax Rohmer في بداية القرن تضعه في سياقه التاريخي، ومقالة حول سرطان الثدي و «الجهاز العام Public Body» /في الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك المقالات التأملية الذاتية حول التخصص نفسه⁷

وعلى الرغم من محاولات العولمة تحويل الثقافة إلى سلعة يتم تداولها على نطاق واسع، وخاضعة لسوق العرض والطلب والإحتكار، فإنه يمكن القول أن هناك ثلاثة مستويات لتشكيل الهوية:

المستوى الأول: الفردي فلكل فرد هويته وخصوصيته.

المستوى الثاني: الجماعي أو المجتمعي أو الجمعي (الجمعي) كما تسمى

مغاربيا، وهي تمثل المشترك للجماعة الإنسانية.

المستوى الثالث: هو المستوى الوطني والقومي.⁸

ثانيا: الإنتاج وإعادة الإنتاج الإجتماعي للهوية.

ميز توينبي وعلى مجرى التاريخ تتابع حوالي عشرين من «المجتمعات» أو «الحضارات» وقد ردد الحضارات الكبرى القائمة في القرن التاسع عشر بخمس: الغرب، الإسلام، الهند، الصين، واليابان. أما بروديل فقد قدر عدد الحضارات الموجودة بثلاث عشرة حضارة: من الحضارات الآسيوية يشير إلى اليابان والصين، كوريا، الهند الصينية شبه الجزيرة الهندية (الفلبين وأندونيسيا) الهند والإسلام⁹. كما أشار إلى حضارات أوروبية أربعة: اللاتينية، اليونانية، أوروبا الشمالية والروسية. كما لاحظ بروديل الثبات الكبير، أو تثبيت إقامة الحضارات والثقافات الكبرى. والواقع أن الكاتب الفرنسي قد قابل الثقافات بالحضارات، والحضارات عنده ثقافات كبيرة، إنها إن صح القول «جزئيات» بنيت إنطلاقا من مواد أولية، من ذرات هي «الثقافات»: والثقافة هي حضارة لم تبلغ حد النضج، لم تبلغ أوجها، أو لم تحقق نموها بعد¹⁰. وفي الإنتظار، وهو إنتظار قد يطول، تقوم الحضارات المجاورة بإستغلالها بألف طريقة وطريقة»، وهكذا إستغلت الحضارة الأوروبية ثقافات آسيا، بواسطة وكالاتها قبل أن تنتصر على حضاراتها الكبرى وتسيطر عليها. وهكذا إستعمرت أوروبا الثقافات، المجتمعات الصغرى في إفريقيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. إن القاعدة العادية هي أن «تقوم الحضارات بالمغامرة وأن تريح» أي أن تتغلب على الثقافات¹¹.

منذ نهاية القرن الثامن عشر راحت أوروبا تواجه حركة تخفيف سرعة العوالم التاريخية والثقافية، وذلك من خلال إكتشاف ثقافات متوحشة في أمريكا وأوقيانيا (الإثنولوجيا) وإكتشاف حضارات بعيدة في آسيا (الإستشراق). وإبان القرن التاسع عشر عرفت الكرة الأرضية، وفي إطار علوم الإنسان الجديدة، ظاهرة على جانب من التناقض، إنها ظاهرة التوسع والإنقباض. في البعد المكاني شهد هذا العصر النصر العسكري و / أو العلمي على آخر البقاع غير المعروفة بالنسبة للإنسان الأوروبي، كما شهد أول فنون الرسوم الخرائطية الكاملة للأرض¹².

وعلى الرغم من كل ما تقدم، ليس الإنتشار بل الحركة هي مفتاح الدراسات الثقافية العالمية، وقد أصبحت الصيغ الثقافية من هذا القبيل ذات أهمية قصوى بالنسبة إلى هذا التخصص متحركة على نحو متزايد في كل مكان، إن القول عن هذه الصيغ إنها تميل نحو الحركة عبر المسافات والحدود هو صحيح، لكنه صحيح أيضا من حيث إن علاقاتها مع ظروفها الإجتماعية والمادية (الإقتصاد والسياسة والتربية، والتكنولوجيا وهلم جرا) تتغير بسرعة كبيرة وبشكل شامل، وإن كان ذلك يتم بسرعات مختلفة وبطرق مختلفة في أماكن مختلفة¹³. وهو صحيح أيضا بمعنى أن القطاعات والأجناس ضمن الثقافات تتفاعل مع بعضها البعض ديناميكيا. فالثقافة ليست شيئا أو حتى نظاما: إنها جملة من الصفات والعمليات والتحويلات والممارسات والتكنولوجيا والمؤسسات التي تنتج أشياء وأحداثا (مثل الأفلام والقصائد أو مباريات المصارعة العالمية) يجري إكتشافها أو معاشتها وإعطائها معنى وقيمة بطرق مختلفة ضمن شبكة الاختلافات والتحويلات غير المنتظمة التي برزت منها*¹⁴.

ويعد الأمن الثقافي أحد جوانب الأمن القومي الذي يشمل أيضا الأمن الإجتماعي والعسكري والسياسي والإقتصادي. ولعل جانب الأمن الثقافي من أهم جوانب الأمن القومي، لأنه يمثل الحفاظ على الذاتية والهوية في مواجهة محاولات الإحتواء والهيمنة على الشخصية القومية، ولا شك أن الدفاع عن الوجود يكون قبل الدفاع عن الحدود¹⁵.

ويبين سامويل هنتجتون أن التناقض الذي تقع فيه القوة الجديدة المنفردة بزعامة العالم، وتتضح الحيرة العاصفة التي تسود مجتمع النخبة في الغرب، فقد كتب هنتجتون في عدد شهري نوفمبر وديسمبر 1996 من مجلة "شؤون خارجية"¹⁶ دراسة تحت عنوان مثير للغرابة فعلا: "الغرب متفرد وليس عالميا The West, Unique, Not Universal يفرق فيها بين التحديث Modernisation وبين التغريب Westernisation ويقول:

«أن شعوب العالم غير الغربية لا يمكن لها أن تدخل في النسيج الحضاري للغرب، حتى وإن استهلكت البضائع الغربية، وشاهدت الأفلام الأمريكية، وإستمعت إلى الموسيقى الغربية، فروح أي حضارة هي اللّغة والدين والقيم والتقاليد. وحضارة الغرب تتميز بكونها وريثة الحضارات اليونانية والرومانية والمسيحية الغربية، والأصول اللاتينية للغات شعوبها، والفصل بين الدين والدولة، وسيادة القانون، والتعددية في ظل المجتمع المدني، والهياكل النيابية، والحرية الفردية» ويضيف قائلاً «إن التحديث والنمو الإقتصادي لا يمكن أن يحققا التغريب الثقافي في المجتمعات غير الغربية، بل على العكس، يؤديان إلى مزيد من التمسك بالثقافات الأصلية لتلك الشعوب. ولذلك فإن الوقت قد حان لكي يتخلى الغرب عن وهم العولمة، وأن ينمي قوة حضارته وإنسجامها وحيويتها في مواجهة حضارات العالم. وهذا الأمر يتطلب وحدة الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، ورسم حدود العالم الغربي في إطار التجانس الثقافي»

فهل العولمة صيغة جديدة من صيغ المواجهة الحضارية التي يخوضها الغرب ضد شعوب الثقافات والحضارات الأخرى بالمفهوم العام للغرب West، ضد هويات الشعوب وثقافات الأمم، ومن أجل فرض هيمنة ثقافة واحدة، وإخضاع العالم للسيطرة من حضارة واحدة سامية مع حضارات وضيعة.

فالثقافات حسب جاكسن Jackson¹⁷ هي خرائط المعنى التي من خلالها يوضح العالم، وحسب ماكايون McEwan¹⁸ وهي جزء من الحياة اليومية، وهي أنظمة من المعاني المشتركة، يمكنها أن توجد على عدد من المقاييس الفضائية المختلفة (محلية، إقليمية، قومية، عالمية، بين الجماعات، أو المجموعات، أو القوميات) فهي مجسدة في العالمين المادي والاجتماعي، وهي ديناميكية بدلا من كونها ثابتة¹⁹.

فمفهوم الهوية ظهر في الأصل من خلال بعض البحوث الإثنوسيكولوجية (Ethnopsychiatrique)، وقبل أن يحتل هذا المفهوم مكانه بعمق في حقل

الأنتروبولوجية النفسية، فرض نفسه كمصطلح في البداية على علم الاجتماع وعلى علم النفس الاجتماعي، ولكن فيما يخص التفرقة بين الهوية الفردية (Identité Individuel) والهوية الاجتماعية (Identité Sociale) فيعود ذلك إلى بصفة عامة إلى علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا²⁰

أما الصفات الثقافية فهي عناصر فردية للمركب الثقافي. مجموعة من الأشخاص يتميزون بامتلاكهم مجموعة فريدة ومتنوعة من الصفات قد تسمى جماعة ثقافية، الصفات هي بناء كتل من الثقافة، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مقولات:

- إجتماعية- أشكال التفاعل، والقوانين والتنظيمات.

- إيديولوجية -الدين، والسياسة وأنظمة المعتقد غير العلمانية.

- تكنولوجية - قدرات وأنظمة تقنية تؤدي إلى البنيات التحتية.

في إقتفاء أثر جغرافيات عولمة الثقافة نحتاج إلى فحص تمدد هذه الصفات عبر الفضاء والزمن من خلال الشبكات الاجتماعية وما ينتج عنها من آثار على «المشاهد» الثقافية.

وعليه فالهوية الثقافية هي نظام من القيم والتصورات التي يتميز بها مجتمع ما تبعا لخصوصياته التاريخية والحضارية، وكل شعب من الشعوب البشرية ينتمي إلى ثقافة متميزة عن غيرها، وهي كيان يتطور باستمرار ويتأثر بالهويات الثقافية الأخرى، ولهذه الأخيرة مستويات ثلاث هوية فردية، هوية جماعية وهوية وطنية²¹.

إن تأثير العولمة في المشاهد الثقافية هو وظيفة ترابط ذلك المشهد بالشبكات العالمية بالإضافة إلى مصادفات جغرافية وتاريخية كونت حتى الآن ذلك المكان، وتبقى كل المشاهد الثقافية فريدة ولكنها أكثر تعقيدا وهجنة مما كانت عليه من قبل، هذه المشاهد الثقافية المعولمة الجديدة، وإلى حد أقل الثقوب السوداء في الشبكات الجديدة هي التي تشكل أساس كثير من البحث في الجغرافيا الثقافية المعاصرة²².

وبهذا تتجاوز الهيمنة الأمريكية الجانب الإقتصادي والسياسي إلى الجانب الثقافي، بما يعنيه ذلك من تعميم للقيم النفسية والسلوكية والعقائدية الأمريكية على الأدواق والسلوكيات والأعراف التي تشكل، فضلا عن إلى الأديان والعقائد، فالمنظومة المتكاملة للخصوصية الحضارية لباقي الشعوب في العالم، مما يعني أن الأمر يتعلق ببيديولوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالم وأمركنته على حد تعبير الدكتور عابد الجابري، فهي تعمل على تعميم نمط حضاري يخص بلدا بعينه هو الولايات المتحدة الأمريكية، بالذات على بلدان العالم أجمع²³.

ثالثا: العولمة وتفاعل البناء الإجتماعي مع الوافد الخارجي.

ويرى جان نيدرفينبيرتس في كتابه "العولمة والثقافة: المزيج الكوني"، أن العولمة تلازمت والتوجه نحو ترابط عالمي متزايد، مع عدة مفاهيم متضاربة للإختلاف الثقافي، فالوعي العام بأن العالم «يصبح أصغر» والوعي بالإختلاف الثقافي ينحسر تزامنا مع حساسية متزايدة للإختلاف الثقافي، إن البروز المتنامي للإختلاف الثقافي، يشكل جزءا من تحول ثقافي عام، يشمل إنعكاسية ذاتية للحدثة، لقد أخذ التحديث يتحرك كآلة ساحقة، تمحو التنوع الثقافي والبيولوجي في طريقها، والآن لم تعد المكتسبات (الترشيد، التوحيد والسيطرة) تظهر وحدها بل والخسائر أيضا (الإغتراب، خيبة الأمل، الإزاحة)، فقد مثل القضاء على التنوع الثقافي شكلا من أشكال خيبة أمل العالم، ومع ذلك يرى جان نيدرفينبيرتس المثير للإهتمام أن نلاحظ كيف أن مفهوم الإختلاف الثقافي إكتسب شكلا مختلفا. لقد إعتاد أن يأخذ شكل الفروق القومية: كما هو الحال في المناقشات المألوفة للشخصية أو الهوية القومية، لكن أشكالا مختلفة من الإختلاف أنت الآن في المقدمة: كالجنس والهوية السياسية والحركات الدينية والعرقية وحقوق الأقليات والسكان الأصليين. يتمثل نقاش آخر في أننا نعيش " صدام حضارات "، وحسب هذه الرؤية فإن الفروق الثقافية تعتبر ثابتة ومولدة للتنافس والصراع. وفي نفس الوقت هناك فهم شائع مفاده: أن الترابط العالمي المتزايد يؤدي إلى تزايد توحيد المقاييس والمعايير

الثقافية: كما هو الحال الإكتساح العالمي للنزعة الإستهلاكية، والصورة المختصرة لهذا الزخم هي الماكدونالية، اما الموقف الثالث فهو مختلف تماما عن هذين النموذجين للعلاقات الثقافية، حيث يرى أن ما يحدث هو عملية من المزج الثقافي أو التهجين بين الأماكن والهويات.

وفي كتابه «الثقة» يستند «فوكوياما Fukuyama» على مفهوم وضعه «جيمس كولمان James Coleman» وهو مفهوم «رأس المال الإجتماعي» ويميزه عن الرأسمال البشري فهذا الأخير يتكون من المدارس والمعاهد والجامعات، التي تعد المنتجين في المجالات الإقتصادية والخدمات والمهن والإدارة، أما الرأسمال الإجتماعي فهو رصيد متوارث من القيم والأخلاقيات، ودراية تكتسب وتتناقل من الأسرة والمجتمع يتوافق عليها ويتعامل عليها في العلاقات والمعاملات وهذا كله رأس مال إجتماعي يأتي من التربية التي توفرها الأسرة من رصيد القيم والسلوك في المجتمع²⁴، فالثقافة أو الرأسمال الإجتماعي حسب فوكوياما هي محصلة من المعارف والقيم وهذه المعارف تتوارث في المجتمع يتلقاها الفرد في الأسرة وفي علاقته بالمحيط، وبناء عليه ترسم ملامح خصوصيته المجتمعية وتتحدد بناء عليه هويته التي تميزه عن أنماط الهوية الأخرى.

ويمكن أن نجد الهوية من مجسدة ضمن ثلاث مستويات الدولة، الأمة والجماعة مضافا إليها القومية ضمن الإطار الإقليمي للدول التي تتمتع بخصائص هوياتية مشتركة لكنها دول قطرية مستقلة عن بعضها البعض، وعادة ما تقترن الهوية بال "أنا"، لكن لا يمكن فصلها عن هوية النخبة حسب نوربير إلياس، ولذا يرى المؤرخ البريطاني ألفريد كروز أن " القليل من المفاهيم هي التي حظيت بالتضخم والإهتمام الأكاديمي مثل الهوية، حيث شكلت في وقت ما يقينا بأنها حل لكل معضلات الوقت الحاضر ".

عقد الدكتور جلال أمين في كتابه العولمة فصلا بعنوان (العولمة والهوية الثقافية)، وحدد فيه مدلول الهوية الثقافية فقال: "الهوية معناها في الأساس التفرد،

والهوية الثقافية هي التفرد الثقافي بكل ما يتضمنه معنى الثقافة من عادات وأنماط سلوك وميل وقيم ونظرة إلى الكون والحياة²⁵

وتتحدد الهوية الثقافية في مجموعة من المقومات الأساسية المتجسدة في²⁶:

- اللغة الوطنية واللهجات المحلية المرتبطة بوجود شعب ما وتطوره ومصيره على أساس أن تكون اللغة الوطنية معتمدة في التدريس على جميع المستويات، وفي التسيير الإداري، وفي القضاء، إضافة إلى التواصل بين شرائح المجتمع إلى جانب اللهجات المحلية.

- القيم الدينية والوطنية المتكونة عبر العصور والتي تكسب الشعب حامل الهوية حصانة تحول دون ذوبانه في شعوب أخرى، وتؤهله لمقاومة كل محاولات التذويب مهما كان مصدرها.

- العادات والتقاليد والأعراف النابعة من تلك القيم والحاملة لها والعاكسة لمستوى الشعب حامل الهوية الإقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي.

- التاريخ النضالي الذي ينسج ذلك الشعب حامل الهوية من أجل المحافظة على هويته أرضا وقيما، وعادات وتقاليدا وأعرافا.

وتعتبر المجتمعات الافتراضية مجالا متخيلا حسب تشارلز تايلر للفرد أو متخيلا إجتماعيا، أي بإمكانه أن يقدم نفسه كما يشاء وعلى النحو الذي يريده في مقابل إنسحاب إجتماعي من المجتمع الواقعي الذي ينتمي إليه، حيث يتعذر عليه ذلك لإعتبارات عدة منها المستوى التعليمي والمركز الإجتماعي، حتى أن بعض العلماء أطلقوا على العوالم الافتراضية إسم "ورشات الهوية Identitywork" حيث يتم التعبير عن هوية قد لا ترتبط بالواقعية.

مفهوم الثقافة مفهوم «محيط» للغاية، لدرجة أنه يمكن النظر إليه بسهولة بإعتباره المستوى الأمثل للتحليل، أليس كل شيء "ثقافيا" في النهاية؟ حسنا، لا، أو، على الأقل أنه لا يفيدنا على الإطلاق أن نفكر بالثقافة بهذه الطريقة، بإعتبارها مجرد وصف لثمة "تمط كلي للحياة". لأن هذا كما وصفه كليفور دجيرتز ذات مرة

بصورة لا تنسى، يؤدي إلى تنظير "حسائي*" أي رمي أي شيء وكل شيء في
اليدنة Stew المفاهيمية التي يمثلها ذلك "الكل المعقد" للوجود الإنساني²⁷
وعلى المستوى الثقافي الإتجاه إلى تحديد ثقافتنا وإغناء هويتنا، والدفاع عن
خصوصياتنا، ومقاومة الغزو الثقافي الذي يمارسه المالكون للعلم والتكنولوجيا،
وهذا لا يقل عن حاجتنا إلى إكتساب الأسس والأدوات التي لابد منها لممارسة
التحديث ودخول عصر العلم والتكنولوجيا، فنحن بحاجة إلى التحديث، أي إلى
الإخراط في عصر العلم والتكنولوجيا كفاعلين مساهمين، ولكننا في الوقت نفسه
في حاجة إلى مقاومة الإختراق وحماية هويتنا وخصوصيتنا الثقافية من الإنحلال
والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع بالوسائل
العلمية والتكنولوجية، وليس هاتان الحاجتان الضروريتان متعارضتين بل
متكاملتين²⁸.

والمجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات العربية والإسلامية التي تعاني
بدورها من خطر العولمة الثقافية، فالمسألة الثقافية في المجتمع الجزائري تبدو
شائكة لبعض الدارسين نظرا لتعدد الثقافي الموجود فيه، فالمنتبع لواقع الهوية
الثقافية الجزائرية يلاحظ كما ذكرنا سابقا أنها متعددة الأطراف ومتشعبة الأطراف،
فعلى الرغم من تنوعه الثقافي إلا أنه قائم على في إطار وحدة ثقافية وطنية
واحدة، فالقبائلية والشاوية والمزابية والتارقية... ليست ثقافات منغلقة ومعيقة
للتحديث والوحدة والتحول، بل هي واحدة من المكونات الأساسية للهوية الوطنية
ولا يحق لأي جهة إحتكارها هذه الأخيرة التي تبدو في صور عدة منها الهوية
المستمرة وهي الخطوط الكبرى التي تتناقل جيلا بعد جيل ويكون المجتمع هو ذاته
لا الآخر، أما الهوية المتحولة فتتشكل بواسطة التأثيرات التي تتلقاها ولكن تتحول
عموما داخل الإستمرار ذاته²⁹.

إن التسامح أمر لا غنى عنه للعلاقات السلمية في أي مجتمع، وعندما يتحول
التسامح إلى إحترام متبادل، وهي صفة أكثر إيجابية، فإن نوعية العلاقات ترتقي

بشكل واضح، ومن ثم فإن الإحترام المتبادل يشكل أساساً لإقامة مجتمع إنساني تعددي*، وهو نوع المجتمعات الذي يمثله الجوار العالمي ذاته، لا يتميز بالإستقرار فحسب، بل بإحترام تنوعه الذي يغنيه³⁰.

الهوية الثقافية وتحديات العولمة

الرفض المطلق للعولمة لن يُمكن الدول والمجتمعات من تجنب مخاطرها، كما أن القبول المطلق لها لن يمكنها من الاستفادة التامة منها.

نجاح أي بلد من البلدان النامية، في الحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية، من خلال الإمكانيات التي توفرها العولمة.

أكثر من 65 ألف شركة متعددة الجنسيات تزيد قيمة رأسمالها عن ميزانية مجموعة من الدول النامية

ثقافة العولمة الغربية ترمي لسيطرة الثقافة الغربية بزعمة مواكبة الاتجاه العولمي ومسارته

العولمة وسيلة لجعل النظام الرأسمالي مقبولاً لدى سائر الشعوب وأداة لإخضاع عقولهم



أدوات مواجهة العولمة

- ⊙ العقيدة والأخلاق
- ⊙ إصلاح الأوضاع السياسية الداخلية
- ⊙ تطوير سياسات التكامل الإقليمي
- ⊙ وضع خطط تنمية اقتصادية وإنشاء سوق عربية مشتركة
- ⊙ صياغة برامج لتحديد الثقافة العربية وإغناء هويتها

مؤيدو العولمة

- 1 اختصار المدى الزمني الذي يفصل بين كل ثورة صناعية وأخرى
- 2 الاعتماد على نتائج العقل البشري وعلى حصيلة الخبرة والمعرفة

معارضو العولمة

- 1 تغيير البنية الأساسية لمكونات الحياة على مختلف المستويات
- 2 زيادة معدلات البطالة وانخفاض الأجور وتقليص دور الدولة

رسم الهوية الثقافية وتحديات العولمة المصدر: مركز الجزيرة للدراسات

الخاتمة:

إن تفاعل وإرتباط عناصر اللغة والثقافة والهوية المشكلة للهوية الثقافية تشمل علاقات السلطة أو وظيفة السلطة في المجتمع التي تتمثل في تحديد المؤثرات المحلية (مقومات الهوية الوطنية: الإسلام والعروبة والأمازيغية)، والعمل على ترقيتها وتمييزها كموارد محلية تسهم في تحقيق الأمن الثقافي، والعمل على الإدماج في المنظم الدولي وإستقبال المؤثرات كروافد خارجية تسهم أثناء تفاعلها مع سلطة إنتاج الواقع المحلي، من خلال آليات الإستقطاب لتيارات العولمة الثقافية التي تعمل على نزع الخصوصيات الوطنية، حيث تعتبر العولمة الثقافية كهوية قاتلة على المستوى العام للنظام الإجتماعي والثقافي، وتعمل على فسخ ديناميكية الأنساق الإجتماعية المحلية من خلال فهمها لإنتظام روابط القوة الداخلية، وحسب إيزنشتادت Eisenstadt تعمل على الكشف أكثر فأكثر، في جدول الممكنات التي يفريدها مجال التعالي والتفوق، والأخلاق، من حيث هي جزء من السلوك الفردي في تطوره فتشكل الهوية الثقافية يعتبر سابقا لتشكل الأمن الثقافي وسابقا لتشكل حتى المركز والسلطة، وحيث أن السلطة هي الموجه والمنظم للبناءات الإجتماعية وجب عليها تكريس الأمن الثقافي لتحقيق الإنسجام المجتمعي والتنمية الوطنية من خلال خلق آليات مؤسسية تعمل على تحليل عمليتي إنتاج وإعادة إنتاج المجتمع، وذلك بالإعتماد على وسائل ومداخل التفاعل المتواصلة بين الفاعلين الأساسيين المحليين في بنية لا تعتبر نهائية التشكل، وهي حسب أنتوني جيدنز ثلاثة أنماط لإنتاج التفاعل وهي صياغة المعنى والأحلاف والتوافقات وعلاقات السلطة، خصوصا في المجتمع الجزائري حيث عرفت الأنساق الاجتماعية عبر مراحل تعاقب فترات تكوُّنه التاريخية قطائع وانهيارات للمركز السياسي المحلي.

الهوامش والإحالات

- ⁽¹⁾ لطفي عيسى " أي تاريخ ثقافي لمجال المغرب؟"، مجلة ضفة ثالثة منبر ثقافي عربي، 29 سبتمبر 2017، www.alaraby.co.uk/diffah/herenow/2017/9/29/ مغارب-لمجال-ثقافي -تاريخ-أي، تم التصفح في 30 سبتمبر 2017.
- ⁽²⁾ لطفي عيسى " أي تاريخ ثقافي لمجال المغرب؟"، المرجع السابق.
- ⁽³⁾ سايمون ديورنغ **الدراسات الثقافية: مقدمة نقدية**، ترجمة: ممدوح يوسف عمران، (سلسلة عالم المعرفة)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2015، ص91.
- ⁽⁴⁾ سايمون ديورنغ، المرجع نفسه، ص 92.
- ⁽⁵⁾ سايمون ديورنغ، المرجع نفسه، ص 92.
- ⁽⁶⁾ سايمون ديورنغ، المرجع نفسه، ص21.
- ⁽⁷⁾ سايمون ديورنغ، المرجع نفسه، ص 22.
- ⁽⁸⁾ عبد الحسين شعبان، **الهوية والمواطنة: البدائل الملتبسة والحدائث المتعثرة**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2017، ص 17.
- ⁽⁹⁾ جيرارد ليكلرك، **العولمة الثقافية: الحضارات على المحك**، ترجمة: جورج كتورة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت لبنان، ط 1، ص 38.
- ⁽¹⁰⁾ جيرارد ليكلرك، المرجع نفسه، ص 38.
- ⁽¹¹⁾ جيرارد ليكلرك، المرجع نفسه، ص 39.
- ⁽¹²⁾ جيرارد ليكلرك، المرجع نفسه، ص 31.
- ⁽¹³⁾ سايمون ديورنغ، الدراسات الثقافية، المرجع السابق، ص23.
- ⁽¹⁴⁾ سايمون ديورنغ، الدراسات الثقافية، المرجع السابق، ص23.
- مرة أخرى، يعزف هذا النموذج على وتر قديم فأساس هذا الفهم للثقافة يظهر أولاً في عمل الفيلسوف فريديريك نيتشه Friedrich Nietzsche في نهاية القرن التاسع عشر، وإضافة إلى إهتمامه بالثقافة، كان نيتشه 1844-1900 مهتماً باللغة والدين والأخلاق أيضاً)
- ⁽¹⁵⁾ محمود محمود النجيري، **الأمن الثقافي العربي: التحديات وآفاق المستقبل**، دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، العربية السعودية الرياض، 1991، ص 15.
- ⁽¹⁶⁾ (Samuel Huntington, The West, Unique, Not Universal –ForeignAffairs , Vol. 75, N6, Nov/Dec, 1996 , pp.28-46

⁽¹⁷⁾ للمزيد حول الموضوع يرجى مراجعة Jackson Peter, Maps of Meaning, London, 1989, UnwinHyman. ولنفس المؤلف

Consumption in a GlobalizingWorld, in Johnston,

R,J,andWatts,M,(eds),Geographies Of Global Change,Oxford, 2002 ,Blackwell.

⁽¹⁸⁾ (W., Bradshaw,M,J.,Shaw,D.J.B.andSidaway J,D,(eds),HumanGeography: Issues for the 21st Century ,2002,London ,Pearson Education. ,in Daniels, P,McEwan Cheryl,Geography ,culture,and global change

⁽¹⁹⁾ ورويك موراي، جغرافيات العولمة: قراءة في تحديات العولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية، ترجمة: سعيد منتاق، الطبعة الأولى، سلسلة عالم المعرفة، العدد 397، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2013، ص 268.

⁽²⁰⁾ يوسف زناتي، الهوية الثقافية في الموسيقى الجزائرية: فرقة نجوم الصف - سبدو - تلمسان أنموذجاً، ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية، جامعة أوبكر بلقايد تلمسان، 2009-2010، غير منشورة، ص 32.

⁽²¹⁾ جمال نصار، " الهوية الثقافية وتحديات العولمة "، قضايا (مركز الجزيرة للدراسات) قطر، 28يناير /كانون الثاني 2015، ص 1.

⁽²²⁾ ورويك موراي، جغرافيات العولمة، المرجع السابق، ص ص 270-271.

⁽²³⁾ نائر رحيم كاظم، " العولمة والمواطنة والهوية: بحث في تأثير العولمة على الإنتماء الوطني والمحلي في المجتمعات "، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، كلية الآداب، جامعة القادسية، العراق، العدد 1، المجلد 8، 2009، ص 265.

⁽²⁴⁾ شرقي رحيمة، " الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة "، مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، العدد الحادي عشر، جوان 2013، ص 192.

⁽²⁵⁾ السيد محمد الديب، " العولمة والهوية الثقافية "، ندوة (الثقافات المحلية في ظل العولمة)، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، قسم الأنثروبولوجيا، جامعة القاهرة، القاهرة مصر، 2003، ص 6.

⁽²⁶⁾ أسماء بن تركي، " الهوية الثقافية بين قيم الأصالة والحداثة في ظل التغيرات السوسيو ثقافية للمجتمع الجزائري "، مجلة العلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، عدد خاص بالملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الإجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري، ورقلة الجزائر، 2011، ص 632.

- ⁽²⁷⁾ جون توملينسون، العولمة والثقافة: تجربتنا الإجتماعية عبر الزمان والمكان، ترجمة (إيهاب عبد الرحيم محمد)، ص 26.
- * "pot-au-feu": البوتفو: حساء فرنسي مكون من لحم وخضر ومن أرز أو بطاطس.
- ⁽²⁸⁻ جمال نصار، " الهوية الثقافية وتحديات العولمة "، المرجع السابق، ص 8.
- ⁽²⁹⁾ على غربي، الهوية الثقافية الجزائرية، المرجع السابق، ص ص 194، 195.
- بخصوص الموضوع يرجى الإطلاع على تقرير لجنة " إدارة شؤون المجتمع الدولي " بعنوان «جيران في عالم واحد» الصادر سنة 1995، عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 201، من سلسلة عالم المعرفة، مراجعة عبد السلام رضوان.
- ⁽³⁰⁾ عبد العزيز بن عثمان التويجري، الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الأيسيسكو، ط 1، المملكة المغربية، 2015، ص 13.

التعدّد اللّغوي عبر وسائل الإعلام الجزائرية ودوره في تعزيز الانسجام الاجتماعيّ

أستاذة مكيري مالية

ج. الجيلالي بونعامة، رخميس مليانة

تمهيد:

تعتبر اللّغة إحدى الركائز الأساسية لوسائل الإعلام على إختلاف أشكالها من صحافة، إذاعة، تلفزيون، سينما ومسرح، فمختلف هذه الوسائل لا يمكنها أن تؤدي الدور المنوط بها والوظائف الملقاة على عاتقها إلا بمساعدة اللّغة التي هي وسيلة وأساس للتعبير عن الأخبار وإيصالها إلى أفراد الجمهور، فاللّغة أداة الإعلام وبها يتواصل مع الجمهور المستهدف بالرسالة الإعلامية، لذا كان لزاماً على وسائل الإعلام الموازنة بين أداتها اللغوية ومستوى مستخدمي هذه اللّغة إذا أرادت أن تؤدي مهمتها وتحقق هدفها، وتحوز رضا الجمهور وتجذبه إليها وتشجعه على متابعتها.

وهذا الأمر ينطبق على وسائل الإعلام بالجزائر لاسيما وأن هذه الأخيرة تتمتع بتعدد اللّغات فهي تتضمن إلى جانب اللّغة العربية بمستوياتها الفصح والعامي كلا من اللغتين الأمازيغية والفرنسية، ما تنجم عنه تبني وسائل الإعلام لمختلف هذه اللّغات في إعداد و بث برامجها الإعلامية والإخبارية فنجد قنوات ناطقة باللّغة العربية وأخرى الفرنسية والأمازيغية وأخرى بالإنجليزية، وهذا قصد تلبية مختلف رغبات الجمهور ومخاطبته وإيصال له الرسائل الإعلامية باللّغة التي يستوعبها، فضلا عن التعريف بمختلف عادات وتقاليد مختلف الفئات الاجتماعية الذي تتعدد اللهجات التي يتحدث بها عبر ربوع القطر الجزائري.

حيث تسعى الدراسة إلى تقصي دور تعدد اللّغات عبر مختلف المحطات التلفزيونية الجزائرية في تعزيز الانسجام الاجتماعيّ بين أفراد المجتمع مع أخذ عينة

من الشباب كعينة للدراسة، وسنعمد على تناول هذه الدراسة بإتباع الخطة التالية:
المحور الأول: ماهية التعدد اللغوي وبعض نماذجه على المستوى العالمي والعربي والجزائري.

1- التعدد اللغوي: مفهومه، أسبابه وأنواعه.

قبل التطرق إلى تحديد تعريف للتعدد اللغوي لابد من التوقف عند مفهوم اللّغة وتقصي معناها.

➤ مفهوم اللّغة:

لقد اختلف العلماء في تعريف اللّغة بتعدد المذاهب البحثية التي ينتمون إليها فضلا عن ارتباط اللّغة بكثير من العلوم، وأول من عرف باللّغة أبو الفتح عثمان بن جني في كتابه "الخصائص" مفاده أن اللّغة هي عبارة عن أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم¹، كما عرفها ابن حزم بأنها "ألفاظ يعبر بها عن المسميات، وعن المعاني المراد إفهامها، ولكل أمة لغتهم"، وفي تعريف آخر مفاده أن اللّغة هي عبارة عن نظم متوافقة من الرموز الصوتية الإرادية العرفية لتلبية الاحتياجات الفردية والاجتماعية²، وفي تعريف آخر يرى اللّغة على أنها « نظام إنساني من الرموز الصوتي متفق عليه - كل في بيئته - للتعبير عن المعنى والاتصال، ويتعدد بتعدد بيئات الإتفاق»³.

وحسب دائرة المعارف البريطانية تعرف اللّغة بأنها "نظام من الرموز الصوتية"، أما دائرة المعارف الأمريكية فتعرفها على أنها عبارة عن نظام من المعلومات الصوتية الإصطلاحية، واللّغة حسب رأي بعض علماء الغرب ومنهم دي سوسور هي "كل ما يمكن أن يدخل في نطاق النشاط اللغوي، من رمز صوتي، أو كتابي أو إشارة، أي أن اللّغة تعني الكيان العام الذي يضم النشاط اللغوي الإنساني في صورة ثقافية منطوقة أو مكتوبة، معاصرة أو متوارثة"⁴.

كما تعرف على أنها «أصوات وألفاظ وتراكيب تسير وفق نظام خاص بها، لها دلالات ومضامين معينة، يتصل بها الناس فيما بينهم ويعبرون بها عن حاجاتهم

الجسدية وحالاتهم النفسية، ويستخدمونها في أنشطتهم الفكرية والعلمية، ويحفظون بها تاريخهم وتراثهم وعلومهم»⁵.

ومنه يمكن القول أن اللغة عبارة عن نظام صوتي يمتلك سياقاً اجتماعياً وثقافياً له دلالاته ورموزه وهو قابل للنمو والتطور يخضع في ذلك للظروف التاريخية والحضارية التي يمر بها المجتمع، حيث أن اللغة عبارة عن نسق من الرموز والإشارات التي يستخدمها الإنسان بهدف التواصل مع البشر والتعبير عن مشاعره وإكتساب المعرفة، كما تعد اللغة إحدى وسائل التفاهم بين الناس داخل المجتمع.

فالإنسان لا يعيش بمفرده وإنما في إطار جماعات تربطه بهم روابط متعددة من النسب والجوار وغيرها من الروابط الاجتماعية والمصالح، وبذلك هو في أشد الحاجة إلى أن يتفاهم مع هذه الجماعات، وفي سبيل الوصول إلى هذا التفاهم المنشود إتخذت البشرية من الإشارات والحركات والأصوات والرموز وسائل تعين على تحقيق هذا التفاهم بينها، ثم انتهت هذه الجهود المتصلة باستخدام اللغة وسيلة لهذا التفاهم ومن هنا بدأت تتطور لغات خاصة بكل مجتمع.

وفي ظل عصرنا الحالي الذي يتميز بتعدد أساليب الإتصال والتواصل بين الأفراد والأمم من مختلف أنحاء المعمورة لاسيما مع تعدد الثقافات ووسائل الإتصال، نجد أن الفرد أصبح مطالب بأن يتقن أكثر من لغة إضافة إلى لغته الأم حتى يتعامل مع مختلف الأفراد.

1-1- تعريف التعدد اللغوي:

يمكن تعريف التعدد اللغوي على أنه ظاهرة خاصة بالمتكلم الفردي الذي يستعمل لغتين أو أكثر، أو الجالية التي تستعمل لغتين أو أكثر، أو بين الذين يتكلمون لغات مختلفة متعددة، وهناك فريق من الباحثين من يعرفون التعدد اللغوي على أنه الوضع اللغوي لشخص ما أو لجماعة بشرية معينة تتقن لغتين أو أكثر، كما يرى فريق آخر من الباحثين أن التعدد اللغوي هو عملية تلاؤم الأفراد مع وجود أشخاص في مجتمعهم يتكلمون لغة أخرى⁶.

ونقصد بالتعدد اللغوي إجادة الفرد للغات متعددة، بمعنى أن يمتلك القدرة على إتقان وإستعمال أكثر من لغة واحدة، وقد يكون هذا التعدد في شكل إتقان الفرد للغته الأم ولغة ثانية مغايرة لها، ويكون ذلك عبارة عن مقدرة وجهد ذاتي لتعلم هاتيه اللغات قصد التعامل بها والتواصل مع الآخرين قصد التعلم أو ممارسة نشاط تجاري أو مهني معين، كما قد يكون في كثير من الأحيان التعدد اللغوي سلوك عادي يمكن لأي شخص أن يتصف به لمجرد حفظه لمقاطع لغوية متنوعة وفهمه لكيفية استخدامها لقضاء حوائجه، مثل السائح أو المتجول الذي يجب بلدان ذات لغات مختلفة وهو يحاول أن يتعلم بعض المصطلحات والمفردات من لغة ذلك البلد من أجل التواصل مع أفراداه والإستفسار عما يريده.

ومن أسباب التعدد اللغوي تدفق السكان من بلد لأخر سواء عبر الهجرة أو الرحلات لعوامل متعددة منها التجارة، طلب العلم، البحث عن معيشة أفضل، كما أن الغزو العسكري يعد سبب آخر من الأسباب التي أدت إلى ظهور التعدد اللغوي في العالم.

1-2- مظاهر وأنواع التعدد اللغوي:

بالإمكان التمييز بين تعدد اللغات من الناحية الوظيفية على النحو الآتي:

1- تعدد اللغات على المستوى الشخصي: فالشخص المتعدد اللغات هو الذي يتكلم لغتين أو أكثر سواء أكان هذا الشخص نشيطا من خلال الكلام والكتابة أم سلبيا من خلال الاستماع والقراءة.⁷

2- تعدد اللغات على المستوى المجتمعي أو الحكومي: وهو عندما تكون للدولة أكثر من لغة رسمية واحدة دون أن يكون الشعب متعدد اللغات، أو عندما تكون مجموعة من أفراد مجتمع ما يتكلمون أكثر من لغة، هذا المجتمع أو هذه الحكومة تسمى متعددة اللغات.⁸

3- تعدد اللغات على المستوى المؤسساتي: ويتجلى هذا النوع عندما يتم اعتماد لغة معينة كوسيلة لممارسة بعض النشاطات بحيث يمكنها أن تصبح لغة مشتركة مثلا في مجال التجارة أو التعليم أو للإدارة، كما هو الحال بالنسبة للغة الفرنسية والإنجليزية الإسبانية والإيطالية وكذا الروسية التي تدرس كلغة ثانية على نحو واسع جدا في عديد من دول العالم.

وينبغي الإشارة إلى ضرورة التفريق بين الأحادية اللغوية والثنائية اللغوية والازدواجية اللغوية والتعدد اللغوي وذلك على النحو التالي⁹:

لـ الأحادية اللغوية: هي الاقتصار على لغة واحدة على مستوى التخاطب والقراءة وترسيم تلك اللغة كلغة وطنية رسمية للبلاد وهذا لا يعني إبعاد اللغات الأخرى من محيطها وثقافتها، فالأحادية اللغوية هي خلق فضاء رسمي وطني واحد على مستوى التخاطب والتعامل وبناء الهوية والوحدة الإدارية والثقافية، دون إهمال الإفتتاح على فضاءات لغوية أخرى في خطوة ثانية نحو ربط العلاقات والشراكات والاتفاقات، علما أن بعض الدول تعترف بأكثر من لغة رسمية داخل وطنه.

لـ الثنائية اللغوية: هي تعلم لغة ثانية إضافة إلى اللغة الأم، ويستوجب تعلم لغة ثانية على مستوى التعلم والتعليم والتنقيف، والحقيقة أن الشخص ثنائي اللغة هو ذلك الذي يتقن لغتين وقد تتفاوت نسبة إتقان الفرد للغتين معا بنفس المستوى، كما تعبر الثنائية اللغوية عن تلك الحالة التي يستخدم فيها المتكلمون بالتناوب وحسب البيئة والظروف اللغوية لغتين مختلفتين، فالفرد ثنائي اللغة بذلك هو فرد يمتلك عدة لغات تكون مكتسبة كلها كلغات أم¹⁰.

وتتنوع الثنائية اللغوية منها المرتبط بالوطن ومنها المرتبط بالإقليم والمحلية، ومنها المرتبط بالأقليات العرقية ومنها الثنائية اللغوية المؤسسية وسنتناول مفهوم كل نوع على حدى وهي كالآتي:

أ- الثنائية اللغوية على صعيد الوطن: وتعتبر عن اعتماد الدولة لمستويات مختلفة في التعبير ويتجلى ذلك في اعتماد مؤسساتها للغتين مختلفتين أو أكثر في

تأمين خدماتها والتواصل بينها وبين مؤسسات أخرى، وكذا في صياغة قوانينها، وضبط نظامها والتواصل بين عمالها.

ب- الثنائية اللغوية الإقليمية أو المحلية: وتعبر عن وجود مستوى لغوي آخر عدا المستوى الرسمي منتشر في مجال إقليمي من الدولة يخالف المستوى اللغوي المعتمد في الدولة بشكل رسمي مختلف في بنيته الصوتية والنحوية والصرفية عن المستوى الذي تعتمده الدولة.

ت- الثنائية اللغوية الخاصة بالأقليات العرقية: وهي تعبر الثنائية عن الحالة التي تسعى فيها الدول إلى استيعاب الأعراق المختلفة باعتماد لغة قومية يعتمدها جميع أفراد المجتمع بينما تحافظ الأقليات العرقية على لغتها الأصلية من خلال التواصل داخل البيت أو ضمن التجمعات الخاصة بها، وبالتالي فهي تجمع بين مستوى النظام اللغوي القومي والنظام التواصلية العرقي الخاص بها¹¹.

ث- الثنائية اللغوية المؤسسية: وهي ثنائية تعتمد لغة معينة كوسيلة مشتركة للتجارة أو للتعليم أو لبعض النشاطات.

لـ الإزدواجية اللغوية: يتجلى مفهوم الإزدواجية اللغوية في الشخص الذي يتقن لغة ثانية بدرجة متكافئة مع لغته الأصلية، ويستطيع أن يستعمل كلا من اللغتين بالتأثير والمستوى نفسه في كل الظروف¹²، هذا المفهوم يشير إلى تلازم الإزدواجية اللغوية وإتقان مستويات لغتين مختلفتين بالدرجة نفسها، وفي شتى المواقف، وهو ما يجعل الإزدواجية تعبر عن تحكم في بنية لغتين والتعبير بهما بالمستوى نفسه عن الأغراض والحاجات.

ولقد ميز فرجيسون (Fergusson) في مستوى الإزدواجية بين استعمال لغتين مختلفتين كالعربية والفرنسية مثلا، أو استعمال لغة إلى جانب لهجة من لهجات تلك اللغة، مستشهدا بوضع أغلب الدول العربية في الفترة المعاصرة، ووسم ذلك الوضع بالثنائية اللغوية (Diglossie)، وقد حلل فرجيسون التعدد اللغوي في بعض البلدان العربية باعتباره ازدواجية لغوية عربية وإسبانية، أو عربية وفرنسية، أو

عربية وأمازيغية، كالمغرب الأقصى، مثلا، إلى جانب ثنائية لغوية عربية وعامية مثلا وهو سلوك نلاحظه ونطبقه في حياتنا اليومية¹³.

إذا الإزدواجية اللغوية تشير إلى تقابل شكلين لغويين أو نمطين يعودان للغة واحدة كاللغة العربية بفصاحتها وعاميتها، بينما تشير الثنائية اللغوية إلى ضرورة وجود لغتين تتعايشان معا إلا أن هناك تفاوت بينهما من حيث مستوى إتقانها لدى الفرد ومدى إستعماله تلك لغة في تعاملاته اليومية.

2- التعدد اللغوي بين التنوع الثقافي وبناء مجتمعات متفتحة:

تعتبر اللغة وسيلة ناقلة للمعرفة في كل العصور والأزمنة فكم من علوم تم التعرف عليها عن طريق الترجمة فأفادت الأمم أفرادا وجماعات، وكم من الشؤون تم قضاؤها عن طريق المعرفة الحقة للغة الغير فأبليت البلاء الحسن، فالمجتمعات لا تحي ولا يمكنها أن تستمر دونما تبادل وحوار فيما بينها، كما أنه بدون وسيلة للتواصل وتبادل الحوار لا يمكننا أن نتعرف على ثقافتنا وهويتنا وأنفسنا كما يجب¹⁴. حيث تعتبر اللغة أساس الحضارة البشرية وتمثل الوسيلة الرئيسية التي تتواصل بها الأجيال فمن المسلم به أن التواصل الثقافي بين المجتمعات اتخذ أشكالا متنوعة لإثراء بعضها البعض مع تعزيز واحترام مكانة وخصوصية ثقافة كل مجتمع، لكن في ظل تحولات دولية متتابعة ووتيرة تغيرات متلاحقة خلال العقود الأخيرة وما واكب ذلك من تقدم علمي باهر مصحوب بسطوة ثورة الاتصالات واندماج مع الثقافة التقنية انبثقت مفاهيم متعددة ومتنوعة وعلى مستويات شتى خاصة مفهوم العولمة الذي طغى وأسهم بنوع من التقارب بين الشعوب وانفتاح وتفاعل الثقافات مع بعضها البعض.. والتعرف على ثقافة الآخر بسلبياتها وإيجابياتها، ومد جسور التواصل في آفاق ثقافات الشعوب.

ومع تنامي الاحتكاك الثقافي في العالم يبرز رأيان أساسيان يسيران في اتجاهين متعاكسين، رأي يؤكد على أولوية الانفتاح والانخراط في المسيرة العالمية والتطلع بمفاهيمها الثقافية الحديثة من أجل البقاء في الركب العالمي، وتحديث الماكنة

الاجتماعية لإيجاد ديناميكية متفاعلة مع عالم ينشد التقدم باستمرار، ولو كان ذلك على حساب ضياع الكثير من الأسس والثوابت التي قامت عليها مجتمعاتنا، ويظهر ذلك من خلال التحديث المقاد لمظاهر الحضارة الغربية، والتركيز على الأشكال الاستهلاكية دون محاولة لفهم جوهر التحديث.

فالعرب يعانون من ازدواجية لغوية بين لغة العلم والثقافة ولغة التخاطب اليومي، لم يعرفوا كيف يتجاوزونها على الرغم من الجهود المبذولة في هذا السبيل، وهم عاجزون عن إنتاج المعرفة، ومضطرون إلى استيرادها مع ألفاظها من أمم أخرى. وقد وضعت هذه المعاناة وهذا العجز اللغة العربية في مأزق كبير ساهم فيه انقسام العرب، وإصغاء بعضهم إلى دعوات التحول عنها إلى لغة أخرى أو إلى اللهجات المحلية.

وفي الاتجاه الآخر فإن الرأي المقابل يواجه إشكالية أكثر تعقيداً وتناقضاً، عندما يرتد بشكل عنيف اتجاه نفسه ومجتمعه ويغلق الأبواب على ثقافته ويرفض تحقيق الانفتاح والتحديث بشكل مطلق، باعتبار أن الانفتاح ليس إلا أسلوباً جديداً تستخدمه القوى الكبرى لفرض سيطرتها الاستعمارية وتكريس مبادئ الاستغلال والتبعية، ولكن هذا الاتجاه يقع في مأزق خطير وهو عدم قدرته على استبعاد الثورة الحداثية من حياته، فهي تحاصره من جميع الاتجاهات لذلك تفرض نفسها عليه في مختلف جوانب حياته، فيضطر إلى استخدام أدواتها فيقع أيضاً في مطباتها.

لذلك يقود هذا التناقض إلى وجود ثغرات كبيرة في الإدراك والوعي والقدرة على استيعاب النتائج المتمخضة، وبالتالي يقود إلى حدوث صدمات نفسية وفكرية تعجل بحصول ردّات فعل عنيفة تتعكس بشكل مظاهر تشدد عنيف وتعصب ومواقف سلوكية غير صائبة.

فكل هذه الإفادات تصب في قالب واحد وتتفق على موقف مماثل وتدعو إلى طريق لا مفر منه وهو خلق فضاء ملائم ومناسب للتنوع الثقافي داخل المجتمعات، نكون من خلاله قد فهمنا ذواتنا وتعرفنا على هوياتنا وأغلقتنا باب تدمير لغاتنا

وتأكدنا أن لا محالة من إقرار هذا التنوع الثقافي لأنه يشكل بالنسبة لنا أرضية خصبة لحياة حقيقية نتنفسها ونتوق إليها.

➤ التعدد اللغوي وبناء مجتمعات منفتحة ومتواصلة

من جهة أخرى، تعتبر اللغة الرابط الذي يتم عبره خرق كل الحواجز كيفما كانت ومتى وجدت، وهي بتعبير ويسكيربير اللساني الألماني "الرابط الذي يتوسط تأثير العالم الخارجي على العالم الفطري الداخلي للإنسان"، حيث حاول الباحث البرهنة على أن المجتمع الذي يتحدث أفراده لغات مختلفة يمكنه إدراك العالم الخارجي بطرق مختلفة¹⁵، من هنا تتضح رؤية بناء المجتمعات وفرضية انفتاحها وفق مفهوم تواصلية دقيق وكل ذلك من خلال ما يستوطن من تعدد لغوي باعتباره اللبنة الحقيقية والأولى نحو هذا البناء والانفتاح على السواء.

فالتعدد اللغوي أضحى خيارا لا رجعة فيه لحل مشكل الحوار بين الثقافات، فالإشكال ليس فيما نتلقاه من ثقافات أو ما يفد علينا منها، فقد كانت تصلنا هذه الثقافات فيما مضى عن طريق الترجمة من المستشرقين، ولكننا أصبحنا بفعل الثنائية اللغوية نترجم لأنفسنا ونتفاعل مع ثقافات غيرنا بلغاتهم، إلا أن الاقتصار على لغة واحدة قد يجعلنا دائما نلجأ لمن يترجم لنا وينقل لنا ثقافات غيرنا من الأمم التي نتحدث بغير الفرنسية بالنسبة لمنطقة المغرب العربي، مما يفوت علينا فرصا أخرى نحو الانجذاب والانفتاح والتأقلم فكان لزاما علينا من أجل فك هذه العزلة الانفتاح أكثر على لغات أخرى لنقل ثقافة مبدعيها بأنفسنا.

نود أن نشير في الأخير إلى أن التعدد اللغوي لم يعد سياسة تعليمية تتجهها المجتمعات والدول من أجل خلق تنوع ثقافي وحوار بين الثقافات، وما ينبغي أن نفتتح به هو أن تعلم اللغات حقيقة من الحقائق لا ينبغي تجاهلها.

3- نماذج عن التعدد اللغوي في العالم الغربي، العربي والجزائري:

في عصرنا الحالي هناك خمس لغات أساسية ويتحدث بها الكثير من سكان دول العالم هي: اللغة العربية، الإنجليزية، الفرنسية، الإسبانية، واللغة البرتغالية، كما أن

كل قارة من قارات العالم فيها لغات خاصة بها، ففي أوروبا هناك اللغة الروسية، الإيطالية والألمانية، أما في آسيا فهناك اللغة الصينية، والهندية والإندونيسية، واليابانية واللغة البنغالية، وغيرها من اللغات الأخرى.

أما في العالم العربي فنجد سيادة اللغة العربية في تعاملات الأفراد وتواصلهم فيما بينهم، وهذه اللغة تنقسم إلى قسمين أساسيين: اللغة العربية الفصحى وهي لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهي مشتركة بين جميع الدول العربية، وهناك اللغة العربية العامية والتي يتكلم بها سكان كل بلد من الدول العربية، فكل دولة عربية لهجتها الخاصة، فمثلا لدينا اللهجة المصرية تختلف عن اللهجة السورية أو اللبنانية أو الأردنية أو الفلسطينية أو الخليجية أو التونسية والمغربية والجزائرية، وسنفصل في هذه الأخيرة على النحو التالي.

➤ الواقع اللغوي الجزائري:

الوضع اللغوي في الجزائر يتسم بالتنوع والتعدد في اللهجات، فنجد العربية الفصيحة لغة رسمية وينحصر استعمالها في مقامات معينة معظمها رسمي، إلى جانب اللغة الفرنسية التي تنافسها في ذلك الدور في مقامات أخرى، والأمر نفسه بالنسبة للأمازيغية فهي منتشرة في الواقع اللغوي الجزائري مختلفة تارة ومقاربة تارة أخرى في المفاهيم والألفاظ المستعملة إضافة إلى إختلاف اللهجات بين سكان شمال البلاد وغربها وجنوبها وشرقها.

ويمكن تلخيص الوضع اللغوي الجزائري على النحو التالي:

❖ الأولى: اللغات ذات الانتشار الواسع: العاميات أو الدارجات العربية، وهي متنوعة، ولكنها تحتكم إلى قواسم مشتركة.

❖ الثانية وهي تتجلى في اللغات المحلية الأمازيغية بمختلف لهجاتها.

❖ الثالثة: اللغات الكلاسيكية العربية الفصيحة واللغة الفرنسية.

وحسب الدراسات التي أجريت حول الواقع اللغوي في الجزائر تم التوصل إلى أن الواقع اللغوي الجزائري تتسلط على مقاماته الكبرى اللغة الفرنسية وتغلب على

مقاماتها الأخرى الدارجة بينما تحظى اللغة العربية الفصحى بالمقامات المتبقية، فلكل مستوى لغوي مقاماته التي يستعمل فيها بدرجات مختلفة¹⁶.

المحور الثاني: التعدد اللغوي عبر وسائل الإعلام الجزائرية ودوره في تعزيز الانسجام الاجتماعي.

1- لغة الإعلام: مفهومها، مصادرها، خصائصها والإشكاليات التي تطرحها.

1-1- تعريف اللغة الإعلامية:

يشير مصطلح اللغة الإعلامية إلى تلك اللغة المستخدمة في وسائل الإعلام من صحافة، إذاعة، تلفزيون، وسينما في التواصل مع الجمهور، حيث يمكن تعريف اللغة الإعلامية بأنها الأداة التي يقوم الإعلاميون من خلالها بتحويل المعلومات والأفكار إلى مادة مقروءة أو مسموعة أو مرئية يمكن تلقيها وفهم واستيعاب ما تحمله من مضامين توضع في أشكال فنية معينة¹⁷، فاللغة الإعلامية هي نظام من الرموز المرئية والمسموعة اللفظية وغير اللفظية التي تستخدم في إعداد الوسائل الاتصالية الموجهة إلى الآخرين بقصد إستحضارهم المعاني، ومن خلال ذلك نستنتج أن اللغة الإعلامية هي الأداة التي يستخدمها الإعلاميون لتحويل الرموز، المعلومات، الآراء والأفكار إلى مادة يمكن تلقيها من قبل الجمهور المستهدف وفهم ما تحمله من مضامين موجهة ومخطط لها مسبقا.

وقد أُطلق على لغة الإعلام في البداية لغة الصحافة لأنها كانت وسيلة الإعلام الوحيدة، وقد كان يشارك في الكتابة عبر هذه الوسيلة الإعلامية الأولى أدباء وكتاب وكان يحرصون على أن تكون لغتهم بسيطة واضحة لا تخرج عن الفصحى بشيء لا في اللفظ ولا في التركيب، ثم ظهرت الإذاعة وهي عودة إلى الحضارة السمعية التي عرفها العرب قبل التدوين، فاستقطبت جماهير غفيرة من المستمعين، وظل إرسالها يتسع حتى غطت كل المناطق التي يقطنها ناطقو العربية، فكان تأثيرها في الناس كبيرا، وأثرها في اللغة واضحا تجاوز أثر الصحافة، لأن

التواصل معها كان يعتمد على حاسة السمع ولا يحتاج إلى معرفة القراءة والكتابة. وابتعت الإذاعة الصحافة في لغتها، وقدمت مستويات مختلفة من الأداء اللغوي يتراوح ما بين الفصحى في البرامج الثقافية، والعامية في البرامج الترفيهية، مروراً باللغة الوسطى أو لغة الصحافة التي تؤدي بها الأخبار والتعليقات والمقابلات والحوارات وإن كانت في بدايتها ملتزمة بالفصحى¹⁸.

ثم جاء التلغز مكملاً لمهمة الإذاعة الإعلامية وسار في مسارها اللغوي، لكنه سرعان ما طغى على وسائل الإعلام السابقة وصار جزءاً من حياة الناس يؤثر في ثقافتهم وسلوكهم ولغتهم، وازداد تأثيره حين انتقل إلى البث الفضائي المتجاوز لكل حدود، فاللغة الإعلامية تتنوع بتنوع وسائل الإعلام فاللغة المستخدمة في الصحافة تختلف عن اللغة المستخدمة في الإذاعة ولغة التلغز تختلف بشكل كبير جداً عن لغة الإذاعة فالأخرى تجمع بين الصوت والصورة معاً، وهي بحد ذاتها وضمن منظومتها الخاصة تقدم بأساليب وطرق تختلف حسب البرامج والفئة العمرية وحسب الموضوع المطروح، حيث أن التلغز يقوم بتوظيف كافة الرموز التعبيرية ليقوم بإرسال رسالته الإعلامية فهناك لغة الصورة ولغة الأشكال المرسومة والأجسام والحركات - لغة الجسد - وهناك لغة اللحن والنغمة والإرشادات البصرية. وفي هذا الصدد نشير إلى أن هناك تفاوت في المستوى اللغوي بين محطات التلفزيون الناطقة بالعربية الذي تقدم به رسالتها الإعلامية، ويمكن تقسيم هذه المحطات من الجانب اللغوي إلى التالي:

- قنوات تستخدم الفصحى من غير عامية أو لغة أجنبية.
- قنوات تستخدم العامية مع شيء يسير من الفصحى في الأخبار.
- قنوات تمزج بين الفصحى والعامية.
- قنوات تستخدم لغة أجنبية واحدة أو أكثر.
- قنوات تعتمد الفصحى بشيء من التيسير ولغات أجنبية أخرى.

و غالبًا ما تشهد الفصحى تراجعاً في إستعمالها على مستوى المحطات التلفزيونية لصالح العامية المطعمة بألفاظ أجنبية، وفي هذا الصدد ترجع الباحثة " فريال مهنا "جنوح اللّغة الإعلامية إلى الاستعانة بالعاميات إلى عدة أسباب منه:

1- إن وسائل الإعلام الجماهيري صنعت جمهوراً إعلامياً يضم شرائح أمية أو شبه أمية أجبدياً وثقافياً مما جعل الفصحى تشكل حائلاً اصطلاحياً وتواصلياً وتأثيرياً لا يمكن تخطيه إلا باللجوء إلى العاميات.

2- اعتقاد بعض الوسائل الإعلامية التي تدرج العامية إلى أغلب موادها أن ذلك يعتبر بمثابة الوسيلة المثلى لاستقطاب الجمهور، مدفوعة باعتقاد أن مواكبة العصر والتطور ومحاكاة الأمم الأكثر تقدماً تستوجب الابتعاد عن الفصحى واللجوء إلى العاميات.

3- المضامين الهابطة لبعض المواد أو البرامج وخاصة الترفيهية تحتم استخدام العامية، لأن الفصحى لا تلاؤم بطبيعتها مع هذا النوع من الثقافات الترفيهية.

4- تمسك بعض الأوساط الثقافية والأكاديمية بحرفية اللّغة العربية التراثية إلى حد التعصب مما يدفع العديد من القائمين على الإعلام نحو التخلي التدريجي عن اللّغة الفصحى.

ولكن العلاقة بين الفصحى والعامية علاقة تكامل وليست علاقة صراع لاسيما في ظل انتشار الفصحى الميسرة والعامية الراقية¹⁹.

1-2- مصادر اللّغة الإعلامية:

أنت لغة الإعلام من مصادر ثلاثة هي²⁰:

➤ الأول اللّغة العربية الفصحى أو فصحى التراث، وهي الأساس فيها، لأنها أعطتها المفردات ونظام التركيب.

➤ الثاني اللّغات الأجنبية التي أثرت في العربية مباشرة في مرحلة الاستعمار وفي حديث الذين درسوا في البلاد الأجنبية، وبصورة غير مباشرة من خلال

الترجمة المستمرة والمتزايدة في فروع المعرفة كلها.

➤ الثالث اللهجات العامية التي أخذت منها وسائل الإعلام مفردات وتراكيب، أحدثت أحيانا تغييراً في نظام الجملة.

1-3- الخصائص العامة للغة الإعلام²¹:

1- الوضوح: من خلال إستخدام الكلمات والجمل والمعاني الواضحة البعيدة عن الغموض.

2- المعاصرة: ويقصد بها أن تكون الكلمات والجمل والتعبيرات اللغوية متماشية مع روح العصر ومتسقة مع إيقاعه فالجمل الطويلة والكلمات المعجمية والجمل المركبة قد لا تكون مناسبة للغة الإعلامية إلا في موضوعات معينة وفي حالات محددة.

3- الملائمة: يقصد بها أن تكون اللغة متلائمة مع الوسيلة من ناحية ومع الجمهور المستهدف من ناحية أخرى ، فلغة الراديو هي لغة ذات طابع وصفي وهي لغة تتوجه إلى حاسة السمع ولذا يجب أن تكون مفردات هذه اللغة ملائمة لهذه الحاسة، ولغة الصحافة تستهدف فئات اجتماعية وتعليمية واقتصادية معينة وتتوجه إلى حاسة البصر فيجب أن تكون ملائمة أيضا.

4- الجاذبية: ويقصد بها أن تكون الكلمة قادرة على الشرح والوصف بطريقة حية ومسلية ومشوقة فلا وجود لجمهور يتشوق إلى الاستماع أو المشاهدة أو القراءة لمضمون جاف خال من عوامل الجاذبية والتشويق.

5- الاختصار: مهما كان حجم الصحيفة كبيرا فإنها محدودة في صفحاتها والمطلوب كتابة أكبر من عدد ورفاتها ومهما كان وقت البرنامج كبيرا فالموضوعات أكبر منه فلا بد من الاختصار ولا بد أن تكون اللغة قادرة على الاختصار والإيجاز.

6- المرونة: ويقصد بها أن تكون اللغة قادرة على التعبير عن مختلف الموضوعات بسلاسة ودون تعسف ويقصد بها أن تكون متعددة المستويات بحيث

تستطيع مخاطبة أكثر من جمهور ومعالجة أكثر من موضوع وقضية.

7- **الاتساع:** يجب أن يكون عدد المفردات كبيراً بحيث تلبي الاحتياجات المختلفة واللغة الإعلامية متسعة وتتنوع بشكل يومي وقد يكون للاتصال مع الثقافات الخارجية وضرورة الترجمة اليومية لكثير من المصطلحات أثره في زيادة حجم اللغة الإعلامية وفي اتساعها.

8- **القابلية للتطور:** وهي سمة ملازمة للغة الإعلامية، فلغة الإذاعة في الثلاثينيات غير مثلتها في الخمسينيات والستينيات وهذه بدورها تختلف عن مثلتها في السبعينيات وحتى التسعينيات ولغة وسائل الإعلام في السنوات الأخيرة مختلفة عما سبقها.

1-4- الإشكالات التي تطرحها لغة الإعلام:

يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1- ضعف اهتمام وسائل الإعلام بتصحيح مادتها الإعلامية، وإن استخدمت بعض المصححين لهذه المهمة.

2- مشاركة أناس في العمل الإعلامي لا يمتلكون اللغة السليمة الفصيحة.

3- تداول العديد من الأساليب والألفاظ والصيغ التي لا تمت بصلة إلى الفصحى وتفرض نفسها في الحياة الثقافية والاجتماعية والإعلامية وتصبح مألوفاً لدى المتخاطبين.

مما سبق يمكن القول أن اللغة تعتبر إحدى الركائز الأساسية لوسائل الإعلام على اختلاف أشكالها من صحافة، إذاعة، تلفزيون، سينما ومسرح، فمختلف هذه الوسائل لا يمكنها أن تؤدي الدور المنوط بها والوظائف الملقاة على عاتقها إلا بمساعدة اللغة التي هي وسيلة وأساس للتعبير عن الأخبار وإيصالها إلى أفراد الجمهور، فهذه الأخيرة فاللغة أداة الإعلام وبها يتواصل مع الجمهور المستهدف بالرسالة الإعلامية، لذا كان لزاماً على وسائل الإعلام الموازنة بين أداتها اللغوية ومستوى مستخدمي هذه اللغة إذا أرادت أن تؤدي مهمتها وتحقق هدفها، وتحوز

رضا الجمهور وتجذبه إليها وتشجعه على متابعتها، وعلى الرغم من دخول الصورة إلى وسائل الإعلام وازدياد أهميتها، ظلت اللغة وسيلة التواصل الأولى والأساسية ولم تفقد مكانتها وأثرها في الرسالة الإعلامية.

وهذا الأمر ينطبق على وسائل الإعلام بالجزائر لاسيما وأن هذه الأخيرة تتسم بتعدد اللغات فهي تتضمن إلى جانب اللغة العربية بمستوياتها الفصح والعامي كلا من اللغتين الأمازيغية والفرنسية، ما نجم عنه تبني وسائل الإعلام لمختلف هذه اللغات في إعداد وبث برامجها الإعلامية والإخبارية فوجد قنوات ناطقة باللغة العربية وأخرى الفرنسية والأمازيغية وأخرى بالإنجليزية، وهذا قصد تلبية مختلف رغبات الجمهور ومخاطبته وإيصال له الرسائل الإعلامية باللغة التي يستوعبها، فضلا عن التعريف بمختلف عادات وتقاليد مختلف الفئات الاجتماعية الذي تتعدد اللهجات التي يتحدث بها عبر ربوع القطر الجزائري.

2- تجليات التعدد اللغوي في الإعلام الجزائري:

تتعدد اللهجات وكذا اللغات التي تستعملها محطات التلفزيون الجزائري سواء كانت عامة أو خاصة في إيصال مضامينها الإعلامية للجمهور الذي تستهدفه، ويتجلى ذلك في مختلف البرامج الإخبارية والترفيهية والتعليمية التي تبث عبر هذه المحطات السمعية البصرية، ويمكن التفصيل فيها على النحو التالي:

✓ فيما يخص تعدد اللغات تبين لنا من خلال متابعة المحطات التلفزيونية الجزائرية سواء كانت عامة أم خاصة تعدد القنوات الناطقة بمختلف اللغات، فوجد قنوات ناطقة باللغة العربية بشكلها الفصح والعامي، وأخرى ناطقة بلغة أجنبية وعلى رأسها الفرنسية وبدرجة أقل اللغة الإنجليزية، فضلا عن القنوات الناطقة باللغة الأمازيغية.

✓ فبالنسبة للغة العربية نجد:

✚ نجد سيطرة اللغة العربية بشكلها الفصح العالي والميسر على البرامج الثقافية والإخبارية، حيث نجد أن اللغة الفصحى العالية يستخدمها الإعلاميون في

حواراتهم مع الأدباء والمتقنون، أما اللغة الفصحى الميسرة التي يفهمها معظم الناس فيستخدمها الإعلاميون في البرامج الإخبارية والحوارية أيضا. **+** لهجة عامية راقية يستخدمها المتقنون في أحاديثهم اليومية تترد في معظمها إلى الفصحى.

+ لهجة عامية نجدها في البرامج الترفيهية والألعاب.

✓ أما فيما يتعلق باللغة الأجنبية فنجد:

+ اعتماد اللغة الأجنبية كالفرنسية وحدها في قنوات ومحطات تلفزيونية ناطقة باللغة الفرنسية، مثل قناة canal algerie.

+ اعتماد اللغة الفرنسية وحدها أو مع الإنجليزية في بث برامج ضمن قناة واحدة ويتجلى ذلك في البرامج الوثائقية وكذا الإخبارية مثل النشرات الإخبارية والبرامج الحوارية من روبرتاجات وتعليقات، وذلك في مختلف القنوات التلفزيونية العمومية أو الخاصة.

✓ أما بخصوص اللهجات: فنجدها تتجلى في اعتماد اللغة الأمازيغية كلغة موحدة في تقديم برامج القناة التلفزيونية وهو ما يتجلى في القناة التلفزيونية الرابعة، أو من خلال بث مواد إعلامية محددة بهذه اللغة كما هو الحال بالنسبة للقناة الأرضية التي تبث نشرة إخبارية أمازيغية على الساعة السادسة، وغيرها من القنوات التلفزيونية الخاصة حيث تخصص حيزا من مساحتها الزمنية لبث برامج حوارية وإخبارية ناطقة باللغة الأمازيغية.

ومن مبررات هذا التعدد اللغوي عبر وسائل الإعلام الجزائرية من وجهة نظرنا نذكر:

1- وجود فئات متفاوتة من الجمهور من حيث المستوى التعليمي والعمرى تضم شرائح أمية أو شبه أمية أبجديا وثقافيا مما يحتم لجوء وسائل الإعلام إلى اعتماد العامية لمخاطبته والوصول إليه.

- 2- اعتقاد بعض الوسائل الإعلامية التي تدرج العامية إلى أغلب موادها أن ذلك يعتبر بمثابة الوسيلة المثلى لاستقطاب الجمهور.
 - 3- المضامين الهابطة لبعض المواد أو البرامج وخاصة الترفيهية تحتم استخدام العامية، لأن الفصحى لا تلاؤم بطبيعتها مع هذا النوع من الثقافات الترفيهية.
 - 4- تشعب لغة المحادثة إلى لهجات مختلفة.
 - 5- استخدام اللغات الأجنبية في تدريس العلوم في الجامعات العربية بحجة تدريس العلوم باللغة التي وضعت فيها.
 - 6- الاحتكاك مع لغات أخرى ووجود جاليات غير عربية في البلاد تستخدم لغات مغايرة غير العربية.
 - 7- وجود فئات من الجمهور المنقفين وذوي مستوى تعليمي عالي يرغبون في الإطلاع على الأخبار ومشاهدة برامج حوارية وإعلامية بلغة أجنبية.
- وفيما يتعلق بدور التعدد اللغوي عبر وسائل الإعلام الجزائرية وعلاقته بتعزيز الإنسجام الإجتماعي بين أفراد المجتمع الجزائري من وجهة نظر الشباب عينة البحث فقد تم التوصل إلى ما يلي:
- يعتبر التعدد في اللغات التي تعتمدها مختلف المحطات التلفزيونية الجزائرية عامل هام في حفظ التراث الثقافي والحضاري ونقله من جيل إلى جيل، والمشاركة في تنمية هذا التراث للأجيال المستقبلية، مما يساهم في تحقيق الإنسجام الإجتماعي بين الأجيال السابقة والحاضرة وكذا المستقبلية.
 - يساهم التعدد اللغوي عبر الإعلام السمعي البصري الجزائري في منح أفراد الجمهور إمكانية للتعرف على لغة الأخر، والتقرب منها ولو من خلال التعرف على بعض الكلمات والألفاظ التي قد تمكنه من التواصل مع الأفراد الذين يجيدون هذه اللغة.

-يمكن التعدد اللغوي عبر وسائل الإعلام السمعية البصرية الجزائرية من نقل الأحداث والقضايا المهمة ومتابعة تطوراتها وانعكاساتها على المجتمع المحلي، وذلك لتلبية حاجة الإنسان الطبيعية لمعرفة البيئة المحيطة به ومعرفة الحوادث الجارية من حوله، ويكاد المضمون الإخباري يشكل النسبة الرئيسية السائدة اليوم في وسائل الإعلام التي يفترض أن تقوم بتغطية تلك الأحداث بحيادية ودقة ومصداقية، لكي تحظى باحترام الجمهور، ولأجل ذلك نجد أن النشرات الإخبارية تعد وتبث بلغات متعددة من عربية فصحة ميسرة، لغة أجنبية فرنسية أو أجنبية وكذا بالأمازيغية.

-يساعد التعدد اللغوي عبر القنوات التلفزيونية الجزائرية في تحقيق الانسجام الاجتماعي من خلال ربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض، ونقل تراثهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم، والمحافظة على تماسكه ووحدته، وحماية كيانه ومعتقداته، وتوحيد أفراد المجتمع لتحقيق أهدافهم وأهداف مجتمعاتهم، فهذا التعدد يسمح للفرد بالتعرف على تاريخ أو حضارات المجتمعات الأخرى، ولا يكون ذلك إلا من خلال التعرف على لغاتهم، فهي المفتاح للوصول إلى فهم الشعوب الأخرى والتواصل معها والاستفادة من تجاربها، وهذا ما يتجلى في تعدد البرامج الوثائقية والربورتاجات التي تبث عبر هذه القنوات والتي تتناول منطقة من مناطق الوطن والتعريف بعاداتها وتقاليدها وتراثها الفكري والثقافي وغيرها وذلك بإعتماد لغات مختلفة حتى يمكن أن تصل تلك المعلومات لأكبر عدد ممكن من أفراد الجمهور على اختلاف مستوياتهم المعرفية والتعليمية والاجتماعية ويضطلعوا على ثقافة الغير مما يسمح بتحقيق الترابط والانسجام بين أفراد المجتمع الجزائري.

-يشكل التعدد اللغوي عبر وسائل الإعلام السمعية البصرية الجزائرية نافذة مفتوحة على تجارب وخبرات الأمة الواحدة، وعلى تجارب وخبرات الأمم الأخرى، فهي التي تحفظ للأمة تراثها الأدبي والديني والعلمي، وفي الوقت ذاته تطلع أبناءها على تراث الأمم الأخرى.

- وحتى يمكن أن تؤدي وسائل الإعلام دورها في تحقيق وتقوية سبل الانسجام الاجتماعي بين أفراد المجتمع الذي تستهدفهم وتخاطبهم عبر رسائلها المتعددة وبلغات تناسبهم لتحقيق ذلك الهدف نقترح ما يلي:
- أ- أن يكون الصحفي ملماً إماماً تاماً باللغة العربية الفصحى كتابةً ومشافهة.
 - ب- إشرط تمكن الإعلامي من مهارات لغوية غير اللغة الأم.
 - ج- العمل على برمجة تربصات في مجال اللغة والترجمة لفائدة المهنيين الإعلاميين.

خاتمة:

يتضح مما سبق أن التعدد اللغوي لم يعد سياسة تعليمية تنتهجها المجتمعات والدول من أجل التعلم فقط وإنما من أجل خلق إنسجام مجتمعي بين أفراد المجتمع الواحد على إختلاف لهجاته من جهة، ومن أجل خلق تنوع ثقافي وحوار بين الثقافات المختلفة من جهة أخرى، كما أضحت تعلم لغات غير لغة الأم حقيقة من الحقائق التي لا ينبغي تجاهلها من أجل الانفتاح أكثر على لغات أخرى لنقل ثقافة مبدعها بأنفسنا وحتى نتمكن من التواصل مع أفرادنا ونقل نحن أيضا ثقافتنا لهم.

وفي هذا الصدد تلعب وسائل الإعلام دورا مهما في تعزيز هذا الإنسجام الإجتماعي من خلال ربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض، ونقل تراثهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم، والمحافظة على تماسكه ووحدته، وحماية كيانه ومعتقداته، وتوحيد أفراد المجتمع لتحقيق أهدافهم وأهداف مجتمعاتهم، لا يمكنها حتى تؤدي الدور المنوط بها في هذا المجال إلا من خلال اللغة التي تعتبر بمثابة وسيلة وأساس للتعبير عن الأخبار وإيصالها إلى أفراد الجمهور، فاللغة أداة الإعلام وبها يتواصل مع الجمهور المستهدف بالرسالة الإعلامية، لذا كان لزاماً على وسائل الإعلام الموازنة بين أدواتها اللغوية ومستوى مستخدمي هذه اللغة إذا أرادت أن تؤدي مهمتها وتحقق هدفها، وتحوز رضا الجمهور وتجذبه إليها وتشجعه على متابعتها.

وهذا الأمر ينطبق على وسائل الإعلام بالجزائر لاسيما وأن هذه الأخيرة تتسم بتعدد اللغات فهي تتضمن إلى جانب اللغة العربية بمستوياتها الفصح والعامي كلا من اللغتين الأمازيغية والفرنسية، ما تتجم عنه تبنى وسائل الإعلام لمختلف هذه اللغات في إعداد و بث برامجها الإعلامية والإخبارية ف نجد قنوات ناطقة باللغة العربية وأخرى الفرنسية والأمازيغية وأخرى بالإنجليزية، وهذا قصد تلبية مختلف رغبات الجمهور ومخاطبته وإيصال له الرسائل الإعلامية باللغة التي يستوعبها، فضلا عن التعريف بمختلف عادات وتقاليدهم مختلف الفئات الاجتماعية الذي تتعدد

اللهجات التي يتحدث بها عبر ربوع القطر الجزائري. فهذا التعدد اللغوي يسمح للفرد بالتعرف على تاريخ أو حضارات المجتمعات الأخرى، ولا يكون ذلك إلا من خلال التعرف على لغاتهم، فهي المفتاح للوصول إلى فهم الشعوب الأخرى والتواصل معها والاستفادة من تجاربها، وهذا ما يتجلى في تعدد البرامج الوثائقية والربورتاجات التي تبث عبر هذه القنوات والتي تتناول منطقة من مناطق الوطن والتعريف بعاداتها وتقاليدها وتراثها الفكري والثقافي وغيرها وذلك بإعتماد لغات مختلفة حتى يمكن أن تصل تلك المعلومات لأكبر عدد ممكن من أفراد الجمهور على إختلاف مستوياتهم المعرفية والتعليمية والاجتماعية ويضطلعوا على ثقافة الغير مما يسمح بتحقيق الترابط والانسجام بين أفراد المجتمع الجزائري.

قائمة المراجع:

الكتب باللّغة العربية:

1- خليل محمود، إنتاج اللّغة في النصوص الإعلامية، الدار العربيّة للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2009.

الكتب باللّغة الفرنسية:

1- Susan bliss, Identity and cultural diversity a global education learning, emphases,2008,p55

2- المجلات العلمية:

1- زكي يونس الطويل، الثنائية اللغوية العربيّة الفرنسية في مواجهة عصر المعلوماتية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، العدد 48، 2005.

2- أحمد بناني، الازدواجية اللغوية في الواقع اللغوي الجزائري وفعالية التخطيط اللغوي في مواجهتها، مجلة إشكالات في اللّغة والأدب، العدد الثامن، ديسمبر، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، 2015.

3- فادية المليح حلواني، لغة الإعلام العربي، مجلة جامعة دمشق، المجلد 31، العدد الثالث، 2015.

3- المواقع الإلكترونية:

- <http://alsafhi.yoo7.com/t3-topic>

- <http://www.startimes.com/?t=8413922>

- http://www.alukah.net/literature_language/0/109372

- <http://www.startimes.com/?t=8413922>

- <http://www.hibapress.com/details-2902.html>

- <http://www.hibapress.com/details-2902.html>

- <http://www.alecso.org/bayanat/multilingualism.htm>

- <http://e3lam.boardlog.com/t814-topic>

الهوامش والاحالات

- ¹: ظهر على الموقع الإلكتروني: <http://alsafhi.yoo7.com/t3-topic>، تاريخ التصفح: 26 سبتمبر 2017، على الساعة: GMT.02:02:19
- ²: ظهر على الموقع الإلكتروني: <http://www.startimes.com/?t=8413922>، تاريخ التصفح: 30 سبتمبر 2017، على الساعة: GMT.07:30:09
- ³: نفس المرجع السابق.
- ⁴: ظهر على الموقع الإلكتروني:
- ³: http://www.alukah.net/literature_language/0/109372، تاريخ التصفح: 3 أكتوبر 2017، على الساعة: GMT 09:57:21.
- ⁵: ظهر على الموقع الإلكتروني: <http://www.startimes.com/?t=8413922> ، مرجع سبق ذكره.
- ⁶: ظهر على الموقع الإلكتروني: <http://www.hibapress.com/details-2902.html>، تاريخ التصفح: 01 أكتوبر 2017، على الساعة: GMT.03:18:29
- ⁷: زكي يونس الطويل، الثنائية اللغوية العربية الفرنسية في مواجهة عصر المعلوماتية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، العدد 48، 2005، ص66.
- ⁸: نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.
- ⁹: ظهر على الموقع الإلكتروني: <http://www.hibapress.com/details-2902.html>، مرجع سبق ذكره.
- ¹⁰: أحمد بناني، الازدواجية اللغوية في الواقع اللغوي الجزائري وفعالية التخطيط اللغوي في مواجهتها، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد الثامن، ديسمبر، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، 2015، ص105.
- ¹¹: نفس المرجع السابق، صص 106-107.
- ¹²: أحمد بناني، مرجع سبق ذكره، ص101.
- ¹³: ظهر على الموقع الإلكتروني:
- ¹⁴: <http://www.alecso.org/bayanat/multilingualism.htm>، تاريخ التصفح: 1 أكتوبر 2017، على الساعة: GMT.13:21:41

¹⁴ :susan bliss, Identity and cultural diversity a global education learning, emphases,2008,p55

15 :susan bliss, Op.cit, p55

¹⁶: أحمد بناني، مرجع سبق ذكره، ص113.

¹⁷: خليل محمود، إنتاج اللّغة في النصوص الإعلامية، الدار العربيّة للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2009، ص20.

¹⁸: فادية المليح حلواني، لغة الإعلام العربي، مجلة جامعة دمشق، المجلد 31، العدد الثالث، 2015، ص19.

¹⁹: فادية المليح حلواني، مرجع سبق ذكره، ص16.

²⁰: نفس المرجع السابق، ص15.

²¹: ظهر على الموقع الإلكتروني: <http://e3lam.boardlog.com/t814-topic>، تاريخ التصفح:

13 سبتمبر 2017، على الساعة: GMT.02:50:32

دور الصحفيّ في تحقيق الأمن اللغويّ في ظلّ العولمة الثقافيّة

د. عثماني عمّار

المركز الجامعي أحمد زبّانة - غليزان

توطئة:

أصبح الحديث عن الأمن اللغويّ ضرورة ملحة، تتطلب تدخل هيئات وأفراد وفق خطة مدروسة، تحقق المطلوب، وتدفع إلى تجنب الأخطار التي تهدد كيان اللّغة العربيّة.

وتعتبر المؤسسات الإعلاميّة مسؤولة عن تحقيق الأمن اللغويّ، نظير الدور الذي تضطلع به، فالصحافة بمختلف أشكالها وتعدد طابعها تؤدي دورا هامّا في خدمة اللّغة العربيّة، من منطلق استعمالاتها للغة الضّاد في نقل الأخبار وتحرير المقالات وكتابة الأعمدة الصحفيّة، وهذا الانتشار الواسع لوسائل الاتصال يسهم في تفعيل التواصل بين مستقبلي الرسالة الإعلاميّة واللّغة العربيّة، بحكم أنّ الصحافة في حقيقة أمرها تحمل شحنتين أو بالأحرى تؤدي وظيفتين، شحنة إعلاميّة تخص الخبر وتفصيله، وشحنة ثقافية، تعمل على تثقيف وتعليم القارئ أو السامع أو المشاهد. ومن ثمة فأيّ خلل في لغة الرسالة الإعلاميّة يدفع إلى القيام بأدوار سلبية بين المتقبّل واللّغة العربيّة.

وإذا كانت قضية اللّغة العربيّة في عصرنا الحاضر قد استنفذت الكثير من الحبر والكلام في سبيل ترقيتها، فإنّ الحديث عن هذه المصيبة اللغوية يبقى أمرا هاما إذا ما فُتح النقاش حول واقعها في ظلّ العولمة الثقافيّة.

وتهدف هذه الورقة البحثيّة معالجة واقع اللّغة العربيّة في الصحافة الجزائريّة في ظلّ العولمة الثقافيّة، مما يجعلنا أمام ثلاث قضايا مترابطة ومتشابكة، واختيارنا

للصحافة مرده إلى الأمل في رفع التحديات من خلالها، باعتبارها الفاعلة في خلق اجتماعية اللغة. مما يجعل الصحفي لا يقل أهمية دوره في تحقيق الأمن اللغوي. والأمن اللغوي في أبسط مفاهيمه هو استقرار اللغة على نحو صحيح سليم بعيدة عن كل ما يهددها، ويعبث بها، ويهبط بمستواها، ويكون ذلك باتّباع وسائل وقائية جادة تضمن لها حياتها وبقائها ونقاها.

لكن الذي يظهر جلياً، هو أنّ اللغة العربيّة في الجزائر لم تعد سليمة، وبعيدة عن مخاطر مختلفة، خاصة أثناء استعمالها في الممارسة الإعلامية لها، وهو ما تحاول هذه الورقة البحثية إظهاره أولاً، مما يجعل النداء بتحقيق الأمن اللغوي ضرورة حتمية، ينبغي أن لا يتوقف الحديث فيه في شكل الافتراضات بل إلى التطبيقات التي تحسن استعمال لغة الضادّ.

العولمة.. المفهوم والدلالة:

العولمة في أبسط تعاريفها تعني " عالمية العادات والقيم والتقاليد لصالح العالم المتقدم اقتصادياً، وبمعنى آخر محاولة سيطرة قيم وعادات وثقافات العالم الغربي على بقية دول العالم، خاصة النامي منها، بشكل يؤدي إلى خلط كافة الحضارات، وإذابة خصائص المجتمعات، هذا بالإضافة إلى تهميش العقائد الدينية"⁽¹⁾.

والعولمة تعتبر مشروعاً يهدف إلى تعميم غلبة الغرب المتقدم سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، وإلغاء تاريخ الأمم والشعوب، ويجعل لواء العولمة والكونية والترسانة الإعلامية والثقافية والإيديولوجية الغربية تمارس التضليل، ومن ثمّ تكون العولمة أداة تأكيد لقواعد السيطرة والهيمنة في زمن الاستعمار⁽²⁾.

وظهور ما يطلق عليه بالعولمة المقصود به سيادة قطب واحد أخذ يسيطر على هذا العالم سياسياً وعسكرياً، الأمر الذي أحدث هوة عميقة وخطراً كبيراً في المنظومة السياسية العالمية، بعد انهيار نظام عالمي كان يقوم على القطبية الثنائية أبرزها الاتحاد السوفياتي⁽³⁾. ومن ثمّ تكون العولمة محققة هوية بلا هوية، نتيجة نوايا الغرب الذي يريد فرض نموذج وثقافته وسلوكه وقيمه⁽⁴⁾.

وإذا كان الامتداد التاريخي للعولمة يبدأ بسقوط الاتحاد السوفياتي فإنّ منطلق تواجدها- أي العولمة - فلسفيا وفكريا وجد بارتباطها بجملة النظريات والأفكار المتمثلة في تعميم الليبرالية الغربية على العالم وخطابات النهاية (نهاية التاريخ نهاية الإنسان، نهاية الدولة و...⁽⁵⁾، وهو ما يجعل العولمة تتعدى المجال الاقتصادي إلى مجالات أخرى أهمها المجال الثقافي.

وتهدف العولمة الثقافية إلى القضاء على الهوية الثقافية للشعوب من خلال إزالة " مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العامة والتي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الذين ينتمون إليها، والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عمّن سواهم من أفراد الأمم الأخرى"⁽⁶⁾.

لقد أكد الباحثون في العديد من الكتابات والمنابر الإعلامية أنّ العولمة مُهددة لثقافات الأمم، والهوية القومية، بحكم أنّ رسالتها - أي العولمة الثقافية- تدعو إلى ثقافة بلا حدود خاصة، وتصير الثقافة بذلك سلعة تدخل المجال الاقتصادي، وبذلك نكون أمام ظاهرة التوحيد الثقافي، أي أنّ الدعوة تكون اتجاه " سيادة ثقافة عالميّة واحدة تكون هي المرجع والمحور لكل الشعوب"، في حين ينبغي ليفي سترواش تحقيق ذلك ، و " فكرة الحضارة الثقافية العالمية يمكن تقبلها كنوع من مفهوم مجدد، أو خلاصة مصغرة لعملية شديدة التعقيد، لا توجد ولا يمكن أن توجد حضارة عالمية بالمعنى المطلق، طالما أنّ الحضارة تتضمن وتتكون في الواقع من تعايش ثقافات تعرض أقصى ما يمكن من التنوعات"⁽⁷⁾.

اللغة ووسائل الإعلام:

يرى تمام حسان أنّ اللغة تحنل بمعناها الواسع والشامل أهمية كبيرة في حياة الإنسان باعتبارها وعاء التجارب ودليل النشاط الإنساني⁽⁸⁾. فهي قوام الحياة وإحدى أهم الركائز التي يقوم عليها الوجود، إذ إنّ كينونة الوجود مؤسّسة على اللغة⁽⁹⁾، ويراها سعيد الغانمي سبب تطور الإنسان في هذه الحياة العصرية فالإنسان يوجد في اللغة بقدر ما توجد فيه⁽¹⁰⁾.

ومن هذا المنطلق تكتسب اللغة دورها لأهمية حضورها في حياة الإنسان، فهي الناقلة لانشغالاته الفكرية، ولذلك فأدق ما يمكن أن تستوعبه اللغة هو الفكر الإنساني فهي تمثل الفكر كما تتمثل الفكر نفسه⁽¹¹⁾.

وتؤدي اللغة دورها في الواقع من خلال تشكله وإعادة بنائه، وكل لغة حسب فون هييموليت تمثل نوعا معينا من تفكيك العالم وإعادة بنائه وتنظيمه وفق ألفاظها وبنياتها التركيبية حيث إن كل لغة تحتوي على ميتافيزيقا خفية بشكل لا يجعلها تسهم في التعبير عن الفكر بقدر ما تشرطه وتشكله⁽¹²⁾.

اللغة في أي مجتمع لها دورها الأساس الذي تؤديه في التواصل الاجتماعي يمارس الإنسان بها حرية التعبير والتفكير، وتطور المجتمعات مرتبط باللغة، التي هي كيان مترجم لحالة الوطن والأمة، لأنها أداة الحاضر وصورة التاريخ، ومنها تقتبس الألوان الحضارية والاجتماعية الدالة على مجاري الأمور ومصائر الأقسام. والعربية ليست بدعا من اللغات، وإنما هي أصدقها شاهدا على هذا الانعكاس والتأثر⁽¹³⁾.

ولا نتصور حديثا عن قضايا وسائل الإعلام، دون التفاتة إلى اللغة الإعلامية التي تعتبر الركيزة الأساسية فيها، إذ لا يمكن أن تضطلع تلك الوسائل بوظيفتها الجوهرية دون استعمال رموز اللغة.

والصحافة تضطلع بدور حيوي في علاقتها باللغة من جهة أخرى، لأنها تؤدي دورا تربويا، وتحمل شحنة ثقافية، ومن ثم فإن أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية حين تلتزم العربية السليمة هي أحسن مصدر لتعليم اللغة ومحاكاتها والتقريب بين اللغة السليمة واللغة المحكية "وتعتبر اللغة العربية من أصلح اللغات، وذلك لأنها تتمتع (بالدينامية) أو الحركية التي تجعلها أصلح اللغات لطبيعة الإعلام"⁽¹⁴⁾.

تتحمل وسائل الاعلام مسؤولية قصوى في الحفاظ على اللغة العربية، وتقويم اللسان العربي، وتصحيح أخطائه، ومن ثم فإن استخدام العربية الفصحى من لدن

وسائل الإعلام يسهم في بوتقة القومية العربية، ذلك أنه إذا ظلت أجهزة الإعلام تهمل الأداء الصحيح للغة العربية فسيبلغ الانهيار مداً هو لا يستطيع أي من صف أن ينكر الدور الكبير الذي تلعبه وسائل الإعلام والأثر البالغ الذي يتحدثته في الجماهير إيجابياً وسلبياً، فلم يعد يقتصر دورها على التبليغ والنشر ولكنه تعدى ذلك تشكيل آراء الجماهير وإعادة بناء عقولهم وزرع اتجاهات عقلية في أذهانهم⁽¹⁵⁾.

اللغة والعولمة الثقافية:

تعتبر اللغة من الأمور الجوهرية في تشكل ثقافة الأمم، وتسهم في صناعة هوية البلدان تبعاً لانتشارها ودرجة فرض منطقتها على المجتمعات، فهي العنصر الأساسي في التكوين القومي للشعوب.

وتكمن رياح العولمة في إسقاط الحواجز اللغوية تمهيداً لفرض سيطرة الدولة التي حملت الهيمنة الاقتصادية والسياسية، وهي المشكلة التي تعاني منها دول العالم، مما خلق أزمة ثقافية عالمية تزيد القضاء على التنوع الثقافي في سبيل نمطية ثقافية واحدة⁽¹⁶⁾.

ولا مناص في ذلك، إذا عدنا إلى التاريخ الحديث، وكيف حاولت الدول الاستعمارية أن تزيل التواصل بين العربي ولغته، من خلال منع التدريس باللغة العربية، وإحلال اللغة الفرنسية بدلاً منها (الجزائر)، مما خلق حرباً بين اللغات تهدف إليه استراتيجيات الدول المتقدمة.

والحق أن حرب اللغات لا تعني منها ما يسمى بدول الجنوب، أو الدول النامية وإنما هي مشكلة العالم، لأن العولمة في استراتيجيتها تهدف إلى تحقيق الهيمنة الأمريكية، ومن ثم تصبح اللغة الانجليزية في حرب أمام لغات أخرى، مما دعا واحد من المفكرين، وهو إدكار بيزاتي إلى رفض العولمة، لأنها في نظره تتجاهل العلاقة بين الدولة والأمة والأرض والوطن واللغة والثقافة⁽¹⁷⁾.

والخوف من هذه الحرب اللغوية، جعل بعض الدول المتقدمة، كما هو الحال في فرنسا إلى إنشاء وزارة الفرانكفونية، وتأسيس منظمة فرانكفونية، بغية حماية اللغة

الفرنسية، حيث أشار الأمين العام لهذه المنظمة أنّ دورها يكمن في الدفاع عن التعددية الثقافية واللغوية، بحكم أنّ اللّغات تشكل الميراث الإنساني، محذرا من سيطرة لغة على حساب أخرى، لأنّ ذلك في رأيه بطبيعة المجتمع الدولي القائم على التعددية الثقافية⁽¹⁸⁾.

ويقر محمد عابد الجابري بالقول: إنّ التعارض بين العولمة ومسألة الهوية ظاهرة يعيشها الغرب نفسه، موطن العولمة ومصدرها. وبالتالي فمن الخطأ الجسيم النظر إلى هذا التعارض على أنه، فقط، تعارض بين الغرب/ الشمال بوصفه مصدر العولمة المستفيد منها، وبين بقية العالم/ الجنوب بوصفه المدافع عن الهوية والخصوصية ضدّاً على العولمة واجتياحاتها⁽¹⁹⁾.

إنّ التعارض بين العولمة والهويانية هو مظهر من مظاهر الصراع في عصرنا، وهو صراع يعيشه العالم ككل كما يعيشه كل بلد على حدة، "متقدما" كان هذا البلد أو "متخلفا". وإذا كان هذا الصراع يبدو في بعض الأحيان، وعلى السطح، في صورة صراع بين "الشمال" داعية العولمة والمستفيد الأول منها، وبين الجنوب "موضوع العولمة" والمستهدف بها، فليس هذا سوى مظهر واحد من جملة مظاهر متعددة⁽²⁰⁾.

وتكمن خطورة العولمة الثقافية أنّ المجتمعات العربيّة أصبحت تستهلك هذه الثقافة دون وعي، مما يعدلها عن هويتها الثقافية، لأنّ الشباب أصبح يرى في ثقافة مجتمعة ثقافة مختلفة تمكنه عن إثبات نفسه أمام الأخر، وبما أنّ ثقافة الآخر ثقافة استهلاكية فإنّ شباب مجتمعاتنا أصبح يتلقاها ويعمل على تجسيد مقوماتها دون أن يكثرث بحقيقة ما يجب أن يتحول وما يجب أن يبقى ثابت حتى يتمكن من تأكيد هويته إنّه فهناك العديد من التحدّيات أمام الدول العربيّة للمحافظة على هويتها الثقافية وأين يقف فيها الثابت عن المتحول⁽²¹⁾.

لعل من أبعاد العولمة اختزال عدد من اللغات، ومن هنا تطرح مسألة التعدد اللغوي في ظلّ العولمة، التي تهدف إلى هيمنة لغة واحدة فقط، مما يجعل لغة الطرف الأقوى مستقبلا للغات الأخرى. ومن هنا تظهر إشكالية هذه الورقة

البحثية، لإبراز أولاً واقع اللّغة العربيّة في الصحافة الجزائريّة في ظلّ العولمة الثقافية، وثانياً: الإشارة إلى التحديات التي يقوم بها الأفراد والجماعات في سبيل رفع تلكم التأثيرات السلبية الناتجة من العولمة بشكل عام.

ويعتبر عبد الرحمن الحاج صالح أنّ ما أصاب اللّغة العربيّة من ضعف في منافستها لبعض اللّغات الأجنبية في عقر دارها ليس مجرد أزمة يمكن أن تنفجر بالتدخل الملائم، وإنّما القضية في أنّه " ترتب على تفوق بعض البلدان الغربية علمياً وتكنولوجياً على غيرها تفوق اللّغات التي ينطق بها أصحابها في الميادين العلمية والثقافية عامة حتى اضطرت الأمم الأخرى ومنهم الغربيون من غير الناطقين بالانكليزية أو الفرنسية أن تتعلم إحدى اللغتين"⁽²²⁾. ومن ثمّ تكون الهيمنة الاقتصادية والعلمية سبباً في الهيمنة اللغوية، وهذا أمر واضح من تأثيرات العولمة الثقافية التي تكون مما لا شكّ فيه مرهونة نتائجها بالمجالات الصناعية والاقتصادية والتكنولوجية.

اللّغة الإعلامية في ظلّ العولمة الثقافية:

ويتفق المتخصصون بأنّ اللّغة العربيّة تعيش تحديات خطيرة في الصحافة بشكل عام، حيث " بدأت العلاقة بين هذه الوسائل واللّغة العربيّة يشوبها الوهن والضعف، بل أحياناً يعتمد مستعملوها النيل من الفصحى والعمل على تحجيمها، لأنّها - كما يتوهمون - لم تعد قادرة على مواجهة تحديات العصر"⁽²³⁾.

ويجد المتأمل في واقع الصحافة العربيّة نقسي " أخطاء اللّغة بصورة واضحة بين البرامج والفقرات المختلفة والأحاديث والمقالات، وغير ذلك من المواد الإعلامية مما أصبح يندّر بخطر محقق، فاللّغة القومية هي رمز العزة والكرامة للوطن والمواطن بما تنهض الأمم ويعلو شأنها وتتحقّق وحدتها وفي غيابها تنتفك الشعوب وتضمحل الروابط وتتداعى وينحسر الانتماء"⁽²⁴⁾.

ويرى حامد طاهر أنّ حالة اللّغة العربيّة الفصحى وصلت على ألسنة أصحابها إلى مستوى لم يعد يحسن السكوت عليه، ولا يقتصر هذا فقط على أولئك الذين

درسوها دراسة عابرة، وإنما يسري أيضا على غالبية المتخصصين فيها، والمشتغلين بها، ممن تتطلب مهنتهم ضرورة استخدامها كالمعلمين، والمحامين، والإعلاميين وغيرهم⁽²⁵⁾. ويزيد الأمر سوءا من حيث ركافة الكلمات والجمل المستعملة في اللغة التي "يستخدمها الشباب على الشبكة في المدونات ومواقع التواصل الاجتماعي... يغلب فيها استخدام اللهجات العامية أو الكتابة بحروف لاتينية، تحولت معها اللغة العربية إلى لغة هجينة"⁽²⁶⁾.

وفي الجزائر، فإنّ اللغة الإعلامية تعاني كثيرا في ظلّ العولمة الثقافية، لأسباب مختلفة، يتعلق أولها باستحواذ ما يمكن تسميته بـ "الكشك الفرنسي"، وقد لاحظ خليفة بن قارة أنّ "أكثر من عشرة يوميات مكتوبة باللغة الفرنسية يقوم معظمها بالترويج للثقافة الفرنسية وإعادة توزيعها، في محاولة لخلق رأي عام مناقض للواقع المعيش، في مقابل أقل من العدد المذكور يصدر باللغة الوطنية ولا يكاد يصل إلى القارئ إلاّ النزر القليل وبعد أن تموت الأحداث في جوف هذه الصحيفة أو تلك"⁽²⁷⁾. ومن ثمّ تصبح التعددية الإعلامية مشكلة لأزمة لغوية في الجزائر، ظهر باطنها في التفكير والممارسة.

والحق أنّ أزمة العربية في الجزائر تعود إلى الحقبة الكولونية، "عندما استبدل الجزائريون لغتهم الوطنية والرسمية بلغة المحتل المرحل، بحجة أنها مجرد "غنيمة حرب" سيأتي أو أن رحيلها بعد أن تؤدي دورها، ولم يعتبروا اللغة - وهي الوعاء الأول والأخير للفكر -"⁽²⁸⁾.

ولعل من الهجين الذي نقرأه يوميا على صفحات الجرائد، استعمال مفردات هجينة مثل "الكوطة"، مثل عبارة: نهاية عهد الكوطة في ترشيح وزراء الأفلان واستعمال كتابة أعجمية في صحيفة ناطقة بالعربية، مثل كتابة كلمة OPPO، وهي علامة صينية لصناعة الهواتف النقالة.

ومن ظواهر التأثير الأعمى بالعولمة الثقافية، انتقال العربية إلى الصحافة المكتوبة في الجزائر. والعربية: هي "زواج عرفي بين اللغتين العربية

والإنجليزية يتحدث به كثير من شبابنا وشباتنا"⁽²⁹⁾، وقد وجدنا ذلك موجودا في جريدة الشروق اليومي، تستعمل جمل انجليزية بأحرف عربية، ومن ذلك عنوان لمقال، جاء بالشكل التالي: " فولسفاغن الجزائرية في جوان وقطع غيارها ماد إين ألبيريا"⁽³⁰⁾، والملاحظ أنّ تأثير الإنجليزية واضح في بناء هذه العنوان، الذي أصبحت لغته هجينة، لا هي فصحي، ولا هي عامية، ولا هي انجليزية. ويخرج التعبير الإعلامي في الجزائر عن قواعد الصياغة التي حددها علماء العربية، من خلال:

- تغليب الجملة الاسمية على الجملة الفعلية في استعمالات الصحفيين للغة، عمّا هو معروف أنّ العربية تستعمل نوعين من الجمل الفعلية والاسمية، وأنّ لكل واحدة منهما مقاما يستعمل فيه، غير أنّ الصحفيين يفضلون استعمال الجمل الاسمية باعتبارها أجب لانتباه المستمع أو المشاهد أو القارئ، وأكثر قدرة على إيصال الخبر وترسيخه في الذهن.

وبدلا من أن يقول الصحفي: يشهد احترام حقوق الإنسان تطورا ايجابيا"، جاء في المقال: احترام حقوق الإنسان يشهد تطورا ايجابيا"⁽³¹⁾، وهذا ناتج عن تأثير تراكيب اللغات الأجنبية على الصحفيين الجزائريين.

- إذا كانت قواعد اللغة العربية تمنع الفصل بين المضاف والمضاف إليه وهذه خصوصية تميزها عن غيرها من اللغات، فقد أصبح متاحا في عصر العولمة الثقافية عند الصحفيين الجزائريين، الذين أصبحت لغتهم تجمع المضافات ثمّ تسندها إلى المضاف إليه، على نحو: أبلغه تحية وتقدير أخيه الرئيس، والصواب أن نقول: أبلغه تحية أخيه الرئيس وتقديره...

ونقرأ مثل هذه الصناعة التركيبية في جريدة الشعب: "تندرج الزيارة في إطار تعزيز وتطوير سبل التعاون والشراكة"⁽³²⁾، والصواب أن نقول: تندرج الزيارة في إطار تعزيز التعاون والشراكة وتطويرهما.

ومما ينبغي ذكره فيه هذا المقام، اللغة المستعملة في الكثر من المحطات الفضائية الجزائرية، فقد أصبحت تقدم بالعامية، مع الابتعاد تماما عن اللغة العربية بل والمشكل في ذلك ادراج كلمات من اللغة الفرنسية والإنجليزية في كلام تلك البرامج، والغريب في الأمر أن شخصية الصحفي تظهر خفيفة الظل من خلال استعمال اللهجة العامية لبيّنوا أنهم متطوّرون وحضاريون.

الصحفي والأمن اللغوي:

إذا كان الأمن الغذائي هو قدرة الدولة على توفير السلع والمواد الغذائية جزئيا أو كليا، فإنّ الجزائر ينبغي أن تتشد سياسة قدرتها على توفير الأمن اللغوي أيضا سياسة تختلف من قطاع إلى آخر، وتخدم جميعها اللغة العربية. يمكن اقتراح بعض السبل التي تلخّص العربية من مصيبتها، بغية ترقيتها أكثر في استعمالها الصحفي، ولأجل ذلك نقترح:

- إدراج مقياس اللغة العربية في معاهد الإعلام والصحافة.
 - فتح تخصص لغة وإعلام، تكون مهمة المتخرجين الإمام بمهمة الصحفي من جهة، وامتلاك الكفاية اللغوية العربية التي تحقق المبتغى، وهو اقتراح في حقيقة أمرها فُتح في بعض الجامعات الجزائرية، غير أنّ عمره لم يدم طويلا، رغم أهمية هذا التخصص في رفع التحدي لمعالجة اشكالات اللغة العربية في ظلّ العولمة الثقافية.

- تدعيم المجلس الأعلى للغة العربية للقيام بدوره في تحسيس الصحفيين والقائمين على المؤسسات الإعلامية في الجزائر بأهمية قضية اللغة العربية وشرعيتها في العصر الراهن.

- إعداد معجم لغوي يفيد الصحفيين في مهمتهم خاصة فيما يتعلق بالمصطلحات العامية والأجنبية التي تستعمل دون البحث عن مقابلها في اللغة العربية.

وفي تحقيق الكفاية اللغوية عند الصحفي، يمكن أن يسهم في القيام بدوره لتحقيق الأمن اللغويّ، من خلال حرصه على مراجعة الصحف قبل طباعها، وهي المهمة التي يتكفل بها المراقب اللغويّ، أو كما يسمى بالمدقق اللغويّ. ويكون الصحفيّ واعياً بأهمية اللغة، ويعمل على إيصالها للقارئ أو السامع، أو المشاهد في نظامها السليم، التي اعتادت العرب المحافظة عليه، ونحن لا يمكن أن ندعيّ بأنّ الصحفيّ ينبغي عليه استعمال لغة بمستواها البلاغيّ الفصيح- وفق تقسيمات الرماني- ولكن نريد أن يؤمن بأنّ كتاباته يمكن أن تكون قناة لتعليم اللّغة العربية، ونؤمن بأنّ النصّ الصحفيّ نصّ ثقافيّ بالدرجة الأولى، قبل الاهتمام بالخبر وتفصيله.

الهوامش:

- ¹ - سليمان بن صالح الخرشبي: العولمة، دار بلنسية، الرياض، ط1، ص6، نقلا عن مجلة اليمامة العدد 1507، تحقيق عن العولمة، ص 22-25.
- ² - محمد محفوظ: الإسلام - الغرب وحوار المستقبل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1998، ص 27.
- ³ - سليمان بن صالح الخراشي: العولمة، دار بلنسية، الرياض، ط1، 1420 هـ، ص 15.
- ⁴ - المرجع نفسه، ص 32.
- ⁵ - الزهراء عاشور: إشكالية الهوية اللغوية في عصر العولمة (اللغة العربية نموذجا)، مجلة دراسات أدبية (مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، العدد السادس ماي 2010، ص 68.
- ⁶ - أحمد بن النعمان: الهوية الوطنية، دار الأمة الجزائرية، 1996، ص 23.
- ⁷ - التنوع الإنساني المبدع: تقرير اللجنة المعنية بالثقافة العالمية والتنمية، تحرير خافييرديكيولار، منشورات اليونسكو، الطبعة العربية القاهرة، مصر 1996، ص 28، نقلا عن الزهراء عاشور: إشكالية الهوية الثقافية في عصر العولمة، ص 71.
- ⁸ - تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص 7.
- ⁹ - مارتن هيدجر: في الفلسفة والشعر، ترجمة عثمان أمين، الدار القومية، ص 78.
- ¹⁰ - سعيد الغانمي: المعنى والكلمات، الموسوعة الصغيرة، دار الشؤون الثقافية، ص 5.
- ¹¹ - فوكو: الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع صفدي وآخرين، دار الإنماء القومي، (د.ط)، 1978 ص 85.
- ¹² - عزي العرابوي: العولمة وأثرها على اللغة، مجلة ذوات، مقال بتاريخ 30-06-2015 www.thewhatnews.net.
- ¹³ - محمد فريد عبد الله، أثر السياحة في اللغة العربية، العربي ع562، وزارة الإعلام دولة الكويت، سبتمبر 2005، ص 21، 20.
- ¹⁴ - عبد الحليم محي الدين - العربية في الإعلام، الأصول والقواعد والأخطاء الشائعة، ص 11.
- ¹⁵ - شرف عبد العزيز: وسائل الإعلام ولغة الحضارة، مؤسسة مختار للطباعة والنشر، القاهرة (د.ط)، (د.ت)، ص 8.

- 16- الزهراء عاشور، مرجع سابق، ص 72
- 17- المرجع نفسه، ص 72.
- 18- نفسه، ص 73.
- 19- محمد عابد الجابري: العولمة والهوية... بين عالمين ، مقال منشور بموقع:
<http://www.mokarabat.com>
- 20- محمد عابد الجابري: المرجع نفسه
- 21- حكيمة بولشعب: تحديات الهوية الثقافية في ظل العولمة، مقال منشور في موقع أنتروبوس،
<http://www.aranthropos.com>
- 22- عبد الرحمن الحاج صالح: الثنائية اللغوية بالنسبة للغة العربية وأوصافها الحقيقية : الإيجابية منها والسلبية، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد 15، جوان 2012، ص 10.
- 23- حكيمة بولشعب: مرجع سابق.
- 24- محي الدين عبد الحليم حسن محمد أبو العينين الفقي: العربية في الإعلام، الأصول و القواعد والأخطاء الشائعة، دار الشعب للصحافة والنشر، ط2، 2002، ص 31.
- 25- حامد طاهر : كيف ننهض باللّغة العربية؟، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، العدد 540، نوفمبر 2003، ص 72.
- 26- رحيمة عيساني: اللّغة العربتجليزية في وسائط الاعلام الجديد أو تهجين اللّغة العربيّة في وسائط الإعلام الجديد، الأنترنات وتطبيقاتها أنموذجاً، ص 20.
- 27- خليفة بن قارة: اللّغة العربيّة في الجزائر من الحظر إلى الحجر، تقديم إنعام بيوض منشورات السائح، الجزائر، ط1، 2016، ص 45.
- 28- المرجع نفسه، ص 71.
- 29- حاج أحمد : هل العربيّة في خطر؟، مجلة رابطة الأدب الإسلامي العالمية الالكترونية 2011/3/6.
- 30- ينظر، جريدة الشروق اليومي الجزائرية، العدد 5377، الصادر بتاريخ 22 فيفري 2017 ص 3.
- 31- نفس عدد جريدة الشروق اليومي، ص 5.
- 32- ينظر، جريدة الشعب الجزائرية، العدد 17266، ليوم 2017/02/16، ص 3.

آثار التغريب الثقافي واللغوي على المجتمع الجزائري.

أستاذة حاكم عمارية

مديرة مخبر الترجمة والتأويل

جامعة الدكتور مولاي الطاهر - سعيدة

ملخص:

اللغة هي مستودع كل الرمزيات، فلم تعد اللغة مجرد أداة للتواصل، لذلك فإن هواجس القضية اللغوية تتمثل أو يمكن اختزالها في مصطلح «الأمن اللغوي» وهو مستوى من الأمن يختزل كل أشكال الأمن الرمزية الأخرى ويستقطبها، وذلك أن الكيانات التي لم تتحصن لغوياً هي كيانات مهددة بإتلاف ثقافتها، وينشأ الصراع عادة من تواجد لغتين مختلفين؛ لغة مهيمنة سياسياً، ولغة أخرى مهيمن عليها سياسياً. وتنادي للصراع بين أبناء الأمة الواحدة التي تملك أكثر من لغة كالعربية والأمازيغية في الجزائر لا بد من الانسجام اللغوي من أجل تحقيق الأمن اللغوي باعتباره مدخلاً للأمن الثقافي، حيث الثقافة في أحد مفاهيمها العامة هي الرؤية الشاملة للحياة؛ إذ تتألف من مجموعة من القيم المستمدة من مصادر ثلاثة هي؛ الدين واللغة والفن هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تتألف من مجموعة أفكار عامة من قبيل الحرية والوطنية والديمقراطية والعدل والجمال والفضيلة؛ حيث إن لكل من القيم والأفكار التأثير البالغ في توجيه السلوك وفي رسم صورة مثلى لحياة الإنسان. والتعليم والثقافة هما جناحان لتنمية الفرد وتكوين قدراته وسلوكه وصياغة فكره ووجدانه حيث تنتقل المعرفة من العالم الكبير إلى القاعدة الجماهيرية بلغة سهلة وميسرة للجميع، وإذا كان العلم لا وطن له، فلثقافة وطن لأنها ترتبط بالبيئة وبالتراب، كما ترتبط بالمجتمع وحياته وتاريخه.

والثقافة هي حصيـلة فكر الأمة ووجدانها، وهي تعبر عن هويّة الأمة التي تجمعها وحدة اللّغة والتاريخ والمشاركة الاجتماعية، ومن الملامح البارزة للثقافة ارتباطها بالتراث وتحديد موقفها منه، والانفتاح على الثقافات والحضارات الأخرى ملمح مهم من ملامح الثقافة، إذ هي الأصل الذي بنيت عليه الحضارة، ولقد نبه العالم روسو إلى قلع الرذائل وزرع الفضائل، فقال: «يتشكل النبات بالزراعة، ويتشكل البشر بالتربية» وهو المبدأ الأساس الذي سنه شيشرون وأخذت به الحضارة الغربية».

وضمن هذا الطرح، سأعالج إن شاء الله في ورقتي البحثية؛ شرح مصطلح التغريب، تعريف الثقافة بإيجاز، تعريف التنوع الثقافي، أثر التعصب للثنائية أو الازدواجية اللغوية (العربية والأمازيغية) أبعاد الانسجام اللغوي والثقافي في ربط أواسر الوطن الواحد، ومدى إسهام هذا الانسجام في نبذ العنف والصراع، وتحقيق التطور الحضاري المنشود.

تعريف التغريب:

ورد في معظم التعاريف للتغريب أنه يمثل تيارا فكريا ذا أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية، تتمثل كل هذه الأبعاد في صيغ حياة الأمم بعامة، والأمة المسلمة خاصة، وذلك بمحاولة إلغاء كل المقومات الشخصية العربية المسلمة، بحيث يصبحون سجناء التبعية الكاملة للحضارة الغربية¹ وهذا الذي حدث منذ احتلال فرنسا للشعب ولأراضي الجزائرية.

ولعل الذي ساهم في تغريب الشعوب العربية هو تلك البعثات العلمية إلى أوروبا حيث معظم الذين عادوا إلى أوطانهم خاصة من كانت لهم مراكز حساسة في الدول كأن تكون سلطة صناعة القرار للذين نقلوا الثقافة الغربية إلى أوطانهم وإلى كل المحيطين بهم، وخاصة في مجال الحكم وفي قطاع التعليم؛ يقول «لورانس براون»: «إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسّع والإخضاع في حيويته، إنه الجبار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي»² لذلك دعا أن يطبع العالم الإسلامي بطابع الغرب الحضاري.³

ولقد عرف «بريخت» التغريب بقوله «إن تغريب حادثة أو شخصية يعني ببساطة تخليص تلك الحادثة أو الشخصية مما فيها ظاهر معروف أو بديهي أو إيقاظ الدهشة أو الفضول بدلا منها. والتغريب في أبسط تعريف له حسب بريخت هو جعل المؤلف غريبا» وإذا ما عرضت مألوفاً لهذا العالم في صورة غريبة فلا بد أنها تثير في مشاهديها رغبة في تغييرها، بحيث إن استخدام عنصر التغريب يسعى إلى إتاحة الفرصة للمشاهد في أنه يمارس نقد الظواهر الاجتماعية بشكل بناء وإيجابي بعيداً عن العاطفة⁴ وإن كان هذا التغريب من منظور بريخت عنصراً إيجابياً في النص والعرض المسرحي الملحمي.

وعلى هذا الاعتبار فالتغريب السلبي هو ذلك التيار السياسي الذي يجعلنا أسرى للتقاليد العمياء للآخر في مناهجه وعاداته وأفكاره وسلوكاته، بحيث تعم مظاهر التقاليد كل مجالات الحياة؛ فتذوب الشخصية العربية أو المسلمة كلياً في الشخصية الغربية وهذا الذوبان يمثل خطراً كبيراً على كل الأمم والشعوب، أولاً على لغتها ومن ثم على كل المقومات الشخصية الأصلية، فتضيع اللغة وتضيع بعدها الثقافة وتحل التبعية وكذا فقدان كل الحقوق؛ لأن التابع لا حق له فالآخر هو من يرسم له سبل عيشه وتصرفاته مصداقاً لقوله تعالى: «وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ»⁵ وفي قوله كذلك: «وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتِطَاعُوا»⁶ كما قال: «إِن يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ»⁷.

إن التأثير والتأثر بالثقافات الأخرى، أمر بديهي ومن خصائص كل الحضارات خاصة إذا كان هذا التأثير والتأثر قائماً على المصلحة والمنفعة، كترجمة العلوم من وإلى العربية في حدود ما لا يخالف عقيدتنا؛ إلا أن هذا الأمر لم يراع منذ الحضارة العربية الإسلامية، حيث إن تأثر البعثات بالفكر الغربي هو الذي أفسد الفكر العربي وجعله يدعو إلى التقليد الغربي بدل التمسك بالدين، وكان هذا الأمر كافياً لكي تسحق الشخصية العربية والإسلامية شيئاً فشيئاً حتى أصبح العالم العربي على ما هو عليه لا هو قادر على التقدم ولا هو قادر على التراجع.

إن تأثير التغريب يمثل خطرا على التراجع في المجال اللغوي والثقافي؛ لذلك فإن السبيل الوحيد لحماية اللغة والثقافة هو وضع معايير أساسية للأخذ والعطاء في كل مجالات الحياة، ولو أن الأمر ليس بالسهولة التي نتوقع، إن أمر تحقيق الأمنين اللغوي والثقافي يستدعي بذل جهود كبيرة من قبل كل المواطنين من قمة القاعدة إلى أبسط مواطن، إذ إن المؤمنين كالبنين المرصوص؛ يشد بعضه بعضا، خاصة في المجتمعات العربية التي تتعدد فيها اللغات واللهجات وحتى الانتماءات العقائدية والسياسية، ولكن الذي يشكل الخطر الأكبر هو اللغة لأنها السبيل لنقل وفهم وترجمة الإبداع والثقافة العربية.

يسعى الغرب منذ مجيء الإسلام إلى طمسه وإلى تشويبه بكل الطرق؛ وأولها تلك البعثات التي تم استغلالها بشكل كلي، ولعل العامل الأساس هو الاحتلال الفرنسي في دول المغرب العربي، والإنجليز في دول المشرق العربي، وعلى الرغم من أن معظم دول العالم العربي قد نالت أو افكتت استقلالها، إلا أن عدوى التغريب لم تتأصل، ولا زال سمها يسري في الفكر العربي الذي أصبح يحتقر لغته، ولا يهتم بدينه، بل إن كل ما يرغب فيه هو العيش في أوروبا.

إن آثار التغريب على الشعب الجزائري لا أحد ينكرها ومهما حاولنا محاربتها فإننا لا نستطيع إلا بتطوير التعليم وتحديثه وتغيير مناهجه والعمل على ترسيخ اللغة العربية في أذهان ونفوس أبنائها، وذلك باستثمار التطور الهائل والسريع في مجال التكنولوجيات الحديثة وكل وسائلها ووسائطها التي هي في متناول الجميع.

ولقد عاش الشعب الجزائري تحت رحمة الاحتلال الفرنسي زمنا طويلا يمثل أربعة أجيال وعلى هذا الأساس فليس سهلا القول بأنه ما كان يجب أن يتأثر الشعب الجزائري بعادات وتقاليد فرنسا، وفي مقدمتها اللغة التي كادت أن تنقرض لولا دفاع وجهود جمعية العلماء المسلمين، ومحبي اللغة العربية والدفاع عنها وعن الإسلام، وكفيينا فخرا ببيت العلامة «عبد الحميد بن باديس»: «شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب *** من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب».

وبناءً على أن للعربية أهلها وللإسلام من يحميه، فقد أصبح من الضروري التفكير فيما يجمع شمل الأمة بدل تشتيتها؛ ولعل الذي يدعونا إلى حمايته أولاً هو اللغة ومن ثم الثقافة، وبما أن الجزائر ليس بها لغة واحدة؛ فإنه ينبغي ترسيم كل لغة وطنية تحمل مقوماتها ذاتها، ونعتقد أن مشكل اللغة الوطنية قد حل، حيث تم ترسيم الأمازيغية لغة وطنية ثانية، وهذا المسعى قد ساهم بشكل كبير في انسجام وتوحيد أبناء الأمة الواحدة.

وإذا كنا ندعو إلى حماية اللغة فلأنها المدخل إلى فهم كل مظاهر الثقافات، ولأنه بفضل اللغة يتم نقل وترجمة الثقافة إلى كل اللغات، خاصة اللغات العالمية وعلى حد تعبير «وليد العناتي»: «فاللغة العربية هي الأساس المتين للثقافة العربية والإسلامية إذ هي الوعاء الحاوي لمنجزات الحضارة العربية الإسلامية وتراثها الثقافي والديني والعلمي، وهي المعجم الذي يفسر مفردات التاريخ الثقافي والحضاري للعرب والمسلمين وهي الماضي الذي تستمد من مقولاته وجود حاضرنا ونستشرف منه آفاق مستقبلنا..... فاللغة أداة تلقي المعرفة وأداة التفكير ورمزه وتجسيده، إنها الفكر نفسه في حالة العمل، فليس ثمة فكر مجرد يغير رموز لغوية، ولا تفكير إلا بالألفاظ، واللغة من جهة أخرى تمثل ذاكرة الأمة، تخزن فيها تراثها ومفاهيمها وقيمها، فهي أداة التواصل بين الماضي والحاضر، وتمثل الذاكرة الحضارة وقوام الشخصية ومناطق الأصالة»⁸

وعلى أساس أهمية اللغة بالنسبة لكل المجتمعات، تسعى كل الدول إلى الحفاظ على لغاتها من الانقراض، وذلك ببحث سبل تطويرها، خاصة مع ظهور التكنولوجيات الحديثة، وهيمنة اللغة الإنجليزية على العالم كله؛ الأمر الذي أدى إلى تخوف معظم الدول على لغاتها فأسرعت إلى محاولة الحد من هذه الهيمنة، وذلك بتطوير لغاتها عن طريق صناعة الإبداع والابتكار الذي يشمل اللغة والثقافة معا.

الثّقافة والتكنولوجيا ومسألة التفاعل:

إننا نمر بلحظة حضارية فارقة، ولعل هذا هو الدافع الحقيقي للخوض في موضوع آثار التغريب اللّغوي والثّقافي على كل الشعوب العربيّة عامّة، والشعب الجزائري خاصة لأنه لم يتخلص منذ الاستقلال (1962) من التبعية اللّغوية الفرنسية، خاصة وأن هناك من يشجع على بقاء هذه التبعية بحجة التواصل مع الدول الأجنبيّة الأوروبية وهذا لا يعني أبداً أننا لا نريد الانفتاح على الآخر ولكن على أن لا يتحول هذا الانفتاح إلى تبعية بل إلى الاستفادة مما ينتجه الآخر في حدود عقائدنا ومصالحنا التي لا تتعارض مع هويتنا أو ثقافتنا.

وعلى اعتبار أن اللّغة هي اسمنت الوحدة الوطنيّة وإذا كان العلم لا وطن له كما يشاع، فإن للثقافة وطناً لأنها ترتبط بالبيئة والتراب كما ترتبط بالمجتمع الذي يقف عند الأصول والمبادئ والمفاهيم العامّة، حيث الذي يعطيها التميز هو جوانبها الإقليميّة والوطنية المحليّة، وحرية الثقافة ألزم ما تكون بالأمة في الفترات الفاصلة في تاريخها حين تواجه في حياتها السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة ضرورة التغيير، ومن الملامح البارزة للثقافة ارتباطها بالتراث وتحديد موقفها منه، والانفتاح على الثقافات والحضارات الأخرى.

إن الثقافة هي الأصل الذي بنيت عليه الحضارات ولقد نبه العالم «روسو» إلى قلع الرذائل وزرع الفضائل حين قال «يتشكل النبات بالزراعة ويتشكل البشر بالتربية»⁹ وهو المبدأ الأساس الذي سنه «شيشرون». وأخذت به الحضارة الغربيّة عندما نقلت الثقافة من إطار محصور في فلاحه الأرض، (حيث نظر إلى الفلسفة على أنها فلاحه النفس¹⁰)، إلى الإطار العام للعناية بالأدب والفنون والعلوم لزراعتها في العقول والنفوس، وجعلها ذخائر الإنسان في علاقته بذاته وبالعلم الذي ينتمي إليه، فالقيم والرؤى التي يكتسبها الإنسان ويطور بها مكانته وخصاله هي «الثقافة»، حيث انتقلت فكرة الثقافة من البيئة الطبيعيّة إلى الصياغة الحضارية.¹¹

ولعل المنتبِع لمفهوم الثقافة من منظور فلسفي يدرك أن الثقافة انتقلت من الترحال إلى الاستقرار، وذلك أن لكل أمة أو حضارة ثقافتها التي تميزها عن الحضارات الأخرى، وإذا كنا قد قرأنا هذا في الكتب فقط، أو شاهدناه هذه على الصور أو شاشات التلفاز قديما، فإننا أصبحنا اليوم نعيش في كل حضارة أو نتعرف على ثقافة كل حضارة ونحن جالسون في بيوتنا عن طريق وسائط التكنولوجيات الحديثة ووسائلها وتقنياتها السريعة التطور التي لم يشهد لها العالم مثيلا.

وعلى أساس التكنولوجيات الحديثة فقد أصبح من السهل التعرف على كل ثقافات العالم؛ إلا أن هذه الثقافات يمكن تقليدها ونشرها في كل بقعة من العالم؛ «وتبدو الإنترنت فاعلة ضمن سيرورة عولمة الثقافات، إذ تدفع بالثقافات التي تأخذ بها كتكنولوجيا إلى الوصول إلى فضاءات لم تكن متاحة من قبل وطرحها نفسها كمرجعية قيمة كونية للعالم؛ إنها تستثمر الإمكانيات التكنولوجية الهائلة التي تتيحها آليات المسح الضوئي في أحدث نسخها لإنجاز هذه المهمة»¹²

ولعل من إيجابيات التكنولوجيا أنها تساعد على نشر اللغة والثقافة نشرًا واسعًا وسريعًا، وعلى حد تعبير «عبد السلام المسدي» «إن أول ما تتأسس عليه الثقافة هو توفر مصادر المعلومات وتعدد مصادر [ها]، والإرتياض باختيار موارد المعلومات، وأعظم ما في ذلك وأجله هو توطين النفس على ألا تزهد في أي معلومة ثقافية مهما بدا شأنها صغيرا: حيث إن قيمة المعلومة ترتبط بزمنها، ولأن وقعها في مسالك الحدث يرتهن باللحظة التي تدخل معها في جدلية العقل والتأثير»،¹³ إذ تزداد أهمية المعلومة بوزنها في ذاتها ثم باننتشارها المتكاثر لأنها تمثل لمجرى عناصر التنمية البشرية التي تتعلق بالنشاط الإنساني.

وانطلاقًا من أهمية المعلومة كيفما كان حجمها، غدا من الضروري حماية اللغة الأصل وثقافة الوطن؛ إذا كانت الأوطان ليس بها لغة وطنية واحدة فحري بنا تأمين كل هذه اللغات لأن لها علاقة بالتاريخ والعقائد والعادات والتقاليد وبكل ما أنتجه ساكنوا كل بيئة في العالم، من علوم وآداب وموسيقى وفنون وغيرها من كل ما يمت

للتقافة بصلة «ولقد انتبه الفكر البشري الحديث بنوع من الطفرة الواعية إلى أهمية المعلومة في حد ذاتها وإلى خطرها البعيد في توليد الثقافة وتصنيعها».¹⁴

ونعتقد أن الدافع إلى الابتكار وصنع المعرفة واختراع التكنولوجيات بكل وسائلها راجع إلى قيمة «المعلومة» لذلك فقد فكر الإنسان في تخزينها، فأحدث «بنك المعلومات» حيث يستطيع كل فرد وفي كل حين العودة إليه للبحث عن أي معلومة عن الإنسان عبر كل العصور وفي كل أنحاء العالم، دون نسيان سياق وبيئة كل معلومة حيث إن كل معلومة مرتبطة بلغة ما وثقافة مجتمع ما.

وفي عصرنا الراهن؛ عصر انفجار المعرفة، ينبغي على كل المجتمعات معالجة وتفعيل وترجمة لغتها وثقافتها حتى يتمكن كل فرد من فهمها وفي طريقة تفكير معظم الشعوب التي لها لغة قومية وثقافة خاصة.

إن استثمار التكنولوجيات بكل وسائلها سيساهم بشكل كبير في إعادة إنتاج المجتمع بصورة جديدة؛ وتجدر الإشارة إلى أن التكنولوجيات الحديثة في وسائل الاتصال الرقمي قد أحدثت فجوة كبيرة في واقع العلاقات بين الغرب والشرق؛ وإن كانت هذه الفجوة موجودة منذ زمن بعيد، إلا أنه قد تعمقت وزاد حجمها أكثر، وخاصة مع الدول المتقدمة التي تمتلك التكنولوجيات، والدول النامية التي تفنقر إليها وفي ظل هذه الفجوة الرقمية، أصبح من غير الممكن أن تعيش دولة ما منعزلة عن العالم، فقد أدى نمو وسائل الاتصال والتكنولوجيات الحديثة وتطورها السريع إلى تغيرات شاملة في الحياة الثقافية لأي مجتمع متاحة للجميع، وفي متناول كل من يريد أن يتوقف، فتوطدت بذلك علاقات بعض الدول، وساعت علاقات بعضها، كما توطدت علاقة الأفراد في كل أنحاء العالم؛ وبذلك فقد انقضى عصر العزلة، والاختيار الحر هو طابع الثقافة الجديدة حيث تسود حرية الرأي والفكر.¹⁵

ولعل من سلبيات الثقافة الرقمية أنها شجعت على التقليد الأعمى، مما أثر على قدرة الإنسان للابتكار والإبداع والنقد والتحليل؛ يرى بعض النقاد أن التكنولوجيات قد ساهمت بشكل أو بآخر في ظهور ما يسمى «صراع الثقافات وإحداث مواجهات غير

معهودة قد تؤدي إلى الغزو الثقافي أو إلى الإفكار والتبعية الثقافية لصالح بعض الدول وهذا ما يحدث حاليا مع الهيمنة الأمريكية»¹⁶.

ساهمت التكنولوجيات الحديثة في عولمة الثقافة، كما ساهمت في ظهور ما يسمى بالتنوع الثقافي - حيث أصبح بمقدور الدول الاستفادة من الاختلاف الثقافي والإسهام بعملهما في المحافظة عليه للأجيال القادمة فجميع الثقافات ثقافات خلاقة وديناميكية مع أن كل منها تبقى فريدة من نوعها وغير قابلة للاستبدال، حيث إنه يمكن أن يضع جيل من حضارة أو تتعرض هذه الحضارة نفسها للضياع، وعلى هذا الأساس فمن الضروري خلق جو يتيح لجميع الثقافات أن تتفتح على بعضها؛ حيث ينبغي أن يشكل التنوع الثقافي دافعا نحو تعزيز الاحترام والاعتراف للآخر بما لديه من خصوصيات وتقاليد ومميزات إذ لم يعد ممكنا ولا معقولا التطرف والتزمت وإقصاء الآخر في عالم القرية الكونية الواحدة.¹⁷

وفي جو عولمة الثقافة، أصبحت كل دولة تخشى على لغتها وعلى ثقافتها، وعلى هويتها، وخاصة الدول العربية، لأنها تنظر إلى العولمة على أنها أداة للهيمنة للغطرسية وسيطرة القوي على الضعيف وابتلاع السريع للبطيء، في حين إنه يمكن النظر إلى العولمة من منظور إيجابي، وذلك باستثمار كل جديد في مجال العولمة أو التكنولوجيات الحديثة لصالح ثقافتنا بحيث تعمل على نشرها من أجل أن يتعرف عليها الآخر من كل دولة في أنحاء العالم، ومن هنا وجب استثمار التكنولوجيات في عولمة الثقافة لترسيخ التنوع الثقافي من أجل تعزيز التعايش وحوار الأجيال جيلا بعد جيل. فالتكنولوجيات ووسائل الاتصال بإمكانها الاعتراف والمحافظة على الحقوق الأساسية باعتبار التنوع الثقافي مصدر مهم في مجال التعريف بهوية الإنسان وحقوقه الأساسية، واختلاف الثقافات التي نعرفها هي نتاج لآلاف الأعوام من تفاعل الإنسان مع محيطه ومع الطبيعة ومع علاقاته بين شعوب ذوي أعراق ومعتقدات وأنماط عيش مختلفة.¹⁸

التنوع الثّقافي والتنوع اللغوي:

يمثل التنوع اللّغوي التجلي الأكبر لمبدأ التنوع الثّقافي، وبناقراض اللّغات تنقرض الثّقافات التي تعتبر اللّغات الناطق الرسمي باسمها، والمعبر عن رمزيتها،¹⁹ لذلك فإن بعض اللّغات تعاني من التراجع والتفقر، وإذا كانت بعض اللّغات قد انقرضت فإن بعضها قد انتشر بشكل رهيب ومن هذه اللّغات: الانجليزية التي أصبحت تمثل لغة الكون، لأنها لغة التكنولوجيا، في حين احتلت اللّغة العربيّة حسب الإحصاءات المرتبة السابعة من حيث عدد متكلميها، وبعدها الفرنسية التي يمجدها الجزائريون.

إن حفاظ كل أمة على لغتها واجب قومي، فاللّغة ظاهرة كونية فلا وجود لشعب من دون لغة، لها خصائص تميزها عن غيرها وتكاد «اللّغات الكونية» أن تكون بلا تاريخ، بلا زمن أول يحدد ظهورها، ذلك أنها أداة تواصل تلازم التعامل بين البشر، وضرورة حياتية، فالإنسان لا يستطيع تأمين حاجاته من دون واسطة تصل بين أفراد المجتمع وتجعل عيشهم المشترك ممكناً، وهي مرجع لا بد منه يتيح لكل إنسان أن ينقل أحوال «هويته» إلى العالم الخارجي، وهي تلك القوة التي تدفع إلى الأعمال وتحض عليها... إن اللّغة من صميم الشعوب التي تتحدث بها، فهي الفكر والفكر منها...، وتتعين اللّغة عنصراً من عناصر القومية".²⁰

وعن قومية اللّغة قال «حافظ إبراهيم»: «واعلم يا ولدي أن عز الأمم موقوف على عز اللّغات، وأن حياة اللّغات مستمدة من حياة آدابها، فإن ظهر علم الأدب في شعب كان ذلك آية لظهوره وعلامة على استعداده فهو الذي يهيئه لقبول أسباب الرقي والعمران....»²¹.

وعلى العموم، فاللّغة تقوى بقوة الناطقين بها، وتضعف بضعف استعمالها خاصة في بيئتها الأصل، ولقد تطورت اللّغة العربيّة وازدهرت بعد مجيء الإسلام، حيث دخل كثير من الأفراد إلى الإسلام، كـ"سيبويه" وغيره من العلماء الذين ألفوا بالعربيّة عن العربيّة بكل مستوياتها.

إلا أن هذا الازدهار بدأ يتضاءل بعد العصر العباسي حيث تعرضت معظم الدول العربية للاحتلال والحروب وكان أول عنصر يقصد المحتل إلى طمسه هو اللغة، كما حدث في معظم دول العالم العربي، والجزائر نموذج الاحتلال الفرنسي الذي لم نتخلص من تبعيته اللغوية إلى يومنا هذا، حيث تمس التبعية معظم القطاعات الحساسة، السياسية والاقتصادية، وفي قطاع التعليم العالي، فقد تم حذف تدريس العربية من معظم الشعب العلمية والتقنية، كالطب، والهندسة والفيزياء والرياضيات، والتكنولوجيا، بالإضافة إلى أقسام اللغات الأجنبية.

وينفي «دافيد كريستال» هيمنة اللغة الانجليزية على بقية اللغات، وهو يفسر التحول من اللغة الانجليزية إلى اللغات المحلية بسلوك هؤلاء الذين ترجح لديهم كفة القضايا اللغوية على قضايا المعلومات، والأمر يحيل إلى تعددية لغوية وهو الذي عبر عنه رئيس القسم الفرنسي للخدمات اللغوية المركزية في الإدارة الفيدرالية السويسرية «مارسيل جرانجيار» قائلا: «يمكن النظر إلى أثر التعددية اللغوية على الانترنت بوصفها حتمية، وفوق كل شيء لا يمكن تجنبها، ومن وجهة النظر هذه، لا بد لنا من أن نسخر من مفسدي فرحتنا الذين يكتفون بالشكوى من سيادة اللغة الانجليزية، ولا يرون العاملين على التعددية اللغوية، ذلك أن العالم لا يختصر في لغة انجليزية ولغات مضادة لها، وإنما يتعين بالتقافات التي تتحاور وتتصادم فيه، فإرضاء في النهاية تعددية لغوية آخذة بالتزايد والاتساع»²²

الازدواجية اللغوية:

وهي وجود أكثر من لغة قومية داخل المجتمع الواحد، كالعربية الفصحى والعامية أو العربية والأمازيغية أو الشاوية والميزابية) في الجزائر، إلا أن هذا التعدد والازدواج لم يكن يوما ليفرق أبناء الوطن الواحد، لولا تدخل المحتل ليستغل هذا الازدواج اللغوي ليحارب الإسلام، وما كان أن يتحقق له هذا المسعى إلا بمحاربة العربية، فقام المحتل الفرنسي قديما بتحريض الأمازيغيين الجزائريين، وبتشجيعهم

على نشر لغتهم بدل اللغة العربية، حيث إن الإسلام هو الذي وحد أبناء كثير من المناطق والأمم على الرغم من اختلاف اللغات القومية.

وبعد تظن معظم الأمم إلى إيجابيات التعدد اللغوي أو اللهجي، فلم يعد يشكل هذا التعدد معضلة أو صراعا، خاصة بعد اعتراف بعض الدول أو بترسيم لغاتها الوطنية الثانية إلى جانب العربية تقاديا لتشتيت أبناء الأمة الواحدة.

نشير إلى أنه لم تعد مسألة التعدد هي التي تخيف، بل أصبح الخوف من النظرة أو الاستغلال السيء أو السلبي لوسائل الاتصال والتكنولوجيات الحديثة، لذلك فإن تأمين اللغة والثقافة هما العنصران الأساسيان لخلق الانسجام بين أبناء الأمة الواحدة، وذلك بتطوير كل مكونات الثقافة المحلية، ونشرها من أجل الاعتراف بها في كل بقاع العالم، أي انتقال الثقافة من الخصوصية إلى الكونية ومن منظور «نهاد الموسى» «إن اللغة في وجه رئيس ظاهرة اجتماعية، ولكن المجتمع ليس ظاهرة لغوية خالصة، إذ تتنازع مرجعيات ثقافية سياسية اقتصادية ومتغيرات كونية، ويصبح تفكيك هذه المرجعيات ضرورة لازمة لتصحيح موقف أبناء اللغة منها على بينة»²³

ومن أعظم الروابط لشد أواسر أبناء الأمة الواحدة حتى ولو اختلفت اللغات، رابط الدين والعادات، حيث يمثل الدين أعظم رابط للاستقلال عن أمم أخرى وفيما يخص العادات فقط تظن العلماء في العصور الأخيرة لرابطة العادات من عظيم شأن في جمع شتات الأفراد وتأليف مجموعهم وما لها من الأثر في تطور الذهنية وشكل التعايش والانسجام والوحدة الوطنية، ولقد أصبحت عادات الأمم تدرس، فنشأ الفولكلور، وعلم الانتوغرافيا الذي أصبح أساسا لعلم الاجتماع.

فاللغة والدين والعادات بإمكانها ربط الماضي بالحاضر، وتواصل الأجيال جيلا بعد جيل، وبالتالي حوار الحضارات أو قبولها للاختلاف واحترامها له، حيث إن التنوع اللغوي والثقافي هما مكسبان ثمينان لكل الأمم والحضارات، «فدين الأمة يحمل إليها قسما كبيرا من مجدها التليد وتاريخها الغابر، ولغة الأمة صورة صادقة لتلك الحياة المشتركة التي عاشها أفراد الأمة معا، وعادات الأمة هي ما نقلته الأجيال

من ذكريات آباء وأجداد أعزاء طواهم الدهر، ومن المعلوم أن الأمة كالفرد لا ترتجل ارتجالاً، بل هي ثمرة ذلك الماضي البعيد الذي ما برحت تطبع بطابعه وتجري على غراره، فتجعل منه مقوماً هاما من مقومات استقلالها الذي تنعم به أو تطمح إليه.²⁴

اللغة والثقافة والتماسك الاجتماعي:

التماسك أو الانسجام هو الاتفاق والتلاحم والتعايش بين أفراد المجتمع، ويشكل التلاحم أو التماسك الاجتماعي بين مكونات المجتمع أو الأمة الواحدة قوة ضرورية لتعزيز المشاركة المكثفة في كل جوانب التنمية ومختلف مراحلها، وضمانة لنجاحها «فما هو ثابت لدينا أن المجتمع المنسجم لغوياً هو الأكثر قوة وصلابة وتعايشاً وتقاهماً وتعاوناً في كل معارك الحياة، وأهمها معركة التنمية من المجتمع المفكك لغوياً، والانسجام اللغوي يؤدي إلى الانسجام الثقافي والفكري والاجتماعي، والتقريب بين الآراء ووجهات النظر وتقليل من حجم الاختلاف والانشقاق والتصدع والتصادم»²⁵.

الأمن اللغوي والثقافي:

من الركائز الأساسية في تحقيق الأمن اللغوي والثقافي، وفي تحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي، وتوفير السلم الاجتماعي والتنمية الشاملة بكل شروطها ومقوماتها، وأولها الديمقراطية والحرية والمساواة في الحقوق والواجبات وحقوق الكل في التعليم والرعاية الصحية، بالإضافة إلى العمل ومضاعفة الإنتاج لزيادة النمو الاقتصادي، وتشجيع كل النشاطات الثقافية والإبداعية من إبداع وابتكار وفنون، رسم ونحت، موسيقى، فالتنمية تحقق الاستقرار، والاستقرار يوطد أركان التنمية، والاستقرار في عمومها هو الأمن السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي.²⁶

ولا يتحقق الأمن والاستقرار إلا بحماية اللغة الوطنية المشتركة أما عن اللغات الوطنية الأخرى في البيئة نفسها، فلقد عاشت العربية الفصحى عبر تاريخها كله مع سائر بيئاتها وجيناتها من اللهجات المنحرفة أو المتطورة دون أي صراع أو تقاتل،

وحتى الأمازيغية فإنها منذ فجر التاريخ لم تتصارع مع العربية الفصحى، إلا إذا تم تحريض الناطقين بها ضد العربية وهذا الذي يسعى بعض المتطرفين إلى نبشه من أجل زرع الفتنة بين أبناء الأمة الواحدة، لذلك فإن أجل وأعظم صنيع قامت به الحكومة الجزائرية هو ترسيم الأمازيغية لغة وطنية ثانية حيث بهذا الصنيع أغلقت كل منافذ تفكيك أبناء الجزائر.

وختاما فإن آثار التعريب هي التي أوصلت معظم الشعوب إلى التشتت، لكن مع ظهور التكنولوجيات الحديثة وكل وسائلها التواصلية، فقد تفتنت الأمم إلى كل الأغراض الدنيئة؛ لذلك فإننا متفائلون بأن آثار التعريب في طريقها إلى الزوال، يبقى فقط عملية التأثير بالديمقراطية الغربية والتقليد الأعمى في كثير من مظاهر الحياة، لكننا نعتقد أن إعادة النظر في مناهج التربية والتعليم وسبل العيش بإمكانها أن تحد من بقايا التعريب ومحاولة طمس الشخصية العربية والجزائرية.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم:

1. الصادق رابح: قراءة في الرهانات الثقافية والاجتماعية للتكنولوجيات الشبكية الحديثة- مجلة الاتصال والتنمية- دار النهضة العربية- بيروت- ع1 (تشرين الأول) 2010.
2. الظاهرة اللغوية واللغة العربية- المجلة الثقافية- الجامعة الأردنية- العدد 2016/90.
3. عبد السلام المسري: الهوية العربية والأمن اللغوي (دراسة وتوثيق)، المركز العربي للأبحاث ودراسة اللسانيات- بيروت- لبنان- ط01- 2014.
4. عبد العلي الدغيري: لغة الأمة ولفة الأم (عن واقع اللغة العربية في تشتتها الاجتماعية والثقافية)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 2014.
5. عبد الكريم علي الدبيسي وزهري ياسين الطاهات: دور وسائل الاتصال الرقمي في تعزيز التنوع الثقافي- مجلة الاتصال والتنمية- المركز العربي- دار النهضة- بيروت- العدد 2012/06.
6. فيصل دراج: اللغة في زمن الانترنت (اللغة وقضايا الحياة والاختلاف)، المجلة الثقافية ع2016/90.
7. كاظم الداغستاني: اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات الاستقلال، المجلة الثقافية العدد 2016/90.
8. محمد شوقي الزين «سؤال ثقافة من وجهة نظر فلسفية»- مجلة عالم الفكر- المجلس الوطني للثقافة- الكويت- ع 02/ المجلد 43 (أكتوبر-ديسمبر) 2014.
9. نهاد الموسى: العربية في مدار الزمن، بعد اجتماعي، المجلة الثقافية ع2016/90.
10. وليد العناتي: العربية في اللسانيات التطبيقية- دار الكنوز والمعرفة العلمية للنشر والتوزيع- الأردن- ط01- 2011.

الإحالات

- ¹ ينظر : www.saaaid.nd.feraq.mthadas.
- ² الموقع نفسه
- ³ الموقع نفسه
- ⁴ ينظر: التغريب عند تولد بريخت (التغريب نصا) - رانيا فتح الله 2012/05/03، موقع، www.m.abewar.org.
- ⁵ سورة البقرة الآية 120.
- ⁶ المرجع نفسه، الآية 217.
- ⁷ سورة الممتحنة الآية 02.
- ⁸ وليد العناتي: العربية في اللسانيات التطبيقية- دار الكنوز والمعرفة العلمية للنشر والتوزيع- الأردن- ط01- 2011- ص 159.
- ⁹ ينظر: محمد شوقي الزين «سؤال ثقافة من وجهة نظر فلسفية»- مجلة عالم الفكر- المجلس الوطني للثقافة- الكويت- ع 02/ المجلد 43 (أكتوبر-ديسمبر) 2014- ص 181-180
- ¹⁰ المرجع نفسه، ص 183-182.
- ¹¹ ينظر نفسه، ص 183.
- ¹² عبد السلام المسري: الهوية العربية والأمن اللغوي (دراسة وتوثيق)، المركز العربي للأبحاث ودراسة اللسانيات- بيروت- لبنان- ط01- 2014- ص 220-221.
- ¹³ الصادق رابح: قراءة في الرهانات الثقافية والاجتماعية للتكنولوجيات الشبكية الحديثة- مجلة الاتصال والتنمية- دار النهضة العربية- بيروت- ع1 (تشرين الأول) 2010- ص 08.
- ¹⁴ عبد السلام المسري: المرجع السابق - ص 222.
- ¹⁵ عبد الكريم علي الدبيسي وزهري ياسين الطاهات: دور وسائل الاتصال الرقمي في تعزيز التنوع الثقافي- مجلة الاتصال والتنمية- المركز العربي- دار النهضة- بيروت- العدد 2012/06- ص 31.
- ¹⁶ وسائل الاتصال الرقمي والتنوع الثقافي- المرجع السابق- ص 33-34.
- ¹⁷ نفسه ص 41.
- ¹⁸ ينظر المرجع السابق، ص 41.
- ¹⁹ ينظر المرجع نفسه، ص 47.

²⁰ الظاهرة اللغوية واللغة العربية- المجلة الثقافية- الجامعة الأردنية- العدد 2016/90، ص04

²¹ نقلا عن المرجع السابق ص05.

²² فيصل دراج: اللغة في زمن الانترنت (اللغة وقضايا الحياة والاختلاف)، المجلة الثقافية ع2016/90، ص20-21

²³ نهاد الموسى: العربية في مدار الزمن، بعد اجتماعي، المجلة الثقافية ع2016/90، ص29.

²⁴ كاظم الداغستاني: اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات الاستقلال، المجلة الثقافية العدد 2016/90، ص76.

²⁵ ينظر عبد العلي الدغيري: لغة الأمة ولفة الأم (عن واقع اللغة العربية في تنشئتها الاجتماعية والثقافية)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 2014، ص27-28.

²⁶ ينظر المرجع نفسه، ص52-53.

التعايش بين العربية والأمازيغية مظهر من مظاهر ثراء لغوي وثقافي

طالبة دكتوراه مريم قدار

جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف

الملخص:

تتعايش بالجزائر لغتان: العربية والأمازيغية جنباً إلى جنب منذ الفتوحات الإسلامية إلى يومنا هذا، والعربية هي اللغة الرسمية بعد أن اعتنقها الأمازيغ طوعاً وليس فرضاً، ودوتوا بها تراثهم الفكري والثقافي.

رغم محاولات الفصل بين اللغتين من طرف أياد أجنبية كالاستعمار بمختلف أنواعه، وأياد داخلية أرادت افتعال النزاع بينها لتحقيق أغراض سياسية إلا أنهما بقيتا تتعايشان في انسجام وتوافق تام، وهذا ما حقق لنا تنوعاً وثراءً ثقافياً.

Résumé

En Algérie deux langues : l'arabe et l'amazighe coexistent côte à côte depuis les conquêtes islamiques à ce jour, et l'arabe est la langue officielle après avoir été adoptée volontairement par les Amazighs et non imposée et cela leurs a permis d'écrire leur patrimoine intellectuel et culturel.

Malgré les tentatives de séparer les deux langues par des mains étrangères telles que le colonialisme de toutes sortes et les mains internes qui voulaient enflammer le conflit entre elles à des fins politiques, elles coexistent toujours en harmonie et cela nous a permis de réaliser une richesse linguistique et culturelle.

الكلمات المفتاحية: الأمازيغية- العربية- التعدد اللغوي - التعايش اللغوي- التنوع

الثقافي - الثراء اللغوي - الأمن الثقافي - الأمن اللغوي.

مقدمة:

تستعمل اللغة للتواصل، بها يحصل التخابر والتفاهم مع الآخرين، وعن طريقها يتم تبادل الأفكار والمشاعر والآراء، ومن خلالها تُبنى سبل التكافل والتعاون، وتعدّ اللغة اليوم عاملاً رئيسياً في بناء الشخصية الفردية والجماعية تحفظ الهوية وتحميها من الانسلاخ والذوبان، فهي من العناصر الأساسية المهمة في الحفاظ على وحدة وتماسك المجتمع، هي مرآة للشعوب والأمم تعكس ثقافتها وتحفظ موروثها وتدلّ على هويتها ومدى تحقق وحدتها.

اللغة فن وعلم وسلاح في يد من يدرك وظائفها وأدوارها لأنها تبني الفرد والمجتمع، وبهذا فهي أخطر من أن تكون مجرد أصوات تستعمل للتواصل خاصة عندما تكون جامعة لأكثر من قومية أو أكثر من دين أو أكثر من عرق أو أكثر من طائفة، وبهذا تتجاوز إيطارها الضيق لتعبّر عن المشترك الأوسع في الانتماء. الوضع اللغوي في الجزائر يُظهر التعدد، إذ يظهر لنا لسانان من أرومة واحدة بينهما تاريخ مشترك، لكن المتغيرات السياسية في السنوات الأخيرة أظهرت للواجهة قضية العربيّة والمزيغية. فما نوع العلاقة بين العربيّة والمزيغية؟ كيف تعايشت اللغتان معاً؟ هل هما في صراع دائم؟ هل تواجههما جنباً إلى جنب مدعاة للتعايش وتحقيق الأمن الثقافي واللغوي أم عاملاً لحدوث الصراع والانشقاق والتنافر وتصدّع الهوية الوطنية؟

سمات الوضع اللغوي في الجزائر:

المنتبّع للوضع اللغوي في الجزائر يشهد أنه كغيره من المجتمعات يتشكل من نسيج مجتمعي متنوّع في أصوله العرقية واللغوية، إذا فهو مجتمع متعدّد لغوياً. والتعدّد اللغوي يعني أن أفراد الأمة يستعملون أكثر من لسان واحد، أي استعمال أكثر من لغة واحدة، حيث لا يوجد في العالم قطر من الأقطار يتكلم أهله لغة واحدة، فجميع الأقطار متعدّدة اللغات، ويرجع ذلك لأسباب تاريخية نحو

الاستعمار ومخلفاته الثقافية، أو أسباب اقتصادية أو دينية أو حضارية فرضها التقدم العلمي والتطور التكنولوجي و..... يذهب الباحث المغربي " محمد الأوراغي إلى تعريفه على النحو الآتي: «التعدّد اللّغوي يصدّق على الوضعية اللسانية المتميّزة بتعايش لغات وطنية متباينة في وطن واحد، إما على سبيل التساوي إذا كانت جميعها لغات عالمية.... وإما على سبيل التفاضل إذا تواجدت لغات عالمية كالعربية بجانب لغات عامية»¹، فالتعدّد اللّغوي في أبسط تعريف له هو استخدام لغات متعدّدة في مجتمع واحد.

فمثلا في الجزائر إلى جانب اللّغة العربيّة توجد اللّغة الأمازيغية.

فالتعدّد اللّغوي ظاهرة اجتماعية لا تستدعي النفور من لغة إلى أخرى أو التعصب لواحدة لأنها تُمثّل حمولة ثقافية تعبّر عن صيرورة حال أصحابها، إلّا أنّ تقبّل التعدّد اللّغوي يختلف من دولة لأخرى فهناك من يعترّ بذلك ويعتبره نعمة فيستغله ليرفع شأنه ويزداد تقدّمه، وأمنه اللّغوي والثقافي، وهناك من لم يحسن فهمه والتعامل معه والعمل به، فصار نقمة عليه، زاده تدينا وتدهورا وتشتتّا كحال أغلب الدول العربية، في حين أنّ الدول المتقدمة تولى اهتماما كبيرا للتعدّد اللّغوي لأنه ينتج تنوّعا لغويا وثقافيا إن أحسن استثماره وقد يكون التعدّد اللّغوي عاملا من عوامل إذكاء الفتن والنزاعات السياسية.

اللّغة العربيّة:

اللّغة العربيّة هي اللّغة الرسمية في الجزائر، لها شرف أنها « واحدة من اللغات السامية الضاربة في عمق التاريخ وأنها حظيت بالميزة الكبرى من بين سائر لغات العالم، الميزة التي استحققت بها الخلود والصمود والشرف الباقي إلى يوم القيامة»² فهي لغة دين سماوي جامع، فلمّا كان الشعب الجزائري مسلما كان لزاما أن تكون هي لغته الرسمية فهي من أبرز مقوماته الشخصية الوطنية، هي لغة رسمية في الإدارة والمدرسة والمؤسسات والجامعات و.... تتميز بالشيوع والانتشار في كل القطر والحدود الوطنية، تُستعمل في التواصل والتعبّد الشرعي والتتقيف الوطني

والتماسك الاجتماعي والتواصل الدولي، فهي تاج الأمة وحافظة تراثها على مرّ العصور والأزمات، نافح الجزائريون عن لغتهم وتصدوا للاستعمار الذي حاول طمس اللغة العربيّة والهويّة العربيّة الجزائرية، عن طريق القضاء على اللّغة العربيّة واستبدالها باللّغة الفرنسية، إلاّ أنه كُتب لها البقاء بفضل تشبُّث الشعب برمز هويته وسيادته. فقد كان للمساجد والزوايا دورا عظيما في ذلك، يقول البشير اللاّبراهيمي: «إن لغة العرب قطعة من وجود العرب وميزة من مميزاتهم ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة»³.

واللّغة العربيّة بالنسبة للجزائريين هي «ثروة إنسانية وقد استفادت منها الكثير من اللغات، وإن اندثارها يعني ذهاب أهم مورد من الموارد المغذّية للغات الإنسانية»⁴ فواجبا نحن حمايتها والذود عنها من الهجمات التي تستهدفها وتحاول ضربها .

المازيغية:

اللّغة المازيغيّة هي اللّغة الأصليّة لسكان الأصليين للجزائر الذين هم بربر أو أمازيغ.

يعتبر البربر سكان شمال إفريقيا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، تعرّضوا للاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي في القرن السادس الميلادي، وفي القرن السابع الميلادي جاءت الفتوحات الإسلامية على يد العرب. بالنسبة لأصل البربر فقد جاء في كتاب عبد الرحمن الجليلي أن البربر هم أول من سكن شمال إفريقيا، وهم ساميون من أبناء مازيغ بن كنعان، فهم أمة عظيمة انتقلت من جنوب فلسطين إلى إفريقيا في فترات مختلفة عبر دفعات متفرقة⁵، ما يميّز بربر شمال إفريقيا هو محافظتهم على بعض مميزاتهم بخلاف الأجناس الأخرى في المشرق التي دخلت الإسلام مثل المصريين أو الشعوب السامية الأخرى في الشام التي اندثرت لغاتها الأصليّة، وتبنّت اللّغة العربيّة وحدها للكتابة والحديث اليومي، أما في شمال إفريقيا فقط حافظ البربر في بعض المناطق الجبلية على لغتهم الاصلية كلغة حديث فقط⁶، في حين أنّ قسما كبيرا منهم استعرب مثل الأجناس الأخرى التي اعتنقت الإسلام.

اللغة المازيغية كانت مهمشة منذ دخول الرومان والوندال لشمال أفريقيا «ولم تُعط لها القيمة الوطنية إلا مع دخول العرب هذه البلاد ولكن الأمازيغ تعاملوا مع العربية دون إهمال لغتهم»⁷، لكن هذه اللغة استعملت مشافهة، وفي الكتابة كانت تتبنى الخط العربي.

وفي الحديث عن اللغة المازيغية في الجزائر- رغم انحصار رقعتها الجغرافية - لا بد من الإشارة إلى أنها « لغة تراث ولغة أجداد ولغة لها حمولة ثقافية لبلاد تامزغا الواسعة و— 14 دولة مفترضة»⁸، ما يعيق ارتقاءها هو تعددها إلى قبائلية وشاوية وصعوبة جمع تراثها، ووضع قواعدها ومصطلحاتها.

والتراث المازيغي كنز ثمين علينا جمعه ونقله والحفاظ عليه «فالتراث المقبول رغم بساطة تركيبه اللغوي وإيجازه ثروة فكرية تفرز حكمة بالغة، وتعبّر عن مضمون إنساني عميق، وهو بمثابة ذاكرة حيّة وجماعية للشعوب»⁹.

السياسة الفرنسية تجاه العربية والمازيغية:

أثناء احتلال فرنسا للجزائر، استعان المستعمرون الفرنسيون بالأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع لصياغة استراتيجية استعمارية تمكّنهم من ضرب الوحدة الوطنية للشعب الجزائري ومن ثمة تسهل السيطرة عليه، فقد عملت فرنسا على التفرقة ونشر الفتن بين الجماعات العرقية المؤلفة للمجتمع الجزائري، وقد تفتّن المستعمر إلى توعية البربر القبائل موهما بإياهم أنهم من أصول أروبية فمن الأجدر لهم أن يعملوا على بناء هويتهم والانفصال عن العرب¹⁰، فأدى ذلك إلى ظهور نخبة قبائلية تدعو إلى الخصوصية الثقافية وتنبذ الانتماء على العروبة والإسلام. كما حاولت إقناعهم أنّ العرب قد جاؤوا غازين لهم منذ قرون ورفضوا عليهم لغتهم ودينهم، أسست مدارس تبشيرية ومدارس لتعلم اللغة الفرنسية وحاربت اللغة العربية في المساجد.

«فقد حاولت فرنسا أن تثير النعرة القومية بين البربر غير أنها لم تستطع أن تحقق سوى جزء يسيرا من أهدافها»¹¹، فهذه المحاولات لم تؤت الثمار المرجوة منها.

المازيغية تبحث عن مكان لها في الدستور:

من عوامل تنازع العربية والمازيغية أيضا القوانين الجزائرية التي كانت تقصي المازيغية.

بعد الاستقلال ورثت الجزائر إرثا ثقيلا من الاستعمار، فقد أصبحت اللغة الفرنسية كأنها لغة رسمية في التعليم وفي الإدارة، فقد سعت الجزائر وحاولت أن تعيد للعربية مجدها عن طريق تعريب التعليم والإدارة، لكن الأمر لم يكن سهلا، فقد استغرق سنوات عديدة «فعملية التعريب لم تكن ناجحة، مع هذا لم تفشل»¹²، لأسباب عديدة أهمها: عدم جدية الدولة في التعريب وتخلف آليات التعريب، وكذلك لظروف سياسية، ومن جهة أخرى «مُنعت الأمازيغية المحظورة من شرعية الدستور، فقد نصّ الدستور في مادته الثالثة على أنّ اللغة العربية هي الوطنية وهي الرسمية، ورفض الدستور الاعتراف بالأمازيغية كلغة وطنية»¹³، وقد تولّى رئاسة الجمهورية الجزائرية كل من: بن بلة وبومدين، ثم بن جديد، وكلهم فشلوا في عملية التعريب، ومع الأحداث السياسية لسنة 1988 وظهر بعدها التعددية السياسية التي أقرّها دستور 1989 بدأت تبرز مسألة التعريب ومسألة الأمازيغية. فالأمازيغية في السابق تعايشت مع العربية لأن لا تفاضل بينهما فالجزائري يفخر بكونه مسلم عربي أمازيغي لكن الأمازيغ اعترضوا على «عروبة ديكتاتورية إيديولوجية تمنع الاعتراف بلغتهم الأمازيغية كلغة وطنية!!!»¹⁴، فنصوص الدستور السابقة لم تشر إلى الأمازيغية وركّزت فقط على العروبة والإسلام، فاعتراض الأمازيغ انصبّ على المادة الثالثة حيث قُدمت اقتراحات تنصّ على ما يلي: العربية والأمازيغية لغتان وطنيتان، واللغة العربية هي اللغة الرسمية»¹⁵، وهذا ما حدث فعلا حيث حصلت المازيغية على مكان في نصوص الدستور الجزائري فيما بعد وإلى يومنا هذا.

تعايش العربية والمازيغية:

مصطلح التعايش ينطوي على تداخل مجموعة من المعاني تحت منطلق هو: «الامتزاج والتلاحم والاختلاط، ومعنى هذا أن كل من يتعايش مع غيره عليه أن يقبل التلاحم والامتزاج والاختلاط»¹⁶، إذ يجب على كل عنصر مشارك في عملية التعايش أن يتخلى ويتنازل عن بعض خصائصه ليتعايش مع الطرف الآخر، وما فعل ذلك إلا ليزداد قوة وتمكنا وتحكماً، فالتعايش هو عملية اندماج بين عنصرين أو مجموعة عناصر اندماجا توافقيا، يهدف إلى تحقيق كيان واحد منسجم.

فاللغة العربية والمازيغية تعايشتا على مرّ العصور والأزمنة وسارتا جنبا إلى جنب كأختين شقيقتين أو صديقتين حميمتين.

فمنذ الفتوحات الإسلامية والعربية في تعايش مع الأمازيغية، فالمازيغيون هم من فتحوا أذرعهم مرحبين بإخوانهم العرب الفاتحين إذ وجدوا فيهم مالم يجدوه مع الغزاة السابقين «وبمرور الوقت اختلط العرب والبربر وكونوا خليطا ثقافيا متميِّزا أفرز تراثا عمرانيا تمثل فيما يسمى بـ "الموراسك" أو فنّ العمارة كما أنتجوا تراثا أدبيا وشعريا وموسيقيا»¹⁷، فقد عاش العرب مع المازيغ في وئام وانسجام، وقبلوا الدين وإن تردّدا في البداية في اللغة لكن بعد تدفّق قبائل بني هلال وبني سليم حدثت عملية تعريب واسعة في المنطقة وحصل امتزاج العنصرين العربي والمازيغي بشكل لم يسبق له مثيل¹⁸، إذ يقول روبرتس ROBERTS «إنّ العرب والبربر لا ينتسبون فقط إلى الإسلام بل يمارسونه وفق مذهب واحد، المذهب السنّي المالكي إن الثقافة العربية المعترف بها أدبيا وعالميا لا تتملّ عربة للإسلام كدين في حدّ ذاته، ولكنها حاملة للإنجازات العلمية والأدبية للماضي المجيد والنهضة الحديثة للعالم»¹⁹.

ومما يلاحظ بين العربية والمازيغية «تجسيدهم للتداخل العلمي التسامحي الذي يُحدث بين اللغات، تكامل مازيغي عربي لم يكن في يوم من الأيام يشكّل صراعا»²⁰ وخير ما يمكن التمثيل به لذلك هو عدم ترجمة القرآن الكريم الى

المازيغية منذ الفتوحات الإسلامية مع العلم أن القرآن الكريم ترجم الى أكثر من 600 لغة، فقد ظلّ المازغيون يقرؤون القرآن باللّغة العربيّة «ويعني ذلك أنّ لغتهم لا يمكن لها أن تحتوي القرآن مهما علت وارتقت، ولذا تصاعرت المازيغية أمام لغة الجبّار وما تكابرت في عهود الدول المازيغية التي عدّت من دول العروبة»²¹ فقد كان ذلك عن اختيار وقناعة من المازيغيين.

فالحياة الثقافية كانت مزدوجة- عربية ومازيغية - كلاهما استفاد من الآخر، فالثقافة العربيّة استفادت من التراث المازيغي الذي تضمّن كنوزا من الأشعار والحكايات والخرافات والأمثال والأقوال المأثورة والفنون القروية مثل: الحليّ والمعمار والزرايبي وصناعة الجلود، كما برزت نخبة أمازيغية متضلّعة في اللّغة العربيّة والثقافة الإسلامية احتلوا مقدمة المشهد الثقافي فالكثير منهم خدم العربيّة أكثر من أبنائها .

المازيغية استفادت هي الأخرى من طاقات العربيّة وراثتها وخصائصها، فقد اقترضت نسبة كبيرة من رصيدها من اللّغة العربيّة خاصّة في مجال المفاهيم المجرّدة، و قد دُوّن الكثير من الفكر والإبداع المازيغي بالحرف العربي دون الشعور من المازغيين بالتبعية.

الثقافة الثنائية بين العرب والأمازيغ استُغلت لتكون عامل توحّد وتكامل وإفادة لا عامل تفريق ، فالحضارة العربيّة الإسلامية تحترم التعدّد الثقافي والحضاري وتعتبر تعدّد اللسان آية من آيات الله ، يقول تعالى: «يا أيّها الناس إنّنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير»²²، فالحياة مبنية على الاختلاف والإسلام يحترم الاختلاف، لأن الاختلاف مدعاة للإفادة، مثال ذلك الحضارة العربيّة الإسلامية، لم تصل لدرجة القوّة التي عرفناها لولا تفاعلها المثمر مع الثقافات الأخرى كالثقافة الفارسية والثقافة اليونانية، بل وكان لها الفضل في ازدهار هذه الثقافات فالحواضر الإسلامية كانت قبله لطلاب العلم لنقل العلوم العربيّة الإسلامية والإفادة منها²³.

فالعلاقة بين التعدّد اللّغوي والتنوع الثقافي علاقة تبادلية، فالتعدّد اللّغوي يؤدي إلى تنوّع ثقافي، والتنوّع الثقافي يجعلك أمام حتمية إتقان لغة أخرى من أجل الفهم والتبادل، إذا التعددية اللغوية ضرورية لنموّ الثقافات وتواصل الشعوب، ثم إنّ الرقيّ الحضاري لا يمكن أن ينشأ في معزل عن التواصل الثقافي مع الأمم الأخرى هذا ما جعل التعدّد اللّغوي والتنوع الثقافي خطان متوازيان من خطوط الحضارة.

تقبّل العربيّة للمازيغية وتقبّل المازيغية للعربية وتعايشهما جنباً إلى جنب على مرّ العصور كان ذلك نتيجة عوامل كثيرة حققت هذا التماسك الاجتماعي بينهما، كالانتماء الديني والحضاري والتاريخي وفي مقدمتها العنصر اللغوي، فتقبّل العرب الخصوصية الثقافية للمازيغ، وتقبّل المازيغ العربيّة بصدور ربح حقّق لنا تنوعاً ثقافياً وثراء لغوياً وتعايشاً ثقافياً ولغوياً.

فإذا كان التنوع ظاهرة طبيعية، لماذا نجد عيّنات من أهل الفكر والمعرفة يدقون ناقوس الخطر، هل هو خطر على المجتمع؟

الأمن الشامل للدولة هو الذي تتكامل فيه الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كافة، فكل من يظن أنه يمكن اختصار مفهوم الأمن في الجانب الاقتصادي والسياسي والعسكري فهو مخطأ، لأنه لا يمكن تصوّر مجتمع غارق في الجهل والامية ومختلف الأمراض الاجتماعية الكثيرة يستطيع أن يضمن أمنه وسيادته.

الأمن الثقافي:

في ظلّ التعدّد اللّغوي والتطورّ الهائل والرهانات الحالية أطلّ علينا مصطلح "الأمن الثقافي" يدق ناقوس الخطر من انهيار كيان الدولة، ويعلن أهميته كمنهج ضروري في سياسات الدول وأهميته لا تقلّ عن أهمية الأمن الاقتصادي أو العسكري أو الغذائي أو حتى السياسي، أصبح ضرورة لحماية الدولة من الأفكار الخارجية والداخلية التي تهدّد أمن الدولة الثقافي واللغوي. مصطلح الأمن الثقافي يتكون من كلمتين: أمن وثقافة.

كلمة أمن في المعجم تعني: أَمْنٌ: أَمْنَتُهُ وهو في مَأْمَنٍ منه، وَأَمْنَةٌ، وهو مُؤْتَمَنٌ على كذا، وقد ائْتَمَنْتَهُ عليه»²⁴ فالأمن إذا هو ضد الخوف، وما يؤكد ذلك قوله تعالى: «فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»²⁵ فهو يعني ارتياح النفس واطمئنانها وزوال الخوف.

الخوف بالمفهوم الحديث يعني التهديد الشامل سواء اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسيا. داخليا كان أو خارجيا.

والثقافة في نظر "إدوارد بيرنت" هي ذلك الكل المركب الذي يضم المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقوانين وكل المقدرات والعادات التي يكتسبها الفرد من حيث هو عضو في المجتمع، وتختلف ثقافة كل مجتمع عن الآخر، كما أن الثقافة تنمو مع النمو الحضاري للأمم لكنها قد تتراجع مع الوقت بسبب عدم الاهتمام الكافي بها مما يؤدي إلى غياب الهوية الثقافية الخاصة بالعديد من الشعوب.

فالثقافة أحد أركان الحضارة إذ تشكل الجانب المعنوي فيها وتشمل كافة الجوانب غير المادية المتمثلة في العقيدة والقيم والأفكار والعادات والتقاليد والأعراف واللغة وغيرها من الجوانب الأخرى التي تمد شخصية كل أمة بما يميزها ويمنحها في الوقت نفسه القوة والبقاء والاستمرارية.

الأمن الثقافي في مفهومه العام - من خلال التعريفين السابقين - يعني: توفير كل التدابير والإجراءات التي بوسعها الحفاظ على ثقافتنا وقيمنا وعاداتنا ولغتنا، وكل ما يشكل جامعا لنا²⁶.

أهمية الأمن الثقافي واللغوي لا تظهر إلا إذا تعرض المجتمع إلى هزات عنيفة تكون من أسبابها الهوية والانسجام الجمعي، فكثير من المجتمعات غير المتجانسة دينيا وعرقيا ينتهي بها الأمر إلى حروب أهلية مدمرة تنجم عنها مآس عديدة²⁷، فعالمنا اليوم في حال انتقال من الأمن المادي (الجغرافي) إلى ضمان أمن الحدود الثقافية واللغوية.

البحث عن هويتنا الثقافية يقتضي منا العودة إلى جذور هذه الثقافة واستكشاف الأنسجة التي شكلت عناصر هذه الجذور، أصلنا بربر أمازيغ تعربنا بفضل الفتوحات الإسلامية، فاجتمع العرب والبربر معا تحت راية العروبة وراية الإسلام وتاريخ مشترك وثقافة موحدة²⁸

مقومات الأصالة لثقافتنا يمكن حصرها في:

- 1- الدين الإسلامي؛
- 2- المجموعات السكانية التي تنتظمها الرقعة الجغرافية (العرب والأمازيغ)؛
- 3- التاريخ الحضاري المشترك؛
- 4- الحيز الجغرافي الذي تقطنه شعوب الأمة؛
- 5- التراث المشترك؛
- 6- اللغة العربية.

يتحقق الأمن الثقافي بوجود هذه العناصر متضافرة عن طريق تنمية المعارف وصيانة الموروث الثقافي بمختلف جوانبه كما يجب الحفاظ على مكونات الهوية الثقافية لمجتمعنا وتعد اللغة في مقدمة هذه المكونات، فأهم ما يميز مجتمع عن مجتمع هي اللغة التي صاغ بها أسلوبه وتجاربه في الحياة²⁹

الأمن اللغوي:

من شروط تحقق الأمن الثقافي الأمن اللغوي لأن اللغة مكون أساسي لكيان المجتمع فهي وعاء ثقافته ولسانه الناطق المعبر، إذ لا يمكن تصور تنمية ثقافية وعلمية دون تنمية لغوية، فاللغة أساس كل ثقافة وكل نهضة، بها يتم نشر الوعي وتعميم التعليم وتوطين المعرفة وتقوية التماسك الاجتماعي، لذلك كانت اللغة دوما رهانا من رهانات الصراع بين الجماعات.

في الجزائر تعايش العرب والأمازيغ وحدث انسجام بينهما وبين لغتيهما وكانت اللغة العربية هي اللغة الجامعة التي توطر الحياة العامة دون أن تمارس تضيق على اللغة المرافقة لها التي كانت تستعمل في الحديث اليومي للفئة الأخرى،

فوضّعُ الجزائر اللّغوي الأمن ليس بدعة أو وهما، فالتاريخ يشهد على ذلك، رغم محاولات الاستعمار ضرب الوحدة الجزائرية وتشنيتها بقيت صامدة لأنها تملك الحصانة الثقافية واللغوية، فاندماجها تحت لغة واحدة جعلها أمة قوية، فقوة الأمم تقاس بقوة لغاتها. وبالتالي نجح في تحقيق الأمن الثقافي واللغوي وهذا حتما أدى إلى تألف مجتمعي.

إذا فالمجتمع المنسجم لغويا هو الأكثر قوة وصلابة وتعايشا وتفاهما وتعاوننا في كل معارك الحياة من المجتمع المفكك لغويا، لأن الانسجام اللّغوي يؤدي الى الانسجام الثقافي والفكري ويقلّل من حجم الاختلاف والتصدع والتصادم، أما جبهات الصراع التي أريد فتحها بين العربية والمازيغية فهي جبهات لصراع وهمي مفتعل يجب التخلص منه.

فاللغة -إن أحسن استعمالها- أداة جامعة للشمل لأنها العمود الفقري لبناء كيان الأمم، فاللغة العربية في شبه الجزيرة العربية هي التي وحدت لغات القبائل تحت راية واحدة وهي لغة قريش، فلولا لغة القرآن لتفرقت لغات القبائل إلى لهجات ولتباعدت حتى تصير كل واحدة لغة بعيدة عن الأخرى تماما.

خاتمة:

-التعدّد اللّغوي يكون إيجابيا داخل المجتمع ويؤدي إلى التّحام بين المجموعات، عندما يدرك المجتمع هذا التنوّع حق الإدراك في شكله وجوهره، كما قد يكون ظاهرة سلبية إذا استخدم مطيّة لتحقيق أغراض سياسية.

-لا يمكن نكران المازيغيّة رغم انحصار رقعتها الجغرافية وتناقص عدد المتكلمين بها لأنها تمثل قطعة من ماضيها وتاريخها المجيد.

-الصراع بين المازيغيّة والعربيّة مفتعل حركته أياد خارجية لضرب وحدة الأمة عن طريق استخدام سياسة "فرق تسد"، وأثارته أياد داخلية لتحقيق مطالب سياسية.

-اللّغة هي المقياس الحقيقي لثروة الأمة الفكرية والروحية، فقوّة الأمة من قوة لغتها.

-الاستقلال الثقافي ضرورة في الاستقلال السياسي.

-ضرورة غرس الوعي بالذات الثقافية لتحقيق الحصانة الفكرية.

-تشجيع الأبحاث الخاصة التي تدفع الى التعايش السلمي بين اللغتين.

قائمة المصادر والمراجع:

* - القرآن الكريم

- 1- أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981
- 2- حسين ولهة، اللغة العربية واللغة الوطنية، الهوية المتكاملة مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، عدد خاص: اللغة العربية خلال الخمسين سنة 1962-2012، عمل فرقة بحث: علوم اللغة.
- 3- الزمخشري، أساس البلاغة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1998.
- 4- سلطان بلغيث، مظهرات أزمة الهوية لدى الشباب، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، عدد خاص الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
- 5- سميرة رفاص، إشكالية التعايش في المجتمع الجزائري، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 24، 2014.
- 6- صالح بلعيد، الأمازيغية والعربية تكامل لا تصادم، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، العدد 19، 2008.
- 7- صالح بلعيد، المازيغية في خطر، مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، العدد 3.
- 8- صالح بلعيد، مقام اللغات في ظل الإصلاحات التربوية، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 7، 2011.
- 9- صلاح العقّاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، الجزائر- تونس- المغرب الأقصى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط6، مزيدة ومنقحة، 1993.
- 10- عبد الجليل مرتاض، في سؤال الأمن اللغوي، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، العدد 31.

- 11- عبد العالي الودغيري، دور اللّغة الوطنيّة في التنمية وتحقيق الأمن الثقافي، أهمية التخطيط اللّغوي - اللغات ووظائفها -، أعمال الندوة الوطنيّة حول التخطيط اللّغوي في الجزائر - اللغات ووظائفها -، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2011.
- 12- عز الدين المناصرة، المسألة الأمازيغية في الجزائر والمغرب، إشكالية التعددية اللغوية، دار الشروق للنشر والتوزيع، دط، دت.
- 13- عمر عسوس، أزمة الهوية لدى البربر في الجزائر،
Revue Recherches et Etudes en Sciences Humaines, université 20 Aout 1955 Skikda , N 06 ,Novembre, 2010,
- 14- محمد الأوراعي، التعدد اللّغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط1، 2002.
- 15- محمود محمود النجيري، الأمن الثقافي العربي التحديات وآفاق المستقبل، دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض، دط، 1991.
- 16- نهلة محمد أحمد جبر، الأمن الثقافي: مفهومه ودواعيه وعوامل تحقيقه، مجلة شؤون عربية، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، العدد 171.

الإحالات

- ¹- محمد الأوراعي، التعدد اللّغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط1، 2002، ص 11.
- ²- حسين ولهة، اللّغة العربيّة واللّغة الوطنيّة، الهوية المتكاملة مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، عدد خاص: اللّغة العربيّة خلال الخمسين سنة 1962- 2012، عمل فرقة بحث: علوم اللغة، ص 339.
- ³- أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص180.
- ⁴- صالح بلعيد، مقام اللغات في ظل الإصلاحات التربوية، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 7، 2011، ص23.
- 5- ينظر: عمر عسوس، أزمة الهوية لدى البربر في الجزائر،

Revue Recherches et Etudes en Sciences Humaines, université 20 Aout
1955 Skikda , N 06 ,Novembre, 2010, p 51

- ⁶ - ينظر: صلاح العقّاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، الجزائر- تونس- المغرب الأقصى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط6، مزينة ومنقحة، 1993، ص9.
- ⁷ - صالح بلعيد، الأمازيغية والعربية تكامل لا تصادم، مجلة اللّغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، العدد 19، 2008، ص 217.
- ⁸ - صالح بلعيد، مقام اللغات في ظل الإصلاحات التربوية، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 7، 2011، ص23.
- ⁹ - صالح بلعيد، المازيغية في خطر، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 3، 2011، ص23.
- ¹⁰ - ينظر: عمر عسوس، أزمة الهوية لدى البربر في الجزائر، ص 54.
- ¹¹ - صلاح العقّاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص10.
- ¹² - عز الدين المناصرة، المسألة الأمازيغية في الجزائر والمغرب، إشكالية التعددية اللغوية، دار الشروق للنشر والتوزيع، دط، دت، ص21.
- ¹³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁴ - م نفسه، ص23.
- ¹⁵ - م ن، ص25.
- ¹⁶ - سميرة رفاص، إشكالية التعايش في المجتمع الجزائري، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 24، 2014، ص12.
- ¹⁷ - عمر عسوس، أزمة الهوية لدى البربر في الجزائر، ص 52.
- ¹⁸ - ينظر: صالح بلعيد، الأمازيغية والعربية، تكامل لا تصادم، مجلة اللّغة العربية، العدد 19، 2008 ص217.
- ¹⁹ - عمر عسوس، أزمة الهوية لدى البربر في الجزائر، ص 53.
- ²⁰ - صالح بلعيد، المازيغية في خطر مجلة الممارسات اللغوية، العدد 3، ص 11
- ²¹ - صالح بلعيد، المازيغية في خطر مجلة الممارسات اللغوية، العدد 3، ص 11.
- ²² - سورة الحجرات، الآية 13.

²³- ينظر: سلطان بلغيث، مظهرات أزمة الهوية لدى الشباب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، عدد خاص الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري، ص 361.

²⁴-الزمخشري، أساس البلاغة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1998، ص34 و35

²⁵-سورة قريش، الأيتان 3 - 4

²⁶- ينظر: نهلة محمد أحمد جبر، الأمن الثقافي: مفهومه ودواعيه وعوامل تحقيقه، مجلة شؤون عربية، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، العدد 171، ص 136

²⁷- ينظر: عبد الجليل مرتاض، في سؤال الأمن اللغوي، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، العدد 31، ص 16.

²⁸- محمود محمود النجيري، الأمن الثقافي العربي التحديات وآفاق المستقبل، دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض، دط، 1991، ص 202.

²⁹- ينظر: عبد العالي الودغيري، دور اللغة الوطنية في التنمية وتحقيق الأمن الثقافي، أهمية التخطيط اللغوي - اللغات ووظائفها -، أعمال الندوة الوطنية حول التخطيط اللغوي في الجزائر - اللغات ووظائفها -، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2011، ص50.

جهود الدكتور صالح بلعيد في تحقيق الأمن اللغوي في الجزائر قراءة في كتابه "في الأمن اللغوي"

د. موسى كراد

جامعة عبد الحفيظ بالصوف، ميلة

ملخص:

أهمية الموضوع وإطاره النظري والتطبيقي:

كتاب (في الأمن اللغوي) للدكتور صالح بلعيد محاولة لرسم خارطة طريق نحو لغة عربية آمنة تحقق الانسجام الجمعي والتكاملي، وتسهم في الازدهار الوطني وخدمة التنمية الوطنية؛ وذلك بوضع الوسائل التي تحقق الأمن للعربية، فهو حاجتها كحاجة الأمة إلى الأمن الاقتصادي والأمن السياسي والأمن الغذائي وتحتاجة ليعيد إليها نشاطها وحيويتها مثلما كانت في عصور من تاريخها. وقد قُسم البحث إلى عدة مباحث شملت ما جاء فيه الكتاب المدروس وهي:

- مقارنة صالح بلعيد للقضية اللغوية.
- علاقة الأمن اللغوي عنده بالقرار السياسي.
- القرآن والعربية عنوانا للشخصية الوطنية.
- المجتمع المدني ودوره في تعزيز الانتماء الثقافي واللغوي.

النتائج المتوقعة:

سأتحدث في هذا البحث عن وسائل الأمن اللغوي المستخلصة التي ذكرها الدكتور (صالح بلعيد) في هذا الكتاب، وأوضح أنه لو أحسن استعمالها بوعي وحرص على مستقبل هذه الأمة لأمكننا أن نحصل على النتائج المنشودة، ولخففنا من ثقل هذا اليأس الذي أخذ يمتدّ إلى آفاقنا. فالغرض إذن هو الوقوف على وسائل

الأمن اللغوي التي تحقق سلامة العربية وحمايتها فضلاً عن بيان ما قدمه الدكتور (صالح بلعيد) في هذا الكتاب من جهد طيب وجليل.

مقدمة:

يمثل هذا كتاب (في الأمن اللغوي) لصاحبه البروفسور صالح بلعيد سواء في طريق كتابته أو في خصوصية توظيف اللغة فيه، لوحة إبداعية مميزة وعالية المستوى، وهو أسلوب بات مألوفاً للكاتب كونه يعد من القلائل الذين حملوا هموم اللغة العربية وترسخت أسماؤهم في الدفاع عنها.

ويشكل هذا الكتاب خلاصة سنوات متتاليات من البحث والنضال دفاعاً عن اللغة العربية. لا بل تشكل فصوله عصاره سنوات من البحث والتوثيق؛ وهو يمثل مجموعة من المقالات والمدخلات التي قالها وكتبها الباحث صالح بلعيد في مناسبات مختلفة تشترك كلها في أنها تحمل عنواناً واحداً هو حب اللغة العربية والدفاع عنها وحمل لواءها. والخوف من الخطر الذي يهددها ويتربص بها من كل جانب داخلي وخارجي.

الأمر الذي قاد الكاتب إلى القول بوجود قضية لغوية لدى العرب. أو نستطيع القول بوجود خطر يستهدف اللغة العربية ومقوماتها بماضيها وحاضرها والذي يهدد مستقبلها، مما استدعي حضور مصطلح الأمن اللغوي.

ما برح المؤلف صالح بلعيد يعالج التحديات الماثلة أمام لغة الضاد، ويرفع الصوت محذراً من تفاقم مأزق هذه اللغة الفريدة، ولاسيما بعد أن عمّت العالم ظاهرة الكونية الثقافية، والعولمة والتغريب وبعدها بات النص القرآني، وهو حصن اللغة العربية، متهماً زوراً بحمله بذور العنف والبغضاء. وقد لاحظ الكاتب أن اللغة القومية تخضع للتفكك التدريجي، وهو يخشى من تمازج الفصحى بشظايا اللغات الأجنبية ما يؤدي إلى ظهور عاميات هجينة من اللهجات المحلية وقليل من العربية.

تبدأ فصول الكتاب التي تصف حال اللغة العربية وتشخص أوضاعها بين أهلها وأبنائها وذويها باستئناف أسئلة تشغل بال الكثيرين والغيورين على مستقبل اللغة

وأمنها، من قبيل تلك التي يطرحها المؤلف نفسه وهي: لماذا الأمن اللغوي، إلى النخبة الفكرية حيث ورشات إنتاج الأفكار؟ أم إلى النخبة السياسية حيث هي صاحبة القرار؟ أم إلى المجتمع المدني ودوره في الحفاظ على اللغة العربية وممارستها.. سنحاول الوقوف من خلال هذا البحث الوقوف عند أهم القضايا التي جاءت في الكتاب، والتي تتعلق بالأمن اللغوي وما يندرج تحته من محطات وورشات.

1- مدخل:

كما أن الأمن الغذائي يتطلب الاطمئنان على وفرة الغذاء وصولاً إلى الأمن من الجوع، وكما أن الأمن الصحي يتطلب توافر الخدمات الصحية للمواطن، وصولاً إلى الأمن من المرض، فكذلك الأمن اللغوي، هو أمن يستهدف الحفاظ على اللغة وصولاً إلى الحفاظ على الهوية، والأمن من الذوبان بين الشعوب.

وإلى جانب ذلك يعد الأمن اللغوي عنصراً مهماً من عناصر الأمن الاجتماعي، لأن اللغة الواحدة الموحدة هي الرابط الأقوى بين فئات المجتمع الواحد، وهي وسيلة التواصل والتفاهم بين أبناء الهوية الواحدة، لذلك فإنه لا هوية بلا لغة، فاللغة هي الإطار الذي يجمع أفراد الهوية الواحدة، التي تكون اللغة وسيلتها للمعرفة والتفاهم، مع كونها مستودعاً للثقافة، وناقلاً أميناً للتراث والأفكار عبر العصور.

إن اللغة حصن الثقافة لأي شعب من الشعوب، ونحن نقصد بالثقافة بمعناها العام الذي يشمل جميع محددات الهوية، بما فيها من دين وقيم وتراث، فإن العمل على هدم اللغة وتهميشها يمثل هدماً لأسس هذه الهوية، وإحلالاً لثقافة أخرى محل الثقافة السائدة، تكريساً للسيطرة الثقافية القادمة من الخارج، من أجل التحكم في الشعب المستهدف والسيطرة على مقدراته الثقافية والاقتصادية.

إن اللغة هي من يحدد ويحوي هوية مجتمع من المجتمعات، فعلاوة على أنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"¹؛ أي وسيلة تواصل بين الناس في حياتهم، وهي من الناحية العلمية والفلسفية وسيلة لتلقي المعرفة مشافهة أو كتابة، يقول (سابير) "إن اللغة تتحكم كثيراً بأفكارنا المتعلقة بالمسائل الاجتماعية، ومن

الخطأ تصور أن الإنسان ينكّيف مع واقعه دون استخدام اللغة، أو أن اللغة مجرد وسيلة لحل مشاكل الاتصال والتفكير. إنّ العالم الواقع مبني بطريقة لا واعية على أساس عادات الناس اللغوية وعلى أساس استعمالهم للغتهم الأم² وهذا يعني أنّ اللغة هي وعاء الجماعة، تعارف أهلها على صياغتها وتطوير استعمالها، حفاظاً على شخصيتهم الاجتماعية وعلاقاتهم التواصلية ووجودهم الجغرافي والحضاري المهدد من طرف المستعمر الجديد الذي لم يعد مضطراً لتحريك الجيوش وحكم الدول المستهدفة حكماً مباشراً، وإنما أصبح تصدير ثقافته عن طريق تصدير لغته كافياً لخلق جو ملائم له، يجعله يتحكم بالبلد المستهدف تحكما كاملاً..

إنّ ما تتعرض له منطقتنا من مؤامرات التقطيع والتفتيت واضحة لكل ذي عينين، وهي تهدف أول ما تهدف إلى التفتيت الثقافي بين الأمة بأسرها، وداخل البلدان المختلفة كل على حدة. ضمن حروب تشن عليها بمختلف الوسائل، ولعل من أخطرها حرب الثقافة وفي مقدمتها اللغة. لذلك كانت أهمية الأمن اللغوي مرتبطة ارتباطاً بالأمن القومي والوطني، فالقضاء على الهوية هو القضاء على الوجود المعنوي للشعب المستهدف.

من هنا يمكن تعريف الأمن اللغوي بأنه "إحاطة اللغة بسياسات الحماية الرسمية (من خلال القرارات السيادية الوزارية والإدارية) وغير الرسمية (من خلال القيام بالواجب الفردي نحو اللغة) المعنوية والحسية بوضع الأنظمة والضوابط الملزمة للأفراد والمؤسسات التي من شأنها أن تصد كل التهديدات والاعتداءات التي تستهدف أمن اللغة العربية وسلامتها بقصد أو بغير قصد، سواء أكانت هذه التهديدات خارجية أم داخلية".³ فما الأمن اللغوي عند صالح بلعيد؟ وفيما تتمثل جهوده في تحقيقه في الجزائر؟

2- الأمن اللغوي من الصرخة الشاكية إلى الرغبة في تحقيق التجانس الاجتماعي:

يستهل الدكتور صالح بلعيد كتابه (في الأمن اللغوي)⁴ بمقدمة ضمنها آهاته وشكواه فيما أصاب اللغة العربية التي أصبحت قضية، ليقف متسائلاً " أليس لنا أن

نتداعى جميعنا للرفع من القيمة المضافة التي تملكها هذه اللغة، ألم يحن وقت النهضة بعد كي نستفيق وسط عوالم التهميش ومخططات التغييب والتطميس، أليس في مقدورنا التغيير..⁵

يطلق صالح بلعيد في كتابه هذا صرخته الشاكية من خلال الوخزات التي مست مسألة اللغة العربية في الجزائر، والتي أصبحت قضية أو قضية القضايا لما لها من خطورة على الأمن الاجتماعي والثقافي الفكري في الجزائر، والتي تحتاج إلى حلول.. لكن من أين نأتي بالحل؟ إذا غاب أهل القضية كما يقول صالح بلعيد، بل الأخطر من ذلك أن يكون صاحب القضية حاميا حراميا!.. وذلك بعد " طمس حقيقتها بعض النخبة الذين جعلوها قاربا وسط أمواج متلاطمة، فلا تركوها تستقرّ، ولا أنزلوا حمولة القارب كي يستقرّ، فلم يريحوها، ولم يريحونا، فخلقوا لها الأعداء، فهم يتسلقون أبراجا وهمية؛ كانت لها انعكاسات سيئة على فكرها وثقافتها وإنتاجها العلمي.."⁶، فبعض النخبة حسب صالح بلعيد أصبحوا يعتمدون أفكار غيرهم انطلاقا مما صب في ذهنهم من خلفيات ومعايير الثقافات التي سلبتهم وأصبحوا فاقدون لشخصيتهم وانتمائهم.. إنهم أخطر عدو على اللغة العربية، ويبلغ به الشكوى واللوم والعتاب بأن ينتظر ساعة الانحطاط " فهي ساعة شلل عام وسحابة قاتمة لا ندري متى تزول، وترون حالة الإحباط ظاهر في الجمود والفراغ، وغياب الإبداع، وعدم التوضيح، وتقديم التنازلات باستمرار، وضعف الشخصية أمام الأجانب، وفقدان الثقة في كل مكوناتها وتنازل وسائل إعلامنا... فكم من حاجة قضيت بتركها.."⁷، إنها مظاهر التخلف والانحطاط التي مست مستعملي اللغة العربية والوضعية المزرية التي آلت إليها.

لذلك يرفع المؤلف صالح بلعيد شكواه الجامعة والتي يسمع أمواجها ترتفع وفق مؤشر البلوى " رافضة التسامح في الأصالة، وترى أن رافض الأصالة ناشر الرعب والخوف لا محالة.. وأشتكي وجموع الناس يشتكون، وهذه هي حال الإنسان مع لغته، فليس متسامحا في مسخها.."⁸، فصالح يرفع صوته تعبيراً عن

البلوى التي أصابته ولغته، خاصة أنها من أخيه في الدم والدين واللغة والعروبة فشكواه بيثها معبرا بها عما علق في نفسه من أدران وأحزان، وما وصل إليه من تيهان. كما قلنا فالكاتب بدأ كتابه بشكوى من البلوى التي وصلت إليها لغته العربية وهذا هو حال الإنسان مع لغته فهو ليس متسامحا في فقدانها ومسخها من أهلها وغير أهلها، وهو لا يملك التغيير أحيانا إلا بالكلمة والشكوى.. لكنه من الصنف الذي يشتكي " ويعمل ويطمح في التغيير، ولا أريد الاحتقار والاعتراب ولا الاحتراب في موضوع اللغة العربية/ اللغة الوطنية، اللغة الأم.."⁹.

بدأ المؤلف تقويمه الاستعجالي للمخاطر الهوياتية والانسجامية كما يقول بأضعف الإيمان؛ وذلك برفع الشكوى والآهات التي جاشت بها أعماقه ألما وحزنا نتيجة تسامح قومه في الهوية اللغوية، بحيث أصبح يعيش اغترابا لغويا في وطنه.. فما كان منه إلا أن يجيش بخاطره ويرفع الشكوى ويكشف الألم الذي ألمّ به هو ولغته الوطنية. فهل من منقذ؟.

لم يشتك صالح بلعيد في مقدمة كتابه فقط، بل عقد العزم على العمل، على إنقاذ اللغة الوطنية، وراح يتساءل: أليس في مقدورنا التغيير؟ ألا يمكن التفعيل في ذاتنا اللغوية وبذاتنا اللغوية؟ وهو بابتدائه بهذه الصرخة الشاكية إلا بغرض التقويم والتصحيح ورد الأمور إلى الصواب، والسير قدما نحو تحقيق التجانس الاجتماعي الذي لا يحصل إلا باللغة الرسمية الوطنية.

قدّم الكاتب من خلال كتابه (في الأمن اللغوي) طرحا علميا أكاديميا بدؤه بتحسيسه بالخطر الذي يتربص باللغة الوطنية، بادئا بالشكوى والألم والعتاب الذي بثه في قلوبنا، ليس هذا فحسب بل جعلنا ندرك قيمة وحجم الخطر الذي يوشك أن يزيلنا ويزيل وجودنا اللغوي والحضاري، وذلك من خلال حملة واعية قادها ويقودها حائنا محرضا للقيام بهذه المهمة، مستفرا الجهات الوصية، والمجتمع المدني. (أليس فينا رجل رشيد) بهذه العبارة يدعو الكاتب كل من يحمل حب وهم اللغة العربية كي يستفيق وينهض من أجل الدفاع عن العربية والذود عن حماها، ولا

تكون الاستفاقة إلا بعد الغفلة يقول: " وإننا لغافلون عن هذه الأمور التي قد تؤدي إلى تدهور مكونات الثقافة العربية، وبالتالي انحطاط أحوال الأمة العربية، وهي في الحقيقة منحلة.. ولكن كيف السبيل للحاق وردم الهوة التي تفصلنا عن الأمم التي سبقتنا.."¹⁰، نعم صحيح إلى متى؟.

وأمام ما يتهددنا من مخاطر، يقف الكاتب وقفة حائر متسائل منتظر فـ " هل سينهض باحثون بمشروع الرقي باللغة العربية لتجديد الخلف على استيعاب جهود السلف؟ وهل ستنفر نخبة مؤمنة من رواد الباحثين لينيروا الدروب لقومهم لعلمهم يستفيقون؟ "¹¹..

إننا نعتبر البروفسور صالح بلعيد من هؤلاء الباحثين والنخبة التي نفرت واستنفرت، بكت واستبكت، وقفت واستوقفت، أنارت الدرب لنا، عسانا نستفيق وننهض من غفوتنا وغفلتنا فيما يترصد ويتربص بهويتنا اللغوية، والتي بها نحقق التجانس الثقافي والفكري الاجتماعي ونكسب رهان الرفاه الاقتصادي.

3- مقاربتة للقضية اللغوية:

يربط الباحث صالح بلعيد مفهوم الأمن بالقضية اللغوية المرتبطة بالهوية الوطنية في كتابه (في الأمن اللغوي)، ويخرج بكلمة الأمن من مدلولها التقليدي المرتبط بالأمن البيئي والغذائي.. وفي تشخيصه لهذه القضية في بلده الجزائر ووطنه العربي يرى أن أبناء هذه الأمة قصرُوا في واجبهم إزاء لغتهم العربية، وبالغوا في تقديس اللغات الأجنبية إلى درجة الذوبان والتهيان فيها؛ إذ جعلوها لغة التواصل والتعليم بحجة التطور والرقي.

لقد وصف وشخص الأستاذ صالح بلعيد وضع اللغة العربية اليوم بقوله إنها: " تئن من أهلها الذين فقدوا ثقتهم في أنفسهم، وفي لغتهم.. فهم تبع في كل الحالات "¹²، فيرى الدكتور صالح بلعيد أن سياسة الاستعمار من جهة، وتداعيات العولمة من جهة أخرى قد تضافرت من أجل خلق المشكلة اللغوية في العالم العربي، وفي الجزائر على وجه الخصوص " ماذا أقول في موضوع الأمن اللغوي

الذي كثر الحديث فيه منذ استفحال ظاهرة العولمة، وما تعرفه الهويات الوطنية والأصالة من تراجع، والشكوك التي تلحق اللغات الوطنية على أنها في طريق الانقراض، والسيطرة /الهيمنة الثقافية التي تتنامى بفعل لغات المستعمر القديم والحديث، واندفاع المواطنين لتعليم أبنائهم اللغات الأجنبية توها منهم أنها سبيل اللحاق بالركب "13 في الوقت الذي تعترف فيه التقارير الدولية بسمو مكانة اللغة العربية في عالم الحضارة، وتصنّفها السلطات الأمريكية في خانة اللغات الإستراتيجية، وترسمها إسرائيل إلى جنب العبرية، فإن الأنظمة العربية والكثير من نخبنا لا تعتبرها حاملا طبيعيا لبناء مجتمع المعرفة اللغوية في العالم العربي، وفي الجزائر على وجه الخصوص، فقد خلقت أزمة علاقة الأمة العربية بالعربية؛ حيث أصبحنا أمام سوء تقدير للغة العربية دون مراعاة أسبابها ودون إبداء مقاومة التغيير، ورد الأمور إلى نصابها، فأين التغيير والمقاومة، وقد ربط هوية الدولة في المحافل الدولية باهتمامها بلغتها القومية " وهل قامت دولة في العالم دون لغة البلد، فإن قامت فهل حصلت لها قائمة بما قامت، وهل هي في قائمة الدول التي هي في قائمة المقام، فأعد حسابك أيها القائل فلا يمكن قيام دولة عربية دون لغة عربية يا بشر!"14

يعتبر الباحث أن المسألة اللغوية قضية القضايا، فهي "قضية الوعي بالمنطق الطبيعي للنصوص القانونية التي بقيت دون تطبيق، ودون احترام الصالح العام..15" والصالح العام هنا هو الدستور وسيادة القانون الذي يقر باللسان الأحاد الجامع الرسمي، الذي على الحكومات السهر على تطبيقه وترقيته. من هنا فمقاربتة نتجه نحو توجيه خطاب علمي أكاديمي للسلطات السياسية والمجتمع المدني والمنظمات والمؤسسات العلمية والتعليمية ليدافعوا عن هذه القضية (المسألة اللغوية)، لكن هذا الخطاب وجب تمتعه بجملة من الشروط وضعها صالح بلعيد وتتمثل في¹⁶:

- كل خطاب عليه أن يبتعد عن التطرف في الطرح، أو معاداة اللغات الوطنية أو اللغات الأجنبية.
- عدم لمز المدافعين عن القضية اللغوية بأنهم دعاة تخلف، وهم أصحاب انغلاق، وإن هذا وهما وطمسا للحقيقة.
- اعتبار الدولة هي الشريك، في حل المسألة اللغوية، وليس بالعدو ولا نحلها كافة المسؤولية.
- مقاربتة كذلك مبنية على خطاب تفاؤلي في مقاومته ورغبته في التغيير. بالإضافة على الطموح والثقة في النفس.
- تقديم النصيحة بالعمل والاجتهاد والتضحية والتخطيط، والتعامل مع مسألة اللغوية بفقہ مراعاة الضغوطات؛ فلا يجب أن تحصل المجادلات.
- البحث عن البديل بالرجوع إلى الأصالة الواعية.

4- الأمن اللغوي وعلاقته بالقرار السياسي:

كان الدكتور صالح بلعيد حاسما وصريحا في عرض النتائج التي خلص إليها في أبحاثه، والتي حذر فيها من تباطؤ القرار السياسي، حيث ترى بأن هناك تلازما وتعالقا بين القرار السياسي والأمن اللغوي الذي يؤدي إلى تحقيق الأمن الحضاري والثقافي والفكري، وهذا ما صرح به في قوله: "إنّ القرار السياسي هو الفيصل في المسألة اللغوية وعن طريقه يحصل الأمن اللغوي، الذي يعادل الأمن المائي والغذائي"¹⁷ فقد أشار إلى أن الإشكال يكمن في غياب قرار سياسي يعطي دفعا لتعميم استعمال العربية على مراحل: "إذا دققنا في المصطلح (القرار السياسي) فيعني به قرار السلطة الحاكمة في أعلى مستوياتها، والتي لها فعل الخميرة في العجين، حيث لها أثر التغيير الفعلي والسريع، فالناس على دين ملوكهم، وقد قال عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن وأؤكد القول وأضيف: إن الله يزرع بالحاكم ما لا يزرع بالعالم وبالأمر ما لا يزرع بالأثير وبالرئيس ما لا يزرع بالكنيس وبالملك ما لا يزرع بالفلك، وبالزعيم ما لا

يزع بالعلم، وبالقائد ما لا يزع بالرشيد...¹⁸، فبالقرار السياسي يحصل الأمن اللغوي؛ فهو الفيصل لا محالة في المسألة اللغوية.

فالتلازم قائم بين القرار السياسي والأمن اللغوي حسب بلعيد، لذلك فالمطالبة بأمن لغوي يحفظ لونا وكباننا وكرامتنا، هويتنا اللغوية والحضارية، لأن اللغة العربية ركن من أركان الأمن الثقافي والحضاري والفكري.

ويأتي ربط صالح بلعيد بين القرار السياسي والأمن اللغوي لكون "العقدة والمشكلة التي تعاني منها العربية تكمن في النية العلمية والعملية لدى النخبة وفي الفعل والإرادة السياسية لدى المسؤولين لحل المسألة اللغوية.."¹⁹

وقد وضع الدكتور صالح بلعيد مرتكزات عدة للقرار السياسي، والتي تجعله تحصيل حاصل إذا تواجدت في ساحته، ويمكن أن نلخصها فيما يلي²⁰:

- الدستور
- المرجعية الدينية
- المرجعية الحضارية
- البعد العلمي
- توفر الإطار المؤهل
- البعد الاستراتيجي

يصرح صالح بلعيد بأننا بحاجة إلى قرار من مسؤولينا، قرار تحتضنه النخبة العلمية، قرار يحررنا من التبعية اللغوية ومن الشعور بالضعف تجاه لغتنا، وهذا كله لا يتحقق " إلا بإرادة من الطبقة السياسية ومن نخبة فاعلة.."²¹، فاسترجاع اللغة العربية القومية لمكانتها يحتاج إلى قرار سياسي ملزم، وإلى نية حسنة تشرع وتلزم، وتتابع التطبيق الفعلي لقراراتها السياسية.

كما أشار الباحث إلى أن الطموح والأمل بإعادة الاعتبار للغة العربية يكون عبر وضع " إستراتيجية شاملة متكاملة لجوانب السياسة اللغوية؛ يتولى القيام بها جهاز كبير، وهذه الإستراتيجية تحدد وسائل العمل ومتطلباته"²²، ويكمن

هدف هذه الإستراتيجية في بلوغ أهداف التنمية الاجتماعية والاقتصادية، فالسياسة اللغوية ترتبط في جوهرها بالوعي بأهمية تنمية اللغة الرسمية/اللغة الوطنية التي تحتاج إلى استعمال في كل المجالات وإلى التأليف بها والترجمة منها وإليها وجعلها لغة التعليم. والباحث يسوق لنا العديد من التجارب الناجحة والتي انطلقت من وسائل متواضعة ومحتشمة إلا أنها فرضت مكانتها في الساحة الدولية ببساطة لأنها اعترت واعتنت بلغتها الوطنية. فالأهم حية بلغاتها، فهل نعتبر؟.

5- القرآن والعربية عنوان للشخصية الوطنية:

ضم البروفسور صالح بلعيد في كتابه "في الأمن اللغوي" مقالة كتبها بمناسبة إحياء المجلس الأعلى للغة العربية باليوم العربي للغة العربية في 1 مارس 2010، وهي ندوة احتفاء باللغة العربية وبالتقافة والشخصية والانتماء وبالأصالة، وقد ألقى الباحث مداخلته بعنوان: العربية عنواني ولغة قرآني.

يبدأ الدكتور صالح بلعيد مداخلته بربطه بين هذا اليوم الاحتفالي وهدفه وغاياته وآماله وتساولاته في أن "يوقد لنا هذا اليوم أنوار الهوية، ويحيلنا بضرورة العودة إلى الأصالة، باعتبار العربية لغة القرآن، وهي أساس وحدتنا ومرآة حاضرنا ومستقبلنا.."²³، بعد ذلك يقدم الباحث شكره وتثناه للمجلس الأعلى للغة العربية الذي يعمل "بصمت مضمون ودون بهرجة تكون، بما يقتضي التعزيز والتوقير. مجلس يصدق فيه قول الشاعر:

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها بقبض لم تطعه أنامله"²⁴.

ذاكرا خصاله ومكارمه، وفضائله التي قدمها تحت ظل " دولة لها التزام بتعزيز لغتنا الأم التي هي رمز الهوية الوطنية واللغة الجامعة الموحدة، دولة أخلصت العمل إخلاصا مبينا وصدقت فيها عزائمها صدقا يقينا.."²⁵

يذكر الباحث بأن هدف الألسكو باختيارها يوما احتفائيا عربيا للغة العربية " يرنو إلى تحقيق الأمن اللغوي، الذي هو من أهداف ميثاق الوحدة الثقافية العربية؛ باعتبار العربية محط الهوية، وأداة التواصل بين أجزاء الوطن

العربي..²⁶، وذلك لمراجعة وضع اللغة العربية وإيلاءها ما تستحقه من أهمية بهدف الحفاظ على الإرث اللغوي والثقافي والفكري للمجتمع العربي عامة والجزائري على وجه الخصوص.

يستغل صالح بلعيد هذا الاحتفال ليحذرننا وينبهنا أننا أمام تحديات كبرى في عصر " تبرز فيه العولمة كظاهرة تهدد الهويات والخصوصيات والتنوع الثقافي واللغوي..²⁷، لكنه ومن خلال هذه النقطة وفي خضم هذه التحديات تظهر " ضرورة الحفاظ على لغة هذا الوطن وثقافته، والنهوض بها بكفاءة وندية في فضاءات المنافسة العالمية ثقافيا ولغويا.²⁸ فقد جاء في الميثاق الوطني أن اللغة العربية عنصر أساسي للهوية الثقافية للشعب الجزائري ولا يمكن فصل شخصيتها عن اللغة الوطنية التي تعبر عنها.²⁹

لقد عنون الدكتور صالح بلعيد مداخلته بعبارة : العربية عنواني ولغة قرآني، ليقول لنا : " إن لغتي خير تعبير عن هويتي، والهوية العربية لساتي فلست مستعيرها..³⁰، وفي ذلك تصريح مباشر لا يحتمل التأويل والمراوغة بأن لغته الأولى عي العربية هي عنوانه وماضيه وحاضره ومستقبله، فأجداده " قبلوا العربية، فأنا طوعها فالحسن راجع إلى ما يوجب التحسين "³¹.

أما عن الأمازيغية فيقول صالح بلعيد بأن " لغتي هي العربية التي تتكامل وأمازيغيتي..³²، فلا صراع بين العربية التي تعد عنوانه ولغة قرآنه والتي أعطاهما الدرجة الأولى وأنزلها المكانة العليا، الأمازيغية التي جعلها لساننا مع " الأهل والأبناء والأصدقاء وعز الأولياء، ومع الغوغاء والدهماء فهذه بيعة على نفسي وتوكيد بها على عنقي..³³.

وفي هذا المقال يدعو الدكتور صالح بلعيد إلى وجوب تضافر الجهود والأعمال والنشاطات، والخروج من المحاولات الفردية إلى " وجوب حمايتها الجماعية، والتنادي إلى ضرورة العمل لتمكينها من الاندماج في سياق التطور العلمي المعرفي للاندماج في عصر المعلومات، ولتصبح أداة للتحديث، ودرعا في

مواجهة آليات التغريب والتشويش..³⁴، ولا يكون ذلك بتكامل الجهود مع مختلف الشركاء الفاعلين في الميادين الثقافية مثل: المجالس العليا، والمجامع ومراكز البحوث والجامعات ومخابر اللغات، ومراكز الصحافة والإعلام.

6- المجتمع المدني ودوره في تعزيز الانتماء الثقافي واللغوي:

في 26 جانفي 2010 ألقى الدكتور صالح بلعيد محاضرة بعنوان (الجمعيات المدنية ودورها في تعزيز الانتماء اللغوي) في إطار اليوم الدراسي الذي نظمته المجلس الأعلى للغة العربية حول (أهمية العمل الجوارى في ترقية استعمال اللغة العربية) وذلك في ثانوية حسيبة بن بوعلي بالقبة الجزائر.

إنه لموضوع جدير بالاهتمام والعناية، خاصة في المجتمعات المعاصرة والمتحضرة، وهو إنزال الخطاب كما يقول صالح بلعيد إلى الجمعيات الوطنية للتداول في مثل هذه القضايا ومعالجتها عن طريق الحوار بين الأطراف الفاعلة في المجتمع المدني خاصة في قضايا الهوية واللغات، مما يسمح بتحقيق الترقى اللغوي الذي " يؤدي إلى الكفاية الأمنية للغات الوطنية، او ما نسميه بـ (الأمن اللغوي) الذي يمكن أن تقدمه الجمعيات المدنية لحماية لغتها مما يعلق بها من مخاطر اللغات الغازية من باب التعالي عليها، لا من باب الاستفادة من علمها..³⁵.

يبدأ صالح بلعيد مقاله بتقديم مفهوم حول المجتمع المدني؛ فهو لا يعني المجتمع ككل " بل هو أضيق نطاقا منه؛ فهو تلك الجمعيات والنقابات والاتحادات والمؤسسات والهيئات والجمعيات الخيرية والاتحادات المهنية والنوادي والهيئات الطلابية.. وهي مؤسسات تتصف بأنها تنظيمات تطوعية قائمة على الإرادة الحرة والمصلحة المشتركة بين أعضائها... ويربط بين أعضائها رباط اجتماعي غير قائم على القرابة ولا على أساس العقيدة، وإنما على المصالح المرسلّة المشتركة..³⁶، والتي تتمثل في منفعة الوطن ونفع مصالحه العليا.

يورد المؤلف صالح بلعيد أهمية المجتمع المدني في الغرب حيث يشكل " قوة اقتراح وضغط؛ حيث تتدخل في كل مواقف السلطة بالإقرار أو بالرفض .."³⁷، فالسلطة في المجتمع الغربي تعمل على إشراك ممثلي المجتمع المدني في أخذ القرار بالمبادرات والاقتراحات لإشراكهم في تحمل المسؤولية والديمقراطية كما يقول صالح بلعيد، ولأننا نجد حولا لبعض مشاكلنا بالعمل مع الناس وبين الناس في أحيائهم كثيرة.

ولتدعيم هذه الفكرة والرؤية قدم الباحث عدة تجارب ناجحة للمجتمع المدني (الغربي) في تفعيل اللغة القومية والحفاظ عليها، فيذكر مثلا سلطنة بروناي فيقول: " يتدخل المجتمع المدني بقوة لدى السلطان لمنع استخدام اللغة الأجنبية من الاحتكاك بالجمهور، وفي كل سنة يخصصون أسبوعا وطنيا لا يحصل الحديث فيه إلا باللغة الوطنية وفي كل الأماكن ودون رقيب، وهذا تطبيقا لإيمانهم وشعارهم المعروف: اللغة الوطنية إذا لم أمارسها لا يمارسها غيري. وأما اللافتات والإشهار وكل ما يلصق في الشارع أمام المأفم ممنوع باللغات الأجنبية مطلقا وبصرامة، وهذا ما يقوم به المجتمع من فرض قوة تطبيق القانون."³⁸. بالإضافة لذكره نماذج وتجارب ناجحة تخص السويد وفرنسا، فهذا النجاح يرجع الفضل فيه إلى " تجند المجتمع المدني في تأطير الجماهير وراء قضية الهوية الوطنية.."³⁹، هذا بالنسبة للمجتمع المدني الغربي، فكيف هو الحال في مجتمعنا المدني العربي والجزائري؟

يصرح الباحث بأن المجتمع المدني في الجزائر " ينأى ويزهد حاليا عن الغوص والخوض في القضايا اللغوية"⁴⁰، ويذكر في ذلك عدة أسباب وعوامل جعلته يقف في مسألة اللغة والخطر الذي يحدق بها موقفا سلبيا ضعيفا وهي تتمثل في⁴¹:

- ما للمسألة اللغوية من مضايقات تسمع في واقعنا اليومي؛
- تعويله على السلطة التي لها القرار في هذا الأمر؛
- زعمه بأنه لا يستطيع فرض مواقفه على السلطة؛

- إصابته بالاستلاب وليس بإمكانه أن يكون قوة وضغط؛
 - تبنيه لأطروحات معادية للغة العربية.
 - إصابته بالعمى الحضاري؛ حيث يتبنى مقولات: إن العربية ليست لغة علم ولا تطور، وأن تمسكه بالعربية باعتبارها لغة الهوية لا لغة التقدم.
- فالمجتمع المدني في الجزائر في المسألة اللغوية حسب صالح بلعيد معطل ومغيّب، ويرى بأن المجتمع المدني في القضية اللغوية " يحتاج إلى تأطير وعلى التوعية اللغوية بأهمية العربية ودورها الوطني والقومي على صعيدي الهوية والتنمية معا.."⁴²، لكن ذلك لا يكون إلا " بمباركة السلطات وموافقتها وإيمانها بذلك قولاً وفعلاً.."⁴³، وهنا رجوع للعنصر الأول المدروس وهو أهمية القرار السياسي في النهوض باللغة العربية وتحقيق الأمن اللغوي.
- وحسب صالح بلعيد فإنّ العمل من أجل النهوض باللغة العربية وبعثها من جديد ليس من عمل المختصين (اللغويين والنحاة) فقط، بل يتعدى ذلك إلى السياسيين والمجتمع المدني فـ " تمكين اللغة الوطنية يرتبط باستخدامها في التعليم وفي الإدارة وفي المسرح وفي الصحافة وفي كل المجالات، وأول واجب فعله هو استعمالها.."⁴⁴، فاللغة وضع واستعمال وأداة للتواصل والتعبير.
- إنّ (الحكومة هي الشريك) هكذا يقول الدكتور صالح بلعيد فعلى " المجتمع المدني ألا ينتظر من السلطة كل شيء؛ وعليه أن يساعد السلطة باقتراح أفكار، والسلطة أن تصنع القرار، وألا يقف المجتمع موقف المتفرج، فعليه تقديم المشاريع اللغوية في حدوده، وأن تكون هذه المقترحات في حدود ما يقبل للتجسيد، فكفانا عرض المشكلات.. هذا من جانب، ومن جانب آخر على المنظمات تغيير الذهنية القديمة التي تعلن فيها الحرب على السلطة، وأن السلطة جهاز مستبد، وعلى الجمعيات كذلك أن تخرج من مقولة أهل اليسار من أن (الحكومة هي الحل) ومن توهمات أهل الليبرالية (الحكومة هي العدو) ألا يمكن أن نقول بأنّ (الحكومة هي الشريك) ونمضي في علاج أمورنا "⁴⁵، كلام سياسي

ودبلوماسي جميل من باحث لساني جليل. صحيح كفانا من إلقاء اللوم على الآخر كفانا عجزاً وتنديداً، كفانا لوماً ومعارضةً ..

إنّ التنمية الشاملة حسب صالح بلعيد لن تتحقق إلا " بتفعيل المجتمع المدني، ولا يمكن تفعيل المجتمع المدني إلا بتعميق الديمقراطية، من هنا فعلى جمعيات المجتمع المدني أن تكون قدوة في الاعتزاز باللّغة العربية، وتعمل على غرسها في المجتمع.."46، وفي الأخير يقدم الدكتور صالح بلعيد مجموعة من المقترحات لجمعيات المجتمع المدني بأن تعمل على47:

- 1- إخراج اللّغة من بوتقة البكائيات والوقوف على الأطلال وفعل الأجداد.
- 2- مطالبة الجمعيات للنزول إلى الميدان، وتجسيد الفعل الحقيقي، والخروج من بيانات التنديد الصادرة من الفنادق.
- 3- ترسيخ الوعي بأهمية احترام اللّغة العربية، وهي من احترام القانون العام.
- 4- مساعدة الدولة في تحمل أعباء نشر العربيّة على النطاق المحلي، من مثل: تفعيل جمعيات محو الأمية، والتحسيس بأهمية اللّغة القومية في التنمية ، والخروج في حملات تطوعية لمساعدة المصالح الإدارية.
- 5- تبادل الرقابة والنقد وإبداء النصيحة لمن يهمله الأمر.
- 6- التعاون في إصلاح الخلل اللّغوي على مستوى المحيط.
- 7- دعوة الجمعيات أولى المال لتقديم الأموال والجوائز تكريماً للعاملين في ترقية اللّغة العربية.
- 8- التحسيس بضرورة ملء الاستثمارات الإدارية باللّغة العربية.
- 9- العمل مع المختصين على ترجمة آلات الدفع والسحب إلى اللّغة العربية.
- 10- إشراك الأولياء في تحضير أولادهم في رياض الأطفال بلغة عربيّة سليمة.
- 11- إشراك الوزارات ذات العلاقة بالاستعمال اليومي للغة العربية.

بالإضافة إلى التجند من أجل محاربة الهجين اللغوي، وغرس الاعتزاز بالعربية وبالانتماء العروبي، بتنظيم المحاضرات وحلقات البحث، وكتابة الجمعيات لافتاتها ومنشوراتها بالعربية.

7- مرتكزات ووسائل تحقيق الأمن اللغوي عند صالح بلعيد:

إنّ تحقيق الأمن اللغوي حسب الدكتور صالح بلعيد يتوقف على سرعة تحركنا ونشاطنا، فاللغة العربية في عصرنا بحاجة إلى تفعيل وتحريك وفق إستراتيجية معاصرة، وذلك بالنظر في قضايا خمس مستعجلة، بعلاجها ورعايتها نكون قد جنبنا أنفسنا ومجتمعنا خطرا لغويا يستهدفنا، وهذه القضايا هي⁴⁸:

القضية الأولى: المحافظة على اللغة العربية:

يعتبر صالح بلعيد أن المحافظة على اللغة بمثابة المحافظة على الأرض " لأن اللغة هي التي تعطي البقعة التي تضع فيها أقدامك، وهي التي تعطي لك الشخصية".⁴⁹، ويكون ذلك عن طريق زرع القدوة وتمجيد اللغة والمحافظة عليها بإجلالها وذود الدخيل عنها.

فلا يمكن كما يقول الدكتور صالح بلعيد أن تقوم دولة عربية بدون لغة عربية " فلم تقم التنمية البشرية في مجتمعات متقدمة بلغات أجنبية، ويشهد على ذلك الواقع في كوريا واليابان هنغاريا، المجر، جورجيا، ماليزيا..."⁵⁰. ويجعل من مسألة التربية والتعليم أسّ الخروج من التخلف الذي تعيشه الأوطان العربية، يقول: " لو أن الدول العربية استثمرت في تحسين أداء التعليم باللغة الوطنية فلا يأتي جيل إلا ويكونون على رأس البحث العلمي في كل بلاد العالم، وتتقدم كل الدول العربية، شرط التخلي عن الهيمنة التي تعود للغات الأجنبية".⁵¹.

القضية الثانية: محاربة الغربة اللغوية:

تعيش العربية في وضعها الحالي غربة لغوية في الاستعمال وفي عدم تدريس العلوم بها، " وكيف لها أن تستعمل أو تمجد أو تترقى وقد منع عليها الميدان الحيوي؛ ميدان العلوم"⁵²، ألا يؤدي ذلك إلى غربة اللسان؟ فحال العربية وناطقها يدعو على الرثاء والبكاء، فهي مهجورة مزهود فيها، تنتظر القرار السياسي لإخراجها للاستعمال.

القضية الثالثة: تفعيل العربية في التربية والتعليم:

من القضايا التي تسهم في النهوض باللّغة العربيّة ورفقيها وازدهارها تفعيل اللّغة العربيّة في مجالات التربية والتعليم، فهي تحتاج " إلى نظرة جديدة في المنهج"⁵³، عن طريق استحداث تقنيات جديدة " وإكساب المتعلمين المهارات اللّغوية إرسالا في المحادثة واستقبالا في الاستماع والقراءة، واختيار المحتوى الوظيفي الذي يؤدي وظيفة للمتعلّم في تفاعله مع مجتمعه..⁵⁴، بالإضافة على إيراد المعارف وتنمية أساليب التفكير وفي اختيار أساليب وطرائق تدريس تواكب التطور والمستجدات، مع العناية بالكتاب المدرسي ومحتوياته.

القضية الرابعة: اللّغة العربيّة لغة علمية:

مع أنّ لغتنا العربيّة هي هويتنا الوطنيّة التي أقامت لنا صرحنا الحضاري والعلمي والتاريخي.. لكن ذلك لا يكفي لأننا " نروم منها التقدم في مجالات حيوية اقتصادية؛ باعتبار التنمية البشرية لن تقوم في أمة من الأمم دون اعتمادها على لغتها الوطنيّة..⁵⁵ لغة لها التفعيل في الاقتصاد والمال ومختلف العلوم، بهدف استهداف خطاب علمي في خصوصياته " في مجال المصطلحات العلمية، والمختصرات، والكتابة العلمية وميدان التقنية والتقانة، والمعلومات، والترجمة الآليّة..⁵⁶، وقد شخصّ صالح بلعيد الواقع اللّغوي والعلمي في ذات العربيّة التي قعد بها الحال في عصرنا الحاضر في الاستجابة أصولها للمواصفات العلمية، ويتساءل الباحث عن أسباب هذا الركود والجمود أهو بسبب " غياب البحث العلمي في كليّاتنا؟ أو إلى ضعف المرجعية العلمية؟ أو إلى الاتكالية على ما تدره لغات الغربيين؟ أو الاعتماد على نقل البحث العلمي الغربي لا استزاعه في أوطاننا؟ أو إلى العمى الحضاري الذي أسبغته علينا العولمة اللّغوية؟ أو في تفرطينا في الأخذ بأسباب الحضارة؟ أو يعود إلى تقصير النخبة العربيّة في عدم الاهتمام بالهويّة اللّغوية؟ أو أن الخلل يكمن في نقص الإمكانيات المادية..⁵⁷، ونظن أن سبب هذا الركود والجمود يأخذ من كل هذه الإشكالات التي طرحها الدكتور صالح بلعيد، فكلها ساهمت في عدم تطوير اللّغة العربيّة العلمية في الجزائر والوطن العربي.

القضية الخامسة: اقتحام عالم الحوسبة:

يعتبر صالح بلعيد من أنه " لا مفر من تفعيل العربية في مجال التقنيات المعاصرة، والغوص في عالم البرمجة والبرمجيات، وخوض غمار اللسانيات الحاسوبية. وهذا الميدان هو الذي يكسبنا رهان إنتاج الآلة، فبدل استيرادها يحصل صنعها وابتقان، كما يكسبنا رهان الندية والاطمئنان، والثقة في اللغة العربية بكل أمان.."⁵⁸.

إنّ قوة أية لغة يكمن في قدرتها على التأقلم مع العصر الذي تعيش فيه، بالتكيف مع مفرداته، واستيعاب مستجداته، فاللغة " الآن بحاجة للانتقال من الوصف إلى التوصيف، وهذا بتضافر الجهود والأعمال بين اللغويين والحاسوبيين في مشاريع تنمية لغوية لإنتاج برامج الأنظمة اللغوية العربية التطبيقية على مستوى الصوت والصرف والنحو والدلالة والمعجم والترجمة الآلية والكتابة العربية..."⁵⁹، فالمحاولات والتجارب الكثيرة أظهرت بأن اللغة العربية تحمل في ذاتها خصيصة حوسبية لا مثيل لها في لغات العالم؛ أي أن خصائصها قابلة للتعايش مع الحوسبة كما يقول صالح بلعيد.

إذن فقد مثلت هذه الإشكالات الخمس مستجدات اللغة العربية لتعيش عصرها وتواكب التطور، وبهذا يمكن حمايتها من " عوادي الذوبان، فنكون بذلك حقا الأمن اللغوي والأمان، ودفعنا عن البلاد العربية شرّ الهجران، وطموحات أعداء هذا الزمان"⁶⁰، وبذلك نحقق الانسجام اللغوي والفكري الثقافي.

خاتمة:

يمثل كتاب (في الأمن اللغوي) لصالح بلعيد دعوة إلى صيانة لغة الضاد وحمايتها من خطر الإمحاء والزوال المحقق بها، ويمثل صيانة للهوية العربية وصيانة للأمن القومي. مؤكداً أن العرب لن يكسبوا رهان التاريخ من خلال اللغات الأجنبية، أو من خلال اللهجات العامية، بل سيكون متعذراً عليهم الانخراط في مجتمع المعرفة من خارج دائرة العربية.

يعد الكتاب شهادة علمية فعلية جادة، وما زادها ألقا وجمالا كتابتها بلغة راقية ممتعة ومتناغمة تفيد وتضيف للمكتبة العربية ولكافة الباحثين والمهتمين في الجزائر والعالم العربي الكثير، بما يتضمنه من مسائل جريئة وخطيرة وطائفة باتت تطرح نفسها بإلحاح شديد في وقتنا المعاصر، لمناقشة التحديات التي تعصف بلغة الضاد. كما يقدم هذا الكتاب خطاباً جديداً وأفكاراً نيرة تلامس هموم اللغة العربية بعد أن باتت الأخيرة قضية مصيرية تستدعي الاهتمام والعناية.

المصادر والمراجع:

المصدر:

1- صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.

المراجع:

- 2- ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، دط، 1957م، ج 5.
- 3- بسام بركة، اللغة العربية القيمة والهوية، مجلة العربي، العدد، 522 نوفمبر، 2002.
- 4- محمد علي الصامل، جهود المؤسسات الخاصة والأهلية في تحقيق أمن اللغة العربية، من أعمال ملتقى: دور التعليم والإعلام في تحقيق أمن اللغة العربية، جامعة نايف، السعودية.

الإحالات

- ¹ ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، دط، 1957م، ج 5، ص: 30.
- ² بسام بركة، اللغة العربية القيمة والهوية، مجلة العربي، العدد، 522 نوفمبر، 2002، ص: 84.
- ³ محمد علي الصامل، جهود المؤسسات الخاصة والأهلية في تحقيق أمن اللغة العربية، من أعمال ملتقى: دور التعليم والإعلام في تحقيق أمن اللغة العربية، جامعة نايف، السعودية، ص: 289.
- ⁴ تم اعتبار كتاب (في الأمن اللغوي) المصدر الوحيد في البحث.
- ⁵ صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص: 8.
- ⁶ صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 10.
- ⁷ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁸ المصدر نفسه، ص: 19.

- 9 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 10 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 16.
- 11 المصدر نفسه، ص: 17.
- 12 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص 08.
- 13 المصدر نفسه، ص: 15.
- 14 المصدر نفسه، ص: 18.
- 15 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 8.
- 16 المصدر نفسه، ص: 9-10-11-12-13.
- 17 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 18.
- 18 المصدر نفسه، ص: 41.
- 19 المصدر نفسه، ص: 45.
- 20 المصدر نفسه، ص: 65-66-67.
- 21 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 69.
- 22 المصدر نفسه، ص: 58.
- 23 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 74.
- 24 المصدر نفسه، ص: 74.
- 25 المصدر نفسه، الصفة نفسها.
- 26 المصدر نفسه، ص: 75.
- 27 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 28 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 75.
- 29 الميثاق الوطني، ص: 85.
- 30 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 76.
- 31 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 32 المصدر نفسه، الصفة نفسها.
- 33 المصدر نفسه، ص: 76-77.
- 34 المصدر نفسه، ص: 76.
- 35 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 205-206.
- 36 المصدر نفسه، ص: 206.

- 37 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 38 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 209.
- 39 المصدر نفسه، ص: 210.
- 40 المصدر نفسه، ص: 211.
- 41 المصدر نفسه، ص: 211-212.
- 42 المصدر نفسه، ص: 212.
- 43 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 44 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 212-213.
- 45 المصدر نفسه، ص: 215.
- 46 المصدر نفسه، ص: 217.
- 47 المصدر نفسه، ص: 217-218.
- 48 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 32.
- 49 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 50 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 33.
- 51 المصدر نفسه، ص: 34.
- 52 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 53 المصدر نفسه، ص: 37.
- 54 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 55 المصدر نفسه، ص: 38.
- 56 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 38.
- 57 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 58 المصدر نفسه، ص: 39.
- 59 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 60 صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص: 40.

تقرير الورشة الأولى

بتاريخ الثامن من شهر فيفري عام ألفين وثمانية عشر للميلاد، (08-02-2018م) الموافق للواحد والعشرين من جمادى الأولى عام تسع وثلاثين وأربعمئة وألف للهجرة، (21-05-1439هـ) وبمناسبة تنظيم اليوم الدراسي: الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي، من قبل المجلس الأعلى للغة العربية بالمكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة، افتتحت جلسة الورشة العلمية الأولى برئاسة الأستاذة: صفية بن زينة.

المداخلة الأولى: الأستاذ عاطف عبران من جامعة تبسة بمداخلة عنوانها: الهوية الوطنية.. أرضية ومرجعية ثقافية، عرض فيها لإشكالية مضايقات العولمة تجاه اللغة العربية بالنظر إلى مصدريتها العقدية وموقعها من القرآن الكريم، وضمن المتدخل خاتمة عرضه توصيةً للسلطات مفادها أخذ المسألة بالحسبان.

المداخلة الثانية: الأستاذ عامر بغدادي من وزارة الخارجية بعنوان: الأمن اللغوي ضرورة وطنية. تناول فيها مدخلا تعريفيا لمصطلح (الأمن اللغوي) بحكم الحدائث النسبية لتداوله، وضرورة التعامل معه متجاوزا مع مصطلح الأمن الثقافي المصاحب، مستعرضا أبرز الكتابات التي تناولت المصطلح، ليعرّج على مهدّات الأمن اللغوي كواقع فرضه التّجاور الطبيعي للأدات اللسانية المختلفة.

المداخلة الثالثة: الأستاذ عز الدين لعناني. جامعة سطيف. وجاءت مداخلته تنظيرا للقضية بعنوان: الوعي الثقافي بالمنطق الطبيعي وضرورة التدريب عليه لكسب الانسجام الجمعي. وجاء العرض في عناصر ثلاث:

- الإبهام واللبس المفهومي.
- تكريس الفكرة عند الإعلاميين.
- تكريس الفكرة عند التربويين.

وبين فرضيات إيهام اللّغة والعالم والوجود، دعا المتدخّل إلى ضرورة ردم الهوة بين مكونات المجتمع من خلال تبني الإعلاميين والتربويين مسألة إشاعة الوعي بتحقيق الانسجام الجمعي العام.

المدخلة الرابعة: الأستاذ وليد بونسي من المدرسة العليا للعلوم السياسية. وحملت مداخلته عنوان: دور اللّغة العربيّة واللّغة الأمازيغية في تحقيق الوحدة الوطنية والأمن المجتمعي، وعرض المتدخّل تحت هذا العنوان فيفساء الأداءات اللّغوية الجزائرية وضرورة الوفاق بين مستعملها، وبعد عرض زمنيّ لأهمّ عقبات التجاور اللّغوي بعد الاستقلال ومؤسّساته عرّج على مهدّدات هذا الجوار معتبرا أنّه وافد عليه من خارجه وليس نابعا من ذاته.

المدخلة الخامسة: الأستاذة كلثوم درقاوي، المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان، وجاءت بعنوان استفهامي: أيّ دور للتعدّد اللّغوي في تحقيق الأمن الثقافي؟ وعرضت تحت أثر ضبط العلاقة بين اللّغة والثّقافة في تحقيق السّكينة المجتمعية، مشيرة إلى مهدّدات هذه العلاقة كالإقصاء وسوء توظيف التعدّد اللّغوي، معتبرة أنّ إيجابية ظاهرة التّنوّع اللّغوي والثّقافي رهين بوعي المجتمع لهذه المفاهيم واستعداده للقبول بها والتعامل معها.

المدخلة السادسة: الأستاذة أحلام بن عمرة من جامعة تيزي-وزو، وكانت بعنوان: من تعدد اللّسان إلى وحدة الإنسان، وأسّست الورقة لثمار الوضع اللّغوي التي رسّخها الاحتلال الفرنسي وجدلية الصّراع بين النّخب، والذي كان إفرازا قسريا للوجود الاستعماري في الجزائر، محاولة تقييم طبيعة الشّرخ التي حدثت - جرّاء ذلك - على النّسيج المجتمعي، مقترحة بدائل عملية لوحدة مجتمعية تتأسّس على أرضية عقديّة وتاريخية واحدة.

المدخلة السّابعة: الأستاذ: عبد الحفيظ شريف وعنون مداخلته بـ: موقع المسألة اللّغوية في جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ مقارنة اجتماعية. وعرضت المدخلة لجهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بوصفها تجربة

جزائرية احتضنت الواقع اللغوي الجزائري الملغم من قِبَل مدرسة الاستشراق، ثمّ استعرض المتدخل الاستراتيجيات العملية لتأطير الواقع اللغوي وافتكاكه من عبث المدرسة الكولونيالية.

المدخل الثامنة: الأستاذة صفية بن زينة، وجاءت مداخلتها بعنوان استفهامي: التَّعدُّ اللُّغوي حلبة صراع أم فضاء للتَّعائيش؟ وعرضت تحته موقع اللّغة العربيّة الفصحى بخصائصها وتاريخها بين مستويات الاستعمال المختلفة، وضرورة ضبط سياسة لغوية تستهدف تأمين حدود الفصحى إزاء مستويات الأداء الدّارج، تأميناً لا يقصي أديانها ولا يهدد أعلاها.

وختمت الجلسات في الثّانية عشرة والنّصف من التاريخ نفسه.

مقرّر الورشة: عبد الحفيظ شريف

تقرير الورشة العلمية الثانية:

اجتمع الباحثون في الورشة العلمية الثانية التي دامت ساعتين برئاسة د/عائشة عباش حيث تدخل الأساتذة بعرض مداخلاتهم التي تضمنت قضايا مهمة تتماشى وموضوع الملتقى، وأتمنى أن لا يخل هذا الإيجاز بإيضاح ما تناولته مداخلات الأساتذة.

بداية تطرق الأستاذ عبد الكريم عبادي (تخصص علوم سياسية جامعة سطيف) لموضوع "الدراسات الثقافية العولمة وإعادة بناء تشكيل الهوية" الذي طرح فيه العديد من الأسئلة محاولا الاجابة عنها فيما بعد، خاصة سؤال الهوية، والمتقف، وسؤال السلطة تنتج أو تعيد الإنتاج؟ وخلص إلى تفاعل المعني والأنساق الاجتماعية مع الرافد العالمي في إطار العولمة الثقافية، وكذلك ضرورة انتاج بنية اجتماعية تحافظ على العولمة الثقافية كخطوة أولى لتحقيق الأمن اللغوي والثقافي. مع خلق آليات مؤسسة تعمل على تحليل إنتاج وإعادة إنتاج المجتمع بالاعتماد على مداخل التفاعل بين الفاعلين المحليين في بنية تعتبره نهائية التشكل. مع ضبط التخصصات التي تتناول قضية الهوية، من حيث هي فرع متعدد التخصص ودور المتقف في تناوله لقضية الإشكالية المتعلقة بالهوية الثقافية.

وأخذت الكلمة بعده الأستاذة مالية مكيري (جامعة الجبالي بونعامة - خميس مليانة/ قسم علوم الإعلام والاتصال) بعرض مداخلتها: "التعدد اللغوي عبر وسائل الإعلام الجزائرية ودورها في تعزيز الانسجام الاجتماعي" حيث سعت في دراستها إلى تقصي دور تعدد اللغات عبر الوسائل السمعية البصرية الجزائرية في تعزيز الانسجام الاجتماعي بين الشباب الجزائري، وقدمت مثلا عن المحطات

والقنوات التلفزيونية التي تعتمد عدة لغات ولهجات بين العامية والفصحى وكذا اللغة الأجنبية (الفرنسية والإنجليزية) وكذا على اللغة الأمازيغية في تمرير ونشر موادها الإعلامية، هذا التعدد يساعد في تحقيق الانسجام الاجتماعي كونه يسمح بنقل عادات وتقاليد الفئات الاجتماعية في المجتمع والتعرف على لغة الآخر. وهذه النتيجة توصلت إليها من خلال استبيان قامت به مع عينة من الشباب الجزائري المتابع لتلك القنوات.

أما الدكتور **عمار عثمانى** (قسم اللغة العربية، المركز الجامعي غليزان)، فتمحورت مداخلته حول دور الصحفي في تحقيق الأمن اللغوي، بوصف النص الصحفي نسا يحمل شخصيتين: الأولى ثقافية، والثانية إعلامية. وبما أن اللغة الإعلامية لغة ابتعد مستواها عن ما يمكن وصفه بأنه يتوفر على الأمن اللغوي؛ لأنها في كثير من الكتابات الصحفية أصبحت نعايش الهجين اللغوي بتأثير العولمة الثقافية من حيث كتابة الحرف العربي لمسميات المنطوقة انجليزية. وأيضا من حيث التراكيب والعبارات للغات الأجنبية. ولتحقيق دور الصحفي في نظره، يدعو إلى: إدراج تخصص ومادة اللغة العربية في أقسام الصحافة، وفتح تخصص لغة وإعلام، ثم إعداد معجم لغوي يفيد الصحفيين، مما يعمل على بناء تحقيق الكفاية اللغوية لديهم.

وتحدثت **الدكتورة عائشة عباس** (كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر2)

عن "دور المثقف في تحقيق الانسجام الاجتماعي في ظل التحولات الراهنة: دراسة تحليلية في التحديات والرهانات". وقد طرحت الإشكالية التالية: هل ما زال المثقف يحتفظ بدوره داخل المجتمع في زمن الإعلام الجديد؟ وأهم ما تعرضت إليه في طرحها النقاط الآتية:

- لمحة عن الطرح النظري والمفاهيمي لمصطلح المثقف؛
- مؤهلات الانسجام الاجتماعي بالمجتمع؛

- إشكالية المثقف العربي، نظرة نقدية للمهام والأطروحات؛
- ضبابية المنظور الفكري للمرحلة الراهنة لدى النكبة المثقفة؛
- مؤهلات الانسجام الاجتماعي الجزائري؛
- أثر ظاهرة العولمة الثقافية على الأمن اللغوي الجزائري.
بدورها الأستاذة مريم قدار (قسم اللغة العربية جامعة حسبيبة بن بوعلوي، الشلف) تطرقت في مداخلتها إلى: "التعايش بين العربية والأمازيغية كمظهر من مظاهر الثراء اللغوي الثقافي" حيث ركزت على مسألة التعايش الأخوي الحميمي بين العربية والأمازيغية بالرغم من محاولات الإستعمار الفرنسي من زرع بذور الفتنة بينهما، فالازدواجية أو التعدد اللغوي في الجزائر لا بد أن يكون عامل إتحاد وتكامل لا عامل نزاع وفرقة، ويقضي ذلك العودة إلى جذورنا الحضارية من أجل ترسيخ هويتنا الثقافية. فأصلنا على حد قول الأستاذة أمازيغ عرب، وتختتم بأن الوضع اللغوي في الجزائر آمن فلا خوف عليه والشاهد على ذلك عدم نجاح الإستعمار في زعزعة هذا الأمن اللغوي، فالأمن اللغوي والثقافي جزء لا يتجزأ من الأمن السياسي.

وختم الدكتور موسى كراد (قسم اللغة والأدب العربي جامعة ميلية) سلسلة المداخلات بمدخلة موسومة "دراسة في كتاب _ الأمن اللغوي _ للدكتور صالح بلعيد"، حيث يعدّ الكتاب محاولة لرسم خارطة طريق نحو لغة عربية آمنة تحقق الإنسجام الجمعي والتكاملي وتسهم في الازدهار الوطني وخدمة التنمية الوطنية، وذلك بوضع الوسائل التي تحقق الأمن للعربية، وقد اشتملت المدخلة على محاور ومباحث شملت ما جاء في الكتاب المدروس وهي:

- مقارنة "صالح بلعيد" للقضية اللغوية.
- علاقة الأمن اللغوي عنده بالقرار السياسي.
- القرآن والعربية عنوانا للشخصية الوطنية.
- المجتمع المدني ودوره في تعزيز الإنتماء الثقافي واللغوي.

وبعد عرض الأساتذة مداخلاتهم فتح باب النقاش حول ما طرح من قضايا مهمة في الأمن اللغوي والثقافي، وقد تضاربت الآراء حيناً وانفقت حيناً آخر، وكانت جلسة علمية بامتياز ينقصها جمهور لو حضر لكن إفادتهم منها كبيرة، وخلصت الورشة بالتوصيات الآتية:

- _ دور وسائل الإعلام في تحقيق الانسجام الاجتماعي، لذلك وجب الاهتمام بتكوين رجال الاعلام وتحسين كفاءاتهم وأدائهم اللغوي؛
- _ تفعيل دور المثقف في تحقيق الأمن الثقافي والاجتماعي؛
- _ التأكيد على ضرورة الرجوع إلى الوسائل التي اقترحها الدكتور بلعيد لتحقيق الأمن اللغوي والثقافي وذلك بحسن استعمالها بوعي وحرص؛
- _ الأمة بحاجة للأمن اللغوي والثقافي، فهو جزء لا يتجزأ من الأمن الاقتصادي والغذائي والسياسي.

المقررة الورشة:

د عزاز حسنية

تم إخراج وطبع بـ:

دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع

05، شارع محمد مسعودي القبة القديمة-الجزائر

الهواتف: 021.68.86.48-021.68.86.48-05.42.72.40.22

البريد الإلكتروني: khaldou99_ed@yahoo.fr

